
دعوة الحق
مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية
خاص بالدعوة المحمدية والعالم الإسلامي في العصر الحديث
العدد السابع - السنة الثانية عشرة
ربيع الاول 1389 - جوان 1969

العدد السابع
السنة الثانية عشرة
ربيع الأول 1389
جوان 1969
ثمن العدد: درهمان

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 20 درهما ، والشرفي 30 درهما
وما اكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

كلمة العدد

لكننا هزمنا في عقائدنا ...

لمعالي وزير عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية
الأستاذ احمد بركاش .

تتجدد من حين الى حين ، ذكريات خالدة ، لها وزنها في تاريخ الشعوب ، وأثرها في نفسية الافراد ، وان من أسمى الذكريات وأجلها ، هاته الايام التي نعيشها من شهر ربيع الاول ، ونحتفل فيها بذكرى مرور أربعة عشر قرنا على بدء البعثة المحمدية، والدعوة الاسلامية ، وذكرى ميلاد سيدنا محمد عليه السلام الذي منح الانسانية الحائرة نموذجا حيا للانسان الكامل ، وضمن لها حياة صافية تفيض فيها عوارف الود والاخاء ، وعطايا المحبة والسلام ...

لقد انبثق نور الدعوة الاسلامية من بطحاء مكة ، وانطلقت اشعاعاته من رحاب طيبة وسارت مواكب النور تهدي الانسانية الحائرة في بيدائها ، ووقف التاريخ الامين يسجل للدين الجديد الذي أتى به الرسول الاعظم سيدنا محمد عليه السلام أروع انتصار عرفته البشرية في مجال البحث الروحي ، والعمل على ايقاظ الضمير الانساني وشحنه بقوى الخير ، ونوازع الفضل ، وباعث العدل والاخاء ..

فقبل البعثة المحمدية كانت البشرية تعيش مرهقة معذبة في دنيا الشرك والالحاد، والضلال والجمود ، وتحيا حياة مشركة غبية كافرة لا وعي فيها ، وتسير على سياسة فاجرة لا دين لها ، فانتقل بها الاسلام ، بعدله وتعاليمه ومبادئه ، من الفوضى الى النظام ، ومن الجهل الى العلم ، ومن التفكك الى التماسك ، ومن النظام الى التعاون ، ومن خور العزيمة ، الى يقظة الارادة وقوة الايمان ، فآوت الى ظله الظليل ، ورخائه الوارف ، وامنه المديد .

لقد كان ميلاد سيدنا محمد عليه السلام رحمة للعالمين ، وقبسا من نور السماء ينير السبيل للسالكين السادرين في غياهب الليل الدامس ، ومبهم الطريق الطامس، المتخبطين في الضلال ومتاهات الاباحية والفسوق ، والعصيان والفجور ، فأحال

اخلاقهم من جفوة البداوة ، وكثافة الجاهلية الى نعيم الحضارة ، ورقة الطبائـــع ، وبوأهم مركز الصدارة بين شعوب الامم ، ومقام الهداية لموكب التاريخ ، وتم له في ثلاث وعشرين سنة من تعاليمه الدينية ، وارشاداته الخلقية ، وقضاياه الانسانية ما لا يعقل ان يستكمل وينمو الا في عديد من القرون ..

فالعالم البشري ، قبل البعثة المحمدية ، كان يعيش في جو خانق مظلم ، متلبد بسحب من الاضطرابات النفسية والخلقية والاجتماعية ، تحيط به ظروف قاهـــرة مرهقة ، وتشيع في جنباته أمراض مستعصية ، وأدواء قاتلة ، اختلفت عليـــه ، واصابت الصميم منه ، فانحطت بذلك افراد وقبائل ، وأمم وشعوب الى مهـــاوي الرذيلة والفساد ، وعبثت يد الانسان بما أتى به الرسل والانبياء ، وأصاب الكتب السماوية ما أصابها من التحريف والتبديل ، وانقلبت الفضائل بين الناس رذائـــل ، واستحكمت قوى الشر والبغضاء ، الى ان جاء نبي الهدى ، فقال للشرك نوره : الا ايها الليل الطويل الا انجلي ! يحمل دينا قويما يمتاز بتعاليم سامية ، وأصول عامة ، وفي يده كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام .. فاستقام أمرهم ، وحسن حالهم ، واتضحت أمامهم المعالم والصوى ، وساروا نحو الاقوم والامثل ، واسسوا حضارة نظيفة واعية ، واستعانوا على أعداء الدين بايمـــان صـــادق لا تزعزعه الشدائد ، وصبر جميل على المكاره ، وقوة علمية مبصرة ، وحضارة راقية اسلمتهم دفة الموكب ، وراية الطليعة ، وعجلة الزحف ، فهدوا الى الطيب من القول، وهدوا الى صراط الحميد ..

حقق الاسلام للبشر كل اشواقه الانسانية ، واشبع رغبات روحه المتطلع الى ملكوت الله ، وعمق فيه مشاعر الحرية في مسالك النفس والعقل ، وفي أغوار الفرد والجماعة ، وفي بذور الامة والدولة ، وفي أصول العقيدة والشريعة ، وخلق مـــن العرب المسلمين شخصية متميزة بارزة دعم بناء كيانها في رباط قوي ، وتماسك متين أصبحت معه الامة الاسلامية مرهوبة الجانب ، شديدة الاسر ، قوية المراس ..

هكذا كان عهد النبوة المصطفاة .. وهكذا كان مولد محمد عليه السلام ايذانا بانتهاء عهد الظلم والعبودية ، والتفكك والانحلال ، وبشيرا بحاضر مزدحم بالآمال الكبيرة ، ومبشرا بالمستقبل العظيم الرائع الفسيح الذي ادخره الله للامة العربية المسلمة التي اصطفاها الله فبعث فيها رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. فعز المسلمون في فجر الاسلام وضحاه وظهره ، ونشأوا في رحابه يرضعون أفاويقه الصافية ، ويكرعون حياضه العذبة ، ويتمثلون مبادئه وأهدافه ، فلم تلن لهم قناة ، ولم يسلس لهم قياد ، ولم ينهزم لهم جيش ، ولم ينكس لهم علم ، وكانوا ، بهذه المثل والمبادىء طوال أيام الاسلام الزاهرة ، فتية لا تنـــال الارض أدمعهم ولا مفارقهم الا مصلينا ..

*

لقد دب بين أمم الاسلام في العصور المتأخرة ضعف أقعدهم عن السير ، وعوقهم عن مواصلة الدؤوب ، وشل نشاطهم عن التحفز والوثوب ، فلم يقدروا على التحرك الى الامام ، لانهم قصروا في جنب الله ، وانحرفوا عن مبادئه المثلى ، وعميت عليهم الانباء ، وانبهمت عليهم السبل ، فأصيبوا بداء الضرائر ، وحل بساحتهم داء العجائز ، واكتفوا بالدون والهون ، حتى ابتلاهم الله ببلية الاستعمار الكافر ، فالح عليهم ، وقتل فيهم وسائل المقاومة والمناعة ، وأضعف منهم روح التماسك حتـــى

خضعوا لارادته ، وانصاعوا لامره ، وذلوا لسلطانه ، واستكانوا لجبروته ، فكاد أن يفسد احساسهم ، ويعطل شعورهم ، لولا ان قيض الله لهم زعماء الاصلاح، ودعاة التجديد ، فأقاموا عثرتهم ، وايقظوهم من غفوتهم ، حتى بدأ الشعور الاسلامي ، بفضل النوايا الطيبة والارادة الصادقة ، يسري بين أمم الاسلام بعد ان استوفت كل أمة حظها ، وبدأ الركب يتحرك ويسير بخطى حثيثة الى غاياته نحو صبح مشرق ، ونهار ضاح ، وأخذت المشاعر الاسلامية تنتظم هذا العالم الكبير ، وتهز الطيب من أعراقه ، والاصيل من غرائزه ، والدفين من ماضيه لتجعل منه أمة تعمل على نصرة الخير ، واذاعته بين الناس .

من أجل ذلك كانت هذه الذكرى الاسلامية المحمدية الخالدة العزيزة الحبيبة الى قلوب المسلمين تدفعهم دائما الى تذكر القيم الاسلامية الرفيعة ، وتحملهم ، كل سنة ، على أن يتمثلوها في أنفسهم وفي تصرفاتهم الخاصة ، وفي علاقة بعضهم ببعض.

*

فأين نحن اليوم من الحياة النبوية الصافية التي كان يحياها الناس في العصور الزاهية للاسلام ، في صفاء وبذل ، يوم كانوا يضعون المصحف في يد ، والسيف في اليد الاخرى ؟؟؟

وأين نحن اليوم من ذلكم الالتحام القوي ، والتوادد الخالص ، والتواصي بالحق والصبر الذي عرف في الصدر الاول ايام كان المسلم المومن البطل يرخص يوم الروع نفسه ويبذلها في سبيل العقيدة والكيان ، وفي سبيل الوطن المحبوب ، فيرفع رأس أمته عاليا شامخا ؟

وأين نحن اليوم من حياة الرجولة الكاملة التي كانت تطبع تاريخ المسلمين في أطوار حياتهم ، فتخلق منهم رجالا أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، من هذه الحياة الرخوة الفاسلة . التي تتسم بالتفسخ والميع والانحلال ؟؟ !! فلا يشب فيها الفتى الا كما يشب قرن الماعز ، ينبت على استواء ، ولا يثبت الا على التواء ! !

وماذا قدمنا ، من بذل وتضحية ، لقضية فلسطين الاسيرة وتحرير بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى النبي عليه السلام ؟

الحقيقة اننا لم نهزم في الواجهات التي نخوضها ضد أعدائنا لقلتنا ، ونحن غثاء كغثاء السيل ! !

ولم ننكص على أعقابنا رغم وفرة عتادنا وقوته عند خطوط النار !

وانما هزمنا ، ويا للاسف ، في عقائدنا وتقاليدنا ومقدساتنا ، وعملت فينا عملية الغزو الفكري الملحد الذي ران على القلوب واستولى على الافئدة فصدها عن سواء السبيل ، فحقت علينا كلمة الله .

*

ومن دواعي اليمن وحسن الطالع ، ودلائل التوفيق والاقبال ان تقترن ذكرى مرور أربعة عشر قرنا على بدء الدعوة المحمدية الخالدة ، بالذكرى الاربعينية لجلالة ملكنا المعظم مولانا الحسن الثاني نصره الله حفيد المصطفى عليه السلام ، وربيب الملك ، وسليل المجد ، ووارث سر محمد الخامس بيض الله وجهه ، وأسكنه جنات العلى ..

وانها لموافقة عجيبة فريدة تدعو الى التأمل والاعتبار ، وتشير الى المعنى الجميل الرائع الذي يكمن سره وجلاله في التوفيق الذي يحالف خطوات قائد هذه الامة المسلمة المومنة الذي اكتمل اشده في مهرجان هذه الذكرى الاسلامية وبلغ أربعين سنة ، وقال : رب ، أوزعني ، أن أشكر نعمتك التي انعمت علي . وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضا ، وأصلح لي في ذريتي ..

وان بلادنا التي تحتفل في هذه الايام المشرقة الوضيئة بهذه الاعياد والمواسيم، والافراح الدينية والمهرجانات الوطنية ، في حب صادق ، ونشوة غامرة ، وتخلد هذه الذكريات العذاب الحافزة للعمل ، ومواصلة السعي لنشر المبادىء الاسلامية ، والمثل الصحيحة السليمة بقلوب مفعمة بالرضا والمحبة والاخاء ، لتقف مع التاريخ في لحظاته الحاسمة لتحاسب النفس والقلب والشعور والوجدان . وتؤكد وفاءها للمبادىء الاسلامية السمحة ، وتعتصم بحبل القرآن وسنة سيد الاكوان ، وتجدد ولاءها واخلاصها لامير المومنين ، العامل على نصرة الدين والحارس الامين على مقدسات الشعائر الاسلامية الواضحة .

أحمد بركاش



كان الشيخ ابو شعيب رحمه الله حافظا من حفاظ الحديث ، وعلما من اعلام السنة ، وداعية من اكبر الدعاة الى التمسك بالهدي النبوي ، وزعيما من زعماء الاصلاح الديني الموفقين ، لم نر مثله في ذلك مدى الاربعينات والخمسينات من هذا القرن الى ان توفي عام 1356 ولا رايناه فيما بعد ذلك الى الآن .

اما فيما يرجع الى حفظ الحديث والعلم بالسنة فما كان الا مثالا حيا من اولئك الرجال الذين نقرا عنهم في الكتب ولا نكاد نصدق ما كانوا عليه من الاستظهار للالاف المؤلفة من الاحاديث والمعرفة بالسنن : متنا واسنادا رواية ودراية ، والاستذكار لتراجم الرجال وطبقاتهم ، والاطلاع على مذاهب الائمة ومداركهم مع القدرة على التصحيح والترجيح، والغوص على المكنونات والمضامين ، في يسر وسهولة ، شان المتمكن من عمله الممارس لمهنته ، وزاد على ذلك فصاحة اللسان ، وحلاوة النكتة ، وحسن التاني والربط بين الموضوع الذي يتناوله والاستطرادات التي يكون لها ادنى اتصال به ، بحيث يجعل من مجلسه روضا من رياض العلم والادب وحديقة غناء حافلة بثمار المعرفة والحكمة .

هذا امر لا ريب فيه وهو محل اتفاق ممن حضره وشاهده من تلامذته والمستفيدين منه ، وممن كانوا فوق درجة التلمذة من العلماء والمشايخ الكبار سمه موهبة وفتحا ربانيا كما كان هؤلاء يقولون ، او طلبا واجتهادا وحرصا على العلم وضربا في الآفاق المغربية والمشرقية لتحصيله والاخذ عن اربابه ، مع الموهبة والفتح المذكورين ، كما هو في الحقيقة والواقع ، فليست التسمية هي المهم، وانما المهم انه كان كذلك وبهذه المثابة حتى دعي حافظ المغرب والشمال الافريقي من غير ان ينازعه احد في ذلك واما فيما يرجع الى دعوته للسنة ورفع لواء الاصلاح الديني وهذا هو المقصود من هذه الكلمة ، فانا فتحنا اعيننا على كثير من العلماء والمشايخ الذين يدعون انهم من انصار السنة واتباعها ، وهم ما بين طرقي مغال في الطرقية واعتقاداتها ومناقبها ، وفقيه ساذج لا اهتمام له الا بتحقيق المسائل والاحكام على قواعد المذهب واصوله ، وءاخر يتعاطى الحديث ويدرسه ولكنه يخضعه للمذهب وقلما ياخذ به الا في فضائل الاعمال ، واما المتمسك بالسنة والداعي اليها قولا وعملا فانه اندر من الكبريت الاحمر ، وهو بالفعل شخص واحد وكانت طريقته في الدعوة مما ينفر الناس منه ، ولولا ان السلطان كان يحميه لبطش الجمال به .

فاما الطرقي فلا كلام لنا عليه، وهو مهما بلغ مابلغ في العلم والفقه ودراسة الحديث ، لا يمكن ان يعد من اتباع السنة او الداعين اليها الا اذا قلبت الحقائق وغيرت المفاهيم خصوصا اذا كان غاليا في الطرقية كما هو شان الكثير ممن ادركناهم وعرفنا احوالهم .

واما الفقيه الساذج اعفى نفسه من النظر في غير نصوص المذهب وفروعه ، فهو ايضا ممن لا كلام عليه في هذا الصدد ، وحسبه الاعتقاد بانه من اهل السنة لحفظه لمذهب امامها .

والصنف الثاني من الفقهاء الذى كان يتعاطى الحديث ، ويدرس كتبه ، لا نكران لفضله على الصنف الاول ، لما له من خبرة بالسنة ومثاقفة لمصادرها ، وان كان تقيده بالمذهب يقيم بينه وبينها حجابا كثيفا

وخصوصا فى ادلة الاحكام . ومع ذلك فقد كان له هدى وسمت هما من بركة اشتغاله بحديث النبي (ص) وكان اقبال الجمهور عليه وعلى مجالسه اكثر من غيره ، لان للحديث النبوي جاذبية وتاثيرا في النفوس والقلوب لا يجدهما المومن فى غيره .

ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء الاصناف الثلاثة من العلماء كانوا فى الاعتقاد على مذهب السلف من التفويض وعدم التأويل ، وان كانوا يدرسون كتب الاشاعرة وعقائدهم التى تجنح الى التاويل والحجج المنطقية ، فبعدما يقررونها على وجهها يرجعون ويقولون ان مذهب السلف اسلم وان كان مذهب الخلف اعلم .

ان حسن الاتباع والتسني لم ينعدم من اي صنف منهم ، ولكنهم اخطاوا سبيله او على الاقل لم ياخذوا كتابه بقوة ؛ ولم يكن بعيدا منهم عن المادة الا من اوغل فى الطرقية وتعصبه للدفاع عنها وعن منكراتها باوهن الاقاويل واضعف الحجج ، على ان من الطرقيين من كان ينفي ما ينسب الى طريقه من القصائر ويؤول الاقوال الموهمة التى ترمي عن مشيخته ، وهذا احسن حالا ممن قبله ، لانه يحرص على ان لا يتناقض مع نفسه فيما يدعيه من اتباع السنة .

ففى الصنف الرابع وهو المتمسك بالسنة اعتقادا وعملا وقد قلنا انه شخص واحد ، وذلك فيما ادركنا وما رأينا، وان كان هناك غيره، فان هذا الشخص هو الذي كان له الظهور والشهرة عند الخاص والعام ، ونعني به الشيخ الجليل السيد عبد الله بن ادريس السنوسي الفاسي ، فهذا الرجل كان قد وصل الى المشرق وجال فى اقطاره واخذ من اعلامه ، وعاد جبلا راسخا فى العلم بالسنة والتمكن من المذهب السلفي ونبذ التقليد والجهر بالدعوة الى توحيد الالوهية ومحاربة البدع والضلالات والطرقية والتعلق بالقبور والاموات . وقد احتفل به السلطان المرحوم الحسن الاول وجمعه مع علماء وقته ولكنه لم يجد منهم قبولا لدعوته ونشأ بينه وبينهم جدال ادى الى خصومة وتنافر . ثم بقي فى كنف ولده السلطان عبد العزيز ، ولم يفتأ ينشر الدعوة الى السنة ويندد بالجمود والابتداع ، ولكن قلما يستجيب له احد او يرفع شخص بدعوته راسا . بل كان الجميع البا عليه وحربا له ، وخصوصا مشائخ الطرق والعلماء المتقيدين بالحرفيات من المذهب ونصوص المؤلفين .

والسبب الاكبر فى الاعراض عن الشيخ السنوسي وحصول النفرة بينه وبين العلماء والعوام على السواء هو طريقته فى الدعوة واسلوبه فى التبليغ فقد كان شديدا على خصومه ومتطاولا على المشائخ والعلماء من المتصوفة واتباع المذاهب المعروفة ، يطلق لسانه فى التنديد بهم وتصدر منه كلمات قاسيات فى حقهم ، وذلك من قوة نفسه وشدة يقينه ، فلا ينظر الناس الى ما يدعو اليه وانما يقفون مع هذه الالفاظ ويعتبرونها تضليلا لسلف الامة وحكما على السواد الاعظم من المسلمين بالجهل والشرك ، ومن ثم تثور ثائرتهم ويجدون على الشيخ فى انفسهم موجدة عظيمة اقل نتائجها انهم يبتعدون منه ومن سماع كلامه ، خصوصا وانه لم يكن يصبر على الجدال والمناقشة فيعتبر العلماء ذلك قصورا منه وافحاما له ، ويحذرون العوام من الاتصال به والاغترار بدعوته .

وقد كان من المؤسف حقا ان تضيع جهود هذا الداعية الكبير سدى ، وقد لبث على حاله من الاتصال بالاكابر والتحكك بعموم الناس منذ رجوعه من رحلته الى ان توفي ، وذلك زهاء نصف قرن ، من غير ان يستجيب له احد من الطرفين ، فالاكابر كانوا يتندرون باقواله ومواقفه ، والعامة يستعيذون بالله من تهجماته واندفاعاته . والحق ان الذى كان يخطئه هو اسلوب الدعوة القرآني الذى عبر عنه جل وعلا بقوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي احسن » والهداية من الله .

فى هذا الجو ، وبين هذه الاصناف من العلماء ، قام الشيخ ابو شعيب الدكالي بدعوته التى كان لها غايتان شريفتان ، الاولى : احياء علم الحديث ونشره على نطاق واسع لما كان له فيه من رسوخ القدم وقوة العارضة والمشاركة التامة فى علومه والحفظ والاتقان على ما قدمنا بيانه فى ذلك ، وهذا ما جعل الاقبال على مجلسه عظيما ، وحمل اقرانه من اهل العلم على التلمذة له ، وبعض من هو فى مرتبة اشياخه على الاخذ عنه. والثانية وهي بيت القصيد : الاخذ بالسنة والعمل بها فى العقائد والعبادات ، فقد جهر فى ذلك بدعوة الحق ودل على النهج القويم والصراط المستقيم بالبرهان الساطع والحجة الناصعة ، وندد بالخرافات والاوهام واطاح بالدعاوي الباطلة والاقوال الواهية وبين وجه الصواب فى كل مسألة مسألة من مسائل الخلاف المذهبي، واقنع خصوم

الدعوة قبل انصارها بما لم يجدوا فيه مدفعا ولا له ردا ، وهكذا حدث تحول كبير فى مفهوم الاجتهاد والتقليد بالنسبة الى ادلة الفقه وتخفف العلماء من التقيد بالنصوص المذهبية ومالوا الى الترجيح والعمل بالسنة عند ثبوتها ونبذ ما خالفها ، وكذلك ضعف الاعتقاد فى المشائخ وتقديس الاموات والغلو فى الطرقية والتعلق بتعاليمها التى ما انزل الله بها من سلطان . ولوحظ ان جميع الاصناف من العلماء والمخالفين قد استجابوا لدعوة الشيخ واقبلوا عليه واقتبسوا من علمه ولم يقف احد فى وجهه سرا ولا علنا ، وان تفاوتوا فى اعتناق ما يدعو اليه كله او بعضه بحسب مشاربهم واختلاف مداركهم .

واذا كان هناك من سبب لهذا النجاح الباهر الذى احرزه الشيخ وكتب له من دون غيره من الدعاة زيادة على ما ءاتاه الله من سعة فى العلم والمعرفة ، فهو اسلوبه البادع النافذ الى القلوب الذي اخص ما يتميز به تجنب التشنيع والهجوم على الائمة والمشائخ بالكلام النابي ، والعبارة الحلوة المؤثرة المنبئة عن صفاء النية واخلاص النصح من غير ابداء كراهية ولا تعنت ، والنفس الطويل الهادىء الذى لا يبدو معه اي انفعال ولا تسخط ولا حدة ، مما يصرف السامع عن المراد من الكلام وموضوع الخطاب الى الجدل والملاحاة بما بعدهما من الاعراض والتنكر . ولقد كان رحمه الله يعرض ويهاجم احيانا ولكن بالنكتة الهادفة والنادرة الموحية فينفذ قوله الى الاعماق من غير أن يثير حزازة فى النفوس او يكون سببا فى الانقطاع والتنطع .

هذا وقد تخرج بالشيخ عدد وفير من اهل العلم وامتاز منهم بالخصوص فى علم الحديث والدعوة الى السنة افراد معدودون ولكن قل منهم من سار على نهجه واتبع طريقه ، فهذا شيخ متمكن من المادة الحديثية واصطلاح المحدثين ولكنه طرقي لم يرفع راسا لما كان استاذه يصوبه من اسهم النقد الى الطرقيين وبدعهم ودعاويهم ، وهذا ءاخر يرفع لواء الدعوة الى السنة ومحاربة البدعة ولكنه يسير سيرة المتشددين المتحاملين بحر الكلام والطعن على الائمة والمشائخ الاولين فتفر الناس منه الا قليلا من الشباب والمثقفين الجدد الذين لم يكن يهمهم ما يدعو اليه ، لان غالبهم رقيق الدين وانما يهمهم السخرية من الاسلام والمسلمين ورجال العلم والفقه، واهل التقوى والصلاح ، متمثلين فيهم ما قراوه فى تاريخ الكنيسة ورجال الدين المسيحي، ومعتقدين انه لا نهضة للامة الاسلامية الا بما نهضت به اوروبا وامريكا من الفصل بين الدين والدولة والقضاء على النفوذ الروحي لعلماء الدين فى نفوس الجماهير الشعبية ، وهكذا ءال الامر الى ترك التدين بالمرة عند فريق من هؤلاء الشباب والمثقفين وصاروا يحتجون بما يقوله هذا الداعية او ذاك ممن على منواله ، وعاد كثير من الطرقيين الى ما كانوا عليه من اعتقادات باطلة وشعارات لا اصل لها من السنة لما راوا ذلك العالم المحدث الذى ورث علم الشيخ ابي شعيب ، ونحن نعني الجنس لا الفرد ، يعتنق الطرقية ويهمل دعوة استاذه فى التحذير من بدعها ومخالفاتها .

ان هذا الانحراف ونتائجه بالنسبة الى الجانبين هو اعظم مايبين لنا فضيلة الاعتدال والتوسط فى طريقة الدعوة مع قوة الايمان وشدة اليقين كما كانت طريقة الشيخ ابي شعيب رحمه الله ، والمثالان اللذان ذكرناهما ان كانا يشخصان العقبة التى اعترضت تقدم الدعوة وسيرها فى الطريق المستقيم ، فانهما حريان بان نستخلص منهما العبرة ونتجنب عقابيهما اذا اردنا ان تستمر الدعوة الى السنة والعمل بها بل الى التدين من اساسه وتنجح النجاح الباهر الذى احرزته على يد شيخنا الامام تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته ، ءامين .

طنجة ـ عبد الله كنون



للعميد محمد صالح الكفادي

منذ كانت الحياة والشعوب تنشد السعادة على وجه الارض ، وتتطلع اليها بكامل العناية ، ومزيد الاشتياق ، وتراها اجتماعيا فى التربية والتعليم والعدالة ، واقتصاديا فى الاثراء والرخاء والرفاهية ، وعلى الرغم من ذلك فانهم لا يدركون الهدف ولا يهتدون اليه سبيلا .

ومرد ذلك الى الانظمة القائمة ، والمذاهب المتبعة اذ كل نظام قام فى الارض وتحكم فى الحياة مهما نما وسما فانه دون نظام السماء — ذلك النظام المنزل بالحق والحكمة على سفراء اختارتهم ارادة الله ، واقتضتهم حكمة الله للعناية بحياة البشر ، وصيانتها من الضلال والفساد .

فهذا النظام هو نظام الانظمة ، وهو مناط العز والسعادة — وكل نظام سواه ناهضا او ناميا فهو نظام مهلهل ومدخول لا يلبث ان يتضاءل او يتهاوى بمثابة الادخنة المتصاعدة المتلاحقة — تتعالى ثم تتلاشى —

وما ذلك الا لانه يعتمد المادة وحدها — والمادة هي منفذ الشيطان — والشيطان هو علة فساد الانسان ، فلابد من جانب روحي يعالج المادة ويقاوم الطغيان عند الاقتضاء ، ويخفف من حدته وشرته .

فالانسان فى اوربا وان كان غيره فى افريقيا من حيث النظام واليقظة والانتاج فكلاهما لا يتمتع بالسعادة المطلوبة — فالحرية مثلا فى هذا النظام المسيطر على العالم هي الحرية التي يظنها المرء مطلقة وهي مقيدة بقيود الاوامر والنواهي فى نظام السماء — فمن انا ومن انت حتى نكون طلقاء الى غير حد ، نرتع ونلعب ونركب الاهواء وتجمح بنا الشهوات ، وتحيط بنا الظلمات — ان لم يكن هناك امر يرد ، ولا حد يحد ، ومن أجل ذلك كانت وظيفة الشرائع هي الحد من غلو الطبائع .

فالسعادة ان تعرف علة وجودك وطرق تأمين هذا الوجود فغاية وجودك هي عبودية الله فقم بشرائطها ، وتحقق بآدابها ، ووسيلة حياتك هي العمل فاعمل ولا تنى واعمل ما عملت باتقان .

ولذلك كانت الحياة والعبادة شرطين اساسيين فى نظام السماء ، والعبادة بقيام الذات وقيام الذات بقيام العمل مهما يكن وضيعا او رفيعا الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وما من شك ان النظام الكفيل بضمان الاهداف الاجتماعية والرغائب الاقتصادية هو ما يرتكز على وحي صادق — يستجيب لرغبات الحياة العادلة ، ومطالبها المتعددة والمتجددة — ويقيم حسب الامكان طاقاتها ومستوياتها الروحية والجسمية باقرب ما يكون من وسائل التعامل ، وباقوى ما يمكن من اسباب التعاون — لتتواصل حلقات التاريخ ، ولتتضامن حضارات الانسان تضامنا من شأنه ان يوفر الجهود ويوثق العهود ، ويؤمن الحقوق ، ويحفظ السلام من التصدع والتصادم .

ولعل ما نراه من الاجتماعات الدورية ، والاشاعات الدولية التي تتوزع على ذوي الكفاءة العلمية والثقافة الفكرية — والتي تتشرف بالهيئات المستنيرة والطبقات المتبصرة — يؤكد شيوع روح التعاون والوفاق بين ابناء البشر عامة وبين ذوي الارحام والانساب خاصة — وبين ابناء شعب مجيد قد تساوى عهده ومبدؤه ، واشترك امله والمه ، وتوافق هدفه وغرضه ، وتجددت بيئته وحياته انه الشعب الذي رفع راية الاسلام من زمن بعيد ، وظهر في ميادين النصر على كل خصم عنيد ، وآمن ان الاجتماع والتعاون في ميادين الكدح والكفاح ، وفي مشاريع الرقي والعمران ، شيء ضروري ومطلوب بحكم الطبيعة والشريعة وبحق تضامن الاسرة الانسانية والاسلامية .

الا ان الامة المتحفزة الى النهوض والقائمة على شرف الاسلام وكرم الاخلاق اذا جدت في اجتماعها وحافظت على قوة ايمانها ، ومعاهدة وجودها ، واستمدت من وحي رسالتها وصدقت بمعالم مجدها وتاريخ قومها ، وحكمت بحكم الله في محاكمها ، واستطاعت ان توفق بين ماضيها وحاضرها ، وان تميز الصحيح من السقيم ، وتفرز الرخيص من الثمين ، لا فرق في ذلك بين الجديد والقديم ، لما يوجد في الطريق من الغابات والعقبات ، ولما يدس في تاريخ الاسلام وفي سيرة أبطاله وأركانه ، ولما ينقم عليه من اعدائه وأشباه أعدائه .

اذا قامت الامة الاسلامية العربية وغير العربية — على هذه الامثلة الوافية وكانت حذرة يقظة حتى لا تأكل نفسها بنفسها — وحتى لا يشتبه الحق بالباطل عليها ، ووزنت تصرفاتها بميزان الشرع وقانون العقل ، ومدت الى الحياة بسبب متين ، وركنت بذاتها الى ركن شديد — فانها تقيم البينة على وجودها واستقامتها ، وحسن نيتها وسياستها ، وعلى صلاحيتها للحياة والبقاء ، تفتق افكارها وتحيي شبابها في مواد الحياة الحديثة ، ومنافع الحضارة المستجدة ، حسبما تقتضيه قاعدة النمو والارتقاء وطبيعة مسايرة الحياة في اصولها وفي اساليب تقدمها والانسان ابن الزمان وابن العمل فهو يتقدم بأعماله وبأزمانه اذ هو ملابس للزمان والزمان مار وليس بقار والانسان ذو افكار وذو اطوار .

والامة الاسلامية يجب ان تتلقى نهضتها من وحي الدين ومن وحي العلم معا اذ لا تنافي بين العلم والدين ويستشف ما وراءه من خفايا وخبايا ويجب ان تبحث بقوة عن احسن السبل واوضح الطرق المهيئة لثقافة العقل ، واستقامة الفكر ، وطمأنية القلب ، وهذا البحث يعتبر منفذا لخلق نهضة شاملة وحمل مسؤولية كاملة ، كما ان التماس المعرفة على اختلاف وجوهها هو مسلك آخر للخروج من حيز الشقاوة الى حيز السعادة ولقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المسلك بقوله : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة » .

وغير خاف ان القرآن الكريم هو دستور المسلمين وقانونهم العام ، يهديهم للتي هي اقوم في نظام الاجتماع ، والاقتصاد ، والحكم ، والمال ، وغير ذلك وهو الذي يقود الى مستقبل ضاحك بسام وعمل صالح بناء .

وهو الذي يهذب النفوس ، ويطهرها من الشر ومساويه ويربي الارادة على الخير ومعانيه .

فالاسلام الصحيح المأخوذ من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذي يعمر الارض ويصلحها ، وهو الذي يؤمن الشعوب ويرفعها ، وهو الذي يحمي النفوس والاعراض ، والحقوق والاعتقاد وهو الذي يدعو الى الاعمال الصالحة ، والاهداف السالمة واجتماع الجامعة ، ويكره الاقوال الكاذبة ، والاحلاف الغاشمة ، والاعمال الفاسدة ، والتفرق والاختلاف والشتات ، فهو قوة الانسان في منطقه ، وعزته في حياته ، ونهضته في أعماله ، وسنده الايمان والمحبة والاخلاص ، ومبدؤه الشعور والرحمة والاحساس وكماله دماثة الاخلاق ، وامانة الاذواق .

ولهذا كان الاباء والاسلاف لا يدعون هذه المبادىء الحية التي نبتت في قلوبهم ، وامتزجت بلحومهم تغتالها الغوائل وتطيحها الطوائح ، ولا يترددون في الدفاع عنها بسيوفهم القارعة ، وحججهم القاطعة ، واموالهم الواسعة ، كما كانوا يعملون اكثر مما يقولون ، ولا يعملون الا بما يعملون . على ان مقاصد الانسان تتجمع في انتظام الدين وانتظام الدنيا ولا ينتظم امرها الا بانتظام العمل واستمراره .

وانتظامه لا يتحقق الا بكسب علم نافع واطلاع واسع ، والعلم — منه ما هو شرعي يكتسب من الكتب السماوية والاحاديث النبوية — ومنه ما هو عقلي سنته العقول الحكيمة وانتجته الطباع السليمة — فالحكمة بالعقل والطاعة بالشرع .

والعلوم القائمة كلها شركة بين البشر ما عدا اللغة والشريعة والاخبار فلكل امة لسانها ، ودينها ، وتاريخها . وكان أبو محمد بن حزم رحمه الله وهو علم من اعلام الاسلام يرى شمول اسم العلم لسائر المهن والصناعات التي تفيد الناس في حياتهم ومجتمعاتهم وهو رأي سديد — ينصره قوله تعالى « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فقد اثبت الله لمن يعلم فضلا وشرفا من دون ان يعين شيئا يتعلق به العلم وواضح ان اخفاء المعلوم . يؤذن بقصد العموم — ويعضده ايضا ما نراه جاريا في وزارات التعليم من دخول المدارس الصناعية والمهنية في نطاق حظيرة التعليم العام

وبعد فالاسلام يريد ان يرفع الناس الى آفاق السمو والكمال بمنهجه السليم وصراطه المستقيم ، ولكننا نرى الناس ينأون عن هذا المنهج الحميد ويتجنبونه ويحاربونه وينظرون اليه بمنظار الناحية السلبية ويغضون أبصارهم عن الناحية الايجابية التي هي موضع عظمته وسر خلوده وبقائه — وعند ما ننظر الى سداد المنهج وقدرته وحيويته ثم ننظر الى الناس وهم يتحامونه ويتباعدون عنه نتأسف ونتلهف ونقول ما قال الله « يا حسرة على العباد » .

ثم ننظر نظرة اخرى فتنجلي هذه الحسرة على امل في الله وثيق ، وعلى يقين في قوة هذا المنهج الذي لا تزعزعه التيارات القوية والاعاصير الشديدة — ونتطلع الى المستقبل القريب فاذا في الافق امل ان لابد لهذه البشرية — ان تفيء بعد عناء طويل وبعد عناد كثير — الى هذا المنهج القوي الرفيع — وان تستشرف هذا الافق الوضاء وهذا المستقبل المشرق .

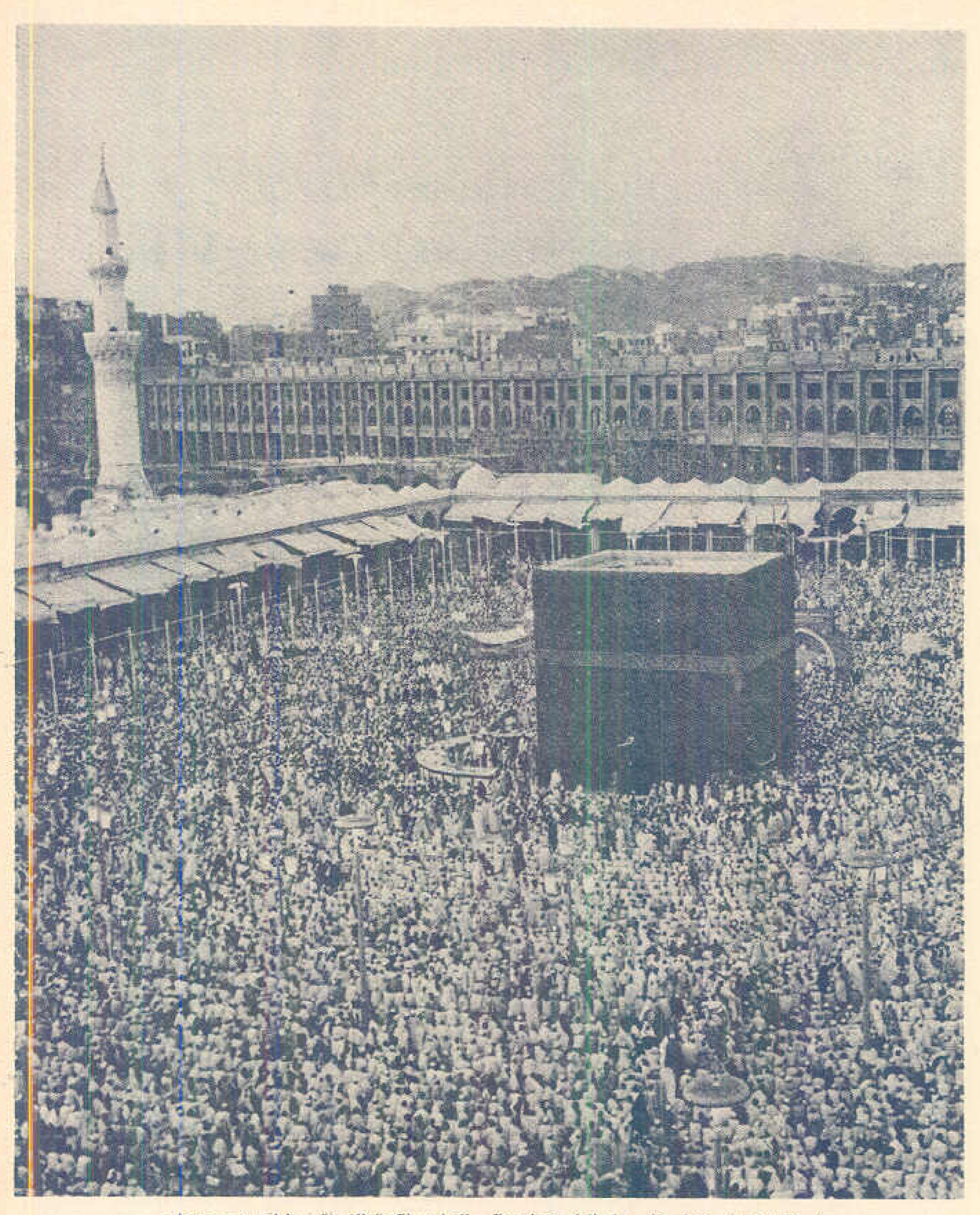
نعم كان الدين غريبا وسيعود كما بدأ غريبا الا انه لا غرابة في هذه الغربة فكما بعث الله هذا الدين وبعث من ينصره حتى عم نوره العالمين فكذلك سيبعث الله هذا النور من جديد حتى يسري في آفاق الدنيا وأرجائها ، وشاهد هذا ما نراه من تطور الفكر الاوربي وما نشاهده مع ذلك من الالتفات لهذا الدين الحنيف في هذا الوقت بالذات . وما نظن ان ذلك كان من دون روية ولا دراسة كيف والعصر عصر الدراسات والتجارب والمناهج . فالقرآن وهو معجزة الاسلام الكبرى سيظل يلقن المعجزات والاحكام الى قيام الساعة . ولا يفسر ما فيه من آيات الكون وعجائب الوجود الا تطور فكر الانسان وتقدم سير الزمان فكلما تقدم الانسان شوطا في المعرفة . وكلما قطع الزمان مرحلة من التاريخ تكشفت عجائب القرآن وذلك مما يدعو الى الامل في مستقبل الزمان وعلى الله قصد السبيل .

مراكش — الرحالي الفاروق

— قران السعد —

يفطن اخواننا الشعراء المسيحيون الى ما يقع بين أعياد المسلمين والمسيحيين من لطائف الموافقات ، ويتخذونها دليلا على وحدة الهدف القومي بين اتباع محمد واتباع عيسى عليهما السلام . ففي شهر ديسمبر سنة 1919 وقع عيد ميلاد النبي مع ميلاد المسيح ، فانتهزها الشاعر وديع البستاني فرصة مواتية يقول فيها :

عيسى واحمد والورى فلك	قمران نعم الشمس والبدر !
هذا قران السعد بينهما	قد ضم ميلاديهما شهر ..



في الليل كما في النهار وعلى مدار العام تحيط مواكب المصلين بالكعبة المشرفة في طواف وتعبد متصلين

من وحي "الاحاديث الحسنية"

عملة الإسلام : عملة صالحة للتبادل في كل زمان ومكان
وكفة الإسلام : كفة راجحة في الميزان على بقية الأديان



عندما تفضل امير المؤمنين جلالة الحسن الثاني باختتام سلسلة احاديث رمضان التى تراسها بمجلسه الموقر ، داخل ضريح اجداده المنعمين ، سنة 1387 كانت المفاجاة عظيمة للخاصة والعامة من رعاياه المسلمين .

ذلك ان جلالته تناول فى حديثه بالشرح والتفسير موضوعا طريفا كل الطرافة ، مبتكرا كل الابتكار ، هو موضوع الموازنة بين الاسلام وغيره من الاديان ، وخاصة الاديان الكتابية الاخرى ، على اساس المقارنة فيما بينها جميعا ، وكانت المقارنة التى قام بها جلالته واضحة الطريق ، مستقيمة المنهج ، مطبوعة بطابع الابتكار والاصالة ، قائمة على مقاييس وموازين جديدة ، والهدف الوحيد منها هو عرض بعض النظريات « التى من شانها ان تعزز جانب الدين فى قلوبنا ، وان تثبت على صراطه المستقيم اقدامنا » على حد قول امير المؤمنين ، وقد ادت نتائج هذه المقارنة الى ابراز ما لكفة الاسلام من رجحان ، على بقية الاديان ، ونقتصر فيما يلي على عرض ثلاثة وجوه من هذه المقارنة بايجاز واختصار .

الوجه الاول من هذه المقارنة

ان استقراء قصص الانبياء الواردة فى الذكر الحكيم يدل على ان مسلكهم مع اقوامهم لا يخرج عن ثلاث حالات :

الحالة الاولى ـ ان تقتصر الدعوة على مجرد التبشير بالدين الحق بين المومنين ، دون معاداة لمن لم يومن به ، ولا مناواة له بالعيب والطعن فى مقدساته وان كانت باطلة . وقد كان هذا الموقف هو موقف يوسف عليه السلام مع اهل مصر عندما اخذ يدعوهم الى ملة ابراهيم التى كان من اتباعها . والى دعوته الهادئة يشير قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ويماثل هذا الموقف موقف نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فى بداية الدعوة الاسلامية قبل نزول قوله تعالى (فاصدع بما تومر ، واعرض عن المشركين) .

الحالة الثانية ـ ان تاخذ الدعوة صبغة العتاب ، والانذار والعقاب ، وتنتهي بدعاء الرسول على قومه ، وبراءته منهم ، بعدما يستنفد جمع وسائل الاقناع دون جدوى، رغما عن طول اقامته بينهم ، وعدم انقطاعه عن دعوتهم ، فلا ينجو من غضب الله الذى يحل بهم الا الرسول ومن تبعه . فقد كان هذا الموقف هو

موقف نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ، من اقوامهم جميعا .

ومن لطائف الذكر الحكيم انه قرن بين قصص هؤلاء الانبياء مع اقوامهم جنبا لجنب في سورة الاعراف ، وسورة هود ، وسورة طـه ، وسورة الشعراء ، لانها كلها تلتقي حول نقطة واحدة ، هي غضب الله وسخطه الذى يحل بساحة المعاندين والمكذبين والمنحرفين ، كما هو الشأن في قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، واصحاب مدين ، وفرعون وقومه ، وقد اغرق الله قوم نوح جميعا اذ لم يكن يرجى منهم خير .

الحالة الثالثة ـ ان تاخذ الدعوة طريقا وسطا بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب ، ورغما عما يقع بسببها من ابتلاء للرسول ، وامتحان لاتباعه المومنين ، فان الرسول لا يستنجد ضد قومه بعذاب الله وغضبه،ولا يدعو عليهم بالهلاك والدمار ، وانما يدعو لهم بالهداية والمغفرة والرشاد ، ولا ينقطع عن دعوتهم ، ثم يترك للزمن ان يتم الباقي .

ومما يلاحظ ان كتاب الله لم يذكر عن قوم ابراهيم انهم اهلكوا ، كما ذكر ذلك عن غيرهم من الاقوام ، وكل ما ذكره ان قومه القوه في النار ، فجعلها الله عليه « بردا وسلاما » : (بردا حتى لا يحترق بها ، و (سلاما) حتى لا يجمده زمهريرها ، واظهره الله عليهم بالحجة والقدرة ، ثم تركهم ولم يقم بين اظهرهم بعد ذلك ، فكان كالمجاهد الذى جاهد واكتفى بأن يهزم عدوه ، بينما غيره من الانبياء في « الحالة الثانية » كانوا كالمجاهد الذى جاهد ثم قتل عدوه .

اما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فعندما ضاقت قريش بدعوته ذرعا ، وضاق بمكرها ذرعا ، فارق ام القرى مهاجرا الى المدينة ، واستمر في دعوته دون كلل ولا ملل، حتى اظهر الله دينه ، ونصر رسوله، ودانت له قريش وجميع مشركي العرب ، ثم دانت بدينه عشرات الامم ، تحقيقا لوعد الله اياه : (انا لننصر رسلنا والذين ءامنوا ، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ـ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون) .

الوجه الثاني من وجوه المقارنة

عند تحليل المعجزات التي رافقت ظهور الانبياء عليهم السلام يتبين ان من معجزاتهم ما له طابع مادي صرف يهدف الى التاثير السريع والمباشر على نفسية الجماهير ، حتى تبادر الى الايمان والاذعان دون ابطاء ولا تردد ، وذلك مثل الآيات التسع التى ءاتاها الله موسى عليه السلام ، فهزت كيان فرعون وقومه ، ومثل ءاية ابراء المرضى واحياء الموتى «باذن الله» التى ءاتاها الله عيسى عليه السلام ، فدفعت جماهير البؤساء والارقاء والمحرومين الى الايمان به والتهافت على سماع مواعظه ، والالتفاف من حوله ، والتمرد على مناوئيه .

ومن المعجزات ما له طابع روحي ، واعجاز معنوي ، كمعجزة الذكر الحكيم ، التى جاء بها خاتم الانبياء والمرسلين عليه افضل السلام وازكى التسليم، فقد جاءت معجزة روحية معنوية ، بالاضافة الى كونها ذات علاقة وثيقة بما كان للعرب من فصاحة لسان، وبلاغة بيان .

وكما تحدى القرءان الكريم بيانهم ، وجاوز الحدود المتعارفة من بلاغتهم ، حتى لم يستطيعوا ان يعارضوه رغما عن تحديه لهم طوال عهد الرسالة ـ ولا يزال تحديه قائما الى الآن وحتى الآن ـ فانه اعجز البشر اجمعين ، بما تضمنه من حكمة بالغة ، وتشريع عادل، ووصف كاشف لآيات الله في الآفاق والانفس ، ووصف مثير للظواهر الكونية ، والامور الغيبية ، والاحاسيس البشرية ، مما جعله غضا طريا على مر العصور ، ومحضا لم يشب على توالي الايام ، ومنهلا عذبا ترتوي منه البشرية جمعاء .

يضاف الى ذلك وجود فارق جوهري بين معجزات الانبياء السابقين ، ومعجزة خاتم الانبياء والمرسلين ، اذ ان معجزاتهم انقرضت بانقراض عصورهم وفناء اجيالهم ، بينما معجزة القرءان الخالدة يعم نفعها من حضر ومن غاب ، ومن لا يزال في الارحام والاصلاب ، وهي مستمرة عبر القرون والاجيال الى يوم الدين ، وتحديها مائل على الدوام امام الناس اجمعين، فلفظه ءاية ونظمه ءاية وامره ونهيه ءاية ، ووعده ووعيده ءاية ، واخباره بالغيوب ءاية ، وسلطانه على القلوب ءاية ، وكما قال امير المؤمنين الحسن الثاني « هو المعجزة الدائمة التي لا تستطيع اية لغة ان تعبر عن بلاغته ومعانيه واعجازه بحال من الاحوال » .

جاء في الحديث الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من نبي من الانبياء الا وقد اوتي من الآيات ما ءامن

على مثله البشر ، وانما كان الذى اوتيته وحيا اوحاه الله الي ، فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة) .

الوجه الثالث من وجوه المقارنة

عند تحليل رسالة موسى وتحليل رسالة عيسى عليهما السلام يتبين ان الطابع الغالب على رسالة موسى كان هو طابع الزجر والشدة الى اقصى الحدود ، وان الطابع الغالب على رسالة عيسى كان هو طابع اللين والتسامح الى اقصى الحدود ، بينما رسالة محمد عليه السلام كان الطابع الغالب عليها هو طابع التربية والتهذيب ، عن طريق الترغيب والترهيب ، دون شدة مفرطة ولا لين مفرط « كنتم امة **وسطا** » .

وفى هذا السياق قال امير المؤمنين حفظه الله : (ان رسالة موسى كانت رسالة زجر ، رسالة نذير ، لا رسالة بشير ، وان موسى كان فى عراك دائم مع قومه ، وكان لا يفتر عن الدعاء عليهم بالسوء ، اذ لم ينل من جانبهم ما يسره فى اي يوم من الايام ، ولم يصل معهم الى نتيجة حاسمة ، رغما عن كونه لم يترك وسيلة لتقويم اعوجاجهم الا استعملها ، ولا طريقا لارشادهم الا سلكها) .

ويكفي الرجوع الى كتاب الله لتبين هذه الحقيقة . يقول الله تعالى « واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم » . ويقول الله تعالى « واذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون » . ويقول الله تعالى «واذ قال موسى لقومه ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة. قالوا اتتخذنا هزؤا . قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين » . وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يرحم الله موسى قد اوذي بأكثر من هذا فصبر) .

وقد قام امير المؤمنين بترجمة شخصية لبعض الفقرات من نص التوراة المتعارفة اليوم تؤكد هذا الاتجاه . فقد جاء فيها على لسان موسى : (الى اي حين سيظل هذا الشعب يهزأ بي ، ويسخر مني ، والى اي وقت سيبقى غير مومن بي ، رغم جميع النعم التى اسبغتها عليه . انني سأسلط عليه الطاعون) . والى هذا الطاعون الذى سلطه الله على بني اسرئيل يشير قوله تعالى « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم، فانزلنا على الذين ظلموا **رجزا** من السماء بما كانوا يفسقون » .

ومما يشهد لكلام امير المؤمنين فى هذا الصدد ما يرويه المؤلفون اليهود انفسهم فيما كتبوه عن تاريخهم الخاص ، من ان موسى عليه السلام قد تنبأ بما سيصيبهم من غضب الله وسخطه ، وما سينالهم من التشرد والتشتت فى اطراف الارض ، جزاء مخالفتهم له وتمردهم عليهم فقد ذكروا ان شراح التلمود والمدراش فى القرن الثالث الميلادي قد تناولوا بالتفسير والتعليق قطعة من «انشودة» موسى هذا نص ترجمتها : (انهم — اي اليهود — اثاروا نقمتي بمعصيتهم لله واثاروا غضبي بعنادهم وكبرهم وسخافاتهم. وانا بدوري سأثير نقمة الله عليهم ماداموا ليسوا شعبا ، وساحل عليهم غضب الله على يد امة حمقاء) . والى هذه القطعة استند اولئك الشراح فى تبرير وتفسير كل ما اصاب اليهود من مطاردة وتشريد ، تصديقا لنبوة موسى عليه السلام التى تنبأ بها فى عهد مبكر . وهذا المعنى يتفق تمام الاتفاق مع كتاب الله اذ يقول : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله، ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

وهكذا حقت على اليهود كلمة العذاب ، وتعرضوا للنفي والتشريد منذ اكثر من سبعة وعشرين قرنا ، وانتهى وجودهم السياسي الذى بدا فى عهد داوود بانتهاء حكم ابنه سليمان ، فكان ظهورهم على المسرح قصير الامد ، وكانت خاتمته تهديم الهيكل للمرة الثانية على يد الرومان سنة 70 ميلادية . قال المؤرخ الانجليزي الشهير هـ. ج. ولز فى كتابه « معالم تاريخ الانسانية » : « لقد كانت المملكة العبرانية من بدايتها الى نهايتها مجرد **حدث صغير** على **هامش** احداث تاريخ مصر واشور وفينيقيا ، ذلك التاريخ الاكثر سعة وعظمة ، وكانت حياة العبرانيين شبيهة بحياة رجل اصر على العيش وسط سوق صاخب ، فكان مصيره ان تدهمه سيارات الجمهور وناقلات البضائع) .

ثم بين امير المومنين النمط الجديد الذى اخذ يبشر به عيسى عليه السلام فيما يتعلق بربوبية الله، وما سلكه فى مواعظه من الدعوة بالخصوص الى رب الرحمة ، ورب التوبة ، ورب المغفرة ، مركزا دعوته على مظهر الجمال فى الربوبية ، بدلا من مظهر الجلال. الا ان دعوته — بالنسبة للدعوة الاسلامية التى كانت خاتمة الدعوات والرسالات — اخذت طابعا خاصا من المبالغة والغلو : مبالغة وغلو فى التسامح والعفو ،

ومبالغة وغلو في الزهد والانصراف عن الدنيا ، مما يتجلى اولا في القول المروى عنه : (اذا ضربك احد على خدك الايمن فقدم له في الحين خدك الايسر) ، وثانيا في القول المروى عنه ايضا : (انظروا الى الطير في السماء ، فهي لا تبذر ولا تحصد ، ولا تجمع الحب في البيادر والحقول ، وانما يطعمها ربكم الاعلى ، فهل لستم اجل منها قدرا وارفع شأنا) .

وهكذا كانت دعوة عيسى ، التي بشر بها اتباعه ، غير صالحة لكل زمان ومكان، لانها لا تنسجم مع الفطرة البشرية ، ولا مع مقتضيات الحياة اليومية ، بينما رسالة خاتم الانبياء والمرسلين جاءت مطابقة للفطرة، مبنية على الحكمة ، مطبوعة بطابع الاعتدال ، متجهة الى التربية والتهذيب ، عن طريق الترغيب والترهيب، فكانت هي الحد الوسط ، والشريعة المثلى ، والمحجة البيضاء .

روى البخاري في صحيحه في (باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل) (ان زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه قبل ظهور الاسلام . فلقي عالما من اليهود ، فسأله عن دينهم وقال له : لعلي ان ادين دينكم ، فاخبرني . فقال له العالم اليهودي : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . فقال له زيد : ما افر الا من غضب الله ، ولا احمل من غضب الله شيئا ابدا — اي لا اطيقه — واني استطيعه ؟ فهل تدلني على غيره . فقال له العالم اليهودي : ما اعلمه الا ان يكون حنيفا . فقال له زيد : وما هو الحنيف ؟ فقال له : هو دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولا يعبد الا الله .

فخرج زيد فلقي عالما من النصارى ، فذكر له مثل ما قاله للاول. فقال له العالم النصراني : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . فقال له زيد : ما افر الا من لعنة الله ، ولا احمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا ابدا ، واني استطيع ؟ فهل تدلني على غيره . فقال له العالم النصراني : ما اعلمه الا ان يكون حنيفا . فسأله زيد : وما الحنيف؟ فقال له : هو دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولا يعبد الا الله .

فلما راى زيد قولهم في ابراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم اشهد اني على دين ابراهيم) .

وبعد التحليل القيم الذى قام به امير المومنين للطابع الغالب على رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام ، زاد الموضوع تفصيلا وتحليلا بالحديث عن طابع الرسالة المحمدية الذى هو طابع رحمة وتهذيب وحدب ، وكان من اقوى الحجج التى استدل بها امير المومنين ، قوله تعالى في كتابه المبين ، مخاطبا عباده المومنين : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين) .. الآية . فهذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها تعرب عن لطف الله بالامة المحمدية، وتنص على ان ابتلاء الله لها انما يكون بشيء قليل من الخوف ، او من الجوع ، او بالنقص في الاموال، او بالنقص في الانفس ، او بالنقص في الثمرات ، نقص عن طريق الخسارة او الموت ، الجائحة ، وحتى على فرض ان الله اراد ان يبتلي عباده المومنين بهذه المحن مجتمعة ، فانه سبحانه وتعالى — تفضلا منه وكرما — لن يجعل ابتلاءهم بها الا مؤقتا ، ولامد محدود ، ريثما يعتبرون ويتعظون ، ويعودون الى رشدهم والى ربهم ، تائبين منيبين .

وهذا المعنى الدقيق الذى اختاره امير المومنين لتفسير هذه الآية الكريمة تؤيده عدة شواهد من اقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وافعاله :

— روينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية « قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم » قال النبي صلى الله عليه وسلم : اعوذ بوجهك — مستعيذا بالله ، قال تعالى : « او من تحت ارجلكم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اعوذ بوجهك — مستعيذا بالله مرة اخرى ، فقال تعالى : « او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **هذا أيسر .**

— وروينا في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (سألت ربي ثلاثا فاعطاني اثنتين ومنعني عن واحدة . سألت ربي ان لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم ، فاعطانيها . وسألته ان لا يهلكهم بسنة عامة ، فأعطانيها . وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها) .

وبفضل هذه البشرى النبوية كان من خصائص هذه الامة المحمدية ان الله تعالى حماها من ان يعذبها بعذاب عام ، لا بعذاب عام يأتيها من قبل السماء ، ولا بعذاب عام يسلط عليها من الارض ، وحفظها من ان يسلط عليها عدو يجتاحها كما سلطه على بني اسرائيل المرة تلو المرة عبر القرون والاجيال .

ولعل من المفيد في هذا المقام توضيح معنى (البأس) الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ان لا يجعله بين المسلمين ، فلم يجب الى طلبه . فقد ذكر المحققون من حكماء العلماء انه يصدق على نوعين :

— النوع الاول — الفتن التي تجري على المسلمين ، فتحول بين قلوبهم وبين معرفة الحق والعمل به ، وتؤدي الى اذاية بعضهم بعضا بالقول او الفعل .

— والنوع الثاني — الاعتداءات التي تقع من اهل الباطل على اهل الحق ، والمحن التي يتسببون لهم فيها ، مما يكفر الله به السيئات ، ويرفع بالصبر عليه الدرجات .

والمتعدي من المسلمين على غيره من اخوانه اما ان يتوب الله عليه ، كما تاب على اخوة يوسف وآثره عليهم بصبره وتقواه ، واما ان لا يتوب فيكون الى الله ايابه ، وعليه حسابه ، ويكون على بقية المسلمين ان يامروه بالمعروف وينهوه عن المنكر ، ويقدموا اليه النصح الخالص ، حتى يفيء الى امر الله. ومن اجل ذلك اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم امته بتلك الوصية الخالدة التي يقول فيها عليه السلام فيما رواه البخاري عن ابن عمر : (انظروا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) .

وفي نطاق المقارنة الموضوعية والتحليل المنهجي اللذين قام بهما امير المؤمنين لتبيين فضل الاسلام على بقية الاديان ، اشار جلالته الى حديث صحيح ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخاري في (باب خاتم النبيئين صلى الله عليه وسلم) ، وقد رواه بصيغتين :

— الصيغة الاولى — عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(مثلي ومثل الانبياء كرجل بنى دارا ، فاكملها واحسنها ، الا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : لولا موضع اللبنة) .

— الصيغة الثانية — عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه واجمله ، الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ **فأنا اللبنة ، وانا خاتم النبيئين**) .

وعند تحليل امير المومنين لمعنى هذا الحديث بين جلالته ان « اللبنة » المشار اليها فيه ترمز الى ان الرسالة الاسلامية هي بيت القصيد ، وواسطة العقد ، ومسك الختام ، بالنسبة للرسالات الالهية جمعاء ، ونبه امير المومنين الى انه (اذا صح تشبيه الديانات المختلفة بالعملة التي يمكن بها التعامل ، فان رسالة الاسلام الملائمة للفطرة تفضل جميع الرسالات الاخرى ، لانها تمتاز عنها كلها ، بكونها عملة قويه ، صالحة لان يتعامل بها في كل مكان وفي كل زمان ، ويمكن ان تتعامل بها دون مشقة ولا كلفة جميع السلالات والاجناس ، كما تمتاز بكونها رسالة عامة ، الى الناس كافة ، لا فرق بين الخواص والعوام ، والاميين والمثقفين ، بما في ذلك من عرف السحر ومهر فيه، كالقوم الذين عاصروا موسى ، ومن عرف الطب ومهر فيه ، كالقوم الذين عاصروا عيسى ، ومن عرف البيان ومهر فيه ، كالقوم الذين عاصروا الرسالة المحمدية ، ومن عرف غير ذلك من العلوم والفنون من بقية الاقوام ، قبل الرسالة او بعدها . فالرسالة الاسلامية موجهة اليهم جميعا ، مصداقا لقوله تعالى : « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » .

ومن دقائق العلم التي تؤيدها حقائق التاريخ ، ولها علاقة وطيدة بهذا الموضوع ما كشف عنه النقاب الامام ابن تيمية حيث بين الفرق الجوهري بين موقف « اهل الكتاب » وموقف « من لا كتاب لهم » من الرسالة الاسلامية قديما وحديثا :

ذلك ان « اهل الكتاب » على العموم — بدعوى ان عندهم كتابا منزلا — يظنون كل الظن ان الكتاب الذي عندهم على ما هو عليه يغنيهم عن الذكر الحكيم، واعتمادا منهم على هذا الظن لم يستقرئوا اخبار الرسالة المحمدية على وجهها الصحيح ، ولا احوال خاتم الانبياء والمرسلين كما يجب ، وهكذا لم تومن عامتهم برسالته ، جهلا بها ، ولم تومن خاصتهم برسالته ، عنادا لها ، وانما آمن بها عدد محدود من النصارى ، وعدد اقل من القليل من اليهود ، لغلبة الهوى والتعصب على خاصة اهل الكتاب ، وغلبة الجهل والتقليد على عامتهم .

بينما بقية الامم التي لم يكن لديها قبل الاسلام اي كتاب منزل ، نظرت في مضامين الرسالة

المحمدية ، وفى احوال المرسل بها الى الناس ، نظرة ابعد ما تكون عن الهوى والتعصب ، واقرب ما تكون الى الانصاف والموضوعية .

ولهذا لا تكاد توجد امة من الامم « التى لا كتاب عندها » يعرض عليها دين الاسلام واليهودية والنصرانية ، الا رجحت كفة الاسلام عليهما معا ، ودخلت فى دين الله افواجا ، وذلك هو الشان فى اكثرية الامم التى دخلت فى الاسلام ، ولاسيما فى القارتين الافريقية والآسيوية .

وهكذا كان الامر بالنسبة لمشركي العرب انفسهم ، فانهم بمجرد ما اقتنعوا بوجود « ظاهرة النبوة » وجنسها ، وقام لديهم الدليل عليها ، لم يبق عندهم اي شك فى نبوة خاتم الانبياء، وبمجرد ماعرفوا نبوته ادركوا من ذات انفسهم ان متابعته اولى وافضل من متابعة اليهود والنصارى ، فأسلم مشركو العرب عن بكرة ابيهم ، لان نبوة رسول الله اكمل واشمل من كل ما سبقها من النبوات .

وكما ورد الحديث الشريف ، مبينا مركز رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سبقه من الرسل ، ومركز رسالته بالنسبة لما سبقها من الرسالات حسبما وقع ذكره آنفا ، فقد ورد الحديث الشريف ايضا ، مبينا مركز الامة الاسلامية بالنسبة لمن سبقها من اهل الكتاب . ومن ذلك ما رواه البخاري فى صحيحه مكررا ، عن الزهري قال : اخبرني سالم بن عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

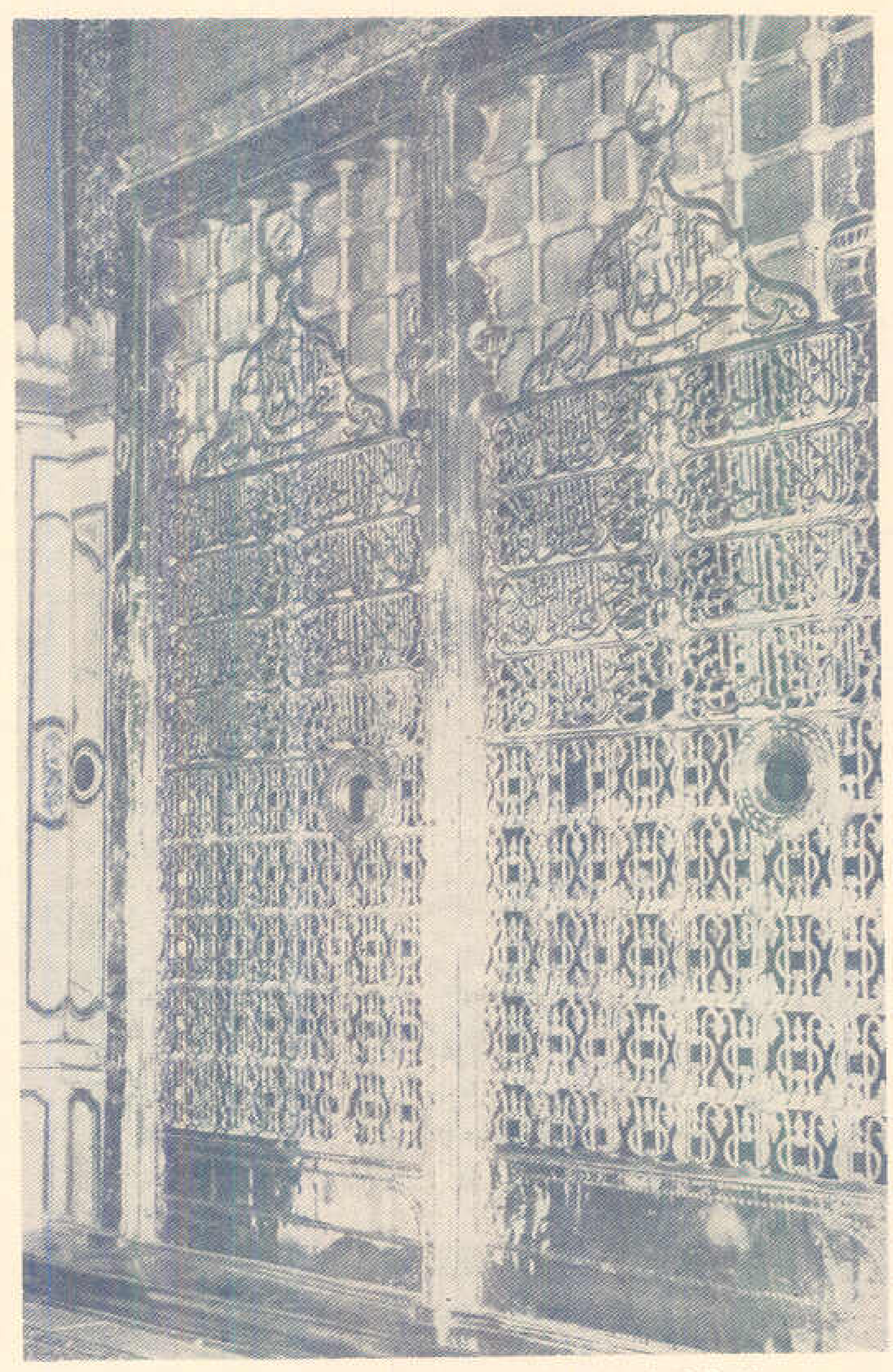
(انما بقاؤكم فيمن سلف من الامم ، كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس . اوتي اهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فاعطوا قيراطا قيراطا ، ثم اوتي اهل الانجيل الانجيل فعملوا به حتى صليت العصر ثم عجزوا ، فاعطوا قيراطا قيراطا . ثم اوتيتم القرءان فعملتم به حتى غربت الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين . فقال اهل الكتاب : هؤلاء اقل منا عملا واكثر اجرا . قال الله : (هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال: فهو فضلى **أوتيه من اشاء)** .

الربـاط ـ محمد المكي الناصري

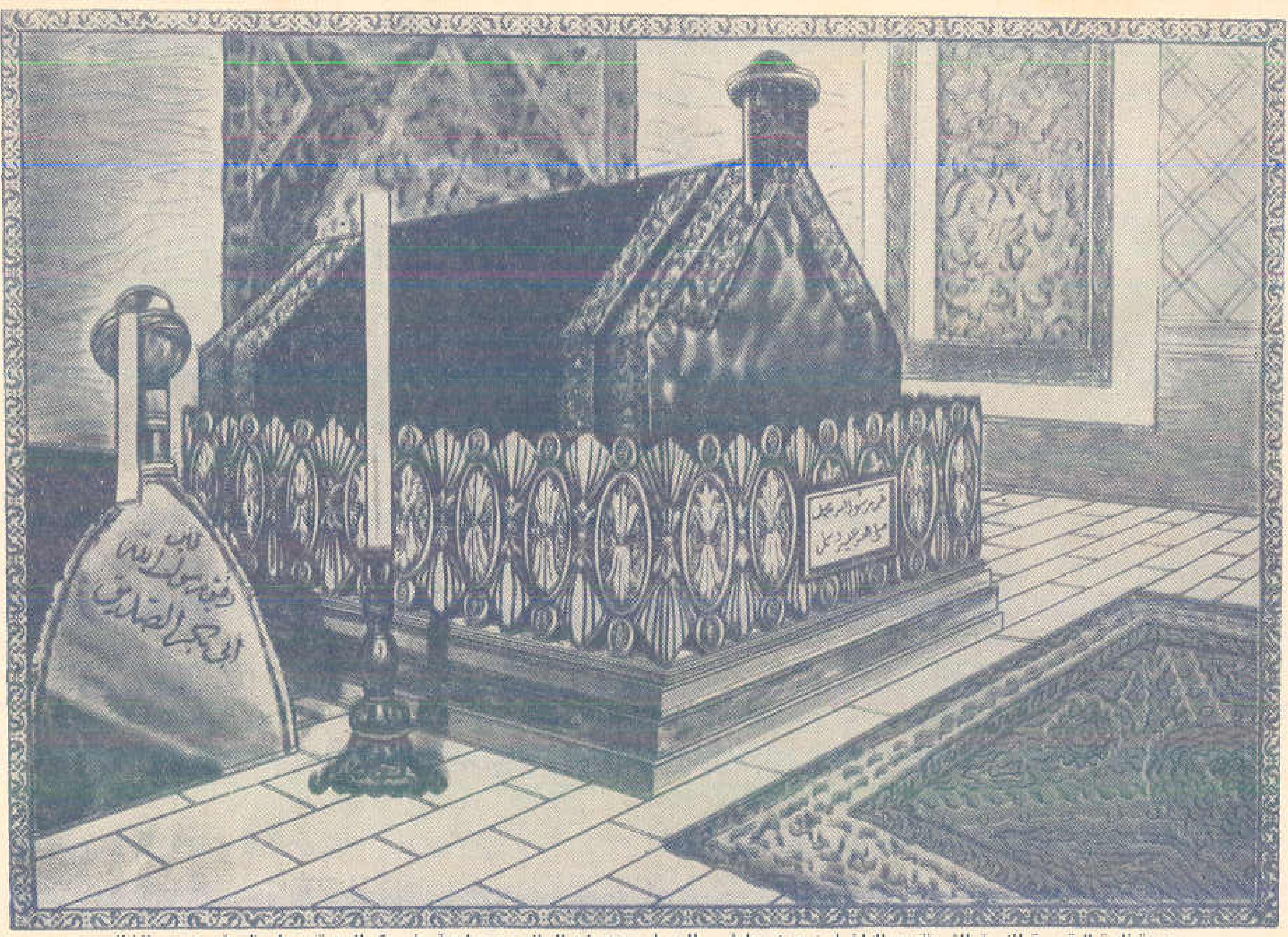
أيـدي الجهالـة بـددت ..!!

لقد كانت احداث الوطن العربي الكبير توحي بالقصائد النبوية التى تقتضيها حاجة البلاد الى الوحدة والحب والوئام ، وغيرها من المعاني التى جاء بها الاسلام . ففى سنة 1924 وفى لبنان لا فى القدس اجتمع جمهور كبير من المسلمين والمسيحيين امام الجامع العمري الكبير ببيروت ، وتبادلوا عواطف الود والوئام ، والقوا من الكلمات والقصائد ما تشير منه الى قصيدة دالية القاها الشاعر الكبير شبلى الملاط ، وقال فيها :

والله ما قال المسيح تباغضوا ... حتى تكون، ولا كتاب محمد
لكنما ايدي الجهالة بددت ... ابناء هذا القطر شر مبدد
قدموا التعصب انه الداء الذى ... يقضي عليكم بالهوان السرمدي
وابقوا على هذي العواطف،وليكن ... كل من الاعياد عيد المولد !



خلف هذا السياج المشغول وفق اعرق تقاليد الفن المعماري الاسلامي يقع قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبيه ابى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما



صورة نادرة للمقصورة النبوية الشريفة من الداخل ، ويرى بها قبر الرسول محمد عليه السلام ، وبجواره قبر أبي بكر الصديق ، ولم يظهر قبر عمر بن الخطاب الذي يليه . والمقصورة من النحاس الاصفر ، وطول كل من ضلعيها الشمالي والجنوبي 16 مترا ، وكل من الشرقي والغربي 15 مترا ، وداخلها بناء ذو خمسة اضلاع يحيط بالقبور الثلاثة ، وقد بناه نور الدين زنكي ، ونزل باساسه الى منابع الماء .



الحمد لله رب العالمين ، القائل فى كتابه الكريم: « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »، والصلاة والسلام على خاتم النبيئين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين : وبعد ،

اسلوب الوحي واسلوب البشر فى الكتابة :

ان الكتب التى تدرسها عامة نجد ان جميع ما فيها من معلوما توافكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه ، بأسلوب تاليفي وبصورة منسجمة . ولاجل ذلك فالدارس الذى ليس له عهدا بالقرءان ، اذا اراد ان يدرسه اول مرة فى حياته فانما يتناوله وهو على ظن انه باعتباره « كتابا » سيكون على غرار عامة الكتب التى تعود قراءتها ، قد حدد موضوعه المنشود، ثم قسم هذا الموضوع الى ابواب وفصول. وكذلك يظن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الانسانية على وجه الاستقلال بالبحث والعرض ليسرد ما يتعلق بها من احكام وتعاليم بترتيب متسلسل . الا ان الدارس اذا بدا يتصفح هذا الكتاب يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، فيجد اسلوبا لم يالفه من قبل ، اذ انه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية ، والاحكام الشرعية ، والدعوة والنصيحة ، والعبرة والنقد ، والزجر والتخويف والترغيب ، والحجج والشواهد ، والقصص التاريخية ، والاشارات الى آيات لله فى الكون . كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين ، ويبدا ويعاد بوجوه متباينة واساليب منوعة .

كما انه بينما يطرق موضوعا فاذا به يولي وجهه شطر موضوع ثان وثالث . بل يكون الامر اغرب من ذلك ، حين يبتدىء موضوع ثم يتخلله موضوع ءاخر بغتة . كما يتبدل المخاطب والمتكلم بين حين وءاخر ، وتتجه وجهة المحاورة الى جهات مختلفة مرة بعد اخرى .

اما تقسيم المواضيع والمباحث الى ابواب وفصول فلا عين له ولا اثر . واذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش على الاسلوب السائد لكتابة التاريخ . واذا سيقت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بامور ما وراء الطبيعة، لم تسبق فى مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق . واذا ذكر الانسان وما فى العالم من موجودات لم يذكر على منهج العلوم الطبيعية . واذا تطرق الموضوع الى شؤون المدنية او السياسة او الاقتصاد او الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع فى البحث والتمحيص . واذا اتى على ذكر من الاحكام القانونية واصول التشريع لم يات بصياغة يعتادها اصحاب التشريع وعلماء التقنين فى هذا المجال . واذا عرض تعاليمه فى الاخلاق واستقامة السلوك رايته يختار لها النمط الذي يغاير سائر ما كتب ودون فى هذا الباب .

ان الدارس اذا وجد هذا وامثاله على غير ما الفه من اساليب الكتابة وانماط البيان ، وعكس ما تعوده من مناهج التعبير تاخذه الدهشة ويبدا يستشعر ان هذا الكتاب ينقصه الترتيب ويعوزه التنقيص . ويشكل من أوله الى ءاخره مجموعة من

شذور متناثرة وقطع مبعثرة جمعت في عبارات متسلسلة وحلقات متماسكة .

اما الدارس الذى لم يؤمن بهذا الكتاب ، ولا يريد من دراسته الا اثارة الشبهات ، فهو يجد فى فقدان الترتيب والتنسيق متسعا لاثارة الاعتراضات المتنوعة حول الكتاب . واما المؤمن به والخاضع له فتتجاذبه المواقف والاطوار .

فمرة يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته . واخرى يطمئن قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق الظاهري .

وثالثة يأتي بنتائج غريبة لمحاولته ايجاد وجوه للتناسق وذلك باجتهاد شخصي متكلف .

ورابعة يستسلم لفكرة « شذور متناثرة » فتصبح كل ءاية من ءاياته معزولة عن السياق العام . وتعود مسرحا لابتكار المعاني التى تخالف ما يريده العزيز الحكيم .

معلومات اولية ضرورية :

ولكي تتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب ، من الضروري جدا ان يكون الدارس قبل كل شيء على معرفة بموضوع الكتاب ، وعلى علم مسبق بمقاصده وغايته المتوخاة والبحث الرئيسي فيه ، وعلى اطلاع بطرائق اسلوبه ، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخاص فى التعبير وان لا يغيب عن نظره الاوضاع والملابسات التى تكمن وراء الفاظه ونصوصه.

ان عامة الكتب التى ندرسها نجد فيها الجوانب التى اشرت اليها بكل سهولة ، ولذلك لا نلاقي صعوبة فى استكناه اسرارها وبلوغ مغزاها . ولكننا لا نعثر عليها فى القرءان بالشكل الذى تعودناه فى غيره من الكتب . ولذلك اذا بدا يدرسه احد منا لعامة الكتب فلن يستطيع التعرف على موضوعه وغايته وبحثه الرئيسي ، وسيستغرب اسلوب بيانه وطراز تعبيره، ويعزب عن نظره الملابسات الكامنة وراء الفاظه فى معظم المواضيع .

ونتيجة لذلك فانه يحرم من التوصل الى روح كلام الله ، ورغم استفادته قليلا او كثيرا من لآلىء الحكم القرءانية المشرقة المتناثرة . وبالتالي يضطر الى الاكتفاء بحفنة من حكم مبعثرة ، والى اقتطاف قبضة من زهور متناثرة بدلا من ان يلم بعلم الكتاب ويطول فيه باعه . بل ان بعض الناس الذين يقعون فى شبهات واخطاء بعد دراسة القرءان ، يعزى سبب ضلالهم الى انهم قرأوا القرءان دون سابق المام بالقواعد اللازمة لفهمه فصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة متناثرة فى صفحاته ، ولم يظهر لهم مغزى كثير من ءاياته ، وراوا العديد من الآيات كأنها جواهر تتلالا بنور من الحكمة الربانية ، ولكنها فيما يبدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة . وكثيرا ما قذفهم جهلهم بأساليب القرءان التعبيرية ، وانماطه البيانية الى معان غير مقصودة . كما وقعوا فى ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لانهم ما عرفوا اسباب نزولها .

القرءان من أ ي انواع الكتب ؟ وما هي كيفية نزوله ؟ وما هو سر ترتيبه ؟ وما هو الموضوع الذى يدور حول كل نقاشه ؟ وما هي الغاية التى يتوخاها من بحثه ؟ وما هو البحث الرئيسي الذى يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث متوعة ومواضيع مختلفة ؟ وأ ي لون من الاستدلال واي نمط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف اليه .

هذه وامثالها من الاسئلة المهمة اذا وقف الانسان على الردود عليها فى مطلع الامر فانه يستطيع ان يتفادى كثيرا من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرءان . كما تتوسع فى وجهه سبل فهمه وتدبره. ومما لا خلاف فيه ان الذى يريد فى القرءان الترتيب التاليفي المتداول ثم يتخبط فى صفحاته خبط عشواء اذا لم يبلغ ما يريد ، فان مبعث تخبطه ومثار حيرته ليس الا انه لم يتعلم ما لدراسة القرءان وفهمه من اصول وقواعد ولانه بدا يطالع القرءان ظنا منه انه يطالع «كتابا» موضوعه «الدين» ، ويكون فى تصوره «للكتاب» و«للدين» على ما يكون فى اذهان عامة الناس من تصور «للدين» و «للكتاب». بيد انه حين يواجه فى هذا الكتاب ما يختلف عن تصوره الذهني يجد نفسه لا تانس اليه . ويظل يتيه بين دفتي الكتاب لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق فى بحثه . ويكون مثله فى ذلك كمثل النزيل الغريب الذى يهيم على وجهه فى دروب مدينة كبيرة . ويمكن ان يتفادى هذا الضياع لو اخبر مقدما بأن الكتاب الذى يريد دراسته هو نسيج وحده فى عالم التاليف . وتم « تاليفه » على نمط لم يتم عليه تاليف الكتب الاخرى . كما انه فذ فريد باعتبار موضوعه وبحثه وترتيبه .

فالقالب العام للكتاب كما تتصوره نتيجة دراستك الكتب والمؤلفات حتى اليوم لا يسعفك فى تفهم هذا

الكتاب ابدا ، بل يثير الحواجز دون طريقك . واذا احببت ان تفهمه ، عليك ان تبعد عن ذهنك كل ما اثبتت فيه من تصورات وقياسات ، وان تدرك ما لهذا الكتاب من خصائص بديعة ومزايا رائعة .

اصـل القـرءان :

يجب على قاريء القرءان ان يعرف قبـل كـل شيء « اصل » القرءان ، سواء ءامن به او لم يؤمن به . لانه ما دام يريد فهم هذا الكتاب فلا بـد له ان يقبل ابتداء اصله كما ورد فيه وكما بينه الذى انزل عليه هذا الكتاب وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ويمكن ان يتضح اصل القرءان فى النقاط الآتية:

1 – ان الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكـون ومالكه وحاكمه ، خلق الانسـان فى جـزء يسمـى « بالكوكب الارضي » من اجزاء مملكته التى لا نهاية لها ، واودعه قوى العلم والتفكير والادراك ، والهمـه تمييز الخبيث من الطيب ، واعطاه حريـة فى الادارة والاختيار ، ومنحه سلطة للتصرف فى الامور كما يشاء ، وخوله نوعا من الاستقـلال (Autonomy) واستخلفه فى الارض .

2 – وحينما عهد الله تعالى الى الانسان بهـذا المنصب الخطير ، اثبت فى قرارة نفسه هذه المعاني ، انى انا ربك ورب هذا العالم ، والهك واله هذا العالم ، وحاكمك وحاكم هذا العالم . فلا تكن فى مملكتي هذه حرا طليقا تركب راسك ، ولا تكن عبدا لغيري ، فلا احد غيري يستحق ان تطيعه وتعبده وتخضع امامه . وان الحياة الدنيا التى اعطيت فيها نوعا من الاستقلال انما هي فترة امتحان ترجع الى بعد انتهائها فافحص ما عملت فيها ، وافصل فى امر من نجح ومن رسب . واصح منهج تختاره فى هذه الدنيا : ان تتخذني الهك الواحد وحاكمك الفرد ، وتعمل حسب ما انزل من هـدى ، وان تعيش وانت تشعـر بان الدنيـا دار للامتحان ، وان غرضك الحقيقي هـو ان تنجـح فى الآخرة . وعليك ان تعلم ايضا ان كل منهج يخالف هذا المنهج هو خطل وخطأ . وانك ان اتبعت المنهج الاول (وانت حر فى ان تتبعه) فلن تتمتع فى الدنيا فحسب بالامن والاطمئنان ، بل سانعم عليك حيـن ترجع الي ، بدار اسمها الجنة « تجد فيها نعيما مقيما وراحة ابدية ، ولا يمسك فيها نصيب ولا لغـوب . وان سلكت منهجا ءاخر غير هذا المنهج (وانت حر فى ان تسلكه) فلن تذوق فى الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار، بل حينما تعبر هذا العالم الى عالـم الآخرة سيكون مصيرك الى هاوية النار فيها عذاب خالد والم دائم وغم ابدي .

3 – اسكن الله مالك الكون النوع البشري فى الارض بعد ان ثبت فى قرارة نفسه المعاني السابقة . كما انه جل شانه ءاتى الانسان الاول وزوجه – ءادم وحواء عليهما السلام – هدى من عنده ليتبعاه ، هما وذريتاه فى الارض . ولم يخلق الانسان الاول فـى حالة الجهل والظلام . بل ان الله سبحانه وتعـالى خلق ءادم وحواء ليبدءا حياتهما فى الارض على حالة من النور والعلم . فكان الانسان الاول يعرف ما هو الحق ، ويعلم ما ينبغي له علمه من قانون للحياة . ووصى بدوره ذريته بان لا يطيعوا الا الله ولا يموتوا الا وهم مسلمون . الا ان الانسان قد حاد عن المنهج الصحيح (اي الدين القيم) فى القرون المتعاقبـة رويدا رويدا ، واتبع السبل المعوجة والمناهج المنحرفة المتضاربة . وضل عن الطريق السوي بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابـرة مـرة اخـرى . فاشرك بالله فى ذاته وصفاته ذواتا عديدة من السماء والارض ، وهمية ومادية ، بشرية وغيـر بشريـة . وخلط انواعا من الاوهام وضروبـا من النظريـات والوانا من الفلسفات بنبع طاهر من العلم (اي علم الحق) الذى ءاتاه الله ، وصنع من ذلك مذاهب لا عد لها ولا حصر، ونبذ وراء ظهره ما قرره الله من مبادىء عادلة للاخلاق والمدنية (اي الشريعة) او مسخها . ثم وضع كما اوحى له هواه وعصبيته نظما ومناهـج للحياة ملأت ارض الله ظلما وفسادا وبورا وشقاء .

4 – ان الله الذى اعطى الانسان ذلك الاستقلال المحدود ، لم يتدخل – بصفة كونه تعالى خالقا – فى رد من ضل وغوى من الناس الى المنهـج الصحيـح بالقهر والقسر . كما ان المهلة التى منحها الله للانسان ليعمل فى الدنيا بحرية ، لم يكن ليناسبها ان ياخـذه ويهلكه بمجرد شقه عصا طاعته واتباعه طريق البغي. ثم ان الله سبحانه وتعالى قد اوجب على نفسه منذ بدء الخليقة ان يدبر للانسان طرق هدايته مع اقرار استقلاله فى فترة المهلة التى اعطاه اياها ، وتحقيقا لما اوجبه الله تعالى على نفسه بارادته المطلقة ، اصطفى الله من النوع البشري رجالا ءامنوا به وابتغـوا مرضاته ، واتخذهم مبعوثين له ، واوحى اليهم علم الحق ، وانزل عليهم منهجا صحيحا للحياة ، **وامرهم**

بأن يدعوا الناس الى الصراط المستقيم الذى عدلوا عنـــه .

5 ــ بعث هؤلاء الرســل الى مختلـف الامـم ومختلف الاقطار ، واستمرت سلسلة بعثهم ءالافا من السنين ، وكانوا ءالافا مؤلفة. وكانوا على دين واحد اي نفس المنهج الصحيح الذى علمه الله الانســان عند هبط الى الارض . وكانوا يتبعون هديا واحدا ، اي نفس المباديء الخالدة العادلة للاخلاق والمدنيـــة التى قررها الله تعالى للانسان فى بداية الامر . وكانــوا يرمون الى غرض واحد اي دعوة النوع البشري الى دين الله وهدايته . ثم ان الذين قبلوا دعوتهم نظموهم وجعلوهم امة واحدة ، تتبع احكام ربها وتطيع المنهج الالهي فى الدنيا ، وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا المنهج . ان رسل الله قاموا بتحقيق ما ارسلوا به على اكمل وجه . الا ان الذى حصل على مدار التاريخ هو انه لم يلتفت العدد الكثير من الناس الى دعوتهم . كما ان الذين ءامنوا بدعوتهم واتبعوهم واصبحوا امـــة مسلمة قد اخذوا فى الفســاد والضلال على مر الايام وكر الليالي . فمنهم من ضل عن الحق كل الضلال ، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرف الكلم عن مواضعه وكتب فيها بيده .

6 ــ واخيرا بعث الله محمـــدا صلى الله عليــه وسلم فى ارض العرب بنفس المهمة التى بعث بها من سبق من الانبياء والرسل . فكانت دعوته صلى الله عليه وسلم لكافة الناس بما فيهم اتباع الانبياء الذين خلوا من قبله . كانت مهمته صلى الله عليــه وسلـم دعوة الناس كافة الى المنهج الصحيح، وتبليغهم هداية الله من جديد ، وجعل من ءامنوا بهذه الدعوة امــة واحدة ، تقيم نظام حياتها على هـــدى من الله ثـم تخرج لهداية الدنيا واصلاحها . وان هذا القــرءان هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذى انزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فيه هــدى ونــور ، يهدي به من يشاء من عباده .

موضوع القرءان وبحثه الرئيسي وهدفه :

والآن وقد عرف القاريء « اصل » القــرءان ، يمكنه ان يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب ، وما هو بحثه الرئيسي ، وما هو هدفه المنشود :

فموضوعه « الانسان » : ما هو مــدار نجاحــه وسعادته وما هو مدار خسرانه وشقائه .

وبحثه الرئيسي : ان النظريــات التى وضعهــا الانســان عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الاله ، مدفوعا بدراسته السطحية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الاهواء ، ثـم المواقـــف التى اتخذها على اساس تلك النظريات ، فانها كلها فى حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحيـة المصير . وانما الحق هو الذى علمه الله للانسان حين جعله خليفة له فى الارض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الحسنة الا المنهج الذى ذكرنــاه فيمــا سبق وسميناه : « المنهج الصحيح » .

وهدفه : دعوة الانسان الى هذا المنهج الصحيح ، وتبيان الهدى الله الذى ضل عنه الانسان بعدم المبالاة، او شوهه بدافع من غروره ومكابرته .

والذى يدرس القرءان واضعا هذه النقاط الثلاث الاساسـية امام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، ان هذا الكتاب لم يحد عن موضوعــه وبحثــه الرئيسي وهدفه المنشود ، حتى ولا قيد شعرة. وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي التئام الــدرر الملونـة الصغيرة والكبيرة فى سمط القلادة السندسي . انه يحدث عن السماء كيف صنعت ، وعن الانسـان كيف خلق ، وعن المشاهدات فى ءاثار الكون ، وعن الامـم الخالية وقصصها انه ينتقد اعمال مختلـف الامــم وسلوكها وعقائدها . انه يوضح الشؤون والمسائل التى هي وراء الطبيعة . انه يتناول امورا كثيرة غيــر مــا ذكرنا . لا ليدرس الانسان علوم الطبيعة او التاريـخ او الفلسـفة او اي فن من الفنون او ادب من الآداب ، بل لكي يزيل ما عليه الناس من خطأ وسـوء فهم عن الحق ، ويقرر فى اذهانهـم الحقيقـة الواقعيــة ، ويشعرهم بما يؤدي اليه المنهج الذى يخالف الحق من مصير بئيس وعاقبة وخيمة ، ويدعوهم الى المنهج الذى يلائم الحق ويأخذهم الى حسن المآب . ولهذا السبب نفســه هو لا يحدث عن كل هذه الامور الا فى اسلوب يتناسب مع هدفه ، والى حد يلزم له . ومن دأبه انه يذكر هذه الامور بقدر الحاجة ثم يعود الى بيان هدفه وبحثه الرئيسي بغض النظر عن التفاصيل التي لا علاقة لها بالبحث . ولذلك ترى حديثه يدور حول « الدعوة » بدون التواء وبكل اتزان .

غير انه من الصعب على الانسان ان يفهم الاسلوب البياني للقرءان وترتيبه واكثر مباحثه ما دام لا يعرف كيفية نزوله .

مراحل نزول القرءان :

ليس القرءان بكتاب انزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ثم امره بنشره ودعوة الناس الى ما فيه من منهج خاص للحياة البشرية . كما انه ليس بكتاب عرض فيه موضوعه وبحثه الرئيسي على غرار اسلوب التاليف الشائع . ولذلك لا تجد فيه الترتيب الذى هو من شان كتب الدنيا . هذا الكتاب فى حقيقة الامر من نوع فريد ..

المرحلة الاولى :

وقصته ان الله تعالى قد اصطفى عبدا من عباده فى مكة ـ احدى مدن جزيرة العرب ـ لرسالته ، وامره ان يبدأ بدعوته فى مدينته وفى عشيرته (قريش) ، وقد لقنه التعاليم لا بد منها للشروع فى هذه المهمة . وهذه التعاليم الابتدائية كانت فى معظمها تحتوي على ثلاث نواح :

اولا : تعليم الرسول كيف يعد نفسه لتحقيق هذا الامر الجليل وعلى أي طراز يسعى سعيه .

ثانيا : المعلومات الاولية عن الحق ، والرد الاجمالي على ما كان فى اذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات واخطاء عن الحق جعلت منهجهم فى الحياة فى عمى وضلال .

ثالثا : دعوة الناس الى المنهج الصحيح ، وايضاح مبادىء الاخلاق الرئيسية التى يحتضنها الهدي الالهي والتي فى اتباعها نجاح الانسان وسعادته .

كانت هذه المعاني الاولية تحتوي على شذور موجزة تناسب مرحلة انطلاق الدعوة فى لغتها الرفيعة ، وفى معانيها السامية ، وفى حلاوتها المتناهية ، وفى تاثيرها البالغ وهي فى اعلى درجات الذوق الادبي الذى كان يساير مستوى ذوق المخاطب لتنطبع هذه الشذور الزمردية من النغم الالهي فى قلوب القوم انطباع السهم فى الصدور . ولتميل اليها الآذان مستجيبة لترنمها الساحر ، ولتجري الالسن بترديدها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق .

ثم ان هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الاوضاع المحلية الى حد كبير . وان كان الحديث يدور حول الحقائق الكونية الخالدة ولكن الدلائل التى كانت تساق لها ، والشواهد التى كانت تشير اليها ، والنظائر التى كانت تؤتي بها ، كانت تلتقط كلها من البيئة المجاورة المالوفة للناس . فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم ، وما قص فيها من الاحداث فهي احداثهم وتقاليدهم ، وما ذكر فيها من الآثار فهي مما كانوا يشاهدونه بأم أعينهم ، وما ردد فيها من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية ، ومساوئهم الخلقية ، وعيوبهم الاجتماعية . وذلك لكي تصير هذه الدعوة اوقع فى نفوسهم واقرب الى اذهانهم .

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالي اربع او خمس سنوات. ورد الفعل الذى ظهر فى هذه المرحلة من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كان يتجلى فى ثلاثة اشكال :

1 ـ ءامن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا امة مسلمة .

2 ـ نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه الدعوة، اما لجهلهم او انجرافهم وراء الاهواء والاغراض او ولوعهم بما وجدوا عليهم ءاباءهم .

3 ـ بدات هذه لدعوة الجديدة تتعدى حدود مكة واهلها من قريش وتنتشر فى نطاق اوسع نسبيا.

المرحلة الثانية :

ثم بدات المرحلة الثانية من الدعوة . وقد نشأ فى هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الاسلامية وبين الجاهلية السائدة ، وامتدت سلسلته قرابة ثماني او تسع سنوات ، لا فى مكة فحسب او بين قريش فحسب ، بل كل من كان يريد بقاء الجاهلية الاولى فى معظم اقطار جزيرة العرب ، شمر عن ساقه وكشر عن انيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة .

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكائد لقمع هذه الدعوة ، قاموا بدعاية كاذبة ، والقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات ، وقذفوا الوساوس المنوعة فى قلوب الناس ، وحاولوا صد الذين كانوا يجهلون امر النبي عن استماع ما يقوله ، وانهالوا على الذين ءامنوا بالله ورسوله بالوان من الظلم وانواع من التنكيل ، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية، ونغصوا عليهم العيش حتى اضطر كثير منهم الى

الهجرة من ديارهم الى بلاد الحبشة مرتين . وءاخر الامر هاجر جميعهم الى يثرب (المدينة المنورة) . وعلى رغم هذه المعارضة الشديدة والتى كانت فى ازدياد مستمر ، بقيت الحركة فى انتشار وازدهار . ولم يكن بيت من بيوت مكة الا وقد ءامن فرد من افراده . وكان مما يزيد المعارضين عداء وحنقا لهذه الحركة أن اصبح اشقاؤهم واحفادهم وابناؤهم واخواتهم يتبعون دين الله . وليس ذلك فحسب ، بل اصبحوا يستصرخون كل نفس ونفيس فى سبيله ثم نهضوا يقاتلون ذوي قرباهم .

ومن الطريف ان الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الاولى وينضمون الى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم ، وحينما كانوا ينخرطون فى سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون فى صلاحهم وصدقهم واستقامة اخلاقهم الشاو البعيد ، حيث لم تتمالك الدنيا الا الاقتناع بسمو الدعوة التى كانت تستمليهم بشدة ثم تصنع منهم ما تصنع .

وفى غضون هذا الصراع العنيف الطويل ، كان الله تعالى ينزل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة ، كلمات (ءايات) هياجة فى جريانها كالنهر الجاري وفى قوتها كالفيضان الهائل وفى تاثيرها كالنار المضطرمة . وفى هذه (الآيات) اخبر المومنون بواجباتهم الابتدائية ، وبعث فيهم الوعي الجماعي الحركي ، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الاخلاق وطهارة السلوك ، ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيم وطرق اقامته ، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التى فيها نعيم مقيم . واستحثوا على الجهاد فى سبيل الله بصبر واستقامة ومعنوية عالية . وعبئت قلوبهم بشوق دافق الى جنة عرضها السماوات والارض ، وملئوا بحماسة دفعتهم الى مواجهة اقسى محنة والوقوف فى وجه اعتى عاصفة من المعارضة .

هذا فى جانب المؤمنين ، وفى الجانب الآخر انذر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله ، وحاربوا دعوته واعرضوا عن الحق ، بما صارت اليه الامم التى خلت من قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها . ودعوا للاعتبار بآثار المؤتفكات كانوا يمرون على انقاضها مصبحين وممسين اثناء اسفارهم . وعرضت عليهم ادلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التى كانوا يشاهدونها فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار ، وكانوا يرونها ويشعرون بها فى انفسهم وفى حياتهم فى كل ءان . كما بين لهم بطلان موقف الاشراك بالله والادعاء بالاستقلال المطلق ، وجحود الآخرة واصرار على اتباع ما وجدوا عليه ءاباءهم ، بدلائل ناصعة تستقر فى القلوب وتنفذ الى الاعماق البعيدة من العقول . وازيلت ءاخر شبهة عالقة بأذهانهم عن صحة الدعوة ، ورد ءاخر اعتراض منهم برد معقول ، وحل ءاخر تعقيد ذهني كانوا قد وقعوا فيه او كانوا يوقعون غيرهم فيه .

وخلاصة القول ان الجاهلية حوصرت من كل جهة وضيق عليها خناقها بشكل لم تبق لها معه اية مكانة فى عالم العقل والحصافة والجدية . ثم انذروا – مع ذلك – بغضب الله واهوال يوم القيامة وعذاب جهنم ، ووبخوا على ما كانوا عليه من رذالة الخلق ، ومنهج الحياة الباطل ، وتقاليد الجاهلية ، ومعاداة الحق وايذاء المؤمنين ، وعرضت عليهم المبادىء الاساسية للاخلاق والمدنية التى نشأت عليها – وستنشأ – حضارات صالحة طاهرة فى العالم كسبت رضى الله فى كل دور من ادوار التاريخ البشري .

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوي على عدة مراحل جزئية ، وفى كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها . وبالتالي ظل النضال يشتد ، ونار المعارضة تتسعر . وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلا جديدا من العقائد والافكار وتناضل نوعا جديدا من الفئات المختلفة فى اخلاقها ومواقفها . ومن ثم فان ءايات الله كذلك زادت تنوعا فى بحثها وتلونا فى عرضها . وهذا هو السياق التاريخي للقرءان المكي .

المرحلة الثالثة :

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاما تكافح وتجاهد . واذا بها تفوز بمقر لها فى يثرب (المدينة المنورة) ودعت اتباعها من انحاء جزيرة العرب الى هذا المقر ، لتكون مجتمعا مستقلا وتستجمع طاقاتها فى مركز واحد . فهاجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعظم اصحابه الذين اتبعوه باحسان الى المدينة المنورة . وبذلك دخلت الدعوة الاسلامية المرحلة الثالثة :

انقلب الوضع فى هذه المرحلة راسا على عقب، فالامة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة ،

وبدا القتال المسلح مع اصحاب الجاهلية القديمة ، وبدات الدعوة تواجه امم الانبياء السالفين (أي الامة اليهودية والامة المسيحية) ، كما بدات تتخلص كذلك من المنافقين الذين تسربوا الى الكيان الداخلي للامة الاسلامية . وبعد مقاسات الصراع العنيف والكفاح المديد عشر سنوات بلغت الحركة الاسلامية في نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة اصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين . وانفتحت امامها ابواب بث الدعوة على الصعيد العالمي ، والقيام بحركة اصلاحية عبر الحدود . وقد اشتملت هذه المرحلة ايضا على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بها . وتحقيقا لهذه الحاجات انزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم من الكلمات (الآيات) ما كان اسلوبها يتنوع بتنوع الحاجة . فمرة كان اسلوبها اسلوب الخطاب المجلجل الرنان المتاجج بنار المشاعر ، واخرى اسلوب الاوامر والمراسيم الملكية، وثالثة اسلوب دروس المعلم، ورابعة اسلوب تذكير المصلح الناصح . وجاء فيه كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدنية الصالحة . وعلى أي المبادىء وانظمة تقام مختلف نواحي الحياة . وبأي طريق يتعامل مع المنافقين ومع اهل الذمة من الكافرين . وعلى اي لون توطد العلاقات مع اهل الكتاب ، وماذا يختار من السلوك مع الاعداء المحاربين والاقوام المعاهدين . وكيف تعد هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها للقيام بمهمة خلافة الله في الارض .

هذه الكلمات او الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام ، وكانت تنبههم على مواطن ضعفهم وتحرضهم على ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وتعطيهم دروسا في الاخلاق والسلوك تناسب واقعهم في الانتصار والهزيمة ، وفي المحنة والراحة وفي السراء والضراء وفي الامن والخوف وما الى ذلك من حالات . وكانت تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بحق ، ويتابعوا مهمته في الدعوة والاصلاح. هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) تخاطب الذين حرموا من الايمان من اهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين ، وتدعوهم الى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل الاقناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة ، وبالنصيحة البالغة ، والتقريع الشديد وبالتخويف من عذاب الله ، وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الاحداث والاوضاع المتضمنة للدروس القاسية . وذلك لتقيم عليهم الحجة ، وتسد عليهم منافذ الاعذار . وهذا هو السياق التاريخي للقرءان المدني .

القرءان كتاب دعوة ومنهج حركة :

ويتضح مما ذكرنا ءانفا ان القرءان كان نزوله مقترنا بالدعوة وتطورها وسيرها . فنزلت منه قطع مختلفة ، نجما نجما ، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها . وذلك في فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاما كاملا . ومن البديهي اذن ان مثل هذا الكتاب يعوزه الترتيب التاليفي من النوع الذى يختاره الطالب في اعداد البحث لاجل الحصول على شهادة الدكتوراه . كما ان القطع المختلفة الاحجام التى كانت نزلت منسجمة مع تطور الدعوة ، ما كانت تنشر في رسائل وكتيبات ، بل كانت تلقى في خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلغ من فرد لفرد . لذلك ما كانت تصاغ على اسلوب التاليف ، بل كانت تعرض في الاسلوب الخطابي الذى لا ينسج على منوال محاضرات الاستاذ في الجامعة ، بل كان يشابه خطبة الداعية الذى عليه ان يستهدف اثارة العواطف بجانب مناشدته العقول ، وعليه أن يواجه كل نوع من انواع العقليات ، وعليه ان يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته في ظروف متباينة واوضاع متضاربة . فمن اقرار الدعوة في سويداء القلوب الى مخاطبة العقول بمختلف النظريات الى استثارة الفيض من المشاعر ، الى كسر شوكة المعاضات ، الى تربية لاتباع واصلاحهم ، الى نفخ الحماس في نفوسهم، الى تحويل الاعداء اصدقاء اوفياء ، الى ارغام المنكرين على الاقرار ، الى دحض حجة الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الادبي . وما الى ذلك من الامور التى يجب على رائد الدعوة وقائد الحركة ان يقوم بها على اكمل وجه واوفق نهج .

ونظرا لكل ذلك ، فان الكلمات (الآيات والسور) التى انزلها الله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – فيما يتعلق بمهمته الجليلة كانت في اسلوب خطابها على نفس الاسلوب الذى يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذى تعيش فيه . ومن هنا لا يحسن بنا ان نطلب منه الاسلوب الذى يخص محاضرات الجامعة ودروسها .

سر التكرار فى القرءان :

ومن هنا يتضح وضوح الشمس فى رابعة النهار، سر ترديد بيانات القرءان بكثرة . اذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة ان لا تحدث الا بما يناسب المرحلة التى تعيش فيها ، وما دامت تعيش فيها لا تتعرض لحديث يخص المراحل المقبلة ، بل تظل تردد حديثها عن المرحلة التى هي فيها ولو استغرقت الشهور او السنين . وقد تتضجر الطبائع وتسأم الاذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر ، وفى صياغة واحدة تتردد . لذلك فان المباحث التى تخص مرحلة من المراحل وتمس الحاجة الى عرضها مرة بعد اخرى كان يجب ان تصاغ فى كل مرة فى الفاظ مبتكرة واساليب من المراحل متينة القواعد ، محكمة الدعائم ، مستقيمة البناء . ويجب فوق ذلك ان لا يعزب عن البال تلك المبادىء العامة والقواعد التى تعتمد عليها الدعوة فى كل حين من الاحيان وفى كل وضع من الاوضاع منذ الخطوة الاولى حتى تمامها وكمالها ، بل لابد من ان تلفت اليها الانظار فى جميع مراحل الدعوة مهما كان الحال . وهذا هو السر فى شمول جميع سور القرءان على موضوعات ثابتة ، ولكن فى الفاظ متجددة واسلوب متنوع .

فمثلا ما يتعلق بعقيدة التوحيد ، وصفات الله ، والآخرة ومسؤوليتها وعذابها وثوابها ، والرسالة والايمان بالكتاب ، وتقوى الله والصبر ، والمصابرة ، والتوكل وما الى ذلك من حقائق اساسية فانك لترى القرءان يعيد ذكرها ويردد بيانها فى جميع سوره المكية والمدنية ، لان الحركة لا تستطيع الاغماض عنها او التساهل فيها فى اية مرحلة من مراحلها. ولو كانت هذه العقائد الاساسية وهنت فى نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الاسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذة .

كيف رتبت ءايات القرءان :

واذا سبرت غور ما سبق قوله لتوصلت الى جواب مقنع على ما يدور فى خلدك من سؤال : لماذا لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرءان حسب ترتيب نزوله عليه ؟.

ان القرءان كان ينزل وفق الترتيب الذى سارت عليه الدعوة منذ بدئها حتى بلغت اوج الكمال. ويتضح من ذلك انه لم يكن من الحكمة فى شيء ان يختار لتدوين الاجزاء المنزلة نفس الترتيب الذى كان ملتئما مع سير الدعوة وتطورها بل الامر كان بحاجة الى ترتيب جديد يكون اكثر انسجاما واشد تجانسا وادق ارتباط مع الواقع الآني بعد كتمال الدعوة وتمام النعمة . لان المخاطبين الاولين لهذه الدعوة فى بداية امرها كانوا ممن يجهلون الاسلام بالكلية ، فلذلك غشاهم الوحي باوليات التعليم وبديهيات الايمان . ثم لما اكتملت الدعوة وبلغت ما شاء الله ان تبلغه اصبح مخاطبوها الاولون من الذين ءامنوا بها وكونوا امة مستقلة، اصبحوا مسؤولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التى سلمها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بعد كما لها فكرة ومنهاجا . وهكذا صار الامر الاهم هو ان يدرك هؤلاء المؤمنون ، قبل غيرهم ، واجباتهم ومناهج حياتهم ، وان يعرفوا الفتن والامراض التى ابتليت بها امم الانبياء فيما مضى ، قبل ان يتقدموا بهداية الله الى البشرية التى ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف .

وهناك حقيقة اخرى تتكشف للانسان اذا ما وفق الى معرفة أسلوب القرءان ، وهي ان وضع الآيات المتجانسة فى المباحث فى موضع واحد لا يوافق طبيعة هذا الكتاب . بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو ان يجد القاريء اثناء دراسته للقرءان الآيات المكية (اي التي نزلت فى مكة) يتخللها الآيات المدنية (اي التى نزلت فى المدينة) والمواعظ الابتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الابتدائية وهكذا يلمح امام عينيه منظر الاسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقا متلالئا بصفة مستمرة ، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها .

او جمع القرءان على الترتيب الذى نزل عليه لما كان هذا الترتيب مجديا ومفهوما للعصور التى تلت عهد النبوة ، بدون ان يضاف ان يضاف الى القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التى نزل فيها كل جزء من اجزائه كملحق للقرءان . الامر الذى كان ينافي الغرض الذى شاء الله لاجله أن يدون كلامه ويحفظ فى مصحف . والله سبحانه وتعالى كان يريد ان يجمع كلامه خالصا نقيا لا تشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره . يرتب على ما هو عليه من الايجاز والاعجاز معنى وصورة ، لتتيسر قراءته لكل فرد من الافراد : الصغير والكبير ، الناشيء والكهل ، الرجل والمراة ، الرجل العادي والعالم الضليع ، فى المدن والقرى ، فى كل زمان ومكان ، فى كل حال وواقع . وليدرك جميع الناس على الاقل — مهما

اختلفت درجات عقولهم ـ ماذا يريد الله منهم وماذا لا يريده منهم . ومن الواضح ان لو اضيف الى القرءان ، تاريخه المطول وجعلت تلاوته امرا لازما مع تلاوة القرءان ، لضاع هذا الفرض .

ومما لا يختلف فيه اثنان ان الذين يعترضون على الترتيب الحالي للقرءان يظنون عن سوء فهم ان هذا الكتاب قد انزل الى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع .

وفيما يتعلق بترتيب القرءان يجب ان يعرف الدارس كذلك ان الترتيب الحالي ما قام به الذين جاءوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو توقيفي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام . وكان من عادته صلى الله عليه وسلم انه كلما نزلت سورة من سور القرءان كان يدعو بعض كتابه وكان يامر بكتابتها ويامر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا وكذلك حين ينزل شيء من القرءان (اي ءاية او بضع ءايات) ولم يرد جعله سورة مستقلة امر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعه في موضع كذا من سورة كذا . ووفق هذا الترتيب نفسه كان صلى الله عليه وسلم يتلو القرءان في الصلوات وغيرها من المناسبات . ووفق هذا الترتيب نفسه كان اصحابه الكرام يستظهرون القرءان ويتدارسونه . ولهذا كان من الثابت تاريخيا ان اليوم الذى أكمل فيه نزول القرءان أكمل فيه ترتيبه . ومرتبه هو الذى انزله . والذى انزل القرءان على قلبه رتب القرءان على لسانه . وما كان لاحد غيره ان يتدخل فيه .

تدوين القرءان :

وبما ان الصلوات كتبت على المسلمين منذ البداية (1) وتعينت قراءة ما تيسر من القرءان فيها . فلذلك بدات في المسلمين حركة حفظه في الصدور مقرونة بنزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام . وكلما كان ينزل منه شيء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن ظهر غيب . ولم ينحصر حفظه

في الصدور مقرونة بنزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام . وكلما كان ينزل منه شيء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن ظهر غيب . ولم ينحصر حفظه بكتابته في العسب وقطع الادم وكسر الاكتاف (2) التي كان يكتب فيها كتاب النبي صلى الله عليه وسلم تحت رعايته ، بل كان يرتسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات فالمئات ثم الآلاف فالملايين ن الصدور ، ومن هنا ما كان لباطل ان ياتيه من بين يديه ولا من خلفه ليغير فيه ولو كلمة .

ولما ظهرت فتنة الردة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قام الصحابة رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع دابرها . فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة الذين كانوا يحفظون القرءان كله . الامر الذى بعث عمر رضي الله عنه على القول بانه لا ينبغي الاعتماد على صورة واحدة في باب المحافظة على الذكر الحكيم ، بل يجب الاهتمام بحفظه في طيات الصدور . فذكر عمر رضي الله ضرورة هذا الامر لابي بكر رضي الله عنه الذى تردد باديء ذي بدء ، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدر ابي بكر . وكلف زيد بن ثابت الانصاري الذى كان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكتب الوحي ان يتتبع القرءان ويجمعه . والطريقة التى قررت لاستكمال هذا الامر الخطير هي ان يجمع كل ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من اجزاء مكتوبة في صحف من الرقاع والجلد ونحوها ؛ ويؤخذ كذلك ما يوجد عند اي واحد من الصحابة مما كتب من القرءان ثم يستعان بحفاظ الصحابة في ضبط المحفوظ وبناء على شهادة اجماعية من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود اية غلطة في المكتوب والمقروء تسجله لفظة لفظة من القرءان. وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخة من القرءان في الصحف، واودعت عند ام المؤمنين حفصة رضي الله عنها التى كانت تحفظ القرءان كله في صدرها . واذن لعامة المسلمين ان ينسخوا منها او يقابلوا ما عندهم من المكتوب عليها .

---

(1) وليكن القاريء على ذكر ان الصلوات الخمس كتب على المسلمين بعد البعثة بسنوات، اما الصلوات كعبادة فقد امر بها المسلمون منذ ليوم لاول ، ولم تمض على الاسلام ساعة لم تكن الصلوات فيها واجبة مطلوبة .

(2) العسب بضم فسكون وبضمتين ايضا جمع عسيب : وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض . والادم بضمتين وبفتحتين ايضا جمع اديم : وهو الجلد المدبوغ . والاكتاف جمع كتف : وهو عظم عريض يكون في اصل كتف الحيوان .

وكانت لغات القبائل في الجزيرة العربية تختلف بعضها عن بعض في القراءات واللهجات شأن اختلافها باختلاف المدن والمديريات في بلادنا (باكستان) مع ان لسان جميعها واحد اي الاردو او البنجابي او البنغالي . والقرءان كان قد نزل بلغة قريش . ولكن اجيز في اول الامر للقبائل الاخرى ان يقرا اهل كل قبيلة القرآن بلغتهم وبما جرت عليه عادتهم ، لان ذلك لا يؤدي الى اختلاف معان موجبة لاختلاف احكامه . بل بذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة . ولما اتسع نطاق الفتوح الاسلامية ، وتعدى العرب صحاريهم القاحلة ، وفتحوا الاقطار الشاسعة من العالم ، ودخلت الامم الاخرى في دين الله ، واختلط العرب بالعجم ، وتأثرت بذلك الاختلاط ، خشي الناس حدوث انواع من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرءان بلهجاتهم وعاداتهم التي درجوا عليها كان يسمع احدهم غيره يقرا كتاب الله بلغة لم يألفها هو فيظنه يحرف القرءان متعمدا ، فيكفره ويقتتل معه . او يتدرج اختلاف الالفاظ والتلاوة الى فتح باب التحريف والتصحيف او ان تفسد لغة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرءان على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته .

وحرصا على ابعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضي الله عنه على مشورة من اصحاب الرسول صلى اللهعليه وسلم ، ان تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتي ضبطت في عهد ابي بكر رضي الله منه ، وتفرق في البلاد الاسلامية ويمنع من التداول ما سواه من القرءان المكتوب بقراءة اخرى او لهجة مخالفة . ففعل عثمان ذلك وعهد الى جماعة من الصحابة بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخا كثيرة وزعت على الامصار ، وبعث مع كل مصحف من يرشد الناس الى قراءته .

ان المصحف الذي بين ايدينا اليوم هو على طبق رسم مصحف الصديق الذي نسخ منه عثمان رضي الله عنه نسخا عديدة تحت اشرافه ، وفرق منها في المدن والامصار . ولا تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعديد من الاماكن في الدنيا . والذي يشك في « تمام حفظ » الذكر الحكيم فله ان يشتري نسخة من المصحف الكريم من مكتبة في افريقية الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من احد الحفاظ في جاوا ، ثم يقابله بما في المكتبات الكبيرة في العالم من المصاحف الاثرية التي كتبت في مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه الى يومنا هذا . فاذا وجد فيه فرقا ولو في كلمة من الكلمات او في حركة من الحركات فمن واجبه ان يطلع على الدنيا بهذا « الاكتشاف التاريخي المدهش » .

وللمرتاب ان يرتاب في كون القرءان منزلا من الله تعالى ان شاء . اما كون ما بايدينا بنصه وفصه الذي انزل على محمد صلى الله عليه وسلم واقراه الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك فيها . لا تجد شيئا مما توارثته الدنيا في التاريخ البشري الطويل يكون على ما عليه القرءان من الثبوت القطعي المحتوم . ومن يشك في صحته فقد يشك ايضا في ظهور الامبراطورية الرومانية على الارض المعمورة في عصر من عصور التاريخ ، او في الحكم المغولي في الهند قبل قرون ، او في وجود شخصية «نابليون» وابداء الشك في ظواهر تاريخية كهذه ليست من خصائص العلم والمعرفة وانما هو من امارات الجهالة والغباوة .

منهج لدراسة القرءان :

ان القرءان كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لاجل عدد لا يحصى من الاغراض. لذلك يتعذر علي ان اقدم للدارس مقترحاتي في صدد دراسة للقرءان تستهدف تحقيق مطالب واغراض هذا العدد الهائل من الواردين عليه . ولا يجذبني من هذه الكتل البشرية الا الذين اشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة مطالبه وتوجيهاته في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة . فاحب ان اعرف هؤلاء منهجا لدراسة القرءان ، ثم اشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التي يواجهها كل دارس بصفة عامة .

يجب — كخطوة اولى — على كل من يريد فهم القرءان ، سواء ءامن به او لم يؤمن ان يخلي ذهنه ما امكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات ، ويطهره من سائر ما يكنه من الرغبات الموالية او المناوئة ، ثم يكب على دراسته بقلب مفتوح واذن واعية وقصد نزيه لفهمه . اما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات في اذهانهم مقدما فيما يقرؤون بين دفتيه الا تصوراتهم انفسهم . ولا يجدون شيئا من رائحة القرءان . ولا يصلح هذا المنهج لدراسة اي كتاب من الكتب فكيف بالقرءان الذي لا يفتح كنوز معانيه ابدا للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج.

منهج الدراسة التفصيلية الشاملة :

ثم ان الذي لا يريد من القرءان الا معرفة اجمالية فعسى ان يكفيه دراسته مرة او مرتين . اما الذي يريد ان يغوص في اعماقه ، ويدرك اسراره فلا يكفيه ان يدرسه اربع او خمس مرات . وعليه ان يفزع اليه تكرارا ومرارا، ويقبل على دراسته اقبالا لا ملل فيه ولا كلل ، وان يدرسه كل مرة من وجهة جديدة ، وان يأخذ معه — كطالب من الطلبة — الادوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجل ما يعن له من نقاط هامة خلال الدراسة . والذين يرغبون في دراسته على نهج قويم كما قلنا ، عليهم ان يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد ان يلمع امامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام الذي يفاصل الدنيا عليه . كما عليهم ان يحاولوا خلال الدراسة الاولية تحقيق النظرة الاجمالية في مشاهد القرءان العامة ويتبينوا التصورات الاصلية التي يبينها على اساس هذه التصورات . وفي خلال هذه الرحلة الممتعة اذا خطر في ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البت في شانه بل يقيدونه في مذكرة ، ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجد ، فهم سوف يعثرون غالبا على الجواب فيما يقبل من الصفحات . واذا عثروا عليه قيدوه كذلك في المذكرة امام السؤال . واذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الاولية يستانفون دراسته كجولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتاني دثارهم . واقول بناء على تجاربي : لا يكون من سؤال الا وتجدون جوابه ، وما من معضلة الا وتبلغون حلها في دراستكم العميقة الثانية . اللهم الا في الندرة النادرة التي تتقاصر عنها افهام الرجال .

هذا ، وبعد تحقق النظر الاجمالي الشامل في القرءان على ما اشرنا ، على الدارس ان يبدا بدراسة تفصيلية للقرءان . وفي هذا الصدد يجب عليه ان يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرءان التي يمر بها اثناء الدراسة ، فيحاول — مثلا — ان يعرف ما هو المثل الانساني الاعلى الذي يحبه القرءان، وما هو النموذج الانساني الذي يكرهه ويبغضه . وتحقيقا لهذا المطلب يسجل في مذكرته خصال « الانسان المطلوب » في نظر القرءان في عمود ، وخصال « الانسان المرفوض » في نظره في عمود مماثل وجها لوجه . كما يحاول ان يعرف — كمثل ءاخر — موجبات نجاح الانسان وسعادته حسب مقياس القرءان ، والاسباب التي يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء . واصح طريقة لمعرفة هذا المطلب ايضا ، بابعاده الشاسعة وتفاصيله الشاملة ، ان يقيم في مذكرته عمودين مماثلين : احدهما لموجبات السعادة ، والثاني لموجبات الخسران ، ويسجل كل ما يصل اليه في هذا الموضوع . وقياسا على ذلك ينبغي له ان يقيد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرءان الحكيم في كل مسالة من مسائل الحياة من العقائد والاخلاق والحقوق والواجبات ، والاجتماع والمدنية ، والاقتصاد والسياسة ، والتشريع ونظام الجماعة ، والحرب والمهادنة وما الى ذلك ، لكي يستبين على اي شكل تتكون الحياة الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها في الاطار العام .

منهج دراسة مسألة بعينها :

ثم اذا اراد الانسان ان يتبين وجهة نظر القرءان في مسالة من مسائل الحياة فيستحسن له ان يطالع ما كتب فيها قديما وحديثا بكل امعان ، ويحدد بوضوح ما لهذه المسالة من نواح اساسية ونقاط رئيسية ، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل اليه في هذه المسالة عبر التاريخ وما هي جوانبها التي تتطلب حلولا ، وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الانساني تخطيها حتى اليوم . واذا حقق ذلك ، فله ان يدرس القرءان واضعا امام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسالة . ومما جربته ان الانسان اذا درس القرءان باحثا في مسالة من المسائل على نحو ما ذكرت ، فانه يفاجا بالردود على اسئلته في ءايات قد قراها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله ان تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود .

شروط اساسية لدارس القرءان :

ومهما يتخذ الانسان من التدابير ويستخدم من الوسائل لفهم القرءان فانه لا يصل الى جوهر القرءان وروحه كما ينبغي ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرءان .

ان القرءان ليس يحوي نظريات مجردة وافكارا محضة حتى تدرسه جالسا على الاريكة ثم تفهم جميع مطالبه . كما انه ليس بكتاب يبحث في اللاهوت فتحل جميع اسراره ومكنوناته في المعاهد والزوايا . ان هذا الكتاب ، كما قلنا في مستهل المقدمة **كتاب دعوة وحركة** . وبمجرد نزوله اخرج

رجلا وادعا دمثا ، سليم الفطرة كريم الشيم ومحب لسكوت ، من زاوية الانعزال ، واوقفه في مواجهة العالم الذى كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ويحارب ائمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال . ان هذا الكتاب اخرج غيظ كل فتان مفسد وجعله يقاتل انصار الدعوة ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة .

ان هذا الكتاب هو الذى قام بتوجيه الحركة الاسلامية الهائلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة ، والتى بدات عملها من صرخة فرد واحد وانتهت فى نهاية المطاف الى اقامة الخلافة الالهية فى الارض . وهذا الكتاب هو الذى تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البناء فى كل مرحلة من المراحل وفى كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل .

اذن فكيف ياتي لك اليوم ان يتجلى لك جميع ما يضمر هذا الكتاب من اسرار وحقائق بمجرد ان تمر على حروفه وتنطق بكلماته ، وبدون ان تنزل الى ميدان الصراع بين الدين والكفر ، وتغبر قدميك فى معركة الاسلام والجاهلية وبدون ان يصادفك المرور بمنزل من منازل هذا الكفاح .

لا تستطيع ان تفهم مطالب القرءان ومعانيه البعيدة الغور الا حين تحكم هذا الكتاب وتبدا بالدعوة الى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك . ومن هنا لابد ان يستقبلك جميع ما استقبل حامليه من التجارب والمحن : تشاهد مشاهد مكة والحبشة والطائف ، وتواجه المراحل الممتدة من بدر الى حنين الى تبوك ، وتتشابك مع « ابي جهل » و « ابي لهب » وتلاقي المنافقين واليهود ، وترى وتختبر كذلك كل النماذج الانسانية مارا بالسابقين الاولين الى المؤلفة قلوبهم . فهذا سلوك فريد لا يماثله اي نوع من السلوك ، وواسميه « السلوك القرءاني » ومن شانه انه كلما مررت بمنزل من منازله تطالعك ءايات وسور من القرءان تحيطك علما بان هذا هو المهبط الذى نزلت فيه ، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم . وفى ذلك الحين لا يستبعد ان يغيب عن نظر « السالك » شيء من أسرار اللغة والبلاغة والمعاني والبيان . الا انه يستحيل ان يضن القرءان بالكشف عن جوهره وروحه امام ذلك « السالك » .

ووفقا لنفس المبدا لا يستطيع الانسان أن يدرك مغزى احكام القرءان وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه فى مختلف نواحي الحياة ما دام لا يطبقها فى الحياة ، لا يدرك مغزاها فرد يعيش فى حل منها فى حياته الفردية ولا تدركه امة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكا يخالف منهجها .

القرءان كتاب هداية للبشرية كافة :

وكل رجل شريفا كان او وضيعا يعلم ان القرءان اعلن انه جاء لهداية النوع البشري باجمعه . ولكن اذا تناوله احد ليدرسه يرى انه لا يخاطب الا من وجد من العرب حين نزوله . واذا كان يدير وجهه احيانا الى كافة الناس فان معظم ما يقول يرجع الى مايختص بذوق العرب وحدهم وبيئتهم وحدهم وتاريخهم وتقاليدهم وحدهم . والانسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل : ان كان الكتاب الذى انزل لهداية كافة البشر لماذا يعني عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحلية وقومية ؟ بل يقطع بعض الذين يجهلون حقيقة الامر فى شك ويقولون : ربما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما بعد ما لا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس الى الابد .

واقول للذي اثار هذا الاعتراض لا لمجرد الاعتراض ، بل اراد معرفة الحقيقة : ينبغي ان يدرس هذا الكتاب ويخط تحت النصوص التى دعا فيها القرءان الى عقيدة او فكرة او تصور ، او عرض فيها مبدا فى الاخلاق او قاعدة فى الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم ، وتنحصر بحكم الزمان والمكان فى حدود لا تتعداها !! اما مجرد كونه يخاطب اناسا عاشوا فى زمن بعينه ، ويتناول ما حولهم من الموجودات كمواد للاستشهاد يبنى عليها دلائل التوحيد فهذا وحده لا يكفي لان يحكم بأن دعوته كانت تختص بزمن من دون الازمان ونداءه كان موجها الى قطر دون الاقطار . وبدلا من ذلك ينبغي ان يتبين مثير الاعتراض ان الذى جاء به القرءان فى رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك فى الدنيا كما صدق على شرك العرب .

الا يحسن بنا ان نلجا فى استصلاح عقائد المشركين فى كل عصر ومصر الى نفس الدلائل والحجج التى جاء بها القرءان ؟ الا يجوز ان نستعمل اسلوب القرءان فيما يستدل به على اثبات التوحيد فى كل زمان ومكان بعد تعديل يسير ؟

اذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بأن دعوة القرءان الخالدة العالمية دعوة عاتية ومحليــــة استنادا الى انها عرضت على قوم بأعينهم فى زمـــن بعينه . وما من فلسفة او نظام للحياة او مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الالف الى الياء فى اسلوب نظري محض Abatrach ولم تتمثل فى اوضاع واقعية او صور حية .

هذا النوع من التجريد لا يمكن ان يوجد فى عالم النظريات . وان افترضنا وجوده فان النظرية التى تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعــدو حبرا على ورق ويستحيل ان تنساب فى حيــاة الناس وتتحول الى نظام عملي .

ثم اذا اريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية على صعيد عالمي فلا يلزم لذلك ابدا ان تجعل الدعوة عالمية من البداية . بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو ان تنشر الحركة ما تدعو اليه من عقائد ونظريات ومبادىء فى البلد الذى نشأت فيه ، وان تقرهـــا فى اذهان اناس يعرف القائمون بالحركة لغتهـــم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وان تطبقهـــا فى الحياة العملية وتقيم عليها نظاما موفقا للحيـاة ثـم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به .

وبهذا الطريق وحده تلتفت اليها الامم الاخرى ويستبق اليها اصحاب العقل الراجح والراي السديد من تلك الامم ليتلقوها ويسعوا لترويجها فى بلدانهم . وعلى هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على امة دون غيرها بادىء ذي بدء وان استنفد هذا العرض كل طاقات التدليل والاحتجاج لاقناع تلك الامـــة وتثبيتها ــ ليس دليلا على كون ذلك النظام قوميـــا محضــــا .

والخصائص التى تميز النظام القومي من النظام العالمي ، والنظام المؤقت من النظام الخالد ، هي ان النظام القومي اما ان يدعو الى تفضيـل شعب علـى غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصـة ، واما ان يؤمن بمبادىء ونظريات لا تستطيع ان تروج وتزدهر فى الشعوب الاخرى . وعلى العكس من ذلك فان النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطي الجميــع حقوقهم بدرجة متساوية ، وتكون مبادئه عالمية الصبغة، عالمية الاهداف والمثل . ثم ان النظام المؤقت ينشىء بناءه على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الايام ، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطــــورة .

فهل من دارس للقرآن يدرسه واضعـا امـام عينيه الخصائص المشار اليها . ثم يستطيع ان يحدد لنا مآخذ يبني عليها ظنه فى كون النظام المعروض فى كتاب الله نظاما وقتيا وقوميا ؟!

القـرءان كتـاب مبـادىء عامـة

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد القـي فى سمعه كذلك ان هذا الكتاب عبارة عـن « مرشــد للتوجيهات التفصيلية » و « دليل للدستور » . ثم اذا انصرف الى قراءته لا يجد فيه احكاما وانظمـة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك. بل ان الواجبات الهامة كالصلاة والزكاة التى يعود الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم يدون لها احكام تفصيلية . ومثل هذا الامر يشوش ذهنـه ويدفعه الى التساؤل : ما هو المراد من كونه مرشـدا للتعاليم الالهية ؟

وكل ما ينشأ هنا من تشويش فى ذهن الانسان مرده ان يغيب عن باله احدى نواحي الحقيقة ، وهي ان الله لم ينزل الكتاب فقط ، بل ارسل معه رسولا ايضا . واقول على سبيل التمثيل : اذا كان المشروع المقصـود هو وضع تصميم لبناء وتقديمـه للنـاس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم . ففي هذه الصورة لابد لنا من تخطيط مطول يرشدنا الى كل جزء مـن اجزاء البناء . أما اذا ولي احد المهندسين من قبل الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة ، فان هذا المهندس يشيد البناء وفق هذه التوجيهات ، ومـن الخطل ــ اذن ــ ان نصرف اعيننا عن المهندس ومـا شيده من البناء ، ثم ننشد تفصيلات الجزئيات فـى التصميم ونشكو نقصه ان لم نجدها فيه .

وكذلك القرءان ، ليس هو بكتاب الجزئيـات ، بل هو كتاب المبادىء والقواعد الكليـة . ومهمتـه الحقيقية ان يعرض الاسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيتا قويا بكلا الطريقتين : التدليل العقلي والتحريض العاطفي . اما ما يتعلـق بالصورة العملية للحياة الاسلامية فانـه لا يرشــد الانسان اليها بوضع قوانين وانظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل انـه حـدد الحـدود الاساسية لكل شعبة من شعب الحياة . ونصب معالم جلية فى بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب ان تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله .

حول الخلاف فى تفسير القرءان :

وكان من مهمة النبـي صلى الله عليه وسلـم تكييف الحياة الاسلامية فى ضوء هذه التعاليم . ولم

يبعث صلى الله عليه وسلم الا ليحقق نموذجا من السلوك الفردي ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حيه تتمثل فيها المباديء التي قررها القرءان .

وهنا سؤال ءاخر يخالج اذهان الناس : القرءان انحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد ان جاءهم الهدى من الله تعالى ، وتفرقوا في الدين . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر توجد خلافات في تفسير احكام القرءان وتاويلها لابين المتأخرين فحسب ، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بين الصحابة انفسهم ، الى درجة انك لا تجد ءاية من ءايات القرءان اتفق المفسرون على قول واحد في تفسيرها . اليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذي ورد في القرءان ؟ اذا كان الجواب لا ، فاي اختلاف واي فرقة تلك التي ينكرها القرءان وينحي باللائمة على أصحابها .

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجدر بنا في هذا المقام ان نتناولها بالبحث المبسط . وحلا لما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفي الاشارة الى ان القرءان لا يمنع الخلاف النزيه البناء الذي يقع بين القائمين على تفسير الاحكام والقوانين ، بناء على دراساتهم الجدية المخلصة ، بينما هم يلتقون فيما يرجع الى اصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الاسلامية . اما الخلاف الذي يذمه القرءان فهو الذي تنشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة ، وانتهى به المطاف الى التكتل والطائفية المقوتة والنزاع الداخلي . وهذان الخلافان لا يتجانسان في اصلهما ولا يتشابهان في نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد . اما الخلاف من النوع الاول فهو جوهر الرقي والتطور ومصدر الحياة ونضارتها ، ولابد من ان يوجد في كل مجتمع مكون من اهل الراي والفكر . ووجوده دليل الحياة والحيوية ، ولا يخلو منه الا مجتمع يتكون من اناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيل خشبية ودمى لا حياة فيها . واما الخلاف من النوع الثاني فيعلم جميع اهل الارض انه ما ظهر في كتلة بشرية الا ومزقها شر ممزق وحطمها اشنع تحطيم . فظهوره من امارات المرض لا من بشائر الصحة ، ولم تكسب امة من الامم منه الا نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة .

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق في الصورتين التاليتين :

في الصورة الاولى : يجمع جميع الناس على طاعة الله ورسوله ، ويعتقدون في الكتاب والسنة مصدرين للاحكام والتشريعات . ثم يختلف امامان من ائمة الاجتهاد في تحقيق احدى المسائل الفرعية او قاضيان في فصل احدى الدعاوي . ولا يجعل احدهما المسالة التي اختلف فيها او الراي الذي يراه عمادا للدين ، ولا يعتبر الذي يخالفه فه ذلك خارجا عن دائرة الدين . بل كلاهما يشبع رايه بما عنده من الدلائل والمراجع الى اقصى ما يستطيع ثم يتركه للراي العام ان كان رايه يتعلق بمصالحه ، وللقضاء العالي في البلاد ان كان الموضوع يرجع الى التحكيم ، ولنظام الجماعة الاسلامية ان كانت القضية قضية اجتماعية فيقبل راي احدهما او كليهما .

وفي الصورة الاخرى : يجري الخلاف حتى في اسس الدين ، او يختار عالم متصوف او مفت او مجادل او زعيم رأيا في مسالة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الاساسية ، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الاساسية للدين ، ويحكم على كل من يخالفه في ذلك بخروجه عن دائرة الاسلام ، ويشكل من انصاره عصبة ويقول ان هذه هي امة مسلمة اصيلة ومن شذ عنها شذ في النار ، وينادي صارخا : « عليك الانضمام الى هذه العصبة ان كنت مسلما والا فلست بمسلم » .

والقرءان حينما يذم الاختلاف والتكتل والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية . اما الخلاف في الصورة الاولى فنجد له امثلة عديدة حتى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وانه صلى الله عليه وسلم لم يقره فقط بل استحسنه . لان هذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتحري والتحسس والفهم والفقه في كيان الجماعة الاسلامية . وكان يدلل على ان اصحاب الراي والكفاءة في الجماعة يولون اهتمامهم الكبير للدين واحكامه . وان كفاءاتهم لا تلتمس حلولا لمسائل الحياة من خارج الدين بل تلتمسها في داخله . وان الجماعة بجملتها تاخذ بمبدا جدير بان يكتب بالتبر بدل الحبر : وهو الالتقاء على مبادي ءالدين لكي تحافظ على وحدتها ، ثم اعطاء اهل العلم وقادة الراي حريتهم في الاجتهاد والاستنباط والتحقيق في حدود سليمة لكي توفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم .

هذا ما عندي والعلم عند الله ، عليه توكلت واليه انيب .

باكستان ــ ابو الاعلى المودودي



ان الهمة المولوية الحسنية التى اهابت بعلماء المغرب ، الفاقهين منهم والكاهلين ، لابراز التفسير الجليل تفسير الشيخ عبد الحق بن عطية ، قد هيات المتشوقين الى هذا السفر الجليل الى تناوله ومطالعته وري ظمئهم من علمه وتحقيقه ؛ واشاعت بينهم الحديث عنه ، والتنويه به ، ومقارنته بما يقاربه او يقابله من كتب التفسير ، واذ رايت الباحثين قد سلكوا فى هذه المقارنة طرائق قددا ، وادركت ان من اوجه مقارنته والتعريف به ما قد ينبو عن حقيقته ، ويصوره بغير صورته ، لاسيما لمن لم يقف عليه ، ولم يعرفه ، احببت ان اعرض على صفحات مجلة دعوة الحق الجليلة هذا البحث الذى يضع تفسير ابن عطية فى نصابه ، وينظمه فى سلكه ، ثم يقارن بينه وبين اخص التفاسير به اتصالا ، واقواها به شبها ، واجدرها بأن يوازن به ، ويتناظر واياه ، وهو تفسير الكشاف للزمخشري .

منذ ابتدا اهل السنة يجاذبون المعتزلة اعنة البحث والنظر ، ويداولونهم ميادين الكلام والتأويل ، فى اوائل القرن الرابع ، بدا سلطان المعتزلة على التفسير العلمي يتضعضع ، ونفوذهم على مسالك التاويل يتقلص .

وزاد ذلك السلطان تضعضعا ، وذلك النفوذ تقلصا ، بانتزاع اهل السنة زمام فن ءاخر مما يتصل بتفسير القرءان ، من جهة ثانية ، اتصالا قد يكون اوثق من اتصال علم الكلام به من الجهة الاولى ونعني بهذا العلم : علم البلاغة .

فانه لم يكد لواء النبوغ فى تقرير نكت البلاغة القرءانية يعقد على مجالس الشريف المرتضى المتوفى سنة 436 ، حتى نجم فى افق اهل السنة فتى شافعي اشعري ، من عباقرة علماء العربية هو : عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة 471 تمرس بكتب ابي علي الفارسي ، وتخرج على طريقته فى النحو ، فالف شرحين على كتاب الايضاح لابي علي الفارسي ، والف كتاب « العوامل المائة » فى النحو ، ثم التفت الى ما وراء النحو : من اسرار العربية المتجلية فى تاليف الجمل على اعتبارات خصوصية ، تتفاوت فى الحسن والقبول بحسب ما تزيد او تنقص من الوفاء بمتممات المعاني ، بعد اشتراكها فى الوفاء باصولها . وذلك ما كان الادباء مستغرقين في التنويه به واستقصاء مثله ، من لدن عبد الله بن المقفع الى بشر بن المعتمر الى سهل بن محمد السجستاني ، ثم الى الجاحظ وابن المعتز ، فكانوا غير مستقرين على تمييز هذا الفن باسم قار مصطلح عليه يعنون على ماهيته بدقة ، فربما سماه بعضهم « البيان » وسماه ءاخرون « البديع » وسمته طائفة ثالثة « صناعة الشعر » و « صناعة الكتابة » وكثيرا ما تواردوا ، قصدا او عرضا ، على تسميته « بلاغة » واتصلت بهذا الفن ، على ما هو عليه من نقص فى وضوح الجوهر ، نظرية اعجاز القرءان ، فقد

استقرت عند المعتزلة من القرن الثالث على أنها امر ايجابي يرجع الى ناحية من رفعة فن التعبير فيه ، فجعلها الجاحظ في الايجاز ، وجعلها الواسطي في النظم ، وجعلها الرماني في البديع ، واصبحت بذلك مسائل البلاغة من ءالات الكشف عن نظرية اعجاز القرءان ، فافتن في استعمالها المتكلمون الاولون : وهم المعتزلة، حتى اذا استقر الكلام السني على قواعد العقيدة الاشعرية ، في النصف الثاني من القرن الرابع عدل سريعا الى تقرير نظرية الاعجاز على نحو ما كان يقررها عليه المعتزلة ، مستعملا الالات التي سبق ان استعملها المعتزلة في ذلك ، فكان الذى ربط بين فن البلاغة وبين نظرية الاعجاز ، ربطا وثيقا هو امام المتكلمين الاشاعرة القاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه : « اعجاز القرءان » ولكنه لم يتمكن من ضبط جوهر البلاغة ضبطا يخرجها عن المجال النقدي الذوقي ، الى المجال العلمي المنهجي ، وان اشاد بما بين البلاغة على ما يدركه الناس من معناها ، وبين اعجاز القرءان من ارتباط محكم يجعل البلاغة مرجع الوجه الثالث من اوجه الاعجاز عنده وهو اهمها . وتلك الثلاثة هي : الاعجاز الغيبي ، والاعجاز العلمي ، والاعجاز البلاغي ، وقد حاول القاضي ابو بكر الباقلاني ، على ذلك ، ان يفصل ما اجمله العلماء في اعجازالقرآن ببلاغته، فحدد الاقسام، ووسع دائرة النظر ، ودار ولف بين فنون الكلام واساليبه ، وقارن الايات بالفقر والابيات ، ولكنه لم يستطع ان يفصح عن معنى البلاغة وحقائق ابوابها ، بما يوضح المنهج لادراك اعجاز القرءان من جهتها . فجاء عبد القاهر الجرجاني يتم ما وقف عنده ابو بكر الباقلاني، واخرج عبد القاهر لذلك كتابه العجيب «دلائل الاعجاز» يبين فيه جهات الحسن البلاغي وعلله ويضبطها في قوالب محكمة من التعبير ، فجاء عمله عملا اساسيا منهجيا ، كشف به عن معنى الاعجاز البلاغي بصورة مبدئية نظرية تسمو على تتبع الجزئيات ، وترديد المقارنات والموازنات . وقد افصح عن مزية عمله هذا اي افصاح حين قال في الفصل الاول من كتابه « لم ازل منذ خدمت العلم انظر في ما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة ، والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها ، فاجد بعض ذلك كالرمز والايماء ، والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج » ثم قال : « وجملة ما اردت ان ابينه لك انه لا بد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده ، من ان يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وان يكون لنا الى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل » . وقد اتى في كتابه فعلا من بيان المعاني وضبط مراجع اختلاف طرق التعبير عنها وبيان الصورة البلاغية في افادة المعنى بالتركيب ما قوم به هيكل فن المعاني ، وجعل كتابه كما اراده من اسمه « دلائل » على اوجه الاعجاز ، يهتدي بها الناظر ، لا استقصاء ، لما لا يمكن استقصاؤه من اوجه الاعجاز بالتفصيل .

فانفتح بهذا الوضع الجليل باب كان مغلقا في اوجه متعاطي التفسير ، وهو بيان الوجه البلاغي المعجز من كل تركيب قرءاني ، وجعل ذلك الوجه ملاك المعنى المستفاد من التركيب ، بحيث ان احتمالات المعاني تتفاوت قوة وضعفا على نسبة ما تتلاقى مع السر البلاغي المتمثل في التركيب ، او تتجافى عنه ، وذلك ما نادى به الشيخ عبد القاهر بنفسه حيث قال : « وهو باب من العلم اذا انت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورايت له اثرا في الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد في ما يعود الى التنزيل ، واصلاح انواع من الخلل فيما يتعلق بالتاويل .. ويربأ بك عن ان تكون عالما في ظاهر مقلد، ومستبينا في صورة شاك » .

تزاحم على ولوج هذا الباب الذى فتح في النصف الثاني من القرن الخامس جوادان سابقان من جياد حلبة التفسير العلمي : احدهما من شرقي ءاسيا ، والاخر من غربي اوربا ، تعاصرا وسارا في ذلك الطريق فرسي رهان ، هما العلامة ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، والامام القاضي ابو محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطي الاندلسي ، ولد الزمخشري سنة 467 اي في حياة الشيخ عبد القاهر وعلى مقربة من وطنه وتوفي سنة 538 وولد عبد الحق ابن عطية سنة 481 وتوفي سنة 542 على ما حققه ابن بشكوال ، فكانا متعاصرين ، يفرق بينهما في الولادة اربعة عشر عاما يكبر بها الزمخشري ابن عطية ، ويفرق بينهما في الوفاة اربع سنين فقط ، سبق بها الزمخشري ايضا ، وكان اطول عمرا من صاحبه .

وقد ثبت ضبط التاريخ الذى الف فيه الزمخشري تفسيره وهو سنة 528 كما نص على ذلك

هو نفسه فى نهاية الكتاب ، ولم يثبت نص على تاريخ تاليف ابن عطية تفسيره ، ولكن الذى يستفاد من مقارنة العمرين ان تفسير الزمخشري الف وسن ابن عطية ستة واربعون عاما ، وهو مكتمل الاشد ، تام التكون العلمي ، شهير المنزلة ، فلا يمكن ان يفرض انه تخرج بالزمخشري ، او بنى على تفسيره ، لاسيما اذا لاحظنا ما أثبته ابن الآبار فى ترجمة ابن عطية انه كان ، فى ءاخر دولة المرابطين ، كثير الخروج للغزو فى جيوشهم ، وذلك يرجح ان يكون تاليف تفسيره قبل هذا الدور الاخير من دولة المرابطين الذى هو الدور الاخير من حياة ابن عطية ، اذ كان تاريخ وفاته سنة 542 عين تاريخ انتهاء دولة المرابطين بالاندلس وقد افاد ابن الابار ايضا بشان تفسير ابن عطية ان الناس كتبوه كثيرا ، وسمعوه منه ، واخذوه عنه ، وذلك يقتضي مدة طويلة من حياته مضت بعد تاليف التفسير حصلت فيها كثر الرواة بتتابع الطبقات ، فلذلك لا نفترض ان احد هذين المفسرين اعتمد على الاخر واغترف منه بل نجزم بأنهما اعتمدا على اصول مشتركة واغترفا من منابع متحدة ، وذلك ما يسمح لنا بأن نضم احد التفسيرين الى الاخر على معنى المقارنة والموازنة بين اثرين مستقلين متحدين فى الموضوع والمنهج والعصر .

ولعل ذلك المثل السائر الذى فاضت به الحكمة العربية الفطرية (رب اخ لك لم تلده امك) لم ينطبق يوما على متاخيين متناصرين ، على بعد الاواصر ، وتباين العناصر ، كما انطبق على ما بين اللغة العربية ذاتها ، وبين حبيبها وربيبها : فخر خوارزم جار الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، فلقد نشا متيما بالعربية ، متفانيا فيها ، منقطعا لروايتها وتحقيقها وخدمة علومها ، مفضلا لها ، مناصرا لخصائصها ومعارفها ، ومحاربا للمستنقصين قدرها من الشعوبيين، معتزا بما نال من المعرفة فيها، وشرف به من الانتساب اليها .

فبهذا التكوين الراسخ ، والمعرفة العربية الواسعة، مع مقامه فى العلوم الاسلامية ، اذ كان اماما من ائمة المتكلمين على الطريقة الاعتزالية ، وفقيها من كبار الفقهاء على المذهب الحنفي ، وعلى ما سار من ذكره ، واشتهر من امره ، بعد أن شاعت كتبه وقدرها العارفون حق قدرها ، اقبل ابو القاسم الزمخشري على تفسير القرءان فى اواخر سنة 525 وقد عرف الناس مقامه فلقبوه « بالعلامة » ، وكان قد سافر من بلاده خوارزم فى شرقي ءاسيا الوسطى ، فاستقر بمكة المكرمة بعد ان اقام بها اولا ثم فارقها الى خوارزم ، ولذلك لقب « جار الله » فأقام هنالك بمكة فى عودته بمدرسة اختص بها واشتهرت به كائنة تجاه الكعبة المشرفة ، عند باب اجياد ، من ابواب المسجد الحرام وهنالك انقطع لتفسير القرءان تفسيرا على الطريقة العلمية : مبناه تحليل التركيب ، وبيان خصائصه ، واعتبار اعجازه على المنهج الذى مهده الشيخ عبد القاهر فى « دلائل الاعجاز »

وكان مقام الزمخشري من اهل طائفته المعتزلة ، مع ما هو معروف به من شدة التعصب يجعل مرجعهم اليه فى تفسير ما يدق فهم معناه من القرءان العظيم ، مدفوعا بما يمتاز به ذلك العصر بالنسبة الى المعتزلة من اعتزاز موروث : بانهم اهل البلاغة ورجال التاويل ، يشوبه اشفاق عظيم من الشعور بأن هذا الاختصاص قد نوزعوا فيه او انه افتك من ايديهم ، فكانوا يرجعون الى الزمخشري معتزين به منتهين اليه ، فيبرز لهم ، كما قال وصدق فى ذلك ، « الحقائق من الحجب » فيزيدهم ذلك اعتزازا واكبارا ويفيضون فى الثناء عليه ، والالحاح فى وضعه تفسيرا للقرءان جامعا يعتمدون عليه فى نصرة عقيدتهم بتخريج الآيات على مقتضى الطريقة البلاغية التى كانت ازمتها بايديهم ، فكم الح اخوانه عليه فى وضع تفسير شامل ، وكم تشفعوا اليه بعظماء فرقته ، وعلماء اهل نحلته ، وكان ذلك كما يعرف من تاريخ اوائل القرن السادس ، عند ابتداء تراجع امر المعتزلة ، وسلوك فرقتهم سبيل الانقراض ، والى هذا يشير الزمخشري نفسه عندما يذكر فى تفسيره : ان الالحاح كثر عليه وهو بخوارزم ولما توجه تلقاء مكة المكرمة واجتاز بلاد الشرق العجمي والشرق العربي لم يزل يلقى فى كل بلد من فيه مسكة من اهلها ، وقليل ما هم متعطشين الى انجاز ذلك التفسير ، ونزل بمكة فى مقام اكرام واحترام من اميرها الشريف علي بن حمزة بن وهاس : فزاد الحاحا عليه، ودفعا به الى انجاز ما تعطش اصحابه الى انجازه، فالف لهم تفسيره الذى سماه « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التاويل » واعتمد فى تصنيفه على ما يشعر به مكتملا فى نفسه من المعارف والملكات ، المعتمدة على التكون الادبي اللغوى الصحيح . وان المطالع لما تضمن اشارته الى ذلك من كلامه فى خطبة الكشاف ليكاد يهز كلامه من عطفيه حتى يتمايل لتمايله معجبا كما قال ابو الطيب :

ان اكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

فقد اتى من تفسيره ـ حقا ـ من مظاهر البراعة، وآيات العلم الواسع ، والذوق الراسخ ، والقلم المتمرس ، ما زاده اعجابا به بعد انتهائه اذ قال في وصفه ببيتيه البديعين :

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي

ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

فاصبح كتابه عمدة الناس على اختلافهم : بين مشايع له ، ومخالف . وعلى وفرة مخالفيه ، وانقطاع مشايعيه ، يرجعون اليه على انه نسيج وحده في طريقته البلاغية الاعجازية ، وفي غوصه على دقائق المعاني وحسن ابرازها على طريقة علمية سالفة ، بتحليل التركيب ، وابراز اختصاصه واعتباراته .

على ما يكثر صاحب الكشاف من عنف على مخالفيه وما يتناول به خصوصا اهل السنة والجماعة: من قدح ، وشتم ، وسب ، وتجهيل ، فان ما جبل عليه اهل السنة وقامت عليه طريقتهم العلمية : من الانصاف ، قد حملهم على الاغضاء على تلك الهفوات المخجلة ، والعورات الفاضحة ، فانهم اقبلوا على دراسته وشرحه ، وبنوا عليه عامة بحولهم في القرءان ، لا يخلو تفسير او تاليف في موضوع قرءاني من رجوع اليه ، واعتماد عليه . فابتدأوا اولا باعمال معيار الانصاف ، حيث كتب العلامة المصري ناصر الدين ابن المنير المالكي الاسكندري كتابه « الانتصاف » فبين ما في الكشاف من دعاو اعتقادية، وما سلك في سبيلها من تخريج الكلام تعسفا او التزاما لما لا يلزم .

ودخل تفسير الكشاف مباشرة في صميم اصول الثقافة الاسلامية الاشعرية ، وعلا نجمه في القرن الثامن ، باقبال اعلام من المدرسة الاعجمية الاشعرية : مثل شرف الدين الطيبي ، والقطب الشيرازي ، وسعد الدين التفتازاني ، فاصبح من يومئذ ركنا ركينا في هيكل التخرج الاسلامي

وهكذا انقرض المذهب الاعتزالي ، واندرج الزمخشري واهل فرقته في البائدين واحتل الكتاب مكانه الذي هو اهل له مشاعا بين اهل القرءان ، فكان ، في خلود جوهره وزوال عوارضه ، كما قال الله تعالى : « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

اما تفسير ابن عطية فقد سما الى مساواة تفسير الزمخشري مصافا ومكانها ، فانهما زيادة على اتفاقهما في المعاصرة قد اتفقا في المنهج العلمي الادبي ، وتشابها بتشابه صاحبيهما في تاسس ثقافتيهما العامة على اساس الادب واللغة .

ولكنهما وراء هذا الاتفاق يختلفان من اوجه عدة، ينبغي الالتفات اليها لاحكام المقارنة بين التفسيرين العظيمين ، فكما اختلفا في ان تفسير ابن عطية من آثار الشباب وتفسير الزمخشري من آثار الشيخوخة، فانهما اختلفا اختلافا واضحا ، هو اقوى اثرا في العمل العلمي ، وهو اختلاف يرجع الى ثلاث جهات : اولاها من حيث ان ابن عطية مغربي والزمخشري مشرقي ، وثانيتها من حيث ان ابن عطية سني والزمخشري معتزلي، وثالثتها من حيث ان ابن عطية مالكي والزمخشري حنفي . ولكل من هذه الجهات اثرها في ميزة من الميزات ، التي اختلف بها كل من التفسيرين عن الآخر بالاضافة الى فارق السن ، والى فارق العروبة والعجمة .

فمن حيث ان ابن عطية مغربي : تمكن من الرجوع الى مصادر ما كانت في متناول صاحب الكشاف اهمها تفسير مغربي افريقي جعله ابن عطية مبنى تفسيره ، واكثر دوران ذكره في اثناء كلامه ، ولم يرد في كلام الزمخشري اي تعريج عليه ، وذلك هو تفسير المهدوي المسمى « التفصيل الجامع لعلوم التنزيل » فقد ذكره ابن عطية في خطبة تفسيره ووصفه بأنه متقن التاليف ، واشار الى الانتقاد على اسلوبه في عدم تتبع الالفاظ ، وان اسلوبه مفرق للنظر مشعب للفكر . وذلك يتبين مما ذكره صاحب كشف الظنون عن تفسير المهدوي : انه فسر الآيات ثم ذكر القراءات ثم الاعراب . والمهدوي هذا من رجال القرنين الرابع والخامس ، اصله تونسي من المهدية تخرج بالقيروان على ابي الحسن القابسي ، ثم رحل الى الاندلس وتوفي بدانية . يوجد من تفسيره الآن جزءان بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، ويوجد جزء بخزانة جامع الزيتونة الاعظم يقدر انه منه ، ولكنه لم تقع مقابلته مع جزئي الظاهرية . فهذا مثال ظاهر لما اختلف بين ابن عطية والزمخشري من المصادر .

وما سوى ذلك فمصادر مشتركة من تفاسير مشرقية وصلت الى المغرب مثل تفسير الزجاج، وتفسير ابي جعفر النحاس، وتفاسير مغربية وصلت الى المشرق، مثل تفسير مكي بن ابي طالب. ومن الجهة الثالثة، وهي اختلاف ابن عطية بكونه مالكيا عن كون الزمخشري حنفيا، فان ذلك اظهر بين التفسيرين فيإستنباط الاحكام والاستدلال لها ما بين المذهبين المدني والعراقي من اختلاف في الفقه وفي مداركه، وبين الطائفة الناشئة على ذلك من اختلاف في المادة الفقهية، واختلاف في المنهج الاجتهادي، على ما يتبع ذلك من اختلاف المصادر والمراجع عند كل من الطائفتين عنها عند الاخرى.

واما الجهة الثالثة، وهي اهم الجهات كلها: اعني جهة الاختلاف بالسنية والاعتزال، فانها ترتبط بان اختلاف ما بين السنيين السلفيين، والمعتزلة المتكلمين، في القرنين الثاني والثالث، في تاويل متشابه القرءان، قد جعل من الطريقة العلمية الادبية في التفسير عونا للمعتزلة على الفوز بالنصر في تلك المجادلات الكلامية، فلما نشات الطريقة السنية الكلامية وهي طريقة الاشعري نازع السنيون المعتزلة ماكانوا مختصين به من التفسير البلاغي حتى انتزعه من ايديهم قهرا الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فاصبحت للاشاعرة طريقتهم التفسيرية البلاغية المتوجهة الى مناقضة ما كان ذاهبا فيه من المسالك مفسرو المعتزلة، وتمحيص تخاريجهم، ومناقشة اساليبهم، فأصبحت تفاسيرهم بحوثا تقويمية نقدية، تمكنوا بها من جولة ظاهرة استكان لها المعتزلة في القرن الخامس، فتطاول الاشاعرة بانتصار علومهم واستكانة خصومهم.

فلذلك كان تفسير الزمخشري في المواطن الكثيرة التي يختلف فيها وجه تخريج الآية عند المعتزلة عنه عند السنيين التزاميا دفاعيا، وكان تفسير ابن عطية في تلك المواطن نقديا هجوميا، فكان يمثل صولة الغالب العنيد على المنهزم المتراجع. ولقد قوي هذا في تفسير ابن عطية بما اضيف اليه من عاملي قوة بيانية برجحان الى شبابه وعروبته، فان الشباب افاده قريحة متقدة ونظرة حادة يتناول بهما موضوعه في قوة وسرعة ومتانة المام فيأتي بيانه محبوكا منسجما، سائغا سلسا. ولما اختلف عنه الزمخشري بالشيخوخة والعجمة فان اسلوبه البياني قد جاء متثاقلا مفككا، وتعبيره ثقيلا كزا، ترهقه كلفة الصناعة، مع نبوة الطبع، ولذلك فلا بدع ان يوصف تفسير ابن عطية بانه « محرر » لاسيما وقد دفع الشبه، وخلص الحقائق، وحرر ما هو محتاج الى التحرير. وقد نوه بذلك في مقدمته، وشاعت عند الناس تسميته « المحرر الوجيز » وعلى ذلك بنى صاحب كشف الظنون تعريفه به، وان كان مؤلفه لم يشر الى تسميته. وهو « وجيز » بالنسبة الى التفاسير التي سبقته. اما بالنسبة الى تفسير الزمخشري فابن عطية اطول نفسا، واكثر جمعا وتفننا، فهو وجيز باعتبار طريقة عرضه المباحث، لا باعتبار مقدار جملته. فالزمخشري اقل جمعا، وان كان اعمق غوصا في تحليل الكلام. ومن هنا نشا ذلك الحكم المشهور، المبني على دقيق المقارنة بين التفسيرين: وهو ما شاع عند العلماء، منذ قرون، واورده صاحب كشف الظنون، مورد القول المأثور، والامر المشهور، من ان « ابن عطية اجمع واخلص، والزمخشري الخص واغوص ».

تونس ــ **محمد الفاضل بن عاشور**

« جاء يوحد »

يكاد عيد مولد النبي محمد عليه السلام يحتل من دواوين الشعراء المسيحيين مكانا كبيرا، ومن اقدم القائلين في هذه المناسبة من شعراء العصر الحديث، الشاعر الدكتور اويس صابونجي، فمنذ اكثر من سبعين عاما انطلق صوته في ربيع الاول سنة 1308 هـ بأبيات في هذه المناسبة يقول في مطلعها:

الى العرب وافى بالرسالة احمد ... وجاء بآيات الكتاب يوحد



لكل عظيم او نابغ اثره في المجتمع الانساني الذى يعيش فيه ، سواء كان نبوغه وعظمته في العلم المادي او الديني او اللدني الذى هو من عند الله او بوحي منه دون تعلم من البشر ، ذلك ان الرقي الفكري والعلمي والاجتماعي يتكون ويتركب متسلسلا في اطوار التاريخ الانساني والحضاري كسلسلة متماسكة الحلقات لكل طور حلقة من هذه السلسلة مطبوعة بطابع ذلك الطور الا ان هذه الاطوار يلقح بعضها بعضا ، وتتدرج في سلم الرقي كلما امتد بها الزمان ويكون المتقدم منها اساسا للمتاخر ما دامت سائرة في سلم الارتقاء الا في عهد التدهور والانحطاط حيث يفلت زمام الرقي من يد العاملين وتنحل عزائم ولاة الامة فيشتغلون بسفاسف الامور دون الاهتمام بمعاليها وتنساق الامة في تيارهم هناك تنعكس القضية وتاخذ الحضارات والعلوم في الانصراف عن الامة التى لا تعرف قدر العلم ولا مكانة الاخلاق في حياة الامم وعظمتها ، وقد يبتديء تاثير العظيم او النابغ في بيته وقريته ثم يعم وينتشر كما ينتشر ضوء الفجر عقب الغلس حتى يعم الفضاء بنوره الوهاج ، فاللبيب المحظوظ من بني الانسان من استطاع ان يضع برنامجا عمليا نزيها يكفل له النجاح في حياته البيتية وحصل على ذلك النجاح ، واوفر منه حظا من تعدى نجاحه الى قرابته او قبيلته او امته حيث يكون موضع اعجاب وثناء وتقدير فيرتفع له من حسن صنيعه الذكر الجميل ويتبوا في المجتمع المكان الجليل ويكون عائب خطته ومنتقص مكانته طعمة الافواه ومسخرة الناس خصوصا اذا كان العائب والمنتقص فاشلا في الحياة عاجزا عن التدبير اينما توجه لا ياتي بخير ، ذلك ان النجاح في الحياة كثيرا ما يتطلب خبرة وكفاءة وقدرة على تنفيذ الخطة التى رسمها الشخص لحياته وليس كل برنامج نظري يستطاع تنفيذه ، وليس كل ما نفذ ووقع تطبيقه من البرامج النظرية حالفه التوفيق والنجاح وحصلت للفرد او الجماعة الغاية المطلوبة منه ، واذا كان الفوز والنجاح في الحياة يتمتع صاحبه بتقدير يناسب مجهوده ومسعاه ، فان من الافضل والاحق بالدراسة والعناية من اتى ببرنامج عملي لاسعاد البشرية وادعى ان هذا البرنامج يحمل عناصر البقاء والاستقرار والسعادة للمتمسكين به ، والخلود على الدهر واستطاع بدون مالية ولا عتاد حربي او مدد ظاهر ان يجمع حول مبادئه جماعة استطاعت ان تنشر دعوته وتؤدي رسالته حتى اصبح المومنون بها على توالي الزمان يعدون بمئات الملايين من البشر فصدق الواقع كل ما قاله ووعد به واثبت الزمان صدقه في انه رسول من عند رب العالمين الى الناس اجمعين ، برسالة من عند الله فيها هداية وسعادة ورحمة للبشرية ، ودل الواقع على انه رسول الله حقا وصدقا ايده الله بقوة وقدرة خارقة فوق قدر البشر ، لاننا نرى الحكومات والدول الكبرى تعجز عن تحقيق مشاريع دون هذه الثورة الاجتماعية الكبرى التى حصلت في العالم ونقلته من ظلمات الى نور بعزيمة

فرد واحد لكن هذا الفرد يزن فى رسالته ومرماه وفضائل نفسه امما بأسرها .

انه رسول الله محمد عليه السلام وان كتابه القرءان الذى يهدي للتي هي اقوم ويبشر المومنين .

ومما جاء فى هذا القرءان قول الله تعالى لنبيه «هو الذى ايدك بنصره وبالمومنين والف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم، انه عزيز حكيم ».

ومما يشير الى قيمة هذا الرسول وثقل وزنه المعنوي فى الوجود ما جاء فى حديث شق الصدر وغسله وتطهيره حيث حكا الرسول ان احد الملكين اللذين غسلا قلبه الشريف قال لصاحبه زنه بعشرة من امته فوزنني بهم فوزنتهم

ثم قال زنه بمائة من امته فوزنني بهم فوزنتهم.

ثم قال زنه بالف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم.

فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها .

وهذه لطيفة ذات مغزى عظيم فى قيمة الرسول الذى اتخذه الله رحمة للعالمين واياك ان تفهم من هذا الميزان ما يفهمه المتولون لوزن الاشياء من تقدير ثقل الاجسام .

واذا اردنا ان نفهم قيمة الاسلام الذى جاء به هذا الرسول فلابد ان نجرده مما الصق به من البدع على مر السنين فقد مر على وجوده اربعة عشر قرنا بين اهله المومنين الذين حصل منهم بعض الغلو فى شأنه ، وبين اعدائه الذين جندوا طاقاتهم لمحاربته علانية والكيد له سرا كما تولى بعض عدائه افتراء أحاديث على رسول الله حتى تشكك المومنين به ، كما قام بعض المغفلين من ابناء الاسلام لنصرته باحاديث لا تصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدين الاسلامي غني بحقائقه ومبادئه عن كل ما وقع من تقولات وافتراءات عن رسوله العظيم ، كما تكونت بسبب ذلك وبغيره فرق مختلفة فى شعوبه فوقعت مناظرات سواء فيما يتعلق بالعقائد او الاحكام او مذاهب اخرى .

الا ان الله هيا لهذا الدين من يدافع عن مبادئه واصول عقائده ، كما هيا لسنة الرسول من العلماء الحفاظ من خلص سنة الرسول عليه السلام من تقولات المفترين حتى استبان الحق وافتضح اهل النفاق والشقاق ، وظهر امر الله وهم كارهون ، فكان ذلك مصداقا لقول الرسول العظيم يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين .

ولكن من المعلوم ان الحياة تتطور وان الشبه على الاديان تتجدد وتتنوع بما اكتشف من حقائق الكون ومن التطور العلمي وبما برز للوجود من التطورات الاجتماعية التى اثرت فى عقلية الانسان وعقيدته وسلوكه، ومن اجل كل هذا ينبغي اعادة النظر فى عرض دين الاسلام على الاجيال الصاعدة بما يناسب ويقنع عقلية العصر الحاضر ، حتى يعرف الجيل الجديد نصاعة الاسلام وكفاءة جوهره للسير بأهله نحو الكمال ويعرف علو مقامه فى الوجود ، وما اداه لاهله بصفة خاصة ، وللانسانية بصفة عامة فى تاريخه المليء بالمفاخر والمكرمات .

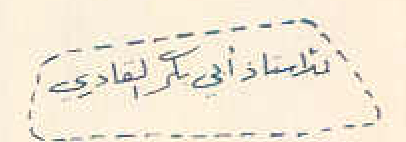
الرباط ــ محمد الطنجي



صاحب الجلالة نصره الله وايده في حالة خشوع ودعاء في المسجد الحرام ...

رسالة الإسلام

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين



رسالة الاسلام رسالة خالدة ، لا يبليها مرور الزمان ، ولا ينقص قيمتها توالي الايام، اذ هي الرسالة التى اراد الله ان تكون مشكاة للبشرية ، تهتدي بنورها ، وتستضيء بتعاليمها ، وتسير على مقتضى تخطيطاتها واوامرها . وهي الرسالة التى تستمد اسسها من السماء ، وتجعل الانسان يسير فى هذه الحياة الدنيا على بصيرة من امره ، مهتديا بالهدى الالاهي ، ومبتعدا عن التخبط فى ميادين الوهم والزيغ والضلال .

والرسالة الاسلامية الى ذلك كله رسالة الى الانسانية كافة ، يهتدى بهديها الابيض والاسود ، وتلتقي فيها مختلف الشعوب والامم والجماعات والافراد « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ».

لقد اتى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة من ربه ، ليهدي بها قوما اضلتهم العماية ، واغوتهم اضاليل الاهواء ، فهي كما عبر عن ذلك الصحابي الجليل عندما قابل نجاشي الحبشة حيث قال : « ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الاصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، وذلك الرسول منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنعبده وتوحده ، امرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وامرنا بصدق الحديث ، واداء الامانة ، وصلة الارحام، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، واكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة فصدقناه وءامنا به، واتبعناه على ما جاء بـه » .

لقد اعتنت الرسالة الاسلامية اول ما اعتنت به ، بتثبيت العقيدة فى النفوس ، وتركيز الايمان بالله ، وحدانيته ، وبوجوده ، وبكماله المطلق . وانه سبحانه مصدر هذا الوجود ، ومبدع هذا الكون ، فجميع ما فى الكون انما هو اشعاع منه تعالى ، منه اتى ، واليه يعود ، اذ هو الحقيقة المطلقة ، وهو المدبر العوالم كلها، علويها وسفليها ، غائبها وحاضرها ، « له ملك السماوات والارض يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، هو الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء »

والاسلام عندما يرفع من قيمة الانسان بالتوحيد، ويعلي قدره بالايمان ، ويكرمه بالخلافة فى الارض ، يأمره بأداء رسالته فى الحياة ليعالج مشاكلها المختلفة، ويسخرها فى الطبيعة لمصلحته ، ومصلحة الانسانية جمعاء .

ونظرة الاسلام الى الحياة نظرة شاملة كاملة ، لا تعتني بجانب دون جانب، ولا تهتم بحالة دون اخرى، لان رسالة الاسلام وهي ءاخر رسالة من السماء الى الارض ، وصاحبها خاتم النبيئين والمرسلين ، لابد ان تكون محيطة بجميع ما تتطلبه الحياة وتقدمها ،

ولابد ان تكون مهتمة بجميع مشاكلها وقضاياها، والافانها ستكون غير صالحة ، وبالتالي لا تجد فيها الانسانية علاجات مشاكلها المستجدة على تعاقب الايام والاعوام والقرون .

ومن هنا كانت الرسالة الاسلامية رسالة خالدة، لان مبادئها الاسلامية مبادىء ثابتة ، ولانها اتت باصول تستمد منها الانسانية ، وتأخذ منها قالبها مهما تطورت احوال الزمان والمكان .

ورسالة الاسلام رسالة الاهية ، يبلغ الرسول منها ما انزل اليه من ربه « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » فهي ليست من انتاج عقل الرسول ، ولا من وحي نفسه ، وانما هي وحي يوحى اليه ، فهي منهاج الاهي ، حسب الرسول فيها التبليغ بمنتهى الصدق ، والنصح بغاية الاخلاص . ولذلك كانت رسالة خالدة لان تعاليمها مستوحاة من الذي يعلم السر واخفى ، ولان اوامرها مستمدة من الذي خلق الكون والانسان ، وخط له المنهاج الذي ينبغي ان يسير فيه ، والوجهة التي عليه ان يتجه اليها ، حتى لا تزيغ به الاهواء ، وتتعدد عليه السبل .

ثم ان رسالة الاسلام رسالة مرنة ، لانها في الواقع مستمدة من القرءان من المبادىء والاصول المرنة ما يجعلها صالحة لكل ظرف ولكل مكان ، لان الذي امر بها وهو الحق سبحانه عزت قدرته ، احاط بالكون علما ، فهو العليم بالمكنونات ، وهو الخبير بكل ما هو آت، فلا تخفى عليه سبحانه خافية ، والكون كله في قبضته فسبحانه من اله تعالت صفاته ، وتقدست اسماؤه سبق في علمه ، ما يكون عليه الكون ، وما تتطور فيه الحضارات على مقتضى علمه وارادته ، فافسح المجال للعقل الانساني، لاداء رسالته الحضارية ، وجعل دينه الحق ، الذي ارتضاه لعباده ، دينا تؤيده العقول ، ولا تضيق به ابتكارات العلوم . ولا يزيده مرور الايام ، وتعاقب الازمان ، الا ثباتا وصلابة ، ولا تزيد البشرية معه الا انصياعا وانقيادا واعترافا بوحدانية المدبر الحكيم .

واذا كان القرءان الكريم والسنة النبوية يعتبران المصدر الحقيقي لرسالة الاسلام ، فان المصدرين الآخرين الذين اتفقت عليهما الامة الاسلامية ، وهما الاجماع والقياس ، يعتبران في الحقيقة من اهم المميزات اللاتي يمتاز بها الاسلام ، واللاتي فسح الله بهما المجال للعقل الانساني ليقرر في المصالح العامة ، ما فيه خير الانسانية ، وما اقتضته التطورات الحضارية ، وما جد في الحياة من مشكلات سواء في ميدان التشريع او الاقتصاد او الاجتماع .

وان المتتبع لاصول ادلة الشرع الاسلامي ليقف اعجابا بالاحكام التي استنبطها العلماء المسلمون من المبادىء والاسس الاولى ليحافظوا على المقاصد الشرعية التي ترعى المصالح العامة لبني الانسان ؛ وليدفعوا كل مفسدة يتضرر منها الخلق سواء في حياتهم العاجلة او الآجلة .

ان العمل بالمصالح المرسلة ، يعتبر من افسح المجالات التي اتى بها التشريع الاسلامي ، واليسر الذي اتت به رسالة الاسلام ، اذ « مقصودها المحافظة على مقصود الشرع ، بدفع المفاسد عن الخلق ورعاية مصالحهم » والتغلب على المشاكل التي تحدث بتطور الزمان ، والقضايا التي تجد بتقدم الحضارات .

ومن هنا كان الاسلام دين الحضارة الانسانية ؛ لان مبادئه لا تضيق امام تطور الاحداث ولان اصوله صالحة لان يستمد منها في كل العصور والازمان .

ان رسالة الاسلام ليست بالرسالة المتحجرة العقيمة ولا بالرسالة التي اقتصرت مهمتها على تنظيم العلاقة بين العبد وربه ، ولكنها رسالة اتت لاصلاح المجتمع في شتى مناحي الحياة فيه ، فعلى مقدار ما كانت مهتمة بتزكية النفوس الانسانية وتطهيرها حتى تصبح قريبة من ربها ، بمقدار ما اهتمت بالمصالح الحياتية لبني الانسان سواء في حياتهم الاجتماعية او الاقتصادية او السياسية زيادة على ءاداب السلوك الذي نعبر عنه بمكارم الاخلاق

ونظرة خاطفة في القرءان الكريم ، وتصفح خفيف لمحكم ءاياته ، يعطيان الدليل على ان رسالة الاسلام كانت رسالة هادفة الى تحقيق السعادة لبني الانسان سواء في ميدان الروح او ميدان المادة ، في ميدن الدين او ميدان الدنيا ، لان الاسلام هو دين الله الخالد ، يعتبر بحق دين التوازن في الحياة ؛ فتعاليمه كلها متوازنة ، ونظراته واحكامه جميعها متعادلة، فهو اذ يهتم بالجانب الروحي في بني الانسان يهتم بالجانب المادي فيه ، لان الله وقد سخر الطبيعة بجميع ما فيها للانسان ، اراد منه ان يستفيد منها في حياته الدينية والدنيوية ، ما يساعده على اصلاح شانه ، وتقوية عزائمه والسير قدما بحضارته ، وبسط روح المحبة والعدالة والتضامن بين جميع اخوانه .

فالاسلام ليس بالدين المغلق المنكمش على نفسه، وليس بالدين الروحاني الذى امر اتباعه ان يتخلوا عن مباهج الحياة وزينتها ، ويفروا الى الصومعات والخلوات ، ليتعبدوا فيها ، وانما قال فى كتابه الكريم : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين ءامنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقال على لسان رسوله : « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » وهذه التعاليم الاسلامية على اختلافها وتعددها تلاحظ مدونة مسطرة فى الكتاب المنزل من السماء، وفى السنة النبوية الطاهرة التى احتفظ بها فى الاسانيد الصحاح .

كما تتجلى واضحة حية فى سيرة الرسول : اعماله وسلوكه ، وجميع تصرفات حياته ، فلقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم وتصرفاته واخلاقه ، تطبيقا لتعاليم القرءان ، حتى أن عائشة رضي الله عنها اجابت لما سئلت عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان خلقه القرءان ، وهذه ميزة اخرى يمتاز بها الاسلام ، فتعاليمه واخلاقه لم تكن تعاليم نظرية متخيلة ، مثل بعض الافكار والنظريات التى تخيلها او كتبها بعض الفلاسفة او المتنبئين الذين لم يستطيعوا أن يبرهنوا على صلاحيتها فى حياتهم او سلوكهم ، وانما كانت التعاليم التى اتى بها تعاليم ، برهن على صلاحيتها بأن يطبقها فى حياته وسلوكه العملي وكان صحابته الكرام يرونها باعينهم وكانها تمشي على رجلين . وظهر اثرها واضحا كذلك عندما طبقها صحابته الكرام ، والصالحون من ابناء الامة الاسلامية على اختلاف الدهور والعصور . فالوصايا الاخلاقية والتعاليم الاجتماعية، والاصلاحات الاقتصادية والسياسية ، كل ذلك تجلى فى سيرة الرسول وسيرة صحابته الراشدين ، حيث كان عصرهم يدعى بحق عصر القرءان وعصر تعاليم القرءان، وحيث كان مجتمعهم مجتمعا قرءانيا ، لا تجد فيه انحرافا ولا تلاحظ فيه اي اضطراب او تضاد .

وبعد فلقد كان بودي ان اتحدث بنوع من التفصيل عن رسالة الاسلام فى الميادين الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها من الجوانب التى اهتم بها الاسلام . ولكني لم استطع ذلك فى مثل هذه العجالة ، فلأرجيء هذا الموضوع الى مناسبة أرجو ان تكون قريبة ولاكتف بما كتبت مساهمة فى ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على بعثة الرسول محمد عليه السلام ، سائلا الباري عزت قدرته ان يمدنا بقوة منه ، حتى نسير فى هدى سيدنا رسول الله ، ونتبع خطاه ونقتبس من انواره ما ينير امامنا السبل ، ويهدينا الى المحجة البيضاء، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب» ، صدق الله العظيم .

سلا – ابو بكر القادري



... شعار عظيم من شعارات الاسلام الخالدة ، ودثار جميل جذاب .. حبب الى النفوس المومنة ، وتلقفته الاسماع اليقظة ، ورددته الافواه الشعبية .

اتخذته الجماهير المسلمة ذكرا جاريا ، والتزمته وردا رتيبا ، بكرة وعشيا ، لا يبغون عنه ولا يبغون به بديلا .

هذا الشعار المحبب الى الجماهير الشعبية العامة منها والخاصة ، فأنت تسمعه منها في كل وقت وحين، اينما سرت واينما جلست . الكل يهتف وينادي في الحاح : صل على النبي .. ! فيجيب الكل في خشوع وايمان : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ..

ان لكل قوم شعارا خاصا يمجدون به أبطالهم، ويحيون به مآثرهم ، ويستثيرون به حماس اولادهم ونخوتهم .. فكذلك شعارات الاسلام الخالدة ، التي منها هذا الشعار العظيم ..

فلنغتنم فرصة هذا الشهر النبوي الكريم ، شهر الامداح النبوية ، والتواشيح الدينية .. شهر الصلوات والتسليمات على نبينا الكريم .. لنتأمل هذا الشعار الجليل ونتدارسه ، على سبيل التذكار والاعتبار ، بقدر ما يسمح به المقام في هذه العجالة .

من أحب شيئا اكثر من ذكره

من البديهيات ان من من احب شيئا تعلق به قلبه وأكثر من ذكره ، وكذلك ان من علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم كثرة ذكره والتلذذ بترديد اسمه والاكثار من الدعاء له والثناء عليه .. اما الحديث عن الحبيب حبيب — لا يمل على التكرار ولو طال — أعد ذكر من اهوى ولو بملام .. وقديما قالت العامة في أمثالها : المرء لا يشبع من اثنتين : ذكر النبي

> **اللهم صل عليك ..**
> **يا رسول الله ..**
> **يا جاه النبي !**
>
> هتاف شعبي

والصلاة عليه ، أو الصلاة على النبي ورضا الوالدين

والتاريخ لا يعرف قوما بلغوا في التعظيم الصحيح لنبيهم مثل ما بلغ المسلمون في حق النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان الصحابة في حضرته كان على رؤوسهم الطير، وقد سئل أحدهم أن يصفه فقال اني لي ان اصفه وانا لم ارفع اليه عيني قط ، تهيبا واجلالا . وكانوا بعده لا يذكرونه الا بالخشوع ومنتهى الاكبار حتى أن بعضهم تقشعر منهم الجلود عند سماع ذكره ، وربما انتفضوا واعتراهم الحال الشديد . والاخبار في ذلك متواترة ..

لهذا علمهم القرآن الكريم — كما علمنا — كيف يخاطبون الرسول في حضرته وكيف يذكرونه في غيبته — نهاهم ان يخاطبوه أو يذكروه باسمه المجرد (محمد) يقول تعالى: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . ويقول في نهيهم عن رفع اصواتهم فوق صوته : لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون .

فليس من آداب الاسلام ذكر نبي الاسلام باسمه المجرد (محمد) لا حيا ولا ميتا ، بل لابد من قرن اسمه بما يدل على تمجيده وتعظيمه ، وهذا التعظيم ينبغي أن يعم اهله وآله ، فزوجاته أمهات المومنين ، وآله آل كل عبد تقي الى يوم القيامة ، وكذلك اصحابه وقومه « الله ، الله ، في أصحابي، لا تتخذوهم

غرضا بعدي .. الحديث » . ذلك ان من احب احـــدا احب كل شيء يحبه ويمت اليه ؛ حتـــى امتعتــــه واوصافه واحواله .

الصــلاة والسلام على النبي

دعانا الله تعالى وهدانا الى طريقة الثناء على نبيه الكريم بقوله سبحانه : ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

دعانا جل جلاله الى الصلاة على النبي والـــى السلام عليه ، أستنانا بصلاة الله وملائكته عليه ، وهو أبلغ ما يكون من تكليف وتشريف — تكليـــف العباد في المكان الادنى بما تكلف به الملأ الاعلـــى ، وتشريف لهذا النبي الكريم بان يكون كل من المعبود والعابد يصلي عليه ويرفع من شانه — يا لها مــن مرتبة سنية انفرد بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . فجنبات الوجود تتردد بالثناء عليه ، والكون تتجاوب ارجاؤه بتمجيده والدعاء له . ثم لا يزال هذا الثناء الازلي تردده الاجيال وتفيض به الكائنات الى ابد الآبدين . فاي تكريم بعد هذا التكريم ، واي نعمة متجددة خالدة بعد هذه .. !

ولمزيد الترغيب نحو هذا العمل المجيد وعد الله عباده المستجيبين أمره بجزيل الثواب ومضاعفـة الاجور : « من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات ، وفي رواية : صلت عليه الملائكة ما صلـــى علي فليقلل من ذلك ذلك عبد او ليكثر — حديـــث شريف » .

معنى الصلاة والسلام

اعتاد العلماء والمفسرون ان يشرحوا مدلول اللفظتين : الصلاة والسلام ، الواردتين في الآيـــة مشتركتين بين الله وملائكته وعباده .. اذ لا يصح ان تفهما على وجه واحد ..

الصلاة في لسان العرب بمعنى الترحم والدعاء. قال المبرد اصل الصلاة الترحم ، لكنها في الآية على معان ثلاثة : فهي من الله رحمة ، ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله ، ومن العباد دعاء وثناء ، وقال القشيري الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي صلى الله عليه وسلم رحمة وللنبي تشريف وزيـــادة تكريمه .

واما السلام ففي معناه بالآية ثلاثة اوجــه : احدها السلامة للنبي ومعه ، الثاني السلام علـــى حفظه ورعايته ، الثالث بمعنى المسالمة والانقياد له كما في الآية الاخرى : ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما . وربما كان المعنيان الاولان انسب للآية ..

حكمهـــــا

بحث الفقهاء في حقيقة الامر الالهي بالصلاة على نبيه في الآية ، هل هو للوجوب او للندب ، على عادة الفقهاء في استخلاص الاحكام الشرعية من لفـــظ القرآن الكريم على حسب القواعد الاصولية .

فقال القاضي عياض : انه فرض على الجملة غير محدد بوقت ، وحكى ان العلماء حملوا الامر على الوجوب وانهم اجمعوا عليه . وحكى ابو جعفر الطبري انه على الندب وادعى فيه الاجماع . وعقب عليـــه بعضهم بانه ما زاد على المرة الواجبة . وقال ابـــن القصار من المالكية المشهور عن اصحابنا ان ذلـــك واجب في الجملة يأتيه الانسان مرة في العمر مــــع القدرة وذلك ان مالكا واصحابه وغيرهم من اهـــل العلم ذهبوا الى ان من صلى على النبي مرة واحدة من عمره سقط عنه الفرض وان الصلاة على النبي لا تتعين في الصلاة المكتوبة على وجـــه الفـــرض . وخالف الامام الشافعي واصحابه في ذلك قائلين ان الصلاة على النبي المفروضة بالآية هي في الصلوات المكتوبة عند التشهد الاخير واما في غيرها فلا خلاف انها غير واجبة . وحكى ابو جعفر الطبري والطحاوي وغيرهما اجماع المتقدمين والمتأخرين من علماء الامة على ان الصلاة على النبي في التشهد غير واجبة . ولم يشذ عنهم في ذلك الا الشافعي القائل من لم يصل على النبي بعد التشهد الاخير قبل السلام فصلاته فاسدة وان صلى عليه قبل ذلك لم تجزه ، والى ذلك يشير بقوله :

يا اهل بيت رسول الله حبكم
فرض علينا من القرآن انزلـــه
يكفيكم من عظيم الشأن انكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

قالوا ولا سلف له في هذا القول ولا سنة متبعة وبالغ جماعة في الانكار عليه في هذه المسألة لمخالفته فيها من تقدمه ، وحتى ان بعض اصحابه خالفوه فيها

منهم الخطابي القائل ليست بواجبة فى الصلاة بدليل عمل السالف الصالح ، فهذا تشهد ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي روى التشهد عن النبي كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم ، كلهم لم يذكروا فى التشهد الصلاة على النبي ، واما حديث « لا صلاة لمن لم يصل علي » فان أهل الحديث ضعفوا روايته كما عند عياض وغيره ، والذين اخذوا به أولوه بأن معناه لا صلاة كاملة ، فلم يبق حينئذ الا القول بان الصلاة على النبي مطلوبة فى الصلوات المكتوبة على وجه الاستحباب عند التشهد الاخير وهو قول مالك وسفيان واهل العلم ، وقال بعضهم ان تاركها مسيء غير ان لا اعادة عليه .

وحكم السلام على النبي مثل حكم الصلاة عليه، واجب كذلك فى الجملة عند العلماء ولا يجب فى الصلاة المكتوبة الا عند من يوجب التشهد لاشتماله عليه ، وخالف فى ذلك ايضا الشافعي وقال ان السلام على النبي فرض فى التشهد الاخير ، غير انه يعتبره هو نفس السلام الذي يخرج به المصلي من الصلاة ، فكان متفقا مع سائر العلماء من هذه الوجهة

والحديث عن حكم السلام على النبي يجر الى الكلام على التشهد ، اذ ان نص السلام الوارد جاء مندرجا فى الفاظ التشهد — كما لا يخفى — وهو « السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته » وهناك روايات وأحكام تتعلق بهذا نجتزىء عنها اختصارا لكونها معلومة بالضرورة .

مواطنهما

ذكرنا ان الصلاة والسلام على النبي مطلوبان شرعا ، وجوبا او استحبابا ، من غير توقيت معين فيما يرجع للقسط المفروض منهما ، بمعنى أن الشارع وسع فى ذلك ولم يضيق ، وفيما يخص حكم الاستحباب منهما فانه مطلوب على الدوام والاستمرار من غير حد ولا حصر ..

لذلك وسع المسلمون فى أمرهما أيما توسيع واكثروا منهما ما وسعهم الاكثار ووجدوا اليه سبيلا، فمعظمهم اتخذوا ذلك ديدنا وهجيرى .. يصلون ويسلمون على النبي فى كل وقت وحين ، فى خلواتهم وجلواتهم ، وصلواتهم وأذكارهم ، وحتى حين اعمالهم وذهابهم وايابهم .. كأنها النقل الذي لا يطيب لهم حديث أو عمل الا بترداده والاكثار منه ..

وبالجملة فان الفقهاء اشاروا الى بعض المواطن التي ينبغي للمسلم ان يصلي فيها ويسلم على نبيه الاكرم :

1) فى تشهد الصلاة .. على ما أسلفنا بيانه

2) عند الدعاء .. لما روى عن عبد الله بن مسعود قال : اذا أراد أحدكم ان يسأل الله شيئا فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو اهله ثم يصلي على النبي ثم ليسأل فانه أجدر ان ينجح . وهذه سنة حميدة متبعة عند عامة الناس فانهم يكثرون من الصلاة على النبي حالة الدعاء بل ان الكثير منهم يقتصر عليه وقلما يزيد..

3) عند ذكر الرسول وسماع اسمه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي . ولقوله : ان البخيل كل البخيل من اذا ذكرت عنده فلم يصل علي ، وفى رواية : من الجفاء ان اذكر عند الرجل فلا يصلي علي . لهذا التزم المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ذكر الصلاة على النبي والسلام عليه كلما سمعوا ذكر اسمه الكريم او كلما تلفظوا به ، وينكرون اشد الانكار على من يخل بهذه السنة الحميدة ولا يقبلون له عذرا .. لان تعظيم اسم النبي من سمات الاسلام والمسلمين مهما كثر ذكره وتعدد فى المجالس — على ان بعض الفقهاء رخصوا فى ذلك واجازوا الاكتفاء بالصلاة عليه مرة أو مرتين عند اعادة ذكره عدة مرات ، فقد حكى ابو عيسى الترمذي عن بعض اهل العلم ان الرجل اذا صلى على النبي مرة فى المجلس اجزا عنه ما دام فى ذلك المجلس .. وربما يكون فى معنى ذلك الاكتفاء كتابة الى الصلاة عليه برموز مختصرة على وجه الاختزال كرمز : صلعم — او رمز : ص . ولكن الافضل والاليق بالادب والتكريم للجانب النبوي اعادة الصلاة عليه لفظا وكتابة كلما ذكر او سطر .

4) عند الاذان ، لقوله صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول وصلوا علي ثم سلوا لي الوسيلة،فانها منزلة فى الجنة لاتنبغي الا لعبدمن عباد الله وارجو ان اكون انا هو ، فمن سال لي الوسيلة حلت له الشفاعة .. وقد علمنا صلى الله عليه وسلم كيف ندعو له بهذه الوسيلة ، من حديث جابر ابن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته — حلت له شفاعتي يوم القيامة .. وهذه الخصلة الحميدة يراعيها كثير من المومنين عند سماعهم الاذان .

5) وفى يوم الجمعة ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الامر بالاكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة . وعن ابن عمر : اكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة ، فان سلامكم يوتى به منكم (اليه) فى كل جمعة .

6) وفى الرسائل والمكتوبات .. وذلك بعد البسملة او الحمدلة . قال عياض : ولم يكن هذا فى الصدر الاول واحدث عند ولاية بني هاشم فمضى به عمل الناس فى اقطار الارض ، ومنهم من يختم به ايضا الكتب .. وكذلك من يفتح به الخطب وما اشبهها .. وقد كان هذا فى الصدر الاول .

7) وفى حال الاحتفال به ، كايام المواسم والاعياد ولا سيما ايام المولد النبوي . وهذا ايضا مما احدث بعد الصدر الاول وعده العلماء فى مقدمة البدع المستحسنة التي ينبغي تمجيد النبي فيها والاكثار من الصلاة والتسليم والثناء عليه وقراءة الامداح والترنم بالاناشيد والتواشيح الدينية وصيغ الصلوات والتسليمات المروية .

هذه بعض المواطن التي ينبغي ان لا تخلو من الصلاة والسلام على نبينا الكريم ، فليقس ما لم يقل .

مع التنبيه على ان هناك بعض المواطن كره العلماء ان تكون محل الصلاة عليه ، كحال التعجب والاستغراب ، وقد كره سحنون الصلاة عليه عند التعجب وما اشبهه قائلا لا يصلى عليه الا على طريق الاحتساب وطلب الثواب . كما كره ابن حبيب ذكر النبي عند الذبح ، وقال اصبغ عن ابن القاسم موطنان لا يذكر فيهما الا الله : الذبيحة والعطاس .

اختصاص :

لعلنا نفهم مما استعرضناه ان هذه الصلاة وهذا التسليم امر خاص بمقام النبوة ، شرع لتمجيد قدره فى العالمين ولتقرير حبه فى النفوس ، الا ان العلماء حينما بحثوا هذا الاختصاص نحوا فيه مناحي اخرى فمنهم من راى ان ذلك خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يرى ان الصلاة تكون على سائر الانبياء ، وآخرون يرون انها على الانبياء وغيرهم من صالحي المومنين . ولاشك ان ظاهر النصوص يدل على هذا التعليم والاطلاق ، قال تعالى : هو الذي يصلي عليكم وملائكته . وقال : خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك سكن لهم . وقال : أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة .

وكان صلى الله عليه وسلم اذا اتاه قوم بزكاة قال اللهم صل على آل فلان كآل بني اوفى — غير ان المحققين يرون فى الآية : يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما — تشريعا خاصا يقضي بتخصيص الصلاة والسلام على نبينا الكريم على وجه مخصوص وبكيفية مخصوصة ، وان هذه الكيفية المشروعة لا تكون لغيره الا على وجه التبعية والاضافة كآله وازواجه — وبعض المحققين يرون جواز ذلك فى حق الانبياء عامة دون سواهم — واما الائمة ومن فى معناهم فيترضى عنهم ويستغفر لسائر المؤمنين ، كما قال تعالى : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم — لقد رضي الله عن المومنين — رضي الله عنهم ورضوا عنه — وقد فصل القاضي عياض الكلام فى المسالة بما لا مزيد عليه ، مشيرا الى ان مذهب الامام مالك هو اختصاص نبينا بالصلاة والتسليم على الوجه المخصوص وجواز ذلك فى حق سائر الانبياء دون سواهم ، ويقول مالك فى المبسوط: اكره الصلاة على غير الانبياء ما ينبغي لنا ان نتعدى ما امرنا به ، قال عياض ان الذي ذهب اليه المحققون واميل اليه هو ما قاله مالك وسفيان وروى عن ابن عباس واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين من انه لا يصلى على غير الانبياء عند ذكرهم ، فهو شيء يختص به الانبياء توقيرا وتعزيزا ، كما يختص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس ولا يشاركه فيه غيره . واما ما احدثه الشيعة والرافضة فى بعض ائمتهم حيث ساووهم بالنبي فى ذلك فهو أمر لم يكن معروفا فى الصدر الاول ، واتباع اهل البدع منهي عنه فلا يصلى على آل النبي وازواجه وأصحابه ابتداء وانما تباعا له .. يستانس فى ذلك بالآية : لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، فهي تقضي باختصاص النبي فى كلا الامرين : الدعاء بمعنى النداء والدعاء بمعنى الثناء والطلب . قال : وهذا اختيار كثير من الائمة منهم ابو المظفر الاسفرائني وابو عمر ابن عبد البر .

صيغ :

بقيت مسالة الصيغة التي ينبغي ان تلتزم وتؤدى بها الصلاة والسلام على النبي الاكرم . ولعل المسالة جاءت عقب نزول الآية الامرة بالصلاة والتسليم . ويظهر ان صيغة التسليم كانت معهودة ومعلومة لدى الصحابة من قبل (فى حالة التشهد فى

جلوس الصلاة مثلا) اذ راينا ان نصوص التشهد التي علمها صلى الله عليه وسلم للصحابة كانت تشتمل كلها على كيفية التسليم بصيغة معلومة من الجميع التي هي « السلام عليك ايها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته » لهذا بادر الصحابة عقب نزول الآية المذكورة يسالونه صلى الله عليه وسلم عن الصيغة التي يؤدون بها الامر الالهي على وجه يليق بمقام النبي الاسمى .. فهذا حديث الموطا في الموضوع، من حديث ابي مسعود الانصاري قال : اتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : امرنا الله ان نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ، قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا انه لم يساله ، ثم قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد — والسلام كما علمتم (اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى لفظ السلام المعروف لديهم في نص التشهد) — وهناك روايات اخرى عن مالك خارج الموطا فيها اختلافات يسيرة حسب الرواة الذين يروى عنهم ، وروايات اخرى من طرق شتى عن كثير من الصحابة الاجلة ، ولاسيما علي بن ابي طالب المروى عنه صيغ كثيرة فيها اطناب وتفنن في العبارة، مما يدل على انها من انشائه البليغ او من انشاء الذين نسبوها اليه كرواية سلامة الكندي قال : كان علي يعلمنا الصلاة على النبي: اللهم داحي المدحوات ، وباريء المسموكات ، اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ، ورافة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما اغلق ، والخاتم لما سبق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ لجيشات الاباطيل كما حمل ، فاضطلع بامرك لطاعتك ، مستوفزا في مرضاتك ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ امرك ، حتى اورى قبسا لقابس .. الى آخره — وقد تسب لعلي كرم الله وجهه صيغ أخرى التزمها اصحابه كما ان لغيره من الصحابة والتابعين صيغا اخرى تختلف في الفاظها ولا تتباعد في معانيها . قال عياض : وما يؤثر من تطويل الصلاة وتكثير الثناء عن اهل البيت وغيرهم كثير ..

لهذا نرى ان صيغ الصلاة والسلام على النبي لا تكاد تنتهي او يحصيها العد طوال القرون ، تفنن فيها البلغاء واطنبوا فيها وذهبوا بها كل مذهب ، الايجاز الشديد ، والاطناب المديد ، والايغال في الاعماق ، والتحليق في الافاق .. حتى امكن ان يعد اسلوب الصلاة على النبي اسلوبا متميزا وفنا أدبيا رائعا قائما على حدة .. يستهوى الافئدة بمعانيه ، ويدعو القلوب والاسماع الى التعلق بها والتلذذ بترديدها صباح مساء . وناهيك بهذه الصيغ المتداولة التي يترنم المومنون بها في المجالس ويسردونها اذكارا رتيبة في خشوع واقبال وقد تعلقوا بها وتلقوها عن اشياخهم الاماثل ، ملتزمين لها نذرا واجبة واورادا يومية لا يتخلفون عنها ولا يعدلون عنها .. فهنيئا لمن بلغ بها غاية الاحتساب ، ورام من ورائها جزيل الثواب

واظن ان الامر لاستفاضته لا يحتاج الى تمثيل.. ويكفي ان نشير فيما يخص اوساطنا المغربية الى الصلاة المعروفة بالمشيشية نسبة الى الشيخ عبد السلام بن مشيش شيخ الصوفية الاكبر دفين جبل العلم بشمال المغرب ، التي اولها « اللهم صل على من منه انشقت الاسرار ، وانفلقت الانوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فاعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق .. الى آخرها » . وهي معلومة متداولة ، شرحها الشارحون وذاعت شرقا وغربا .. وكذلك الصلاة المعروفة بالتازية نسبة للشيخ سيدي ابراهيم التازي وهي متداولة جدا : « اللهم صل صلاة كاملة ، وسلم سلاما تاما ، على من تنحل به العقد ، وتنفرج به الكرب ، وتقضى به الحوائج ، وتنال به الرغائب ، وحسن الخواتم ، ويستسقى الغمام بوجهه ، وعلى آله وصحبه » . وصلوات اخرى متداولة لا نطيل بذكرها.

وانما نشير الى بعض المجموعات التي تتضمن كثيرا من صيغ الصلوات المتداولة ، كمجموعة « دلائل الخيرات » للشيخ ابن سليمان الجزولي دفين مراكش الحمراء ، فلا يعرف مجموع تلقاه الناس بالقبول شرقا وغربا مثل مجموع الجزولي فقد التزمه الناس واجلوه واتخذوا منه كتابا مقدسا له اربابه والقائمون عليه ، وكذلك المجموعة الضخمة للشيخ المعطي بن الصالح الشرقاوي صاحب الذخيرة المدفون بزاوية ابي الجعد باقليم بني ملال بالمغرب ؛ وقد قيل انه مجموع ضخم اناف على الستين جزءا يضم كل ما قيل في الرسول الاكرم من صلوات وامداح .. عليه افضل الصلاة وازكى السلام ما تعاقب الملوان ؛ واشرق النيران .

الرباط — رضا الله ابراهيم الالغي



اذا تناول القول المخلوقات، تناولهم ذوي درجات وتصورهم في مستويات، وتباعدت بينهم الشقة لانهم مخلوقات ناقصة، وهم مختلفون في هذه السمة التي هي الاطار الشامل الذي يحتضنهم ، والبساط الذي يجمعهم ويوحد بينهم . وبين مخلوق ومخلوق عدة ابعاد وفوارق ، ومهما ترامت هذه الابعاد وتراخت اطرافها فانها في النهاية الى وحدة ووفاق : وقد قرانا ـ ونحن اطفال ـ قول من قال :

اذا شوركت في اسر بدون
فلا يك منك في هذا نفور

ففي الحيوان يجتمع اضطرارا
ارسطاليس والكلب العقور

واذا تقاربت السمات ، وتعانقت المماثلات ، فلابد ان تقرا «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض». ويبتديء الاسلام والايمان برجل نطق لسانه وءامن جنانه بلا اله الا الله محمد رسول الله ، حتى ولو كان ذلك مرة واحدة ولم يزد عليها قولا ولا عملا. فان زاد ازداد ايمانه ، ولا يزال في ازدياد حتى ينتهي الى قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . والمومنون اخوة في الايمان بالنطق بالشهادتين ، فهم اخوة من درجة كنسبة الواحد الى المائة او المليون ، كما يجمع كلمة الدرهم بين الدرهم الواحد والمليون درهم ، ولذلك كانت ظاهرة النسب في قربها وبعدها ملهمة لخلق الاعداد والمقادير والمميزات : واخوة المومنين فيما بينهم من هذا القبيل : فهناك مسلم يساوي درهما واحدا ، ومسلم ءاخر يساوي مليون درهم ؛ فهذا درهم ، وذاك مليون درهم . وكلمة درهم تربط بينهما . وكلمة واحد ومليون تفرق بينهما . كما ان هنالك رجل اعمال يلتقط حزمة البقل ورجل اعمال يخترع الكهرباء وآلة الطباعة . فكل منهما كادح مناضل ، وانما فرق بينهما بعد همتهما : والقيمة لمن ارتفعت قيمة ثمرة عمله : فانا اكتب هذه الكلمات على نور الكهرباء وتضاء المدن بالكهرباء ، وملايين البشر تعمل في الكهرباء، فمخترعها يقدم خدمته للناس كافة في سائر الازمان التي تلت يوم الاختراع بهذا التعميم وهذا الشمول ، بحيث نحسب الكهرباء تكاد تقرب من الشمس في مزيتها وثمراتها . اما البقل فكثير ، وهو هبة من الله للناس والانعام بدون ما حاجة الى اي رجل من الناس . وما يشبه الكهرباء في ماديتها من الروحانيات الا الايمان في قلوب المومنين .

واذا عملنا بقاعدة جوستاف لوبون حين يقرر ان الشعوب تقاس بخيرة رجالها ، ولا عبرة بعامة الناس فيها ، صح لنا القول بأن اخواننا من المومنين كلهم اخواننا في الايمان كما ان اخواننا في بنوتهم لآدم عليه السلام كلهم اخواننا ، ورغم ذلك فان لنا الحق في ان نحب ونفخر باخواننا الآدميين النافعين غير الضارين ، اكثر مما نحب اخواننا غير النافعين ، وان نحب اقل من ذلك اخواننا الضارين : فحبنا للنافعين

عبر الضارين فيه زهو وتعظيم .. وحبنا لاخواننا الذين لا يضرون ولا ينفعون حب سالب لا روح يحركه .. اما حبنا لاخواننا الضارين فحب اشفاق عليهم وتمنينا ان يهتدوا ، فان اشتد ضررهم حملنا حبنا لمن يتضررون على ان نكره ونعاقب المسيئين . وهذا هو المقياس الذى يمكن ان يراعى فى الاخوة الاسلامية، فانما هي اخوة من باب الروابط الاصيلة التى لها ءاثار بعيدة فى سلوكنا وفى اوضاعنا ووضعياتنا..

ان من ماسي مجتمعنا الجهل والفقر والضلالة : وهذه ماسي موبقة وشر ما فيها انها ليست احكاما ضرورية لابد منها ، فاننا نحن الذين اختاروها وطبقوها على انفسهم سامدين لاهين ؛ والا فلا نلم رجالا ونساء مقيمين فى مزبلة عرايا الاجسام جياع البطون ، فى حين ان فى وسعهم ان ينظفوا مزابلهم ، وان يعملوا على كسب القوت واللباس . اما وهم كما قال مولانا الحسن الثاني نصره الله وهو فى مكة المكرمة لرجال الصحافة: « ان الرجل العربي يرى سلاح النضال عن يمينه ، وفاس الشغل عن يساره » وهو يشكو من الظلم والخصاصة ، وكان من حقه ان يتناول البندقية فيحمي بها عرينه ، وياخذ الفاس فيخرج بها رزقه. ان اخوة كلهم متواكلون لمدعاة لحزن عميق ، حزن من يتضور جوعا وسلة الخبز معلقة فوق راسه فلا يكلف نفسه البحث عن انزالها من السقف بوجه او باخر، ولو برميها بالحجارة حتى يسقط ، ولكنه ينتظر جاره البعيد ان ياتي بالسلم فياخذ السلة ويضعها بين يديه ، وربما يمضغها له حتى لا يتكلف مضغها . وتتلخص مشكلة اخوة المسلمين فى : انهم لم تعم بينهم فكرة الانسانية وقيمة الانسان ، وفى انهم قنعوا من اعمالهم الدينية بالنطق بالشهادتين ، وانهم حرفوا فهمهم للقرءان ، فان الله سبحانه يقول: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم» تسلية للفقراء ، ودعوة الى التعفف عن التكفف ، وليست دعوة الى ترك العمل . وكان من حقنا ان نتدبر قول الله تعالى فى خطابه لمريم « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » فالوسيلة التى كانت فى امكان مريم ان تاكل منها على صورتها من وجع الولادة والانفراد ، هي النخلة المثمرة ، ورغم كونها فى حالة عجز وعدم قدرة فلتبذل اقصى ما تستطيعه وهو هز النخلة . بدليل انها فى محرابها كان ياتيها رزقها ، حيث لا تاثير لكسبها ، اما وقد امكنها ان تاتي بسعي فى طلب الرزق ، فلن يتركه ولو شكليا ، كحالة التيمم لفاقد الماء . فان فقد الماء والصعيد سقط وجوب الصلاة ، وفى حالة عدم وجود اي باب للرزق يسقط طلبه ، لمن لا يمكنه السعي ، والا فانه مخاطب بقوله سبحانه « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ويرفعنا القرءان مرة اخرى الى رتبة الانسان فيقول « ولقد كرمنا بني ءادم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات » فذكر الله سبحانه منته على الانسان بانه محمول فى البر والبحر، ذكره بذلك يبحث عن الوسائل التى تمكنه من الحمل والسيطرة على البحر والبر ، مثل ما امتن علينا برزقنا وهو فى المطر ، فعلينا ان نطلبه حتى نسيطر على الامطار والمياه ، ووعدنا الجنة لنطلبها من باب العمل الصالح، وكلما سمعنا منة من مننه سبحانه فعلينا ان نكد فى لحاقها فى اعلى مستوياتها . والخطاب هذه المرة للانسان ، ومنه من شعر بهذه المنة فمد يده ليسيطر على البحار لان الله حكم بان يحملنا عليها وفيها ، وشاهدنا البشر يتفاوتون فى الحمل على البحر وفيه ، وفى اعماقه المندرجة فى حرف الظرف الذى هو حرف في ؛ ومن حقنا اذا شاهدنا ارفى شيء يدل على التسخير ان ناخذ به، ولا نكتفي فى الحمل فى البحر بـ(فرابو) فى حين ان بني ءادم من غير اخواننا المسلمين يبنون الغواصات وحاملات الطائرات ، وياخذون بمعنى الآية الى منتهاه ، وياخذون فيها معنويا وعمليا ـ بالقياس، فقاسوا على الحمل فى البر والبحر الحمل فى الجو ايضا ، ملتفتين الى ما امرنا الله بالالتفات اليه فى قوله « اولم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله » فاعتقدوا ان تسخير الجو للطير مبني على قواعد يجوز تطبيقها ليتمكن الانسان من الطيران . فقد حمله الله فى البحر على مركب ، ويجوز ان يحمله فى الجو على مركب مثل ما حمله فى البحر على مركب . وقد نبهنا الله سبحانه الى السمو بالمعاني من تحت ستار الفاظها ، فقال « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » فالارض الطيبة تخرج طيبا والخبيثة تخرج خبيثا ، مع استواء نوع البذرة ؛ ثم يقول الله سبحانه «الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء توتي اكلها كل حين باذن ربها » فكما ان الفصلة الدقيقة تتحول فى الارض الطيبة الى شجرة فرعاء ، « اصلها ثابت وفرعها فى السماء توتي اكلها كل حين باذن ربها »، فكذلك كلمات القرءان اذا وجدت قلوبا مومنة حقيقة الايمان ، واعية كل الوعي ، كاملة الثقة فى الله ، متاكدة من ان الله سبحانه يجازي الانسان ويعامله على قدر همته ؛ وقديما قيل : ان الله يحب معالي الامور

ويكره سفاسفها . وقد انزل الله سبحانه كتابه يرسم نقطة البدء والانطلاق ، ويذكر الاشياء مقطعة متفرقه ، ليفتح المسلمون اعينهم ، وليتدبروا قول الله سبحانه « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ففيه من كل شيء شيء، وعلى الانسان المسلم ان يبحث عن بقية المدلولات والدوال . ولعل المعلمين فى المدارس الابتدائية والاساتذة فى الثانويات والجامعات ، يتذكرون حضور التلاميذ والطلبة امامهم ، وهم يختصرون الكلام اختصارا ، ويكتفون بالتلميحات ، تنبيها للطلبة على ان يتذكروا معلوماتهم، وان يستعملوا مواهب عقولهم لتتدرب على التصرف والبحث ودقة الملاحظة ، وحتى تلاميذ الفصول الاعدادية يضع لهم المعلم جداول بكلمات ناقصة ، وعبارات متوقفة على ما يكملها ، ثم يطالبهم بملء الفراغ بالتعبير المناسب ، وحينما امرنا الله بالطهارة قال : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين» فلم يتعرض للمضمضة والاستنشاق ، ولا لمسح الاذنين ، ولم يقدر العدد، كي يبقى محل للسنة فى الايضاح والبيان ، واتى بعبارة فامسحوا برؤوسكم وارجلكم » بكسر اللام من ارجلكم ، حتى يتسنى لاصحاب الراي ان يتدبروا فى سر هذه الكسرة هل هي للمجاورة او انها حكم يدل على ان الواجب فى الرجل انما هو المسح ، حتى يتدرب الافكار على اعمال النظر فى الكتاب والسنة ، فاذا تعلمت طرق التصرف استعملته فى كل ما يصح ان ينظر فيه عقلا اعتمادا على الاصول الشرعية. وقد فهم علماء الاسلام ذلك فذكروا القياس والاجتهاد . ومن المعقول ان يتقيد المسلمون بالكتاب والسنة، ومهما يكن من تقيدهم بالنصوص فان للفكر مجالات داخل هذه النصوص نفسها . وقد بالغ علماء الاسلام — رضي الله عنهم — فى استنتاج الاحكام ، لكن الشؤون الدنيوية والكونية لم تلق الا اهتماما قليلا ، وتحجرت العقول ، حتى لما رأت الادميين الآخرين يتناولون شؤون الدنيا الكونية فى ثقة وجدية، اكتفوا بعرضها على الكتاب والسنة وبينوا انها توافقها ولا تخالفها ، ثم وقفوا عند ذلك ، ولم تجد فيهم الكلمة الطيبة ما تجعل اصلها ثابتا فى المصحف ، وفرعها يتطاول فى سماء البحث والاستكشاف . ورضوا بموقف المتفرج ولم يندمجوا فى مجموع الحياة الانسانية بما تتطلبه من قوة . واخذوا فى شؤون العبادات والاحكام والعقائد بعض الكتاب بقوة ، وتركوا ما يتعلق بالكونيات فى حده الاصلي من كونه فصلة ذاوية محتاجة الى الارض الطيبة لتأتي

اكلها كما ءاتته اشجار الباحثين الكادحين . فلم يكونوا ممن ءامن ببعض الكتاب وكفر ببعض ، بل ءامنوا بكل ما انزل الله ، لكن بقي علينا ان نسلك فى شؤون حياتنا ودنيانا نفس الطريقة التى سلكها علماء الاسلام فى شؤون الاحكام والتعبدات ، حتى ليصح القول بان الآيات الكونية ظلت نصوصا غير معبرة ، او معبرة غير مطبقة ، او مطبقة تطبيقا بدائيا غير مترعرع . على ان الامانة الانسانية التى حملناها فى اعناقنا كأناس تفرض علينا ان نتصف بالانسان الفضولي ، وان نتتبع مسالك الانسان الواعي ، لنكون مسلمين وءادميين فى ءان واحد . لكننا مسلمون فقط ، حتى اننا لا نقرا نصف القرآن المتعلق بالدنيا الا قراءة سطحية . ولهذا فاننا لم نف بالتزاماتنا ، فلو وفينا بعهد الله كاملا لاوفى الله لنا ، ولهذا فلا حق لنا فى اتهام ماقاله ربنا « ان الله يدافع عن الذين ءامنوا » لان ايماننا ليس بالايمان الكامل ، ولم ننصر كتاب ، ولم نتله حق تلاوته اي بالكشف عن غامض معانيه المعبر بعضها بواقع الوجود وتقدم الحضارة ، والا فان عناصر فكرة التقدم والنمو والارتقاء موجودة بكثرة فى القرءان الكريم ، حتى انه احتمل من الافكار عند بعض الطوائف الاسلامية ما يعني ان يوجد فى كل تقنين ، فضلا عن وجوه التاويل التى من شانها ان ترفع الانسان الى الدرجة التى يستحق بها ان يكون خليفة عن الله فى الارض . واذا كان لنا ان نستخدم قاموس علماء الاصول فيجوز لنا ان نربط بين آية «ان الله يدافع عن الذين ءامنوا» وءاية «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم» ، فنقول ان الاطلاق فى ءاية « ان الله يدافع » مقيد بالقيد الذى فى ءاية « ان تنصروا الله ينصركم » فلكي يدافع الله عنا بصفتنا مومنين علينا ان نكون مومنين ننصر الله بتطبيق شرائعه والجو الحضاري الذى يحيط بهذه الشرائع على ان روح القرءان واستعماله المتكرر هو ربط المومنين بالذين يعملون الصالحات ، وربط العمل الصالح بالايمان، يثمنا ان بينهما تلازما دائما ، فى حالة ما اذا كان القصد من العمل الصالح ثمراته المذكورة فى القرءان والحديث ، او اريد من الايمان طاقاته الهائلة فى رفع مستوى الانسان الى صف الخليفة عن الله فى الارض ، واقرا ان شئت قول الله سبحانه « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » فالاسلام لله معناه دين الاسلام والدخول فى زمرة المومنين بالرسالة المحمدية ، والاحسان معناه العمل الصالح وتطبيق الاوامر والنواهي الاسلامية . ولهذا

فان الاسلام دين عقل وتجربة في ءان واحد . ومن اتصف بشطر دون شطر كان سلبه بدون ايجاب وايجابه دون سلب . على ان هنالك ما هو اشد من هذا ، فان الايمان بالشريعة المحمدية وتطبيق التزاماتها في النفس فقط ، لا يكفيان مجتمعين في التخلص من الخسارة وانما تنتفي الخسارة بخصال ثلاث : الايمان بالله ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق (لتركيز الفكرة المومنة) والتواصي بالصبر (لجعل الفكرة ذات نتائج وفعالية وذلك بالصبر على ما تتطلبه من مجهود ، وتكلفه من مشاق واتعاب) واقرا قول الله سبحانه « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فسورة العصر من السور الانسانية بحسب النظرية القرءانية ، فالبشرية كلها هالكة اما دينا واما دنيا ، وانما ينجو من الهلاك العاجل والعقاب الآجل في الدنيا والآخرة صنف واحد من الناس هم «الذين ءامنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر » . فلكي يكون المنشار منشارا ، ويحق ان يسمى بهذا الاسم ، عليه ان تتوفر فيه صفات المنشارية ، بحيث يكون من شانه ان يفلق الخشب ، ولكي يؤدي هذا المنشار وظيفته عليه ان يستعمله النجار في معمله ، فينتج — في جملة ادوات النجار — الابواب ، والنوافذ والكراسي، والمناضد ، وسائر الضروريات المصنوعة من الخشب ، وعليه ان تتبلور فيه تلك القابلية التي يشتمل عليها ، فان المنشار الجديد ، المعروض للبيع بعد مفارقته للمصنع الذي صنع فيه هو صالح لقطع الاشجار ، وفائدته ليست في مجرد كونه صالحا للقطع ، بل ثمرته وفائدته في ان يكون قاطعا بالفعل ، واذا انكسر او فل الشغل بعض اسنانه فان ذلك من فضائله . كفضيلة السيف المفلول ، وظهور « الجنرال — كورو — والجنرال — ميان — استراي — مقطوعي اليد ، في يوم العرض والزينة ، اجمل وافضل من اي وسام يحمله اي قائد جلده غير مثقوب بآثار العراك والنضال ، وفيه يقول ابطال الريف « هو رجل لو ملا جلده زيتا لما قطرت منه قطرة » . ومما مدح به الشاعر رجاله المغاور قوله :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

وقد جعل علماء البلاغة هذا من باب تاكيد المدح بما يشبه — في صيغته — الذم ، وسمى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر ابن ابي طالب رضى الله عنه سمي بذي الجناحين والطيار ، لان كلتا يديه ذهبتا في سبيل أعلاء كلمة الله ونشر تعاليم الاسلام، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو ايضا من جملة معطوبي الجهاد في سبيل الله ، فقد شج جبينه وكسرت رباعيته ، وذبل جسمه من جراء سم خيبر الذي دسته له اليهودية . وكما كان المسلم الصحيح يتشرف جبينه بالدينار شاهدا على السجود ، كان جسده متاثرا بالجراح في سبيل الله ، وكان بيته مصابا بالثكل لان بعض بنيه ماتوا في الجهاد ، وكان ماله مصابا بالنقصان والانفاق في سبيل رفع المستوى الاقتصادي في العالم الاسلامي في جنب من جوانبه ، وفي كل مظهر من مظاهر حياته اثر بارز يقرر انه الرجل المسلم او المراة المسلمة التي عاشت الاسلام ، واصطبغت كل حياته وحياتها بتعاليم الاسلام كما جاء بها رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دينا وعملا وتواصيا ودعوة . وانما فرق بين الايمان والعمل والدعوة هذه الفلسفة الغربية التي وجد فيها ضعاف المسلمين مفرا من تكاليف الاسلام ذات الجدوى والثمرة. ولو شعر أمير المومنين المامون ابن الرشيد بان علوم الاقدمين سيف ذو حدين ، لكان صفد «ارسطاليس» المفكر العملاق قبل ان تلاقي بينه وبين الناشئة الاسلامية ، لكنه غفل ان يتامل هنات الفكر الاسطاطاسي ، حيث انه يضع كل شيء بين يدي العقل ، ويجعل العلم مطلوبا للعلم . في حين ان الاستعمالات الاسلامية كلها تزاوج بكل شدة وقوة بين العلم والتجربة ، فتقارن دائما بين العلم والعمل ، والايمان وصالح الاعمال ، وتتبرا من تفكير غير مطبق في تجربة «كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون». وعلى هذا الاساس كان علماء المسلمين واوسعهم ثقافة اشدهم جهادا ، فان سيدنا عليا كرم الله وجهه كان اوسع المسلمين معرفة ، في نفس الوقت الذي كان فيهم من اكثر الناس عبادة ، واشدهم زهدا في الدنيا، وابتعادا عن سفاسف مظاهر الحياة . وكان القراء (حفظة القرءان) وهم علماء الصحابة بالتنزيل ، لا يكتفون بان يقال لهم القراء وان مهمتهم كانت تعليما وتوجيها ، ؛ بل كانوا يفهمون بصفة تلقائية ان مهمتهم تهذيبية وتربوية — لا يفرقون بين التربية والتهذيب — وعدم التفرقة بينهما هو رأي صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني نصره الله ، حسبما ورد ذلك في رسالته العلية بالله ، في شان تنظيم الكتاتيب القرءانية ، واسنادها الى وزارة التعليم الابتدائي — فلكي يكون معلما للقرءان ، عليه ان يعلم معه طريقة التطبيق ، وعليه ان يعلم كذلك تذوق المعاني القراءنية على

طريقة التجربة الحية ، كما يراها الوجوديون . ولهذا استمر فيهم القتل في اليمامة وهم يقاتلون مسلمة الكذاب ، الذي كان يحاول محاولة خطيرة في اقامة دولة التضليل والانحراف ، ونشر مبادىء السفسطة، التي ترى ان البلاغة في القول هي كل ما تتمتع به المعرفة من وجود .

نقول هذا تحت عنوان « الاخوة الاسلامية » ، لاثبات ان مجرد التسمية لا تكفي في هذه الاخوة ، اما اننا اخوة في الاعتراف بوجود الله تبارك وتعالى ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهذا لا شك فيه : فكل ناطق بالشهادتين قلبا وقالبا فانه اخونا . واذن فنحن جمعية من سبعمائة مليون ، وبيدنا قانوننا الاساسي وبعض اللوائح الداخلية : انما القانون الاساسي للمسلمين المرتبطين بفكرة الوحدة الاسلامية فانه القرءان الكريم ، واما اللوائح المعبرة فهي الحديث وكلام علماء الاسلام . والامر في الامة كالامر في الجمعية اذا لم يظهر نشاطها في ميدان مبادئها ، ويرى المجتمع الانساني ثمرة مجهود هذه الامة القائم على اسس هذا القانون ، فانها جماعة راكدة او كما يقول « بعضهم » نائمة .

هذا مع ان كل مجتمع اسلامي يتحير ويتاسف لهذه الانحرافات التي عليها المسلمون ، وكلنا نتمنى ان يقلع المسلمون عن هذه الوضعية المينة . وكلنا يلوم الجماعات الاسلامية بفعل ذلك لنتملص من المسؤولية ونكذب على انفسنا وعلى الناس ونقول : لقد بلغنا ولكن لا حياة لمن تنادي ، ولو نظرنا نظرة جدية ، وتدبرنا في الهوان الذي لحقنا ، واننا ءايلون الى الانقراض والفناء ، شان العضو الذي لا يعمل ولا يتحرك ولا يستفاد منه ـ فان الطبيعة مكلفة بالابقاء على الصالح والاصلح ـ اما ما ليس بصالح ولا اصلح ، وانما هو كتلة متحجرة يابسة فحياته عبث وبقاؤه احلام واماني وغرور . اما العلاج فسهل جدا ، بحيث لا يكلف كل مسلم الا اصلاح نفس واحدة ، فليس من حقه ان يطلب من المسلمين ان ينفذوا اوامره لانه خطب خطبة او كتب مقالا صحفيا ، او قال قصيدة شعرية تختر فيها على العالم الاسلامي . فان ابلغ قصيدة تدمي القلب قصيدة ابي البقاء الرندي، ولكن الاندلس فاتت والقصيدة تقرا ، والاجيال يحفظونها ، ولسنا ندري؟ لماذا ان تاثيرها سيىء ، يشجع على الخمول ، ويحمل على اليأس ، اما تكليف كل انسان بانسان واحد لا عليه كامل السلطة فانه ميسور عملي . ذلك الانسان ليس هو ولدي ولا صديقي، بل هو احسن من هذين : هذا الانسان هو «انا» فاذا اصلح كل واحد منا «اناه» استرحنا من القاء التبعة على السبعمائة مليون من بني ءادم ، قربت الشقة منا فان هذه الملايين متباعدة الديار متشتتة المصالح . اما « انا » فامري طوع يدي ، فلو اردت اصلاح نفسي لما كلفني ذلك شيئا . وكل واحد مثلي في استطاعته ان يصلح شان نفسه ، فاذا قررنا اصلاح حال هؤلاء الاخوة بطريقة ان ينظر كل واحد في حال نفسه ، فاننا نستطيع بهذه « الانا » ان نرفع من قيمة هؤلاء الاخوة والاخوات جميعا

أساسنا القرءان ، وفيه أوامره ونواهيه التي لا تحتاج في اكثرها الى تفاسير وشروح . فاذا جردنا من نفسنا شرطة على شكل الشرطة الادارية ، والتزمنا احترام هذه الاوامر والنواهي احترام السلطة للاوامر الادارية ، وجعلنا منا علينا رقيبا ، امكن القول بان هذه الجمعية العالمية يقوم امرها على قواعد معمول بها ، وان اعضاءها متماسكون بروابط متشابهة في مجتمع موحدة في وسائله واهدافه، والا فانهم اخوة في البشرية ابوهم ءادم وامهم حواء ، وذلك تعددهم الذي اليه يرجعون ، اما « النبيء اولى بالمومنين من انفسهم وازواجه امهاتهم » فتلك اخوة قربى لها حقها بشروطها . واذا كانت الاخوة الاسلامية الاولى مستوفية شروط المؤاخاة بانظمتها وسلوكها ووضعيتها وسائر ظروفها وملابساتها، فان اربعة عشر قرنا من الزمان احدثت نوعا من التصدع في هذا البناء الشامخ، لان تشكيلها فقد الكثير من عناصرها الاساسية . ذلك لان العوامل التي قامت عليها الاخوة الاسلامية كانت راسخة قارة ، ويرجع بناء بعض اسسها الى الجاهلية، وقد استفاد الاسلام كثيرا من المجتمع العربي الجاهلي الذي كان يتمتع ككل مجتمع بشري بروابط محكمة واواصر فطرية ثابتة ، والمثل العربي الذي يقول : « انصر اخاك ظالما او مظلوما » نص تاريخي يفيد الباحث في ان يعرف الطريقة التي عرف الاسلام كيف يحور النظم الاجتماعية العربية ويسبكها في قالب مستساغ بعد ان كانت لا تزيد عن تعبير عن حياة بدائية ، وذلك من عجائب ومعجزات القرءان : فلقد كانت اوضاع الجاهليين الفوضوية ، وعدم وجود حكومة اقليمية تضغط على المجتمع فترد سلوكه الى قوانين قابلة للتعديل بوجه من الوجوه ، وجاء الاسلام فكان هو تلك السلطة التي اخذت سلوك الجاهليين كمادة اولى (خام) ومنها استخلصت عناصر حضارية عندما سلكتها في بوتقة الشريعة الاسلامية .

ومسألة الاخوة احدى ظاهرات هذا المجتمع المفتقر الى قلب يتولى تصفية دمائه الحارة المتشعبة في جسمه العليل . فالاخوة العربية في الجاهلية كانت تحمل من المعاني اكثر مما تحمله هذه الكلمة في عصرنا الحاضر: لان اخوة العصر الحاضر لم تبق مسئلة حياة او موت ، وانما هي في اكثرها مسالة عواطف متاججة ، ادنى من مستواها في الابناء والحفدة. اما في الجاهليه فلكي يضمن الرجل نوعا ما بقاءه وحياته عليه ان يكون له اخوة يشعرون كلهم شعورا واحدا ، يتمثل في قول القائل :

اخاك اخاك ان من لا اخا لـه
كساع الى الهيجا بغير سلاح

وكان العربي الانوف يشعر فيدفع الى التنازل عن بعض انانيته ، والتغاضي عن كثير من حقوقه ، لانه محتاج الى اخيه ليتحاميا ويضمنا البقاء في معترك كله نضال وصراع ، وانظر الى قول القائل :

قومي هـم قتلـوا اميـم اخـي
فاذا رميـت يصيبنـي سهمـي

فهو يقرر ان لا فرق بين هلاك اخيه وهلاك نفسه وهو في هذا لم يقصد الى المبالغة بمقدار ما حكي الواقع الذي كان متحكما فيما قبل الرسالة المحمدية . فلما جاء الاسلام عرف كيف يستفيد من هذا التفكير ، فابقى قطاع الاخوة كما كان ، واستبدل النظرة القبلية باستعمال طاقة تلك الحرارة في بناء الامة العربية بناء حضريا خرج بها من حياة الصحراء القاحلة وزج بها في غوطة دمشق وسواد العراق وحوض النيل ، والعرب امة هادية محبوبة حيثما حلت ، لانها تحمل القرءان الانساني المعمر العادل . وقد سبق لمصر ان احتلها « الهكسوس » الرعاة العرب ، ولكن ايامهم في حوض النيل كانت ايام انحطاط ، لكن العرب المسلمين — وهم مثل الهيكسوس في سلالتهم — استقبلهم العالم مفتوح الذراعين لان المسلمين قدموا لهم ضمانات الحرية ، وحق المساواة ، وحرمة الابدان والدماء والاعراض الا بحقها . وكانوا اخوة متعاونين في هذه العمليات التحضيرية بنفس القوة التي كانت للاخوة في الجاهلية ، الا ان اخوة الجاهلية كانت اخوة تدمير وانانية ، واخوة الاسلام اخوة بناء ونكران للـذات .

اننا كمسلمين نشعر بأخوة حارة فيما بيننا ، يشعر بها الصغير اكثر من الكبير والعامي اكثر من العالم ، ورجل الشارع اكثر من رجل الادارة : لان الطفل والعامي ورجل الشارع لا يسئلون عن دواعي الحب ، وانما هم يحبون ، والحب لا يعلل . ثم هم فيما وراء ذلك لا يفكرون — امام هذا الحب الافلاطوني — فيما عسى ان تكون ثمرات هذه الاخوة لكن الرجل الواعي ، والمفكر المتأمل ، ورجل الادارة يقيمون للتبذير وزنه، فهذا الكنز من الامكانيات لايصح ان يبقى كالكنز مدفونا تحت الارض ، بل علينا معشر الاخوة ان نجعل هذا الحب العذري الفقير حبا سعيدا مترفا ، وفي وسعنا ان نفعل ذلك لو اردنا ! فلم لم نفعل ذلك! لعل احسن الاجوبة واقربها الى الصواب ان نقول : ان السبب يرجع الى فقدان الاطر الموجهة المدبرة . بدليل ان التكوين او بوادر التكوين في شبابنا الدارس بالعالم الحي المتحرك النشيط . كان مصدرا لبعض النهوض ، واذا كان هذا هو المقياس الصحيح، فان من الحق الاعتراف بان العالم الاسلامي لم يبق راكضا كما كان في صدر القرن العشرين ، بل انه خطا خطوات في سبيل الوعي والتوعية ، ، ولكن بمقدار ما لنا من امكانيات في الاطر . ويمكن ان نقوم باحصاء عام شامل في سائر بقاع العالم الاسلامي ، ثم نوزع عليه ما لدينا من الامكانيات فيما يرجع للأطر ، ثم نقوم بنفس العملية فيما يرجع لآثار النهضة ، فسوف نخرج بثمرة مؤكدة وهي ان القضية الكبرى انما هي قضية اطر تقنية وادارية . ولن نعجب بعد ذلك في هزيمة بتيه ، لان الصهاينة يملكون من الاطر اكثر من الحاجة . والقلة والكثرة العددية قليلة الجدوى . ولنا شواهد من « ميثولوجياتنا » وفيها ان القبائل العربية الجاهلية كانت القبيلة منهم اذا نبغ فيها الشاعر اخذت القبائل تتقدم اليها بالتهاني ، لان القبيلة كسبت بالشاعر الواحد ما لم تستفده من كتائب المحاربين . وعلى شدة انانية القبائل العربية فانها لم تكن ترى باسا في ان تتقدم لقبيلة تنافسها بتهانيها ، لان الشاعر — وان كان من قبيلة بطينها — فانه شاعر عربي على كل حال ، لابد ان يمجد عروبته وقوميته الى جنب ذكره لمآثر قبيلته ، وهي مآثر عربية . وكما كان الشأن في الشاعر كان الشأن في البطل . وكانت عكاظ مباءة لتباهي الشعراء والفرسان ، واستطاعت عكاظ ان تقدم اطارا من الفصحاء كان النواة للحياة الاسلامية: اما الفروسية فتتمثل في قول القائل :

او كلما وردت عكاظ قبيلة
بعثوا الى عريفهم يتوسم

لان الابطال كانوا يمشون متنقبين ، حيث لا يحبون ان يعرف اعداؤهم شخصيتهم ، ولكن الخصوم كانوا يتخذون العرفاء يتعرفون الشخص من وراء النقاب ، وكان لكل قبيلة عريف ، لان القائل صدر القبيلة بلفظها التنكيري بالسور الكلي . واما الشعراء فكانوا سادة سوق عكاظ ، وكانت رياسة لجنة التحكيم لاكبر شاعر حضر الموسم . فتكون اطار الفصحاء ، واذا اراد الله امرا هيا اسبابه : فانه لما نزل القرءان وجد الاطار الذي يفهمه قائما فى كل قبيلة من قبائل العرب ، وحيث كانت عكاظ فى صميم القبائل القرشية فان اللهجة القرشية كانت قاسما مشتركا اعظم بين سائر القبائل العربية ، زيادة على انها لغة الحجيج وسدنة الكعبة . فعكاظ كونت الفصحاء ، فلما جاء القرءان وفهمه هؤلاء الفصحاء واستجابوا لحقائقه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية كون القرءان منهم الاطر لقيادة الحياة فى منطقة الشرق الاوسط ، وبهذا التكوين توصل العرب الى تقدير التراث الثقافي عبر الشعوب الاخرى ، فنقلوا فى غير تحرج الحكمة الاغريقية والثقافة الفارسية ، وكثر عليهم العلم ان يهضموها حتى يسبكها فى قالب اسلامي علمي وعملي فى ءان واحد .

لعل سائلا يسال عن الاطلاع الذي يشمل العالم الاسلامي ، فانه توعية على كل حال ، ومع ذلك فان الاخوان المسلمين لا يزالون يتلمسون المخرج . وعن هذا السؤال يصح الجواب بان مجرد الشعور لا يكفي لكي يسمى « تجربة حية » فان الذي يعرف ما هو وجع الاسنان من الدراسات التعليمية ، يستطيع ان يصف المه وءاثاره ، ولكنه لا يستطيع ان يحسه كما يحسه أقوام باتوا ليالي طويلة يتقلبون على مثل الجمر من الالم الاليم . وحتى هذا الامتعاض من زحف الصهاينة على العالم العربي ليس الا مضايقة طفيفة بدليل تفاهة وجوه المقاومة فى عالم قوامه سبعمائة مليون على اكبر تقدير ، والصهاينة من جهتهم يريدون ان يغتنموا فرصة نوم هذا المارد الجبار ، مهما كلفهم ذلك من تكاليف واتعاب ، لان يقظته واعتماده على الاطر النفسية والتقنية والعددية سوف تجعل من « اسرائيل » حلما من الاحلام داعب الاجفان الصهيونية ثم تكشف عن حقيقة عربية اسلامية ، وهي ان ليهود العالم باسره ان يعيشوا فى اية جهة من جهات العالم الاسلامي فى حماية المسلمين ، وان لليهود سائر الاعتبارات التاريخية والاقتصادية التي تمتعوا بها في ظل الاسلام ـ ولو فى اشد اطواره تدهورا ـ والعالم الواعي كله اما ايقن واما انه سوف يوقن بان العالم الاسلامي هو عالمه الغد ، لانه لا يحمل فكرة العدوان ، ولا يطمع فى المزيد ، حيث انه توسع بصورة منقطعة النظير فى غير بقاع الدنيا ، وبلغ عدد المتضمين تحت لوائه رقما قياسيا ، وهو لا يشتمل اصلا على فكرة تعميم الاسلام للعالم باكمله ، بل انه يعتد بالاديان الاخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية . وكل مسلم يومن بان اليهود سوف يستمر وجودهم ما دامت الدنيا والى يوم القيامة ، فان الله سبحانه وتعالى يقول : « واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » والضمير يعود على بني اسرائيل حيث اخذ الكلام عليهم ـ فيما اخذه من القرءان ـ صدرا من سورة « الاسراء » ، وفى هذه الآيات امران بارزان : ان اليهود سوف يبقون مناورين الى يوم القيامة ، وان مناوراتهم سوف تجلب عليهم البلاء ، لان الذين يصابون ببلائهم سوف ينتفضون لكف اذاهم ، وسيسومون اليهود سوء العذاب ليس لانهم يعتنقون دين اليهودية الذي يعترف الاسلام بانه دين قديم ، ولمن شاء ان يستمر عليه فلا يمنعه مانع ، بل لانهم يحملون الحقد للذين انعم الله عليهم من النصارى والمجوس والمسلمين .

ان الذي يحتاج اليه المسلمون انما هي الاطر المختصة فى مرافق الحياة والتقنية ، وان من دواعي التفاؤل ان العالم اجمع والعالم الاسلامي من جملته ، قد اقبل على التعليم فى مستوياته الراقية ، وكلما كثر الوعي ، وانتشرت التقنية ازداد البشر معرفة بعضهم ببعض ، وسوف تعلم البشرية كلها ان الاسلام شكل العالم الاسلامي بصلاحية الخلود ، لما هو عليه من صبر واحتمال وسلامة ضمير ، زيادة على ما يسعى اليه من أخذ باسباب المعرفة حتى يناكب ويواكب العالم المتحضر فى ارفع مستوياته . وهذا هو النظام التهذيبي التربوي الذي وهبته السماء الى الارض ، وربط القرءان بين اجزاء العالم المتقاربة والمتباعدة ، وراعى مصالح المومنين بقلوبهم ومصالح المنافقين والمشركين واهل الكتاب : ففي العالم الاسلامي ، تحت النظام القرءاني متسع للجميع ، تسوية كاملة بين الحقوق والواجبات ؛ وحتى الشبان الذين كانوا قديما يسمون ظرفاء ، وهم اليوم يسمون تقدميين (يعني ملاحدة) عليهم أن يفهموا أن عالمهم الذى يقيم لهم الوزن هو العالم الاسلامي ، الذي لا يحاسبهم لانهم لم يقيموا له الوزن ، لانه اعظم من ان يتخذ مبدأ التنابز مبداه

الانساني ؛ فالملحد من آباء مسلمين سوف يلد ابناء مسلمين على غرار اجدادهم وان لم يكونوا من طراز آبائهم ، وهذا الوطن الاسلامي الكبير سوف يحافظ على هذه النبدة الجسدية ، جاعلا لهم الحق حيثما كانوا وحينما يريدون في ان يكون لهم شرف النسب الروحي ايضا . وعليهم ان يعلموا انهم في اوطان غير الوطن الاسلامي ، سوف يظلون ملصقين غرباء ، فلهم افكارهم محتفظين بوطنيتهم وقوميتهم ، والله غني عنهم وعن عقائدهم ، لكن الوطن الاسلامي في حاجة الى مواهبهم ، فاذا كانوا مومنين بالدنيا دون الاخرة فان للدنيا واجبات تتقاضاها ؛ هي نفس الواجبات ـ في اغلبها ـ بالنسبة للمومن المواطن . ونظن ان شبابنا متفقون على العمل لصالح المواطن والوطن : ففي هذه الدائرة نعمل لصالح البلاد ، فاذا صلح وتحسنت احواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فان كل ابنائه سيكونون سعداء بقطع النظر عن آرائهم الخاصة. وانما نتحدث عن صلاح البلاد ، اما صلاح القلوب فامر بيد مقلب القلوب يقلبها كيف يشاء . ونشعر بنخوة وشموخ ـ نسبي ـ حينما نجد مواطنا صالحا عاكفا على الصالح العام ، دون ان نفكر في ميوله واتجاهاته ، ولا نكتم اننا نود لو عرف جميع شبابنا مزية الاسلام وتفهمها تفهما عميقا ؛ ليس التفهم الذي دسه المبشرون ومن على شاكلتهم في معاملة الاسلام لانه دين اولا ، ولانه اسلام ثانيا .

ومن الخطا الفادح الاعتقاد بأن الصهاينة كلهم مومنون برسالة رسل بني اسرائيل ايمان المسلمين بهاء بل ان اكثرهم لا يومنون بيوم الاخر ، ولكنهم ـ ازاء الاضطهاد النازي ـ تاكدوا بل ازدادوا تاكدا من وجوب تظافر الجهود كيلا تتكرر ماساة هتلر . ولكن السوء عندهم اتى من غسلهم الدم بالدم ؛ فكان من المتوقع ان يكرهوا الاضطهاد لانه اساء اليهم ، وكان من المرجو ان يعترفوا للاسلام بانه لم يضطهد دينا من الاديان ، واكثر ما كان حد به على اليهود ، حتى ان الامة الاسلامية كانت تقبل اليهود المضطهدين في الاندلس بنفس الحرارة والعطف اللذين تقبل بهما ـ مرحبة ـ المسلمين اللاجئين . لكن الصهيونية انكرت الجميل ـ وهذا شر عيوبها ـ فجازت العرب والمسلمين جزاء سنمار، وهاهي تضطهدهم وتذيقهم نكال التشريد والتقتيل ـ بصورة هتلرية نازية . لكن المسلمين سيظلون اوفياء لمبادئهم ممتثلين قول الله سبحانه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون ».

كان الاسلام خيرا للبشر ولن يزال كذلك ، ولو عرفت جمعية الامم مساعي الانسان في سبيل البشرية لكان احتفالها بذكرى المولد المحمدي عيدا انسانيا رفع من قيمة الانسان وساوى بين افراد بني ءادم ، في مثالية رائعة ، لا تشوبها تحفظات ، ولا تفسدها احتياطات ؛ فالانسان اخو الانسان ، والتفاوت انما هو بالتقوى والسلوك القويم . وسواء علم الناس ام لم يعلموا فان فضل الاسلام على البشر كفضل الشمس والماء والهواء ، نحيى بها من غير ان نشكرها، وقلما نشكر حتى خالقها وبارئها . هذا الدين الحنيف، وهذا القرءان العظيم ، والكتاب الكريم ، منة من الله على العالمين ، امتنها علينا بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد بن عبد الله . فاذا كنا نحمل قلوبا بشرية، كان من اللازم ان نعظم جو الاسلام بكل ما فيه من كتاب وسنة ، ورسول وصحابة ، وعلماء واشراف وقرءان ومساجد ، وبكل ما يتغنى ويشيد به ، ويرتل محاسنه وينوه بفضائله ، ويذكر بمزاياه ، فالبدعة انما هي ما يؤدي الى تعظيم ما حقره الله ، وتحسين ما قبحه القرءان ، اما ما يشير من بعد او قرب الى تعظيم ما عظمه الله وامر بتعظيمه ، وينوه برجاله وانصاره وناشريه ، ويحمل على ما يقرب الى الله تعالى من وجوه التحبيذ ، فانه من صميم السنة في روحه ومراميه ، حتى ولو تنوع في اشكاله والوانه . فانما نحن بشر اشبه بازماننا منا بآبائنا . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

تطوان : التهامي الوزاني

الدول الإسلامية في عهد الخلافة من سنة ٦٦١ الى سنة ١٢٥٨

معربة عن خريطة وضعها الاستاذ ستانلي لين بول

الأندلس
شمال افريقيا
مصر
الشام
العراق
فارس
ماوراء النهر
افغانستان والبنجاب

الدولة الأموية
٦٦١ ٧٥٠
الدولة العباسية
٧٥٠ — ١٢٥٨
الأمويون في قرطبة
٧٥٦ - ١١٠٤
عبد الرحمن الثالث
٩١٢ - ٩٦١
الأدارسة
٧٨٨ - ٩٨٥
الأغالبة
٨٠٠ - ٩٠٩
الطولونية
٨٦٨ — ٩٠٥
الفاطمية
٩٠٩ - ١١٧١
الإخشيدية
٩٣٥ - ٩٦٩
الحمدانية
٩٢٩ - ١٠٠٣
قبائل البربر
بنوزيري
٩٧٢ - ١١٤٨
الفاطمية
بنو حماد
١٠٠٧ - ١١٥٢
المرابطون
١٠٥٦ - ١١٤٧
الموحدون
١١٣٠ - ١٢٦٩
الحفصية
بنو زيان
الأيوبية
١١٦٩ — ١٢٥٠
الزنكية
١١٢٧ — ١٢٦٢
البويهية
٩٣٢ — ١٠٥٥
الطاهرية
٨٢٠ — ٨٧٢
الصفارية
٨٦٧ — ٩٠٣
السامانية
٨٧٤ — ٩٩٩
الصفارية
الإيلك خان
الغزنوية
٩٦٢ — ١١٨٦
السلجوقية
١٠٣٧ — ١١٩٤
خوارزمشاه
٩٥٠ — ١٢٣١
الغورية
١١٤٨ — ١٢١٥
المغولية
ماليك دهلي

٧٠٠
٨٠٠
٩٠٠
١٠٠٠
١١٠٠
١٢٠٠



من المعروف ان احتفال المغرب بالمولد النبوي يبتديء من اوائل المائة السابعة للهجرة ، وقد كان من بين اصداء هذا الاحتفال ابتداع موضوعات جديدة في الادب المغربي : من مؤلفات في المولد الشريف ، الى قصائد التهاني المولدية ، وهذه تفتتح – غالبا – بالحنين الى البقاع المقدسة ، وتتناول مدح الجناب النبوي وتعداد معجزاته ، ثم تتلخص الى مدح السلطان مقيم الاحتفال وتهنئته (1) .

والى جانب هذا ظهرت قصائد تعرف باسم « المولديات » ، وتتميز بثلاثة خصائص :

– التزام ذكر المولد الشريف والمديح النبوي خاصة .

– سهولة التعبير ووضوح المعنى .

– خفة اوزانها حيث تأتي – في الغالب – مجزوءة او موشحة او ما الى ذلك .

وقد عرفت هذه المولديات منذ اواسط العصر المريني ، ومنها في هذه الفترة :

1) – « اشعار مولديات » ، لمحمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصبرفي ، اتصل به لسان الدين ابن الخطيب اثناء سياحته بالمغرب بين عام 761 ، الى اواسط 763 هـ ، ولاحظ انه اختص بنظم «المولديات» بمدينة مراكش .

2) – « قصائد مولديات » لابي سالم ابراهيم ابن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران ، والمتوفى – بها – عام 866 هـ / 1462 م (2)

ولا تزال مولديات الصبرفي والتازي غير معروفة .

* * *

وقد كثر نظم هذه « المولديات » في الفترة الوطاسية ، ومنها :

3) – « مولدية » ابن غازي : محمد بن احمد العثماني المكناسي نزيل فاس ، والمتوفى – بها – عام 919 هـ / 1513 م ، وهي قصيدة دالية مسمطة من مجز والرمل ، وتشتمل على 110 ابيات ضعيفة النظم ، ومطلعها :

باسم خلاق الانام
نبتدي صدر النظام
ثم نثني بالسلام
عن رسول الله احمد

وهو يذكر في احد ابياتها « اهل المكاتب » ليدل على انه نظمها برسم الكتاتيب القرءانية حتى

(1) انظر محمد المنوني : « المولد النبوي الشريف في المغرب المريني » ، مجلة « دعوة الحق » ، العدد الاول ، السنة الثانية عشرة ص 118 و 122 – 127 .

2) انظر عن المولديات المرينية : محمد المنوني : «المولد النبوي الشريف في المغرب المريني» ، مجلة « دعوة الحق » ، العدد الاول ، السنة الثانية عشرة – ص 126 – 127 .

تنشد في حفلاتها المولدية ، وهكذا نستفيد ان هـذه المولديات منها ما كان ينظم لهذه الكتاتيب ، علـى ان عددا منها كان يستعمل ـ ايضا ـ في الحفلات العامة.

لا تزال هذه المنظومة مخطوطة في نسخة خاصة ضمن مجموع ، حيث تسمى بـ « المولودية ، المنظومة في مدح خير البرية » .

4) ـ « مولدية » ابي سعيد بن احمد بن سعيد المكناسي الاصل ثم الفاسي ، المتوفى حوالي اوائل المائة العاشرة (3) ، وهي قصيدة موشحة لا تزال مخطوطة ، واورد القسم الاول منها ابن القاضي فـي المنتقـى المقصور (4) ، ومطلعها :

يا غريب الحي من حي الحمى
آتم عيـدي وانتـم عـرس

5) ـ « مولديات » لابي محمد عبد الواحد بن احمد بن يحيى الونشريسي ثم الفاسي ، المتوفى عام 955 هـ / 1549 م، ويبدو انه كان متقدما في هـذا العمل ، حيث يقول عنه المنجور في فهرسته : (5)

« .. وكذلك موالده في مدح رسول الله صلى الله عليه وءاله وسلم ايام المولد ، من ارق الموالـد واوزنها معنى ولفظا »

وقد تفيد هذه الفقرة شيوع نظم المولديات في هذه الفترة ، وهلهلة نظم بعضها معنـى او لفظـا ، تأثرا بانحدار الادب في العهد الوطاسي ، ولا تـزال موالد الونشريسي غير معروفة .

6) ـ « مولدية » محمـد بن علـي الخطيـب العكبري القصري ثم الفاسي ، المتوفى عام 955 هـ / 1548 ـ 1549 م ، وهي من بحر الهزج ، ويعـرف منها مطلعها الذي يقدمه ابن القاضي (6) هكذا :

تجلـى مولـد الهـادي
باقـبـال واسـعـاد

اشهـر دمت مـن شهـر
وقـد خصصـت بالفخـر

ويلاحظ ان المولديات صارت تنظـم في هـذه الفترة بالشعر الملحون ايضا ، حيث يذكر الحسن بن محمد الوزان الفاسي « ليو الافريقـي (7) » : ان الزجالين كانوا يجتمعون ليلة المولد النبوي بقاعـة سيدي فرج بالعطارين من فاس القرويين ، ليتناشدوا اشعارهم في المديح النبوي بمكان مخصوص هناك ، وقد ازدهر نظم هذه المولديات الملحونة بعد هذا علـى عهد الشـرفاء . .

❊ ❊ ❊

وفي العصر السعدي ظهر تلحين المولديـات المعربة والملحونة حسب نغمات الموسيقى الاندلسية ، وكانت حفلات المنصور الذهبي بالمولد الكريم تشتمل على تلحين خصوص المولديات المعربة ، بينما تجمـع بعض الحفلات الصوفية بين المعربة والملحونة ، وهـذا عبد العزيز الفشتالي (8) يقول عن احتفال المنصور السعدي بالمولد النبوي :

« .. واندفـع القـوم لترجيـع الاصـوات بمنظومات على اساليب مخصوصة في مواسم النبي الكريم ، صلى الله عليه وءاله وسلم ، يخصها اصطلاح العرف باسم « المولديات » نسبة الى المولد النبوي الكريم ، قد لحنوها بالحان تخلب النفوس والارواح ، وترق لها الطباع ، وتبعث في الصـدور الخشـوع ، وتقشعر لها جلود الذين يخشون ربهم ، يتفننون في الحانها على حسب تفننها في النظم » .

وقد استفدنا من هذا النص ايضا ان المولديات صارت ـ في هذا العصر ـ تنشد في المحافل الكبيرة، بعد ما راينا في العهد الوطاسي ان منها ما كان ينظم برسم الكتاتيب القرءانية حتى ينشد في حفلاتهـا المولدية، كما استفدنا من هذا النص ان هذه المنظومات

---

(3) اشار له في جـذوة الاقتبـاس ص 64 ءاخـر ترجمة والده احمد بن سعيد المكناسي المتوفى حدود 870 ، ومن هنا اخذت تقريب تاريخ وفاته
(4) مصور خ. ع. د 1057 ـ لوحة 317 ـ 318 .
(5) مخطوطة خاصة ـ عند ترجمته .
(6) في جذوة الاقتباس عند ترجمته ص 151 ـ 152، ثم في درة الحجال رقم 628
(7) « حياة الوزان الفـاسي وءاثـاره » ، المطبعـة الاقتصادية بالرباط ـ ص 85 .
(8) «مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا »، النص المختصر الذي حققه الاستاذ الكبير عبد الله كنون ـ ص 224 ، مع الرجوع الى المخطوطة الكاملة المحفوظ بالمكتبة الملكية رقم 274 ـ ص 283 ـ 284.

كانت في الفترة السعدية قد تنوعت اوزان نظمها ، وهو ما رأينا بعضه في المولديات التي استعرضنا مطالعها من قبل .

ونذكر – الان – عن احتفال ابي المحاسن الفاسي بالمولد النبوي : انه كان يزاوج فيه بين تنغيم المنظومات المعربة والملحونة ، وفي هذا يقول في « مرءاة المحاسن » (9)

« .. ويحكمون طرق تلحين « الميلاديات » المعربة : الموزونة بأوزان الشعر العربي وما يجري مجراه ، والملحونة الموزونة على عروض البلد وغيره ، على العادة في ذلك بحضرة فاس » .

ويلاحظ انه بقدر شيوع انشاد المولديات في هذا العصر ، لا يعرف – لحد الان – منظومات في هذا الصدد من عمل ادباء سعديين ، ولا يستثنى من هذا سوي اديب نبغ في اعقاب هذه الفترة ، وهو ابو زيد عبد الرحمن بن ابي السعود عبد القادر الفاسي الفهري : المتوفى عام 1096 هـ / 1685 م. وقد جمع اشعاره في المديح النبوي في ديوان كبير صنفه في ثلاثة اقسام :

القسم الاول : مرتب على حروف المعجم .

القسم الثاني : مرتب على بحور الشعر القديمة والمستحدثة .

7) – القسم الثالث يشتمل – حسب تعبير الديوان – على ما قاله في شهر ربيع ، من « مولوديات » في مدح الهادي الشفيع .

لا يزال هذا الديوان مخطوطا ، ومنه نسخة بالمكتبة الملكية بالرباط ضمن مجموعة المكتبة الزيدانية ، التي يحمل بها رقم 3071 .

* * *

ومن هذه المنظومات في العصر العلوي :

8) – « مولدية » لمحمد بن امحمد المرابط الدلائي ثم الفاسي ، المتوفى – بها – عام 1099 هـ / 1688 م ، وهي قصيدة دالية مسمطة من مجزو الكامل في 54 بيتا ، ومطلعها :

بـدر الاماني قـد بـدا
بربيـع مـولـد احمـدا
الهادي الشفيع من غـدا
ودعا الى طرق الرشاد (10)

9) – « مولديات » ثلاثة لمحمد بن قاسم ابن زاكور الفاسي : المتوفى عام 1120 هـ / 1708 ، وهي واردة في ديوانه (11)، واولها موشحة على حرف الراء مطلعها :

يـا ليلـة الميـلاد
ما كان احلى سمرك
شفيـت ذا اكـبـاد
بـات يشيـم غـررك

10 – « مولديات » لعبد الكريم بن عبد السلام ابن زاكور ، عامل تطوان الى عام 1179 هـ / 1765 – 1766 م ، وفيها قصائد وموشحات في تمجيد ربيع النبوي ، واوردها اواخر السفر الثالث من مجموعة اشعاره في الامداح النبوية » (12) .

11) – « ديوان الامداح النبوية . وذكر النغمات والطبوع . وبيان تعلقها بالطبائع الاربعة » ، لابي العباس احمد بن محمد بن العربي احضري الاندلسي الاصل ثم المراكشي ، من اهل المائة 13 هـ، وضعه لتسجيل الحان القصائد المولديات ، وقد فكر في جمع ما وقف عليه من هذه القصائد بالخصوص واكثرها من الموزون ، وجعل كل واحدة مع ما يناسبها في اللحن ، ثم دونها في هذه المجموعة بعد ما صدرها بمقدمة تفسيرية ومطولة ، يتخللها بعض تعابير ضعيفة وشيء من اللحن ، وهو يصنف نغمات القصائد في 13 طبعا مع افتتاح كل واحد بـ « بيتين » للانشاد . ويقدمها حسب الترتيب التالي :

طبع الاصبهان – الحجاز الكبير – الحجاز المشرقي – العشاق – الماية – رمل المابة – الرصد – غريبة الحسين – المشرقي الصغير – رصد الذيل – عراق العجم – الاستهلال – الضيكة .

---

(9) ص 128 .
(10) ديوانه المخطوط الذي ينتظم مع ديوان والده في سفر خ. ع. د 3644 – ورقة 48، ا – 50، ا.
(11) مخطوط خاص – عند حرف الراء .
(12) انظر : « تاريخ تطوان » ، مجلد 3 – ص 106 للاستاذ الكبير محمد داود

اما الشعراء اصحاب المولديات ففيهم — من المغاربة ومن اليهم — عشرة ، وتقدمهم كما تسميهم المجموعة وحسب ترتيب ذكرهم — كما يلي :

الحلبي — احمد العلج — الحاج مسعود الاندلسي — مولاي كروم ، ويسميه مرة اخرى بعبد الكريم — ابن المرابط — احمد بن عمر التازي العطار — محمد التازي — الحاج بوجمعة ، وهو يؤرخ خاتمة قصيدة ملحونة بعام 1080 هـ ، واخرى بعام 1088 هـ — ابن موسى — ابن منصور .

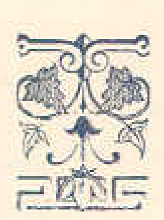
وليس يعرف — الآن — من هؤلاء الشعراء سوى اثنين، الاول: الحلبي، وهو احمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي نزيل فاس، والمتوفى — بها — عام 1120 هـ/1708 م، له في الامداح النبوية قصائد رفيعة كثيرة ، وازجال بديعة شهيرة ، وفيها مولديات عديدة كان يجيد تلحينها بصوته الحسن حسب نشر المثاني المخطوط ، الذي لم يوضح نوع هذه الالحان هل هي مشرقية او مغربية ، اما الثاني فهو ابن المرابط الذي يظهر انه محمد بن امحمد المرابط الدلائي سابق الذكر عند رقم 8

كان هذا الديوان في ملك القاضي المؤرخ المرحوم السيد عباس بن ابراهيم المراكشي ، وتحدث عنه في « الاعلام » (13) ، وبعد وفاته صار الى الاستاذ الباحث النشيط السيد عباس الجراري حيث وقفت عليه . وهو يقع في سفر صغير ويبتدي من ص 4 الى ص 216 ، مسطرة 20 ، مقياس 180/230، خط مغربي مراكشي يميل للمبسوط لا باس به ، مشكول ملون بالاصباغ مجدول ، خال من تاريخ التاليف والنسخ واسم الناسخ .

وبعد : فهذه دراسة سريعة لظاهرة المولديات في الادب المغربي ، ولنا عودة الى الموضوع في فرصة مقبلة باعانة الله سبحانه .

الرباط — محمد المنوني

(13) ج 2 ص 198 — 199 ، ومن الجدير بالذكر ان ماكتب هنا عن « ديوان الامداح النبوية » ماخوذ من دراسة مخطوطة لصاحب المقال عن الموسيقى الاندلسية بالمغرب .



المولد النبوي في التاريخ

وقد مر عليه أربعة عشر قرنا

للأستاذ عبد الله الجراري

كان مولد النبي الكريم عليه السلام عام الفيل الذى خذل الله عز وجل فيه ابرهة الاشرم عامل النجاشي على بلاد اليمن ، وصده عن مكة من خطر الحبشة ــ ذلك ما جعل هذا العام فاتحة عصر جديد فى حياة العرب ، من دون شك ان هذه الحادثة التاريخية كانت فاتح خير على العرب عامة ، وعلى قريش خاصة الشيء الذى اصبحوا معه يؤرخون بها حوادثهم بل مهد لهم السبيل لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها .

لذا اصبح مولد الرسول الكريم عند المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها بمثابة تعبير عام عما يفيض به شعورهم من تعظيم لشخصه الكريم وتقديس لكرامته ، وحرص على ممارسة طقوسهم الدينية .

يوم خالد فسح المجال لاجتماع الاهل والاصدقاء اجتماعا يطفح بالبشر والسرور مندفعين لاقامة المهرجانات واسواق الافراح وتهييء الولائم ، وتبادل الهدايا والحلويات فى ظرف يرتل فيه المنشدون والصوفية والشعراء الاناشيد فى مدح المولود الكريم الذى بزغ نوره الوهاج على هذا الوجود فى 12 من ربيع الاول الموافق (20 من ابريل سنة 581 م) من ابوين كريمين . نعم توفي ابوه عبد الله قبل ميلاده .

ومن كتب (1) عهد بارضاعه الى امراة بدوية ــ هي حليمة ــ جريا على عادة الاشراف من قريش حيث كانوا ينشئون ابناءهم فى اجواء بدوية تكسبهم الفصاحة فى اللسان وتدربهم فى نفس الوقت على تحمل المشاق وملاقاة الشدائد ، لاسيما فى العيش وبساطته .

وتوفيت امه آمنة وهو فى السادسة من عمره .

وكان اثناء وجوده عند حليمة يخرج مع اخوته من الرضاع لرعاية الغنم ، فاكتسب بطبيعة الحال رافة ورحمة ولين جانب وسوى هذه الخصال الحميدة التى من شانها ان تولد فى الانسان رقة وحنانا على الحيوان خاصة منه الانسان .

وعندما بلغ الرسول الاكرم مبلغ الرجال ــ اشتغل بالتجارة فقصد بلاد الشام اكثر من مرة فتارة مع عمه وطورا مع ميسرة غلام خديجة وثالثا ورابعا للقيام برسالة الجهاد .

وطبعا اكسبته هذه الاسفار تجارب ومشاهدات لاحوال تلك البلاد ، وطرق النقل واخلاق الناس ومظاهر حياتهم فى البيئة الرومانية ــ كما وقف بنفسه الكريمة على اساليب الناس وتعاملهم فى البيع والشراء ــ فحاز ميزة خاصة فى هذه الاثناء ذلك انه عرف بالصدق والامانة اللذين اصبحا شعارا له منذ نعومة اظفاره كما انه عليه الصلاة والسلام عرف بالمروءة والوفاء وحسن الجوار والحلم ، والعفة والتواضع والجود والشجاعة .

وكان صلوات الله عليه يكره عبادة الاوثان ــ لا يشرب الخمر ، ولا ياكل مما يذبح على النصب ، ولا يغشى مجالس اللهو والسمر .

(1) اصوب ، من : عن كتب .

وكان يؤثر العزلة ، ويألف النسك والعبادة ، وحين بلغ الاربعين اخذ يذهب الى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد حتى اتاه جبريل — (حتى اذا ما بلغ الرسول . الاربعين جاءه جبريل) واستطاع صلوات الله عليه ان يقلب اوضاع الامة العربية راسا على عقب ويجمع قبائلها تحت لواء الاسلام مساعدا على نشر الفضيلة حتى ظهر منهم رجال اشتهروا بالورع والتقوى .

فهذه العظمة وهذه القداسة اللتان توفر عليهما محمد بن عبد الله صلوات الله عليه — كان خليقا بالمسلمين جميعا ان يحتفلوا بذكرى مولد الرسول الكريم ، ويؤثر عن المسلمين انهم احتفلوا بهذه الذكرى المباركة في حياة الرسول العظيم .

نعم لم يتخذ المسلمون فى اوائل الاسلام من هذا المولد عيدا تحتفل به الدولة احتفالا رسميا غير ان هذا ما كان ليقلل من عظمة هذا الحادث فى نفوس المسلمين لانهم كانوا يعدون الاحتفال بهذه الذكرى بدعة من البدع لانه لم يرد فى الكتاب او السنة .

على ان الصالحين والورعين من ابناء الاسلام بدا لهم عن حسن نية وتعلق بجناب المولود الكريم فيما بعد — ضرورة الاحتفال بمولد الرسول تكريما لجنابه الشريف صلوات الله وسلامه عليه .

روي ان الكرخي الذى كان من الزهاد المتعبدين كان لا يفطر فى عيد الاضحى وعيد الفطر ، وفى يوم مولد الرسول الكريم ، وكان يولي هذا اليوم ما هو جدير به من تعظيم وتقديس . وقد احتفل المسلمون منذ ذلك الحين بليلة مولد النبي الكريم .

فاحتفل به الخلفاء العباسيون مجتذبين الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والارزاق والهبات والاسمطة التى كانوا يهيئونها فى الاعياد والمواسم . وخاصة فى اول العام الهجري ، وفى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد الخليفة الجالس على العرش ، وفى غرة رمضان ، وفي عيدي الفطر والاضحى وغيرها من الاعياد التى اصبحت من اهم شعار الدولة الرسمية فى العصر العباسي ، ويشارك فى تلك الاحتفالات العدد العديد من الوافدين على العاصمة من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار وسواها، ومن هؤلاء طائفة من العلماء والمتصوفين والوعاظ والقراء .

وكان الامير ابو سعيد مظفر الدين يقيم فى الشارع الاعظم بمدينة اربل مناضد كبيرة من الخشب (كراسي) بعضها فوق بعض يجلس عليها الفتون والموسيقيون — ويجلس الناس امام تلك المناضد فى ليلة المولد النبوي يستمعون الى الغناء والموسيقى والاناشيد وينعمون بما يقدم اليهم من الاواني الحافلة بالوان الطعام والحلويات بعد .

كما ان الدولة الفاطمية فى افريقيا (تونس ومصر) كانت هي بدورها تقيم المواسيم والاحتفالات فى اهتمام بالغ — كعيد راس السنة الهجرية وليلة المولد النبوي الشريف ، ومولد علي بن ابي طالب ومولد ابنيه الحسن والحسين (كما هي عادة الشيعة) ومولد السيدة فاطمة الزهراء .

كما ان الدولة الايوبية والمماليك ومن جاء بعدهم من السلاطين والامراء كانوا يحتفلون بمولد الرسول الكريم على النحو الذى كان يحتفل به الفاطميون .

وشاع الاحتفال بالمولد النبوي فى سائر الاقطار الاسلامية خاصة افريقيا الشمالية ، وفى بلاد المغرب الاسلامي والاندلس احتفل المسلمون بالمولد النبوي احتفالا يتجلى باجلى مظاهر الابهة والعظمة وقد وصف ابو العباس المقري مؤرخ الاندلس الاسلامية الاحتفال بالمولد فى عهد السلطان ابي حمو صاحب تلمسان الذى عاش فى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)

وهذا ابو الحسن المريني رجل الدولة المرينية المعروف عند العوام (بالسلطان الاكحل) كان هو كذلك من ملوك المغرب الذين عنوا بالمولد النبوي والاحتفال بذكراه الغالية — وكان له « دينار يساوي مائة مثقال ذهبا على صورة رغيف كان يتفضل به على الشرفاء الصقليين والمستوطنين بسبتة ليلة المولد النبوي كما جاد بمثل ذلك على شجاع من اهل رندة سماه ابن مرزوق فى كتابه : المسند الصحيح الحسن وذكر المقري فى ازهار الرياض — ان ابا عنان المريني سبك له دينار يساوي مائة مثقال واعطاه للشريف السبتي الذى كان يصله والده بمثل ذلك .

وفى الدولة السعدية — كان المنصور يعتني بسائر الاعياد فعندما تبدو طلائع ربيع الاول تصرف (2) الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفية

(2) ترسل اليهم الرسائل ليحضروا

والمؤذنين التعارين فى الاسحار ـ الهلالين فيـردون على العاصمة من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ، ثم يامر الشماعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها ـ فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين من كل من بباري النحل فى نسيج اشكالها دقـة ولطفـا وادماجا فيصوغون انواعا من الشمع التـى تحيـر النواظـر ولا تـذبـل زهورهـا النواضـر ، فـاذا كانـت ليلـة المولـد تهيـأ لحملـهـا ، وزفـاف كواعبها الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف ، فيتزينون لذلك ويكونون فى اجمـل شارة واحسـن منظر ، ويجتمع النـاس من اطـراف المدينة كلها لرؤيتها فيمكثون الى حين يسـكن حـر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها عـلى رؤوسهم كالمدارى يرفان فى حلل الحسـن وهـي عدد كثير كالنخل فيتسابق الناس لرؤيتها ، وتمتد لها الاعناق ، وتبرز ذوات الخـدور ويتبعهـا الطبـول والابواق ، واصحاب المعازف والملاهي ، حتى تستوى على منصات معدة لها بالايوان الشريـف ، فتصطـف هناك؛ فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس، وقعد على اريكته ـ وعليه حلة البياض شعار الدولـة وامامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدمى ، وحمر جليت فى ملابس ارجوان ، وخضر سندسيـة واستحضر من انواع الحسك والمباخر ما يلهي المحزون، ويدهش الناظر ، ثم دخل الناس افواجا على اختلاف طبقاتهم فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسـرد جملة من فضائل النبي صـلى اللـه عليـه وسلـم ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع فـى ذلـك باختصار فاذا فرغ اندفع القوم فى الاشعار المولديات فاذا انهوا ذلك تقدم اهل الذكـر المرمزمـون بكـلام التسترى (3) واشعار الصوفية ، ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين ، فاذا انتهوا من ذلك كله قام شعراء الدولة ـ فيتقدم قاضي الجماعة بلبل منابر الجمـع والاعياد فينشد قصيدة يفتحها بالتغزل والنسيب ، فاذا اتم تخلص لمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يختم بمدح الخليفة والدعاء له ولولي عهـده ، ثـم يتقدم باقي الشعراء الواحد تلو الآخـر ، فاذا طـوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائـد فيبـدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمـساكين فيدخلـون جملة ـ فاذا انقضت ايام المولـد بـرزت صـلات الشعراء على اقدارهم وترتيبهم فى الاسبقية والتبريز .

وعلى هذا النموذج الكريم كان يجري احتفـال دولتنا العلوية الشريفة بالمولد النبوي منذ نشوئها الى دولة المولى الحسن الثاني ملك البلاد اعزه الله وايـده فيرد العجز على الصدر بابهى حلل الاحتفال والتكريم باثا روح مبادىء الاسلام الطاهرة فى قلوب ابنـاء الشعب المتعطشين ـ بانشاء حياة اسلامية مثاليـة صحيحة تبعث منهم رجالا اعزاء يستطيعون بما اوتوا من مقدرة وايمان ـ حمل راية العـزة والكرامـة ، ويذودون فى نفس الحال عن حياض التعاليم الاسلامية، رافعين مشاعلها المشرقة للانارة والهداية ، مقاوميـن (ما استطاعوا) كل الحاد وتدجيـل يدرجـان فـى الاوساط المسلمة بين الفينة والاخرى ، وقد دهـي بهما ضعفاء الارادة وبسطاء العقول ـ فاي فائدة يـا ترى من سرد سيرة الرسول الاعظم ونشرها بيـن يدي المومنين على اختلاف درجاتهم ايمانا واسلامـا دون ان تكون لها جدوى ونتائج ملموسة على نفـوس المستمعين وارواحهم فتهذبها وترققها وتلينها وتجعلها فى النهاية متأثرة بكل ماجريات الرسول صلوات الله عليه ـ متنافسة فى الاهتداء بهديـه ، والاقتـداء باقواله وافعاله وتقريراته (لقـد كان لكم فى رسول الله اسوة حسـنة) . (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكـم اللـه) . ثم السـعي فى جـد لنشر تلـك المكارم العالية بين الاسـر ، والاصدقـاء والمجتمعـات الخاصة والعامة حتى تعم الهداية المنشودة ـ المنـزل والسـوق والدكان والشارع وتصبح بذلـك ولا ريب خلقين حقيقين بالخيرية والافضلية المنصوص عليهـا فى كتاب الله العزيز اثناء سورة « آل عمران » قال جلت قدرته : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله .

بهذا يكون الشعب قد ادى رسالة هذه الذكرى تحت رعاية الملك المحبـوب الشاب الحسـن الثـاني دامت له السـلامة والعزة وقد مر عليها اربعـة عشـر قـرنـــا .

حفظ الله الحسن الثاني وكلا ولي عهده سيدي محمد وباقي الامراء والاسـرة .

وفق الله وسـدد .

الرباط ـ عبد الله الجراري

(3) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري لقى الشيخ ذا النون المصري ـ لم يكن له فى وقته نظيـر فى المعاملات والورع . انظر وفيات الاعيـان . توفى سنة : 283 هـ 896 م .

ألفونسو السادس

ومدرسة المترجمين بطليطلة

للأستاذ عبد اللطيف الخطيب

تبعد مدينة طليطلة عن مدريد بتسعين كيلو مترا نحو الجنوب الغربي ، وتقع على نهر « التاج » الذي يصب عند عاصمة البرتغال . وهي قاعدة المقاطعة المسماة باسمها ، واحدى المقاطعات الخمسين التي ينقسم القطر اداريا اليها في الوقت الحاضر . وتعتبر من المدن الاسبانية القديمة ، اذ يرجع عهد تأسيسها الى قبل الفتح الروماني . وكانت مع احوازها احد الاقاليم الخمسة التي تألفت منها مملكة قشتالة الجديدة. وما زالت طليطلة عاصمة دينية لاسبانيا ، بعد ان كانت عاصمة لامبراطوريتها وقاعدة للملوك القوطيين قبل الفتح الاسلامي للاندلس .

وقد انهارت الدولة الاموية في الاندلس بخلع هشام المعتمد بالله في اواخر السنة الثانية والعشرين من القرن الهجري الخامس ، وانقرضت نهائيا بعد ان استمر حكمها مائة واربعة وثمانين عاما فقامت على اعقابها ممالك الطوائف في السنة الحادية والثلاثين من القرن الحادي عشر للميلاد . وكانت طليطلة من اكبر تلك الممالك بحكم مواردها واهمية موقعها في وسط شبه الجزيرة .

وكان فرناندو الاول ملكا على قشتالة فجعل يغير على مملكة طليطلة ويعلل نفسه باخضاع غيرها من الممالك بعد ان قويت بينها اسباب الخلاف ، الى ان اشتدت الفتنة في عهد ملكها المامون ، باصراره على مقاتلة ابن هود بسرقسطة وابن عباد باشبيلية . ولما مات فرناندو الاول عام خمسة وستين والف شجرت خلافات وفتن بين ابنائه سانتشو ملك قشتالة والفونسو ملك ليون وغرسية ملك جليقية . ولم تضع هذه الحروب اوزارها الا بتغلب الاول على اخويه . ولذلك لم يتمكن الفونسو من استرجاع عرشه الا بعد ان هلك اخوه سانتشو في القتال . وقد استمرت حملات الفونسو السادس على طليطلة اربع سنوات ، ثم اقترب منها في خريف سنة اربع وثمانين والف فحاصرها حصارا شديدا خلال تسعة اشهر قبل ان يدليها ظافرا وينزل بقصرها في فاتح صفر لسنة 478 الموافق للخامس والعشرين من شهر مايو للسنة الميلادية التالية كما ورد بيانه في كتاب « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان (1) . وبسقوط طليطلة دخلت الحملة النصرانية على الممالك الاسلامية طورا جديدا قويا ، اذ توغلت جيوش الفونسو السادس نحو الجنوب حتى قاربت اسوار اشبيلية .

وقد كان هذا الملك رجلا غريب الاطوار ، فقد كان شديدا غضوبا ، كما كان في نفس الوقت ماكرا ذا راي ثاقب وعقل متفتح . وكان من اهم اعماله تأسيسه لمدرسة المترجمين التي عهد اليها بنقل امهات الكتب العربية في مختلف العلوم الى اللغة اللاتينية وبالسهر على اشاعتها . وقد اقتفى بعمله هذا اثر الخليفة المامون الذي اسس مجمعا للترجمة في العقد الثاني من القرن الميلادي التاسع الذي شهدت سنته التاسعة وفاة والده الخليفة هارون الرشيد بعد عمر لم يتعد اربعة واربعين عاما .

وكانت الاندلس قوة فكرية في عهد الحكم الثاني المتوفى بقرطبة عام 976 بعد ان كانت قوة سياسية واقتصادية على عهد والده الخليفة عبد الرحمان. وكانت نسبة الاميين باقطار اوربا الوسطى الى اواخر القرن

---

1) قال الاستاذ عنان ان ملوك اسبانيا النصرانية اخذوا يقرون لالفونسو السادس بلقب الامبراطور الذي اتخذه لنفسه (ص . 114 من كتاب « دول الطوائف ») . والحقيقة هي ان الفونسو السادس قد عرف في التاريخ الاسباني بلقب المغوار (El Bravo) اما لقب الامبراطور فقد كان لالفونسو السابع .

الثاني عشر تقارب خمسة وتسعين في المائة ، أي بعد ما يزيد على القرنين من قيام الحكم الثاني في مدينة قرطبة بتأسيس سبع وعشرين مدرسة خاصة بأبناء الفقراء ، بالاضافة الى ثمانين مدرسة عمومية (1) .

ولم يفد العرب على الاندلس حاملين اليها الحرير والقطن والورق والبن والبرتقال والليمون والرمان والسكر فقط ، وانما اشاعوا فيها الحساب والجبر الكيمياء والطب والفلك والشعر ايضا . وقد ذاع بفضلهم ذكر الفلاسفة اليونانيين بما نقلوا من آثارهم الى العربية التي كانت لغة الفكر والادارة والعلم جميعا . وكانت مذاهبهم الفلسفية تدرس بجامعة قرطبة التي كان القساوسة والرهبان من شمال البلاد يقصدونها كلما رغبوا في طلب العلم . كما كان ملوك أوربا عند ما تصيبهم الامراض يرون شفاءهم محققا اذا ما تمكنوا من استقدام اطباء الاندلس بالمغالاة في مكافأتهم بالذهب وثمين الهدايا . وخلاصة القول هي ان نور العلم قد ظل وهاجا ما اضاءت جذوة القنديل عند المحراب بالاندلس . ويرى المنصفون من الكتاب ان اسبانيا لم تشق بأهوال العصور الوسطى بفضل الوجود الاسلامي في ربوعها (2) . وقد استمر الوجود الاسلامي في تلك الديار سبعمائة واحدى وثمانين سنة.

اما الوجود العربي بجنوب ايطاليا وجزيرة صقلية فقد قاربت مدته مائتين وخمسين عاما . وكانت « باليرمو » عاصمة الجزيرة بجامعتها مركز اشعاع ثقافي على جنوب القارة الاوربية ووسطها . وكان النصارى من مختلف اقطارها يحجون الى فلسطين والى قبر القديس « سانتياغو » بمدينة (كومبوسطيلا) من جليقية في الشمال الغربي لشبه الجزيرة فيتصلون بالحضارة الاسلامية ويطلعون على آثارها العلمية بالاضافة الى الاتصال الذي كان يتم في كنف التجارة بين البندقية وجنوة وقابس والقيروان والاسكندرية وسبتة ، ثم بسبب الحروب الصليبية ورجوع المقاتلين الى اوطانهم بعد ما علموا ببعض مظاهر الحضارة . وقد اسس الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم مرصدا فلكيا كان يتوفر على احدث الآلات والاجهزة التي لم يكن لها مثيل آنذاك ، واستعان بالفلكيين المسلمين في مهام التدريس والبحث والاستكشاف جميعا .

ونحن اذا ما رجعنا الى « مدرسة المترجمين » بطليطلة وجدنا ان الملك الفونسو السادس قد استعان على نقل الكتب العربية الى اللغة اللاتينية بكبار المختصين من المسلمين واليهود والنصارى ، لان اللاتينية كانت لغة الدين والدولة والعلم في الممالك النصرانية كافة اما القشتالية التي اصبحت اللغة القومية والرسمية للبلاد بعد توحيدها على عهد الملكين فرناندو وايسابيل فلم تتكون الا في القرن الثاني عشر ، ولم تصبح لغة الادب والعلم الا بعد انصرام ثلاثة قرون تقريبا ، لتبلغ عصرها الذهبي في القرن السابع عشر . وقد كان لهذه المدرسة دور هام في ايقاظ اوربا من سباتها العميق واخراجها من ظلمات الجهل والتعصب الى نور العلم والمعرفة ، بما تناقله العلماء بشتى الاقطار من نتاج الحضارة العربية وما اقتبسوه عنها من وسائل البحث وطرائق الاكتشاف ، وبفضل ما استخرجوه من الكتب التي لاذ بها الرهبان العارفون ببعض الاديرة لانقاذها من حمى الاحراق التي استمرت طويلا حتى بلغت درجتها القصوى على عهد الكاردينال « ثيسنيروس » لدى وصايته في مستهل القرن السادس عشر .

لقد عرفت اسبانيا التسامح الديني والازدهار الفلاحي والصناعي في ظل الحكم العربي ، ولم يبق اشعاع الحضارة الاسلامية مقصورا عليها ، بل كان عاملا هاما في التمهيد لعصر النهضة الاوربية ولما اعقبه من تقدم كبير في مختلف مجالات الاداب والعلوم والفنون .

ومن المستحيل في هذا الحديث الموجز ان نحاول استيعاب فضل الحضارة العربية والاحاطة بمظاهرها العديدة في مختلف الاقطار عبر القرون المتلاحقة . وانما اردنا اتخاذه مقدمة لاحاديث مستفيضة بحول الله ، بعد ما عرفنا بمدرسة المترجمين الطليطلية وبما كان لها من الاثر البعيد في التمكين لعصر الاحياء .

الرباط ــ عبد اللطيف الخطيب

---

1) كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » لمؤلفته السيدة Sigrid Hunke

2) الفصل السادس من كتاب« الكاتدرائية » الذي الفه الكاتب الاسباني الشهير « فيثينطي بلاسكو ايبانييث » في مطلع هذا القرن . وقد الف الاستاذ عباس محمود العقاد كتابا بعنوان « اثر العرب في الحضارة الاوربية » فأورد في خاتمته بعض ما اثبته الروائي البلنسي على لسان « غابرييل لونا » في اشادة بالحضارة الاسلامية بالاندلس .



كان الناس اول خلق الناس ، امة واحدة والاقرب الى نص كتاب التوحيد وفهمه ، انهم كانوا متفقين على التوحيد لا على الشرك ، وعلى الهدى لا على الضلالة ، وقد قال الله فى هذا الموضوع فيما قال (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقال (واذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى، شهدنا)

والتاريخ ايام ، وتلك الايام قد داولها رب الناس بين الناس، والتاريخ اعوام، وتلك اعوام قد تعاورتها حكومات واحكام ، حكومات ايمان ، وحكومات كفر ، واحكام عدل، واحكام جور . وهذه بقعة من بقاع هذه الارض ، سماها الناس من قبل بعدة اسماء ، وندعوها اليوم (فلسطين) قد تعاورتها فى مختلف عصور التاريخ حكومات واحكام ، وتقاتل عليها بنو الانسان من قبل ، كما يتصارع اليوم من اجلها بنو اسرائيل وبنو يعرب ، وقد تقول انت وانا ، او يقول غيري وغيرك ، ما تعدل هذه البقعة فى هذه الارض الشاسعة الاطراف المترامية البراري والبحار ، والجبال ، والسهول الا مقدار قلامة ظفر من جسم الانسان .

فلم النزاع وارض الله واسعة ، وفيم الخصام وقد خلق الله للناس ما فى الارض جميعا .

افلا يصلحون ؟ ولكن ربك قضى ما قضى ، وحكمته ماضية ، وسنته قاضيه ، قضى ان (لا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) وقضى ان (لولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض)، وقضى ان (لولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز، الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور) فالايام حروب ، والحياة تدافع ، والعاقبة للمتقين ، وفى فترة من فترات تاريخ هذا الانسان المتدافع طغت بهيمية الانسان على ملكيته ، وماديته على روحانيته ، حتى اصبح ــ كما يقول ابو القاسم الحسين بن محمد الراغب ــ (لفظا مطلقا على معنى غير موجود ، وحيوان غير معهود)، ولكن الله الحكم العدل ، القيم على حفظ السماوات والارض ، قد تاذن ان تلقى الروح من امره على من يشاء من عباده ، والله اعلم حيث يجعل رسالاته ، وكذلك اوحى الى النبيء العربي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، روحا من امره ، وما كان محمد يدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعله نورا يهدي به من يشاء من عباده ، وكان الكتاب كتاب (القرءان) ، وكان الدين (دين التوحيد) ، وكان قوم محمد فى جزيرة العرب على حال من الشر لا تجد وصفا لها احسن مما هي جاءت موصوفة فى جواب جعفر بن

ابي طالب لملك الحبشة حين قال : « ايها الملك كنا اهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته وامانته ، وعفافه فدعانا لتوحيد الله ، وان لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الاصنام ، وامرنا بصدق الحديث وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، واكل مال اليتيم وامرنا بالصلاة ، والصيام ، والزكاة والحج ، فآمنا به وصدقناه » .

واذا كان للنبوة اثقال ، كما يقول ابن هشام، فقد تحمل خاتم النبيئين الثقل بكامله ، فاستمسك بالذى اوحي اليه ، وصدع بما امر به ، وصبر على ما اصابه كما صبر اولوا العزم من الرسل من قبله ، فهدى الله به الى دينه السابقين الاولين من المهاجرين والانصار الذين آووه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه ، فكانت هجرة ، وكان نصر ، وكان فتح ، وكان أن كون (دين التوحيد) من قوم محمد امة متحدة فى الوسائل وفى الغايات ، تومن بالله وتجتهد فى دينه ، وتجاهد فى سبيله ، واصبح العربي الجاهلي الذى كان دافع سلوكه انانية الفرد ، وعصبية القبيل ، وطبيعة الثار ، ذلك العربي المسلم الذى يصرفه القرءان فى اخلاق من سمو الضمير ، وطهارة القلب ، وسعة الصدر ، واعتدال العاطفة ، ورجاحة العقل ، وقوة الارادة ، يجاهد فى سبيل الله ولا يخاف لومة لائم ، ويوثر اخاه المسلم على نفسه ولو كان به خصاصة وهنا ، هنا فقط ، وعلى الحقيقة لا على الاستعارة ، وعلى الاستقامة لا على الالتواء ، وعلى الانتاج لا على الاستصدار ، ومن وحي الله لا من وحي الاغراب ، وضعت اللبنة الاولى لبناء صرح (القومية العربية) الاصيلة التى كان فيها الدين للدولة ، والدولة للدين . ولقد كان ابو الريحان البيروني موفقا كل التوفيق فى التعبير عن هذه القومية حين قال : (ديننا والدولة عربيان توأمان ترفرف على احدهما القوة الالهية ، وعلى الآخر اليد السماوية) .

وتحت راية هذه القومية العربية الاصيلة التى عجن فيها طين العروبة بماء الايمان اصبحت ام القرى ويثرب تشعان نور الله على ما حولهما فى الاصقاع والبقاع ، وجالت خيل الله فى ارض الله ، وكانت العزة لله ولرسوله وللمومنين ، وصدق الله ، « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » . ويعرف الناس ان الامر صار فى عهد حكومة الرسول ، وحكومة الخلفاء الراشدين من اصحاب الرسول ، على اساس من شورى الحكم ، وقضاء العدل ، وتشريع الاسلام ، واخوة الايمان ، وكانت الشعارات المرفوعة هي عبارات آي الكتاب ، واحاديث الرسول، وتصريحات الصحابة ، (المومنون اخوة) (والدين المعاملة)، و (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يهضمه ولا يسلمه) والمسلم وغير المسلم امام الحق سواء ، « ولا يجرمنكم شنئان قوم على ان لا تعدلوا » و (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) .

الى ان كان مما اقتضته سنة الله فى الخلق ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . كان ان وقع فى امة الرسول ، ما خشي الرسول على امته ان يهلكها حين قال محذرا لها من التنافس على الثروة والمال والجاه « فوالله ما الفقر اخشى عليكم ، ولكن اخشى ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما اهلكتهم) .

وكذلك كان ، فلقد استمتع العرب الحاكمون من بعد حكومات خلفاء الرسول ، بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، وخاضوا كالذى خاضوا ، وتبدلت حكومة الدين بحكومة الدنيا ، وحكم الشورى بحكم الاستبداد ، وقضاء العدل بقضاء الجور ، فعمت الاهواء ، وتوزعت المطامع وتعارضت الاغراض ، وحلت الاثرة محل الايثار ، فتمزقت (الوحدة) وتهاوت طيور الشر على الامة ، تنقصها من كل طرف ، وتنهشها من كل جانب ، فكان فى كل جهة ناكث ، وفى كل قطر عابث ، وصدق الله « ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ، ام نجعل المتقين كالفجار » ، وانه لحديث عبرة ذلك الذى تحدث به عبد الله بن مروان فى مجلس المنصور وهو يقص قصته مع ملك النوبة حين فر الى بلاد النوبة هاربا من السفاح ، قال عبد الله ابن مروان ــ فيما يرويه ابن خلدون ناقلا عن المسعودي ــ : « اقمت مليا ثم اتاني ملكهم ، فقعد على الارض ، وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على فراشنا، فقال : اني ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ، ثم قال لي : لم تشربون الخمر وهي محرمة

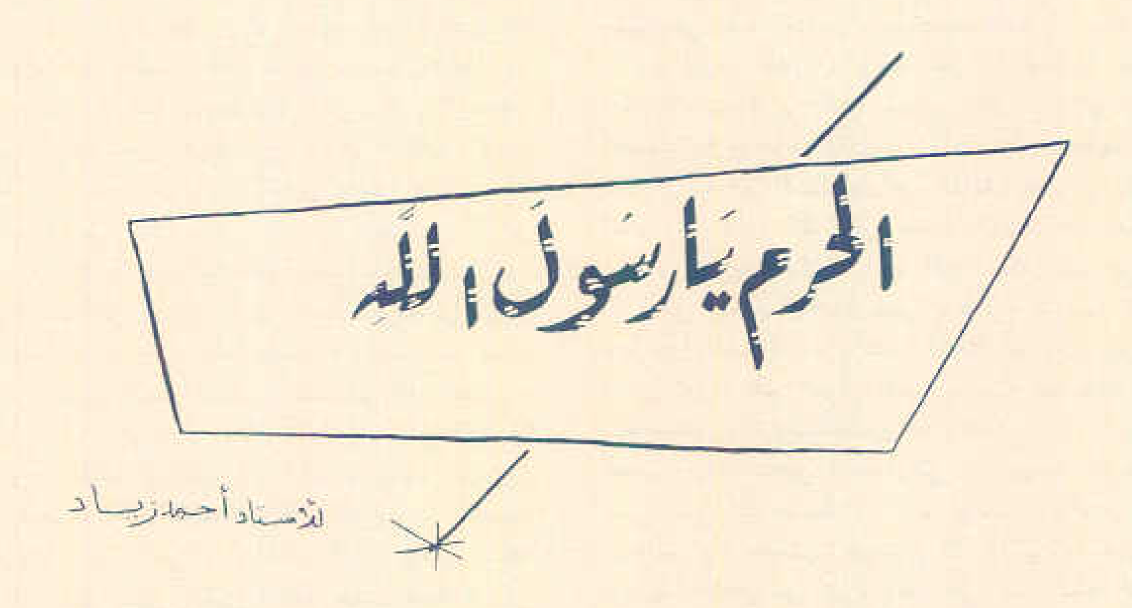
عليكم فى كتابكم ؟ قلت : اجترأ على ذلك عبيدنا واتباعنا ، قال : فلم تطأون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ؟.. قلت : فعل ذلك عبيدنا واتباعنا بجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير ، وهو محرم عليكم فى كتابكم ؟ قلت : ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا ، فاطرق ينكث فى الارض ويقول : عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا فى ديننا !!.. ثم رفع راسه الي وقال : ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، وآتيتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العز ، والبسكم الذل بذنوبكم ، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وانا خائف ان يحل بكم العذاب وانتم ببلدي ، فينالني منكم ، وانما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت اليه وارتحل عن ارضي » وكذلك كان ، وكان ملك النوبة كان ينظر بعين اليقين ، فقد حلت فتنة التتار ، وجاء عصر الانحدار ، وتعاقب على حكم الامة العربية الاغراب من التتار والسلاجقة والمماليك والشراكسة والاتراك ، ثم جاء دور الاستعمار ، لذى انشب فى عضدي الامة العربية الظفر ، وغرس فى صدرها الناب ، فاذاقها الخسف ، وسامها العذاب عدة اعوام ، حتى اذا اقتضت سنة الكون واسلوب العصر ، ان يبدل اساليبه ، ويغير الاعيبه ، دق فى جسم الامة العربية ، وفى الاراضي المقدسة منها اسفينا جمعه من عدة اجناس ، ومختلف اللغات ، وقال له كن (اسرائيل) . فكان . ولقد كان استعماريا صريحا ذلك الاستعماري الذى صرح وقال : « لو لم تكن الصهيونية موجودة لكان من واجبنا ان نخلقها » ، وما ذاك الا ليدخل الاستعمار من النافذة بعد ان خرج من الباب ، ويعاود الكرة من جديد لاستئناف العدوان . ولو ان العرب تذكروا بايام الله ، لكان لهم فى حرب اسرائيل عام ثمانية واربعين مزدجر ، فنبذوا الخلاف ، وطرحوا الشقاق ، واعدوا العدة لخامس حزيران ، ولكن العرب ظلوا طوال عشرين سنة بعد هذه الحرب يتحاسدون ، ويتباغضون ، ويتدابرون ، ويقطع بعضهم رقاب بعض ، محاولين ان يقيموا الوحدة على غير (دين التوحيد) ، ولم يستيقظ العرب من سباتهم يوم خامس حزيران الا طائرات اسرائيل ترميهم بقنابل من نار ، وهم على حين غفلة نائمون ، فكان ما كان مما ذابت له القلوب من كمد ، واليوم ، وبعد ان وقعت تلك الواقعة ، الا يتعظ العرب ؟، الا يعتبرون ؟، الا يتحدون ؟، الا يتبع خلف الامة المغلوب سلفها الغالب ؟ ، فيقيمون صرح وحدتهم على ذلك الاساس المتين الا وهو (الوحدة فى دين التوحيد) .

البيضاء ـ محمد الحمداوي

يا سيد الورى ...

فى سنة 1923 ، نجد لوديع البستاني « نبوية » يقول فيها :

اجل! عيسوي، واسالوا الامس والغدا	ولكن عروبي يحب محمدا
بلى يا ابن عبد الله: يا سيد الورى	انا عبد عيسى مكرم منك سيدا
وانشد فى ذكراك شعرا يجيئني	وامضي، ويبقى الشعر بعدي مخلدا.



ان القلب ليخشع وان اعين لتدمع في عهد مولدك يا رسول الله ، مولدك الذي ولد معه النور وشعت فيما بعد في اقل مدة ممكنة انواره على المعمور .

هذا يوم مولدك يا رسول الله الذي ليس من باب التعصب ولا من باب العصبية ان نقول عنه انه يوم بدات فيه البشرية تخرج من الظلمات الى النور.

فلقد بلغت الرسالة واديت الامانة وشرعت للحرية اولى بنودها ورسمت للحضارة نقطة منطلق مسيرتها وقلت للمومنين والمسلمين : اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها وذلك بعد ان تحملت في سبيل ذلك ما يتحمله الرسل اولوا العزم الذين كنت خاتمتهم يا رسول الله .

ولما اختارك الله الى جواره تعاقب خلفاؤك الراشدون على الاضطلاع بتلك الامانة فحملوا راية الاسلام لا بالعقيدة فقط ولكن بنظام وحضارة وبنور من العلم والعرفان ، وكانت مبادئك يا رسول الله التي ما تزال قائمة هي احسن التعايش فيما بين مختلف المعتقدات .

ولئن كانت جيوش الاسلام قد وصلت الى اوروبا غربا بعد ما شيدت حضارة في الشرق ولئن كان المسلمون قد تفرقوا مللا ونحلا فان مباديء هذا الدين الاسلامي الذي ارسيت اسسه ما تزال سارية المفعول وفي كل قارة من قارات الدنيا الخمس .

وفي كل عيد من اعياد مولدك يا رسول الله يستعرض تاريخ رسالتك فيبعث على الاعتزاز والافتخار بالنسبة لكل مسلم. في تلك القارات بيد ان هذا الاعتزاز وهذا الفخر قد اصيب بخدش وخدش عميق في هذه الايام ، فالمسجد الاقصى الذي اسرى بك الله اليه يوجد تحت احتلال عنصري لا يرحم ولا يشفق نسي القائمون به تساهلك مع النضر وبني قريضة خلال ادائك لرسالتك .

انهم يا رسول الله قد جعلوا الاماكن المقدسة واخذوا يمارسون في حرماتها الافعال العنصرية التي كانت رسالتك حربا شعواء عليها فانت الذي بلغت وقلت : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

نعم يا رسول الله ففي يوم عيد مولدك هذا يوجد المسجد الاقصى الذي اسرى بك الله اليه وقد انتهكت حرماته واهينت مقاماته ومقدساته فلم يبق يا رسول الله الا ان توصي بقبسك النير لكل مسلم يحج اليك ويزور قبرك الشريف بالعبرة التي يجب الاخذ بها ، الا وهي العمل على جمع كلمة الاسلام سواء حتى يستطيع المسلمون ان يفرضوا حقوقهم وان يتمسكوا بها ويحموها ويحصنوها وحتى لا يظل العالم الاسلامي مهانا في شعوره جريحا في كرامته من طرف قلة بينما هو كثرة .

واذا كنت قد قلت فيما قلته ان امر هذه الامة لا يصلح به ءاخرها الا بما صلح به اولها فان على المسلمين يا رسول الله ان يحتفلوا بعيد مولدك تحت شعار اخذ العبرة من الماضي كما من الحاضر ، فالاسلام ما يزال قويا بعقيدته وبمبادئه وباصول احكامه والكتاب المبين الذى ما فرط الله فيه من شيء ولا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، بيد ان المسلمين يا رسول الله ما يزالون عاجزين عن جمع كلمتهم وفرض وجودهم فى عالم لا مجال فيه لتحمل الذلة ولا الى قبول المسكنة .

ان الاسلام كما تركته يا رسول الله ما يزال غنيا وخصبا بمبادئه وما يزال غنيا باهله عددا ولكنه يا رسول الله فى حاجة الى ان يكون اكثر عدة ، فعسى ان يكون يوم مولدك هذا يا رسول الله حافزا للمسلمين على ان يتدبروا ويعتبروا وياخذوا العبرة من عيد مولدك فى كل شهر ربيع وفى كل شهر ذي الحجة من موسم زيارة قبرك يا رسول الله ذلك لانك فى رسالتك لم ترد الاسلام ان يكون مجرد طقوس وانما اردت له ان يكون دينا ودنيا ، دين ارشاد دين قوة وباس ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى غير اهله وعشيرته فبالاحرى اذا انصب هذا المنكر على أهله وعشيرته .

ومرة اخرى فعسى ان يكون عيد مولدك هذا بعثا جديدا لروح جديدة تقوم فيه ما اعوج من اصول رسالتك وتزيل عنه كل ضيم وكل غمة ذلك لانك يا رسول الله قد انشئت فى رسالتك العزة والكرامة للمسلمين ، فالحرم يا رسول الله .

الرباط ــ احمد زياد

ــ طاب لواردیه المورد ــ

تجيء سنة 1921 م ويحل معها فى ربيع الاول عيد مولد النبي فيجدد الشاعر وديع البستاني دعوته الى الوحدة ، ويشيد بهذه المناسبة التى ولد فيها موحد العرب قائلا :

نحن النصارى الاقربون مودة	لكم وقد صدق النبي محمد
وعلى النبي الهاشمي سلامنا	ولد النبيء وكل عام يولد
اخلى قلوب المسلمين لودنا	وصفاء وطاب لوارديه المورد . .



تبلغ مساحة العالم الاسلامي ما يقارب ربع مساحة اليابسة وهو بذلك يكون اكبر وحدة في العالم تشترك في مزايا روحية وفكرية وتطورات واحدة ، كما يضم مجموعة ضخمة من البشر تفوق اكثر كتلة بشرية اذ تقارب نحو 700 مليون نسمة ، يضاف الى هذه الكتلة الهائلة مسلمون متفرقون وان كان معظمهم يقيم في بلاد مجاورة لبلاد الاسلام فيمكن اعتبارها جزءا منها ..

وفي هذا التعداد اخذنا بلاد الاسلام حسب التقسيمات السياسية الحالية واعتبرنا كل دولة تزيد نسبة المسلمين فيها على 50 ٪ انها من بلاد الاسلام ، ورغم وجود مناطق اسلامية كاملة تقع ضمن دول اخرى .

وبعض الدول، كالصين والاتحاد السوفياتي مثلا، يقلل من اهمية المسلمين في بلادهم، ويعتبر ان عدد المسلمين أقل بكثير مما هو وارد، كما أن بعضها لم تقم باحصاء السكان منذ سنين كثيرة .

وعلى كل فان هذه الاحصائيات تعتبر تقديرية حيث ان الاستعمار ينقص من قيمة المسلمين ونسبتهم العددية حتى يسيطر المسيحيون على الدولة وهي بدورها تنقص من قيمتهم ايضا ليتسنى لها البقاء في الحكم ....

م. ب

افريقيا

الاقطار	عدد المسلمين	النسبة الى السكان
1 ـ المغرب	14.055.000	٪ 95
2 ـ الجزائر	12.000.000	٪ 91
3 ـ تونس	6.000.000	٪ 93
4 ـ ليبيا	2.520.399	٪ 97
5 ـ الجمهورية العربية المتحدة	30.000.000	٪ 90
6 ـ السودان	6.474.453	٪ 49
7 ـ الصومال الفرنسي	60.000	٪ 73
8 ـ جمهورية الصومال	2.450.000	٪ 98
9 ـ أثيوبيا	6.780.000	٪ 30
10 ـ تانزانيا	6.023.750	٪ 31
11 ـ جمبيا	294.000	٪ 84
12 ـ مالي	3.000.000	٪ 70
13 ـ السينغال	2.600.000	٪ 79
14 ـ جمهورية الفولتا	1.100.000	٪ 25
15 ـ غينيا	2.000.000	٪ 65
16 ـ غينيا الاسبانية	124.000	٪ 40
17 ـ غينيا البرتغالية	330.000	٪ 55
18 ـ ساحل العاج	1.856.250	٪ 55
19 ـ داهومي	1.230.000	٪ 60
20 ـ غانا	2.217.000	٪ 30
21 ـ الكاميرون	2.698.850	٪ 55
22 ـ سيراليون	1.100.000	٪ 50
23 ـ نيجيريا	41.250.000	٪ 75
24 ـ النيجر	2.650.000	٪ 85
25 ـ ليبيريا	625.000	٪ 20
26 ـ بروندي	502.000	٪ 20
27 ـ جمهورية افريقيا الوسطى	750.000	٪ 60
28 ـ تشاد	1.430.000	٪ 52
29 ـ جابون	179.200	٪ 40
30 ـ جزيرة رينون	69.200	٪ 20
31 ـ موزنبيق	1.662.500	٪ 25
32 ـ توجو	836.000	٪ 55
33 ـ الكونغو	115.500	٪ 0ر8
34 ـ الكونغو برازافيل	4.540	٪ 0ر5
35 ـ انجولا	1.127.500	٪ 25
36 ـ أوغندا	1.400.000	٪ 20
37 ـ كينيا	2.157.500	٪ 25
38 ـ ملاوي	590.000	٪ 20
39 ـ زمبيا	525.000	٪ 15
40 ـ روديسيا	632.000	٪ 15
41 ـ باستولند	70.800	٪ 10
42 ـ بوسطوانا	16.650	٪ 5
43 ـ جمهورية جنوب افريقيا	170.000	٪ 1
44 ـ جمهورية ملجاسي	1.146.000	٪ 20
45 ـ جزر موريشيوس	101.780	٪ 14
46 ـ جنوب غرب افريقيا	10.000	٪ 2
47 ـ الصحراء الاسبانية	45.000	٪ 93

مجموع عدد المسلمين فى افريقيا : 162.979.872

آسيـــــا

الاقـــطـــــار	عـدد المسلمـيـن	النسبة الى السكان
1 ـ جمهورية الجنوب اليمني الشعبية	1.190.000	٪ 95٫2
2 ـ أفغـانستـــان	14.845.000	٪ 99
3 ـ البحــريــن	173.594	٪ 95
4 ـ انـدونيسيـــا	87.377.000	٪ 90
5 ـ ايـــــران	21.560.000	٪ 98
6 ـ الاردن	1.520.000	٪ 90
7 ـ الكــويــت	439.687	٪ 94
8 ـ لبنـــان	1.700.000	٪ 50
9 ـ ماليـــزيـا	5.450.000	٪ 51
10 ـ مسقــط وعمـــان	750.000	٪ 100
11 ـ باكستـــــان	84.971.040	٪ 88
12 ـ قطــــــر	59.940	٪ 99
13 ـ المملكة العربيـة السعودية . . .	5.940.000	٪ 99
14 ـ الجمهورية العربية السورية . . .	4.770.200	٪ 87
15 ـ الامـارات المتصالحـة	110.000	٪ 100
16 ـ اليمــــــن	5.000.000	٪ 100
17 ـ غــــــزة	395.000	٪ 99
18 ـ العــــراق	7.435.000	٪ 90
19 ـ تـركيـــــا	28.260.000	٪ 90
20 ـ بــرونـــي	50.000	٪ 55
21 ـ جـــزر مالـديـف	97.000	٪ 97
22 ـ الفلبيـــــن	2.969.000	٪ 10
23 ـ فيتنام (الشمالية والجنوبية) . .	927.870	٪ 3
24 ـ كمبـــوديا	50.000	٪ 08
25 ـ تـايـلانــد	3.000.000	٪ 10
26 ـ بــورمــا	1.000.000	٪ 4
27 ـ سيــــلان	730.940	٪ 7
28 ـ هــونــج كــونــج	10.000	٪ 3
29 ـ فـرمـــوزا (طيـــوان)	40.000	٪ 0٫35
30 ـ غينيـا الجديـدة الاسترالية . . .	1.411.000	٪ 99
31 ـ بـابـــوا	495.000	٪ 92
32 ـ نيبـــال	130.000	٪ 2٫5
33 ـ اليـابـــان	47.465	٪ 0٫05
34 ـ الصيـــن الشعبيـة	75.504.000	٪ 11
35 ـ الـهـنــد	47.000.000	٪ 10٫2
36 ـ جـــزر فيجـــي	100.000	٪ 20

37 ـ الاتحـــاد السوفياتي

آسيـــــا

الجمهـوريـات	عـدد المسلمـين	النسبة الى السكان
طـاجيكستـــان	2.221.660	٪ 98
قــرغيـزيـا	2.188.680	٪ 92
تــركمـــان	1.568.700	٪ 90
أوزبكستـــان	8.355.600	٪ 88
أذربيجـــان	3.300.960	٪ 78
كـازاكستـــان	7.661.560	٪ 68
جـورجيـــا	824.980	٪ 19
ارمينيـــا	240.840	٪ 12
أوكـرانيـا	5.286.480	٪ 12
روسيـــا	7.406.460	٪ 6
بايلوروسيا (البيضاء)	504.780	٪ 6
مـولـداڤيـا	95.160	٪ 3

مجمـــوع السكـــان المسلميـــن في الاتحـــاد السوفياتـــي : 39.655.860

مجموع عـدد المسلمين في آسيا : 445.164.596

أوروبـــــــــا

الاقـــطـــــار	عـدد المسلمـيـن	النسبة الى السكان
1 – الباتيــــا	1.216.000	٪ 73
2 – يوغوسلافيا	2.100.000	٪ 11
3 – قبـــــرس	120.000	٪ 20
4 – مالطـــــة	34.000	٪ 11

مجموع المسلمين فى أوروبا : 3.470.000

امريكـا واستراليـــا

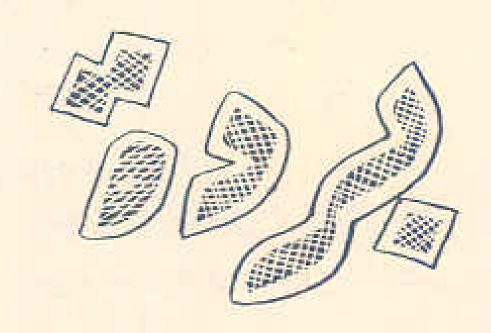
الاقـــطـــــار	عـدد المسلمـيـن	النسبة الى السكان
1 – امريكـا الشمالية	400.000	
2 – امريكا الجنوبية	340.000	
3 – جزر الهند الغربية	136.000	
4 – استـراليـــا	10.000	

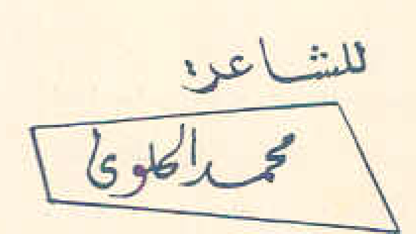
مجموع المسلمين فى امريكا واستراليا : 886.000

مجمـوع المسلمين فى العالـم :

1) عدد المسلمين فـى افريقيا : 162.979.872
2) عدد المسلمين فى ءاسيا : 445.164.596
3) عدد المسلمين فى أوروبا : 3.470.000
4) عدد المسلمين فى امريكا واستراليا : 886.000

المجمــوع : 612.500.468





احبب بها من ربى عطرية النسم ... تفوح بالطهر والالهام والقيم
احبب بمهبط نور لاح فانكشفت ... به الدياجي وكان الكون في ظلم
قد ذبت شوقا للقياها ففي كبدي ... جمر ودمع عيوني جد منسجم
لم ابك ليلى ولم اندب على طلل ... ولا انتحبت على محبوبة سدم
ولم اطف حول ابيات الحبيب ـ اذا ... اغفى الرقيب ولم اهجر ولم الم
تركت شجو الهوى للمولعين به ... وهمت في حبي القدسي فى نهم
قالوا المطايا العتاق الحمر تركبها ... ام الجواري تشق البحر كالاطم ؟
فقلت شوقي اليها لا يقربه ... الا امتطاء متون الجو كالرخم
ركبت شوقا اليها ذات اجنحة ... جياشة الصدر تغلي غلي محتدم
طارت فلم ترق في عليائها ابل ... تحدى ولم يرقها باز ولم يحم
تسابق الطير لا تشكو قوادمها ... ولا قلوب خوافيها من السأم
طرنا عليها فلم تنزل بكاظمة ... ولم تعرج على الاحباب في اضم
حتى حللنا مجالى الوحي فانطلقت ... ارواحنا قبلها تهوى الى الحرم
وضعت كفي على قلبي وقد ظهرت ... وقمت لما تراءت لي على قدمي
هذى المشاهد لاحت في جلالتها ... وهذه القبة الخضراء في شمم

النور والعطر والاسرار دافقــــة   تنصب في كل قلب مومن شبــــم
شد الرحال اليها وهو محتســـب   لهفان ينهل منها وهو بعد ظمـــي

* * *

هذي ربى يثرب فاخشع لهيبتهــا   وانهض وقبل مجالي الوحى واستلم
واملأ عيونـك من أنوارها ولهـا   فأنت يقظـان لا في نشـوة الحلـم
واسكب دموعك في أبهاء روضتـه   على خطاياك في بحـر من النـدم
فأنت في حضرة قدسية عبقـت   من عطرها الارض والاجواء فاغتنم
أطل والعرب غرقى في ضلالتهـا   عشواء سادرة في مرتـع البهـم
فقادها بهدى القـرءان طائعـة   وصاغها امـة من خيـرة الامـم
دعا الى الله في صبر وفي جلـد   وناضل الشرك في حزم بلا حـزم
دع عنك وصفي واطرائي فما أحـد   يبالغ شـأوه في الخلـق والعظـم

* * *

يا رب صل على الهادي الذي انعتقت   به الخلائق من رجس ومن صنـم
وروع اللات والعزى فما ارتفعـت   لها جبـاه ولـم تنهض على قـدم
وجلجلت كلمـات الله صائحـة   الله اكبـر في الواحـات والاكـم
يشدو بـلال بهـا في كل مئذنـة   شدو البلابل في الادواح بالنغـم
وخف جبريـل بالقـرءان ينزلـه   مقاطعا زخرت بالهـدى والحكـم
روائـع الله جلـت أن يناهضهـا   فكر يعاني من الاجـداب والعقـم
جلت فلم تـك اشعـارا مرتلـة   ولـم يكـن متلقيهـا بمتهـم
غطت على كل دستور تسطـره   عباقر الخلق من عرب ومن عجـم
أمية أعجزت بالوحي من عكفـوا   على العلوم ومن عاشوا مع القلـم
أغنت تعاليمهـا عن كـل ترهـة   بما أقامتـه للانسـان من نظـم
في غير فلسفة تغني ولا جـدل   وانمـا دعـوة للعـدل والسلـم

* * *

يا رب صل على الهادي الذي كملت   به المكارم والاخـلاق ذي الشيـم
من وحد العرب بالحسنى وطهرهـا   من حماة الشرك والفوضى بغير دم
وصاغها وحدة كبرى فدك بهـا   معالم البغي والبغضاء والنقـم
فأصبحوا بعد اخوانا على سـرر   مستمسكين بحبل غير منفصـم

عزت بهم دولة الاسلام وارتفعت ... راياتها بالهدى والعدل فى الامم

كم ارخصوا مهجا في الله غالية ... وكم اهينوا وكم لاقوا من الالم !!

حتى اعتلوا صهوة الامجاد وامتلكوا ... دنيا تقر لهم بالنبل والهمم

من لي بهم اخوة في الله تربطهم ... روابط الضاد والاسلام والرحم !

لم تلههم عن فداء الدين بارقة ... ولم تفرقهم الاطماع كالغنم !

من لي بهم ليعيدوها كما بدات ... ويبعثوا مجدها الموءود كالرسم

فقد تداعت – ولم تشعر – قواعدها ... واصبحت هيللا نضوا من السقم

ودمية بيد الاهواء سائرة ... وطعمة لم تسغ يوما لملتهم

نامت بنوها عن الاحداث وانغمست ... في لهوها وعيوب الدهر لم تنم

واسلمت للهوى المردي اعنتها ... واغرقت نفسها فى سيله العرم

فامدد لامتك الغرقى يديك فقد ... انقذتها سلفا من وهدة العدم

واضرع الى الله ان يحيي بقدرته ... مواتها باتحاد جامع عمم

لتستعيد من الاعداء ما اغتصبوا ... منها وما انتهكوا فيها من الحرم

لم امتدحك ولكني مدحت بكم ... شعري وما صغته من رائع الكلم

ولا تشرفت بالمغنى الحبيب ولا ... كحلت جفني بمرآه ولم اشم

وانما هي اشواق وامنية ... ورب امنية بشرى بمغتنم

يا رب صل على المختار من مضر ... ملء الفضاء وملء الغيب والقدم

واغمر بفضلك عبدا ضارعا عصفت ... به الخطايا فلم يقلع ولم يرم

ما رقت الزهر بالانداء في سحر ... وضاحك الروض هتانا من الديم

وآله النجب الاحرار ما طلعت ... شمس وما غرد القمرى فى علم

تطوان – محمد الحلوي



من قصائد شوقي ذات الشهرة الواسعة ، والمعروفة على نطاق واسع ، قصيدة «نهج البردة» التى يقول فى اولها :

ريم على القاع بين البان والعلم
احل سفك دمي في الاشهر الحرم

ومعلوم ان شوقي كان قد عارض بهذه القصيدة ، قصيدة « البردة » للامام البوصيري ، التى يقول فى اولها :

امن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

— ◆ —

والمعارضة فى الشعر ، معناها — كما لا يخفى — ان يقرا شاعر قصيدة معينة لشاعر ءاخر ، فيعجب بها ، ثم ينظم قصيدة اخرى على وزنها وقافيتها ، وفى موضوعها فى الغالب .

وبعض الشعراء لا يقصدون من وراء ذلك الى اكثر من اظهار براعتهم فى النظم ، وقدرتهم على مسايرة الشعراء السابقين لهم ، والنسج على منوالهم .

وفى هذه الحالة فان المعارضة قد تكتسي صبغة التكلف ، ويظهر فيها التقليد ، وتنعدم فيها الاصالة، وغالبا ما يعجز الشاعر المعارض عن ان يأتي بقصيدة فى قوة القصيدة التى يعارضها ويحاول النسج على منوالها ، وحتى عندما تسعفه مقدرته اللغوية ، فان الاحساس والانفعال — وهما عنصران اساسيان فى الشعر — يكونان دون المستوى المطلوب ، اذ لم يكن منعدمين بالمرة .

لكن بعض الشعراء الاخرين — على العكس من ذلك — يعمدون لمعارضة بعض القصائد لشعراء ءاخرين ، لانهم انفعلوا بها كثيرا، وبلغ منهم ذلك ان اصبحوا يعيشون فى نفس الاجواء التى اوحت بها، الى الحد الذى يدفعهم للتعبير عن ذوات نفوسهم ، فتنطلق القصيدة على لسان الواحد منهم من وزن القصيدة التى يعارضها ، وعلى قافيتها وفى نفس موضوعها فى الغالب :

وقد يبدو هنا ايضا تاثر الشاعر اللاحق بالشاعر السابق ، ولكنه تاثر لا يخل بقيمه عمله الادبي ، ولا ينقص منه ، ما دامت الاصالة متوفرة ، والطابع الشخصي للشاعر المعارض واضحا .

وقد كان شوقي رحمه الله من هذا الصنف الاخير، كان يقرا لفحول الشعراء السابقين عليه باعجاب كبير وتاثر بالغ ، وتستهويه قصيدة معينة ، فيقف عندها ويطيل الوقوف ، ويكثر من ترديدها ، حتى تتشربها نفسه ، وينفعل بها كيانه ، فاذا هو ينطلق بقصيدة اخرى على وزنها وقافيتها ، وفى مثل قوتها ، ان لم تفقها فى بعض الاحيان .

وهكذا عارض شوقي قصيدة ابن زيدون المشهورة ، التي يقول فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

بقصيدته التي يقول في اولها :

يا نائح الطلح اشباه عوادينا
نأسى لواديك ام نشجى لوادينا

وعارض قصيدة البحتري في رثاء ايواء كسرى التي يقول في اولها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدى كل جبس

بقصيدته التي يقول في أولها :

اختلاف النهار والليل ينسي
اذكرا لي الصبا وايام انسي

وعارض قصيدة ابي نواس التي يقول فيها :

حامل الهوى تعب
يستخفه الطرب

بقصيدته التي يقول في اولها :

حف كاسها الحبب
فهي فضة ذهب

الى غير ذلك من القصائد الكثيرة ، بل والموشحات ،التي عارضها شوقي ، فأتى من عنده بقصائد في مستواها ؛ وفي نفس روعتها وجمالها .

وقد كان من القصائد التي اعجب بها شوقي كثيرا ، وجرب شاعريته في معارضتها ، القصيدة الهمزية للامام البصيري التي يقول في اولها :

كيف ترقى رقيك الانبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

وقد عارضها شوقي بقصيدته المعروفة التي يقول في اولها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

وكذلك قصيدة (البردة) التي نتخذها ، مع معارضة شوقي لها ، مدارا لهذا الحديث ، وقد تقدمت الاشارة اليهما في بداية هذا الكلام .

— ◆ —

والامام البوصيري ، هو الشيخ شرف الدين ، ابو عبد الله ، محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال البوصيري ، نسبة الى « بوصير » بالصعيد المصري .

وقد ولد الامام البوصيري في اوائل القرن السابع الهجري ، سنة ثمان وستمائة ، وتوفي سنة اربع وتسعين وستمائة ، اي عاش اثنين وثمانين سنة :

وكان سبب نظمه لقصيدة البردة ، انه مرض مرضا طويلا ، واصيب بالشلل ، وعجز الاطباء عن علاجه ، وبلغ به الالم منتهاه ، فاتجه بقلبه كله الى الله ، واكثر من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي غمرة هذا الجو الديني العظيم ، وهذا الانفعال النفسي الغامر ، نظم هذه القصيدة ، يمدح فيها الرسول ويثني عليه ، ويمجده ، ويذكر صفاته واخلاقه وعظيم مزاياه .

ويقال انه بعد ان اتم نظم هذه القصيدة ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، يمسح عليه بيده الكريمة ، ويلفه في بردته ، فلما افاق من نومه وجد نفسه سليما معافى ، ومن ثم سميت هذه القصيدة باسم البردة ، اي بردة النبي ، التي رءاه البوصيري يلفه بها في منامه .

ومهما يكن ، فاننا لا نجد في قصيدة البردة للبوصيري اية اشارة لذلك ، حتى في الاقسام الاخيرة منها التي يناجي فيها الله ، او يتوسل اليه برسوله ، وان كنا نجد في البيت قبل الاخير منها ، ينص على تسميتها بالبردة ، وذلك حيث يقول :

وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله في بدء وفي ختم

— ◆ —

على ان البعض لا ينظر بارتياح الى تسمية هذه القصيدة باسم البردة ، ويرى ان هذا الاسم يجب أن يظل مقصورا على قصيدة كعب بن زهير ، التي مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي يقول في اولها :

بانت سعـــاد فقلبي اليوم متبـــول
متيـــم اثـرهـا لم يجـز مكبـــول

والتى يقول فيها :

ان الرسول لنـور يستضـــاء بـــه
مهنـــد من سيوف اللـه مسلـــول

ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم طرب لهذه القصيدة ، وانه خلع بردته على كعب بن زهير ، وكان ذلك حقيقة لا خيالا ، وعيانا لا مناما . فكانت هذه القصيدة ــ عند هؤلاء ــ احق ان تسمى وحدها بالبردة ، والا يطلق هذا الاسم على قصيدة اخـرى غيـرهـــا .

ومهما يكن ، فقد اشتهرت قصيدة الامـــام البوصيري هذه باسم البردة ، حتى كاد هذا الاســم يصبح علما عليها .

— ◆ —

تقع قصيدة البردة للامام البوصيري فى مائة وسبعة وستين بيتا ، بداها بالتشبيب على العـــادة التقليدية المتبعة ، ثم تخلص من ذلك الى التحذيـر من هوى النفس ، ثم الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والاشادة بمعجزاته ، وعلى راسها القرءان الكريم بطبيعة الحال ، وختمها بمناجاة الله والتوسل اليه. وكل ذلك فى احكام ومتانة ربط، بحيث لا تكاد تحس الانتقال من جزء من اجزاء القصيدة الى جزء ءاخر غيـــره .

وليس ذلك ــ فيما نرى ــ راجعا فقط الى براعة الشاعر فى التخلص من موضوع الى موضوع ، بل انه يعود ايضا الى وحدة الشعور الذى ينتظم القصيدة كلها من اولها الى ءاخرها ، فيجعلها منهـا سبيكـة واحدة ، بالرغم من تعدد اقسامها واغراضها .

ورغم ان هذه القصيدة معروفة جدا ، وتكـاد تكون على كل لسان ، فاننا لا نرى باسا من ان نورد هنا مقاطع مختلفة منها :

يقول الامام البوصيري :

لـولا الهوى لم ترق دمعا على طلـــل
ولا ارقـت لـذكـــر البان والعلـــم

فكيف تنكـــر حبا بعدما شهـــدت
بـــه عليك عدول الدمـــع والسقـــم

يالائمـي فى الهوى العذري معـــذرة
منـــي اليك ولـــو انصفت لم تلـــم

عدتك حالـــي ، لا سري بمستتـــر
عـن الوشاة ولا دائـــي بمنحســم

محضتني النصح لكن لست اسمعـه
ان المحـب عن العـــذال فى صمـــم

ويقول متحدثا عن نفسه :

فان امارتـــي بالسـوء مـــا اتعظـت
مـن جهلها بنذير الشيب والهـــرم

مـن لـي برد جمـاح من غوايتهـــا
كما يرد جمـــاح الخيـــل باللجـــم

والنفس كالطفـل ان تهمله شب على
حب الرضـــاع وان تفطمه ينفطـــم

ويقول فى مدح الرسول :

دع ما ادعتـه النصارى في نبيهـــم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكـم

وانسب الى ذاته ما شئت من شـرف
وانسب الى قدره ما شئت من عظـم

فان فضل رســـول الله ليس لـــه
حـــد فيعـرب عنـه ناطـق بفـم

فمبلـغ العلـم فيـــه انـــه بشـــر
وانـــه خيـــر خلـــق الله كلهـــم

ويقول فى المناجاة والتوسل :

ان آت ذنبـــا فما عهدي بمنتقـــض
من النبـي ولا حبلـــي بمنصـــرم

فـــان لي ذمـــة منـــي بتسميتـــي
محمدا وهو اوفى الخلـق بالذمـــم

ومنـذ الزمت افكـــاري مدائحـــه
وجدتـه لخلاصـي خيـــر ملتـــزم

ولم ارد زهـــرة الدنيا التي اقتطفت
يدا زهير بمـــا اثنـى علـى هـــرم

— ◆ —

وننتقل الآن الى قصيدة شوقي التى قالها فى معارضة قصيدة البردة للامام البوصيري ، وسماهـا

« نهج البردة » وهو اسم يدل على مبلغ تادب شوقي وتواضعه ، فهو لا يعارض قصيدة البردة ، وانما يقول قصيدة على نهجها ، كانه يقتفي خطاها ، وينظر اليها على انها الاصل الذى لا يجارى ولا يعارض ، وانما يريد ان يسير على نهجه ، ويقتفي آثره ، ويستوحيه، ويتتبع خطاه .

ويصرح شوقي فى قصيدته (نهج البردة) بكل ذلك ، فهو يذكر (صاحب البردة) فيقر له بالفضل والسبق ، ويعلن انه وهو ينشد هذه القصيدة ، لا يعارضه لانه فوق مستوى المعارضة ، وانما هو يغبطه على ما سبق اليه من الفضل ، وذلك حيث يقول شوقي مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم :

المادحون وأرباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

مديحه فيك حب خالص وهوى
وصادق الحب يملي صادق الكلم

الله يشهد اني لا اعارضه
من ذا يعارض صوب العارض العرم

وانما انا بعض الغابطين ومن
يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

— ♦ —

تقع قصيدة (نهج البردة) لشوقي فى مائة وواحد وتسعين بيتا ، وهي تدل على نفس طويل فى الشعر ، كان يتمتع به شوقي ، وقد امدته فى هذه القصيدة شاعريته الخصبة ، واحساسه الديني العميق ، كما يبدو انه عاش زمنا طويلا فى قصيدة البردة للبوصيري ، فتشربتها نفسه ، واندمج فى معانيها واخيلتها وصورها وجوها الديني .

ورغم ما هو واضح من ان شوقي كان فى هذه القصيدة هو شوقي، بكل قوته، وبكل شاعريته، وبكل قدرته على التصرف فى المعاني وتوليدها وابتكارها ، واخضاعها للقوالب الشعرية ، فان اثر بردة البوصيري ظل واضحا بصورة او باخرى فى نهج البردة لشوقي ، كما سيبدو لنا بعد حين .

— ♦ —

وكما بدا البوصيري قصيدته بالنسيب ، فقد بدا شوقي قصيدته بالنسيب ايضا ، وقد استغرق ذلك من « نهج البردة» اربعة وعشرين بيتا، نذكر كنموذج لها الابيات التالية :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي فى الاشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جؤذر اسدا
يا ساكن القاع ادرك ساكن الأجم

لما رمى حدثتني النفس قائلة
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

جحدتها وكتمت السهم في كبدي
جرح الاحبة عندي غير ذي الم

رزقت أسمح ما فى الناس من خلق
اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

يا لائمي فى هواه والهوى قدر
ولو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

لقد أنالتك اذنا غير واعية
ورب منتصت والقلب في صمم

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى ابدا
أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

الى ءاخر الابيات الاربعة والعشرين التى خصها شوقي للنسيب فى قصيدته هذه .

ونلاحظ من الابيات التى قدمناها كنموذج لهذا القسم عدة ملاحظات :

اولاها : انها جاءت فى اخيلتها ملائمة لموضوع القصيدة ونهجها وجوها وطبيعتها التاريخية ، فالغزل فيها غزل قديم لا يكاد يمت بصلة الى طابع العصر الذى نعيش فيه ، وانما يمت بصلة قوية الى حياة البداوة التى تطبع الشعر العربي القديم ، فهو يذكر الريم ، والقاع ، والبان ، والاسد ، والجؤذر ، والاجم ، وما الى ذلك ، مما اضفى على القصيدة لونا بدويا خالصا ، لعل شوقي قد اختاره عن قصد ، او لعله تاثر فيه بالقصيدة التى يعارضها ، وهي قصيدة البردة للامام البوصيري .

ثانيا : نلاحظ ان شوقي قد جرته هنا ايضا طبيعته المبالة الى شعر الحكمة ، فنحن نجده فى كل قصائده ، او جلها ، يطلق بين الحين والحين بيتا من الشعر يضمنه حكمة من حكمه ، وذلك كقوله هنا :

رزقت أسمح ما في الناس من خلـــق
اذا رزقت التماس العذر في الشيـــم

— ◆ —

وننتقل الآن الى القسم الثاني من قصيدة نهج البردة ، وهو الذى يتخذه شوقي توطئة وتمهيـــدا للدخول في الغرض المقصود منها ، وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء عليه .

في هذا القسم يتحدث شوقي عن الدنيا ، او عن الحياة ، مندداً بتفاهتها وبالمتكالبين عليها ، الغافلين بها عن تقوى الله وعمل الخير والسعي لما فيه نفع الناس عامة .

ينتقل شوقي الى هذا القسم من قصيدتـــه انتقالا مفاجئا ، وبدون تمهيد او ربط له بما قبله ، فيقـــول :

يا نفس دنياك تخفي كـــل مبكيـــة
وان بـــدا لك منها حسن مبتســـم

ثم يقـــول :

يا ويلتـــاه لنفسي راعهـــا ودهـــى
مسودة الصحف في مبيضة اللمـــم

ركضتها في مريع المعصيـــات ومـــا
أخذت من حميـــة الطاعات للتخـــم

صـــلاح امرك للاخـــلاق مرجعـــه
فقوم النفـــس بالاخـــلاق تستقـــم

والنفس من خيرها في خير عافيـــة
والنفس من شرها في مرتع وخـــم

تطغى اذا مكنت من لـــذة وهـــوى
طغي الجياد اذا عضت على الشكـــم

ان جـــل ذنبي عن الغفران لي امـــل
في الله يجعلنـــي في خير معتصـــم

وان تقـــدم ذو تقـــوى بصالحـــة
قـــدمت بين يديـــه عبـــرة النـــدم

ويقول بعد هذا البيت مباشرة :

لزمت باب اميـــر الانبيـــاء ومـــن
يمسك بمفتـــاح باب الـــه يغتنـــم

وهكذا ينتقل من القسم الثاني الذى يتحـــدث فيه عن الحياة ، ويحذر نفســـه من اشراكها ، ويغريها بالطاعة ، الى القسم الثالث والاخير ، والمقصـــود بالذات ، وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

— ◆ —

يستغرق هذا القسم من القصيدة مائة وثمانية واربعين بيتا من الشعر الجيد ، المتناهي في الجودة ، المعبر عما تكنه نفوس المسلمين جميعا مـــن محبـــة للرسول ، وتعظيم لشانه ، واجلال لقدره ، مع دعوة في نفس الوقت الى الاقتداء به ، واتخاذه مثـــلا عاليا في تقواه واخلاقه وشيمه وحسن سياسته .

ويتمالك شوقي الاعجاب بقصيدته هذه الى مدح الرسول ، بل يحس انه كلما تصدى لمدحه ، واتـــاه التوفيق ، ونال السبق ، فيقول معبرا عن ذلك :

يزري قريض زهيرا حين امدحـــه
ولا يقاس الى جـــودي لدى هـــرم

واية غرابة في ذلك ، وشوقي هو شوقـــي ، والممدوح هو الرسول ، ودوافع المدح لا تتعلق بـــاي غرض دنيوي ، وانما هو الايمان الصادق والمحبـــة الخالصة ، ورجاء الثواب من عند الله .

وبما ان المقام لا يتسع هنا لايراد هذا القســـم كله من نهج البردة ، وبما ان الاختيار منه من الصعوبة بمكان كبير ، لانه كله جيد ، فلنكتف بأن نورد بعض ابياته كنموذج فقط ، لا على انها المختارة او الاحسن .

يقـــول شوقـــي :

ونودي « اقرا » تعالى الله قائلهـــا
لم تتصل قبـــل من قيلت له بفـــم

هنـــاك اذن للرحمـــان فامتـــلات
اسمـــاع مكـــة من قدسية النغـــم

فلا تسل عن قريش كيف حيرتهـــا
وكيف نفرتهـــا في السهل والعلـــم

تســـاءلوا عن عظيـــم قـــد الم بهـــم
رمـــى المشايخ والولدان باللمـــم

يا جاهليـــن على الهـــادي ودعوتـــه
هل تجهلون مكان الصادق العلـــم ؟

لقبتموه اميـــن القـــوم في صغـــر
ومـــا الامين علـــى قـــول بمتهـــم

— ◆ —

سرت بشائر بالهادي ومولده
في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

تخطفت مهج الطاغين من عرب
وطيرت انفس الباغين من عجم

اتيت والناس صرعى لا تمر بهم
الا على صنم قد هام في صنم

والارض مملوءة جورا ، مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم

والخلق يفتك اقواهم باضعفهم
كالليث بالبهم ، او كالحوت بالبلم

ويمضي شوقي الى ان يختم قصيدته بالدعاء للمسلمين ان يقيل الله عثرتهم ، وان يعود بهم الى سالف مجدهم وعزتهم ، فيقول :

يا رب هبت شعوب من منيتها
واستيقظت امم من رقدة العدم

سعد ونحس وملك انت مالكه
تديل من نعم فيه ومن نقم

راى قضاؤك فينا راي حكمته
اكرم بوجهك من قاض ومنتقم

فالطف لاجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفا ولا تسم

يا رب احسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

— ◆ —

تلك لمحات خاطفة عن البردة للبوصيري وعن نهج البردة لشوقي ، وكلاهما قد بلغ الغاية ، وقد راينا شوقي يعترف للبوصيري بفضل السبق ، ويصرح انه لا يعارضه ، لانه يراه في بردته فوق مستوى المعارضة ، وانما هو يغبطه على ما سبق اليه من الفضل وما أوتيه من التوفيق ، ولا لوم على الانسان ان يغبط في مثل هذا المقام ، كما اشار شوقي الى ذلك .

واذا كان من الانصاف للحقيقة ان نعترف لشوقي بأنه هو ايضا قد ابدع واجاد في نهج البردة ، وانه لم يقصر عن شأو البوصيري ولا تخلف عن مستواه ، فان من الانصاف للحقيقة ايضا ان نقول : ان آثار البردة واضحة في نهج البردة وضوحا لا تخطئه العين ، ليس ذلك فقط في الروح العامة التي تنتظم القصيدتين معا ، وانما ايضا في بعض الصور التعبيرية ، والاخيلة الادبية ، بل ان الامر يتعدى ذلك احيانا الى المفردات والتراكيب ، كما قد يتضح من الامثلة التالية :

يقول البوصيري :

يالائمي في الهوى العذري معذرة
مني اليك ولو انصفت لم تلم

محضتني النصح لكن لست اسمعه
ان المحب عن العذال في صمم

ويقول شوقي في نفس المعنى :

يالائمي في هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

لقد انلتك اذنا غير واعية
ورب منتصت والقلب في صمم

— ◆ —

ويدعونا البصيري الى ان نلزم « حمية الندم » فيقول :

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم (حمية الندم)

ولعل هذا الاستعمال اللغوي يعجب شوقي ، ولا يستطيع ان يفلت من اساره ، فيحدثنا عن نفسه قائلا :

ركضتها في مريع المعصيات وما
اخذت من (حمية الطاعات) للتخم

— ◆ —

ويتحدث البوصيري عن نفسه فيقول :

من لي برد جماح من غوايتها
كما يرد جماح الخيل باللجم

اما شوقي فيقول عن النفس ايضا :

تطغـــى اذا مكنت من لذة وهـــوى
طغي الجياد اذا عضت على الشكـــم

— ◆ —

ويقول البوصيري ذاكرا زهير بن ابي سلمى ومدحه لهرم بن سنان

ولم ارد زهرة الدنيــا التي اقتطفت
يــدا زهيــر بما أثنى على هــرم

ويقول شوقي متحدثا عن شعـره فـي مـدح الرســول :

يزرى قريضي زهيرا حين امدحـــه
ولا يقاس الى جودي لـدى هـرم

— ◆ —

واذا رأينا شوقي يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم باسم (احمد) ويذكر انه يعتز بانه هو ايضـا اسمه احمد ، فيقول :

يا احمد الخير لي جـاه بتسميتـي
وكيف لا يتسامى بالرسول سمـي

فيجب ان نذكر قول البوصيري ، واسمه كما سلف هو (محمد) :

فان لـي ذمـة منــه بتسميتــي
محمدا ، وهو اوفى الخلق بالذمــم

— ◆ —

والامثلة كثيرة ومحاولة استقصائها تخـرج بنـا عن القصد ، ولعل فيما قدمناه كفاية :

واذا كان لذلك من دلالة ، فهو ان شوقي رغم قوة عارضته الشعرية ، واصالته التى لا سبيل الى الشك فيها ، لم يستطع وهو ينشد نهـج البـردة ان يتحرر من تاثير البردة ، او يفلت من اسارها ، لانه فيما يظهر قد عاش فيها طويلا ، وتملاهـا كثيـرا ، وتشبع بها وجدانه وكيانــه ، وانطبـع بها لسانــه ، فظهرت نتيجة لكل ذلك ءاثارها فى عمله ، على نحو لا يقلل من قيمة هذا العمل ابدا ، لانه بالرغم من كل ذلك لا يفتقر الى الاصالة وصدق الانفعـال وقـــوة الاحســـاس .

ورحم الله شوقي ما كان ابره وهو يقول :

المادحون وارببـاب الهـــوى تبــع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القـــدم

مديحه فيك حــب خالص وهـــوى
وصادق الحب يملي صادق الكلـــم

اللــه يشهـــد انــي لا اعارضــه
من ذا يعارض صوب العارض العـرم

وانمـــا انـــا بعض الغابطيـــن ومــن
يغبط وليـــك لا يذمـــم ولا يلـــم

الرباط : عبد القادر الصحراوي





جلالة مولانا الملك الحسن الثاني نصره الله يتنسم عبير الحجر الاسعد ، وقد بدت عليه امارات التأثر والخشوع



بعد صلاة الجمعة ..
« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا ... »

تفتح الإسلام على الأمم الأخرى سر انتشار الرسالة المحمدية

للأستاذ عبد الهادي التازي

لقد تطور المفهوم التجاري الذى طبع العلاقات الدولية فى العصر الجاهلي بعد ظهور النبي عليه الصلاة والسلام الى مفهوم سياسي واجتماعي ، وهكذا نرى ان المهمة على عهد الرسول اصبحت تتلخص فى اتخاذ الوسائل الكفيلة بنشر تعاليم الاسلام ، ولابد ان يقف المرء امام رقم (ستمائة وستة عشر مليونا) الذى يكون مجموع المسلمين الاجمالي فى عالمنا الحديث ، يقف امامه لانه عدد مرتفع فعلا اذا ما قارناه بعدد المسلمين فى الايام الاولى لظهور الاسلام وليس باعث الوقوف هو هذا العدد الضخم فقط ولكن الباعث الآخر هو ملاحظة انتشار هذا العدد من المسلمين فى شتى نواحي الدنيا ، في ءاسيا بجميع اقطارها ، وفي افريقيا واوربا وامريكا واستراليا كذلك ، ترتفع نسبة الوجود الاسلامي فى بعض هذه القارات لتتوسط او تقل فى بعضها الآخر ، لقد وصل عدد المسلمين فى ءاسيا زهاء 444 مليونا ، فيهم من يتحدث بلغة القرءان لكن فيهم من يتحدث بلغات وطنية اخرى او لغات اجنبية ، بيد ان لغة الاسلام تبقى هي لغة القرءان فى ممارسة العبادات ، وفى المخاطبات الاخوانية بين المسلمين ، وهكذا نقول فى القارة الافريقية التى يبلغ فيها مجموع المسلمين فى الاحصاءات الاخيرة الى نحو من مائة وخمسة وخمسين مليونا ، وكذلك فى قارة اوربا التى تتجاوز عدد المسلمين فيها ستة عشر مليونا ، وفى القارتين امريكا واستراليا اللتين تحتضنان زهاء مليون من المسلمين .

* * *

ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصر دعوته على البيئة العربية التى كان يعيش فيها لان الامر — فى تقديره وتكليفه ايضا — يتعلق برسالة عامة شاملة ، لا تقتصر على الجزيرة وحدها ولكنها تعدوها الى ما وراء الحدود . ولهذا تفتح الاسلام على الامم المجاورة، ويكفي ان نستعرض امامنا مختلف السفارات التى بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم الى مختلف الجهات : البعثة التى راحت برئاسة دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم ، والبعثة التى راحت برئاسة عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى بن هرمز ملك الفرس ، والسفارة الى النجاشي برئاسة عمرو بن امية الضخري ، ثم رسله الى الملوك والقادة الذين كانوا — فى الواقع — عمالا اما للقياصرة او الاكاسرة من امثال جرير بن عبد الله الذى بعث به صلى الله عليه وسلم الى ذي الكلاع ، وشجاع بن وهب الاسدي الذى بعثه الى جبلة بن الايهم ، وحاطب بن ابي بلتعة الذى وجهه الى المقوقس صاحب مصر ، والذى ما تزال صورة الخطاب الذى بعث به معه محفوظة بمصر .. وعمرو ابن العاص الذى ارسله الى عمان ، وسليط بن عمرو الذى وجهه الى اليمامة، والعلاء بن الحضرمي الذى ارسله الى المنذر بن ساوى العبدي واهل البحرين ، والمهاجرين ابي امية المخزومي الذى ارسله الى الحارث ملك اليمن ..

كل هذه السفارات على اختلاف وجهاتها كانت تدعو الى جمع الناس على كلمة سواء من غير تمييز بين عنصر وءاخر او ايثار هذا على ذاك ..

* * *

ان كل مصلح لابد ان يستهدف بأفكاره اكبر عدد ممكن من الناس حتى يعمم دعوته بين الناس وينشر فيهم الفضائل التى استنام اليها عن ايمان واقتناع ، انها عملية كسب روحي اكثر ، ونجاح فى المهمة اوفر . ان الاسرة العربية ءانذاك لم تكن من حيث عددها بكافية لطموح الرسول الاعظم وتطلعه الى تحقيق سعادة الانسان فى شتى النواحي بما فيها البعيدة عنه ، ولهذا لم يعتبر نفسه ابدا نبيا لقوم دون ءاخرين . ولكنه كان يرى ان رسالته موجهة الى العرب بقدر ما هي خطاب للفرس والرومان والحبش والاقباط ، ان ذلك يؤيد النظرية القائلة بان رسالة النبي عامة لكل العالمين ، وهو بعد ذلك يعطي الدليل القوي على فعالية الرسالة المحمدية ، ترى لو كان الاسلام انكمش على نفسه وقنع منذ خطواته الاولى على البيئة العربية التى نشأ فيها وترعرع ؟ هل كان يمكن ان يكون للاسلام وجود بين البربر والترك والفرس والكرد والتتر مثلا ؟ وهل كان يمكن ان يغزو الاسلام اقاصي شرق ءاسيا وان يقتحم مجاهل افريقيا وان يتسلق شم الجبال وينساب فى اغوار الشعاب ، فى عوالم بعيدة من حيث المسافة ، من حيث العادات ، من حيث المزاج كذلك .

* * *

بين ايدينا رسالته صلى الله عليه وسلم الى قيصر التى حملها دحية الكلبي : « .. اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، وان توليت فان عليك اثم الاريسيين » ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون ..»

وبين ايدينا كذلك نصوص الكتاب الذى بعث به مع عبد الله بن حذافة الى كسرى عظيم الفرس : « .. السلام على من اتبع الهدى وءامن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . اسلم تسلم فان ابيت فانما عليك اثم المجوس ..»

كما ويوجد اصل كتابه صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس ملك مصر والذى ما يزال محفوظ الاصل بهذه الديار : « ... اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم ، يؤتك الله اجرك مرتين . فان توليت فعليك اثم القبط .. »

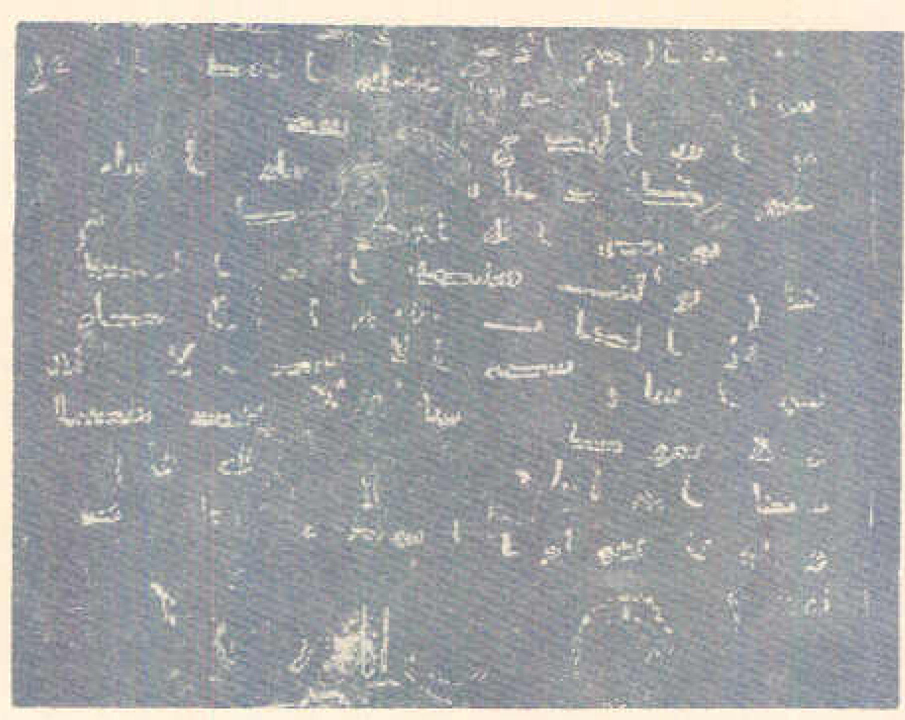
هذا الى كتبه الاخرى التى وردت بعض نصوصها فى المصادر التى عنيت بالشرع الدولي فى الاسلام..

* * *

سنلاحظ على محتوى سائر الرسائل التى حملها سفراء النبي الى الامم الاخرى : نلاحظ محتوى واحدا متشابها لا يختلف ، الدعوة الى خير الانسان وسعادته، والتمسك بمباديء العدل والانصاف، ولم يكن المحتوى ابدا يهدف الى فرض حجر او وصاية، او رغبة فى سطو او استيلاء على اولئك الذين حملت اليهم دعوة النبي العربي . والاهم من كل هذا احترام الاسلام لحرية راي الاجانب ، وهذه ميزة سجلها بتقدير كبير سائر المؤرخين للعصر الاسلامي ، واذا ما ادركنا ابعاد الرسالة هذه فسوف لا نستغرب بحال الصدى الطيب الذى تركته البعثات الاسلامية فى نفوس اولئك العظماء بمن فيهم الذين تهيبوا من الانصياع الى الدعوة الجديدة ، ذلك لانهم اخذوا البرهان القاطع على أن العرب لا يستهدفون القضاء على كيانهم بقدر ما كانوا يستهدفون اللقاء على « كلمة سواء » .

ومن الطريف ايضا ان نتتبع مختلف الاجوبة التى رجع بها سفراء الرسول العظيم ، لقد كان جواب ملك الحبشة فى منتهى اللياقة والادب ، فعلاوة على ما قابل به بعثة الرسول من التكريم ومن الامان – او الحصانة كما يسمونها اليوم – علاوة على ذلك بادر الى اعلان بيعته واشهار اسلامه واضاف الى هذا ان بعث بابنه الى النبي عليه الصلوات صحبة جعفر ابن أبي طالب ومن كان معه من مهاجري الحبشة وذلك تعبيرا من النجاشي عن الولاء والتقدير اللذين يكنهما للنبي العربي .

ولابد ان نؤكد مرة اخرى ظاهرة هامة وهي ان خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم الى اولئك العظماء لم تكن تتجاوز بضعة سطور وانها على ما قرانا كانت كتاب امن وسلام وانها لم تتضمن على الاطلاق



كتابه صلى الله عليه وسلم الى المقوقس صاحب مصر ولا يزال محفوظا هناك
بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد بن عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم قبط
سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام : اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط
الـخ ..

كتابه صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى
بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى
سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله غيره ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله اما بعد فاني اذكرك الله عز وجل
فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع امرهم فقد اطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ..

تهديدا ولا وعيدا ، وان الذين شقوا بها طريقهم الطويل لم يتجاوز عددهم اصابع اليد وانه لم يحملوا معهم سلاحا ولم يستعملوا من وسيلة غير وسيلة الاقناع ، ومع ذلك رجع معظمهم باجوبة ناجحة عظيمة قد يتعذر الحصول عليها مع استعمال الوسائل الاخرى المطروقة والمحببة لدى بعض الناس .

فلقد تضمن جواب قيصر الروم استجابة لدعوة الرسول بل تاكيدا لما ورد فى بعض بنود خطاب النبي ، وتمنى ان ينجح فى اقناع قومه بما حملته اليه السفارة ، ونفس الظاهرة نلاحظها فى جواب المقوقس الى الرسول العظيم فلقد اكرم سفراءه ، وبعث اليه بهدايا سنية ، وهذا من الامنيات التى تتوق اليها كل البعثات فى مهماتها ..

وهكذا كان جواب عمال كسرى عظيم فارس فقد ورد فى جواب للمنذر بن ساوى الى النبي صلى الله عليه وسلم شرح مقتضب لرد الفعل الذى احدثته رسالة النبي العربي فى اهل البحرين :

ومن كل هذه الاجوبة نتلمس النجاح كامل النجاح للبعثات التى ارسلها النبي العربي ، والنجاح كل النجاح للاسلوب والطريقة التى كان فاتح بها الرسول الاقوام الآخرين ، وينبغي ان نتصور ماذا كان رد الفعل من هؤلاء او ان اسلوب الرسول الاعظم فى الخطاب كان غير الذى تقدم .

لقد كانت تلك المخاطبات النبوية تهدف فى الدرجة الاولى كما قلنا الى خير الانسان وسعادته . ونود بعد هذا ان نستعرض الاثر البعيد والحميد الذى تركته فى اسباط اولئك الذين توجهت اليهم تلك الخطابات المسالمة ، لقد حلت منهم محلا كان يفوق كل تقدير وهكذا لم تمر عقود قلائل حتى شاهدنا اولئك الذين كانوا بالامس يعتزون بعنصرهم ، عادوا اليوم لينسوا كل مقوماتهم ويصبحوا هم اللسان الاقوم للعرب والعروبة ، ولم يكن الفضل يرجع اطلاقا لسيف مصلت ، او لكلمة نابية ، ولكن الفضل يعود فى الاول والاخير للكلمة الطيبة ، للسلوك النموذجي الذى كان مضرب المثل عند العرب .. ولا بد ان نسترشد فى هذا الصدد بحديث عابر ولكنه يحمل معه كل معاني العبرة والعظة ، قال شبيب بن شيبة احد بلغاء العرب واحد الذين كانت لهم كلمة مسموعة لدى الملوك والامراء : كنا وقوفا بالمربد — وهو محل لا يبعد عن البصرة — وهنا اقبل علينا عبد الله بن المقفع وهو من ابناء الفرس (ت 108 هـ — 727 م)

الذين نشاوا بين العرب فبشتنا به ، وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال متمنيا مرحبا : او ملتم الى دار نيروز وظلها الظليل وسورها المديد ونسيمها العجيب فعودتم ابدانكم تمهيد الارض وارحتم دوابكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه .» فقبلنا وملنا ، ولما استقر بنا المكان قال لنا : اي الامم اعقل ؟ فنظرنا — نحن العرب — بعضنا الى بعض فقلنا : لعله اراد اهله من فارس ، فقلنا : فارس ، فقال ابن المقفع : « ليسوا بذلك ، انهم ملكوا كثيرا فى الارض ووجدوا عظيما من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الامر طويلا فما استطابوا شيئا بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم فى نفوسهم .. قلنا : اذن فالروم اعقل ؟ قال : اصحاب صنعة ، قلنا فالصين : قال : اصحاب طرفة ، قلنا : فالهند قال : اصحاب فلسفة الخ الخ .. قلنا : فقل ، قال : العرب، فضحكنا جميعا ، فقال : اما اني ما اردت موافقتكم ، ولكن اذا فاتني حظي من شرف النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة ، ان العرب حكمت على غير مثال لها ، ولا آثار اثرت عن الغير ، فهم اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وادم ، يجود احدهم بقوت يومه ويتفضل بمجهوده ويشارك فى ميسوره ومعسوره .. ادبتهم نفوسهم ورفعتهم هممهم واعلتهم قلوبهم والسنتهم ... »

ترى كيف انكر الناس ذاتهم بل اصبحوا — تحت تأثير الكلمة الطيبة التى نفذت الى اعماقهم اصبحوا — بعد اقل من قرن — يضفون على العنصر العربي انواع التكريم والتبجيل والتقدير ، فهذا الفارسي لم تملأ بصره اية امة من الامم التى ذكرها بقدر ما تأثر بهؤلاء الاعراب الذين تميزوا فى نظره بالابتكار والابتداع والجود والكرم ، وعلو الهمة ، وفصاحة اللسان ..

* * *

وبعد فهل سيكتب الله للامة العربية لقاء صادقا مع الامم الاسلامية قوامه وعماده تلك المبادىء الصفية النقية التى حملها سفراء الرسول الى تلك الشعوب والتى كانت الرباط المتين والجسر القوي الذى جمع بين شتى الامم وانساها جميعا جذورها واصولها فانصهرت فى عالم واحد يرى فى تعاليم القرءان كل عناصر النجاح ومميزات الكمال .

العراق — عبد الهادي التازي

النبي والسلام

للدكتور أحمد الحوفي
استاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة -

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام بتربيـة الله تعالى له، وبما تحلى من صبر وحلم ورحمة وعفو وحياء وكرم وخلق عظيم داعية الى السلام، ومؤثرا الوئام على الخصـــام .

وكان بهدى القرآن الكريم رسول محبة وسلام ما وجد سبيلا الى المحبة والسلام ؛ فان لم تكن من الحرب مندوحة فليقابل القوة العادية بالقوة الحامية ، وهذا هو الجهـــاد .

فما حكم القرآن الكريم فى السلام وفى الحرب ؟

1) الســـلام فى القـرآن

القرآن الكريم يؤثر السلم على الحرب مـا كان في الطاقة ايثار ، فان لم يكن بد من الحرب لسلامة العقيدة والوطن والحياة ، فالحرب شر لا مندوحة عنها .

ا ـ ذلك بأن القرآن يدعو الى المثـل الاعلى في جميع الصلات والمعاملات ، فان لم ينجـع المثـل الاعلى كان من الحتم مراعاة الواقع ومجاراة الاحداث .

وقد دعا القرآن الكريم الى السلام ، فلم يستجب خصوم الاسلام ، وأبوا الا الحـرب ، وصبر النبـي على اذاهم ، فلم يزدادوا الا عتوا وفسادا ، فلم يبق للنبي الا ان يلجأ الى القوة المادية والنفسية ، لان القـرءان كما يدعو الى المسالمة والاناة يدعو الى اعداد القوى لحماية النفس والدين من بغى الاعداء .

ب ـ والقرآن الكريم يرفـع السلام مكانا عليـا ، حتى انه يسمي الجنة دار السلام . « لهم دار الســلام عند ربهم » ويجعل التحية فيها سلامـا « تحيتهم يـوم يلقونه سلام وأعد لهم أجـرا كريما » ويصف المؤمنيـن المتقين بالمسـالمة « وعباد الرحمن الذين يمشـون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . على أن السلام من أسماء الله الحسنى « هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس الســلام » .

ثم ان السلام تحية المسلمين كلما التقوا او افترقوا فرادى وجماعات ، وهم يقولون فى تشهدهم مرات فى كل يوم : السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحيـن ، ويختمـون صلواتهـم بالسـلام .

جـ ـ واذا كانت الحرب فى طبائع البشر فان غاية ما تطمح اليه الانسانية الواقية ان تضيـق نطاقها ، وان ترعى فيها حرمات الناس رعاية كاملة .

والاسلام هو الذي يكفل ذلك ويرعاه ، فان النبي لم يحارب الا ليصد الاعتداء ، ولم يستل سيفه الا عند اليأس من مسالمـة الاعـداء ، ولـم يحـارب الا الذين حاربوه ، كما سيتبين فى تفصيل وتدليل .

وهو بهذا خاضع لقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتـدوا ، ان اللـه لا يحـب المعتدين » . ولقوله سبحانه : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » . ولقوله جل شأنه:

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ولم يتجاوز النبي في حروبه حد الدفاع المشروع والارهاب الوازع الى الانتقام الحاقد المبيد ، عملا بقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

د ــ وكان عليه الصلاة والسلام يرحب بالسلام اذا ما جنح الاعداء الى سلام ، قال تعالى : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ، وقال سبحانه : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيم » .

ثم انه صلى الله عليه وسلم كان رحيما بأعدائه ، لم يمثل بقتلاهم ، ولم يخرب عمرانهم ، ولم يجبر احداً منهم على نبذ دينه واعتناق الاسلام .

2) الحرب في القرآن

يسهل على من يتبصر في القوانين التي سنها القرآن الكريم للحرب ، ويدرس الحروب الاسلامية في عهد النبي وخلفائه الراشدين ان يعلم أن الحرب شر لا مفر منه ، وان يوقن بأن القرآن شرع للحرب اسمى النظم واعظمها سماحة ، في بواعث الحرب ومقدماتها ، وفي سيرها والتحامها ، وفي الغاية منها ، وفي نتائجها وآثارها .

واذا كان القرءان الكريم قد حض على السلام ، فانه قد حض على القوة ، لان الحق الذي لا تسنده القوة مضيع مهضوم .

ا ــ حض القرآن الكريم على الاستعداد الحربي لصد الاعداء وارهابهم ، قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » وهذه الدعوة على وضوحها وصراحتها بعيدة عن التحرش بالآخرين ، لان الآية في معرض الامر بالتقوى والاستعداد للدفاع تعلن ان الغرض من اعداد القوة هو تخويف للخصوم حتى لا يطمعوا في المسلمين ، والمراد بالاعداء هم الذين يقاومون الاسلام ، ويعوقون نشره ، ويعذبون أهله ، ويعادون المسلمين ، ويتطلعون الى القضاء عليهم او الاستيلاء على بلدهم ، كما كان يحدث من قريش ومن اليهود .

ب ــ حرض القرآن الكريم على قتال المشركين في شجاعة وصبر واستهانة بالحياة ، لكنه لم يأمر المسلمين ان يبداوهم بحرب ، لان القرآن طالما نفر من الظلم والبغي والعدوان ، قال سبحانه : « يأايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، وقال تعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» ، وقال « فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بداوكم اول مرة اتخشونهم ؟ فالله احق أن تخشوه أن كنتم مومنين » .

جـ ــ وعد الله المجاهدين الذين يستشهدون في الحرب دار الخلد مثوبة لهم على الاستشهاد في الدفاع عن الدين والروح والمال ، قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا التوراة والانجيل والقرآن » .

ووعد المجاهدين ثوابا عظيما في قوله : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظما ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطاون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع اجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ، ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون » .

د ــ وحض على الثبات في لقاء العدو ، وحض على الثقة بالله وبالنفس ، وامر بالاتحاد وبطاعة القائد ، قال تعالى : « يأايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس المصير » .

هـ ــ وقرع الجبناء المتخلفين عن الجهاد ، لانهم ضعاف النفوس ، يؤثرون سلامتهم على سلامة الدين والمسلمين ، قال تعالى في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وثبطوا غيرهم : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون » .

و ــ نفر الخالق سبحانه وتعالى من الاستخذاء وقبول الضيم والاقامة على الخسف ، قال سبحانه :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الارض ، قالوا : الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا : الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم،وكان الله عفوا غفورا». ومعنى هذا ان المسلمين الذين يرتضون الذل وهم قدرون على دفعه او الخلاص منه حطب لجهنم ؛ اما الضعفاء العاجزون عن الجهاد او الهجرة من رجال ونساء وولدان فقد استثناهم الله تعالى من هذا الوعيد .

وليس من شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان محبا للسلام ومؤثرا له ، لان هذا الايثار هو الذي رباه عليه القرآن الكريم ، ولانه يتفق وشمائل النبي كلها .

وحسبنا ان نذكر بعض المظاهر التي توضح هذا الايثار وتؤكده :

1) في الاسماء

كان عليه الصلاة والسلام يحب الاسماء التي تدل على السلام او تشير اليه ، ويتفاءل بها ويفضلها على الاسماء المتصلة بالحرب او بالعدوان .

لهذا غير بعض الاسماء التي توحي بالقطيعة والحرب والجفاء ، فقد اراد الامام علي ان يسمي ابنه الاول من السيدة فاطمة حربا ، فلما سأله النبي عن الاسم الذي اختاره قال : حرب ، فقال النبي : بل هو حسن .

ثم ولد له ابنه الثاني فسماه الامام علي حربا ، ولكن النبي سماه حسينا . وسال مرة : من يحلب هذه اللقحة (1) فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ قال : مرة ، قال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل آخر ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : حرب ، فقال له : اجلس ، ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال يعيش ، قال له احلب .

وسال رجلا عن اسمه ، فقال : اصرم ، فقال : بل انت زرعة (2) ، وسال آخر عن اسمه ، فقال : حزن، قال بل انت سهل .

وغير اسم غاوى بن ظالم الى راشد بن عبد ربه .

ومر في غزوة ذي قرد على ماء ، فسال عنه ، فقيل له : هذا اسمه بيسان ، وهو مالح ، فقال : لا بل اسمه نعمان ، وهو طيب ، فوجدوه كما قال طيبا عذبا ، واشتراه طلحة بن عبيد الله ثم تصدق به ، فلما جاء الى رسول الله واخبره بذلك قال له : ما انت يا طلحة الا فياض ، فسمى طلحة بالفياض .

واتى اليه قوم فقال لهم : من انتم ؟ فقالو : نحن بنو غيان ، فقال : بل انتم بنو رشدان .

وكان يقول لاصحابه : اذا ابردتم الى بريدا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم .

وكان يحب الفال الحسن ، ويستبشر بالاسم الجميل ، فقد كان فيمن سفر بينه وبين قريش في صلح الحديبية سهيل بن عمرو ، فقال النبي : قد سهل لكم من امركم . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا .

2) حضه على السلام

كثيرا ما حض باقواله — كما حض بافعاله — على السلام ، كقوله :

ا — اياكم وسوء ذات البين ، فانها الحالقة .
ب — افضل الصدقة اصلاح ذات البين .
ج — الا ادلكم على صدقة يحبها الله ورسوله : اصلاح ذات البين اذا تفاسدوا .
د — ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا .
ه — اقتتل اهل قباء حتى تراموا بالحجارة ، فاخبر الرسول بذلك ، فقال : اذهبوا بنا نصلح بينهم .

3) مع قريش

سالم النبي قريشا وهو في مكة ضعيف القوة قليل العدد ، ثم سالمها وهو في المدينة عظيم القوة كثير العدد ، وآثر السلام حتى بعد ان انتصر على قريش مرات ؛ ثم كانت خاتمة هذا الايثار يوم أن فتح مكة وخضعت قريش بعد طول عناء وعداء .

ونستطيع ان نوجز علاقات النبي بقريش في مرحلتين :

الاولى المقاومة السلبية ، والثانية المقاومة الفعلية، وان تكشف في كلتيهما عن سماحته وايثاره السلام .

---

1) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .
2) الأصرم : الفقير الكثير العيال أو المقطوع . زرعة: بذر او موضع يزرع فيه .

المقاومة السلبية

جاء النبي عليه الصلاة والسلام بدين جديد، لينشىء مجتمعا مثاليا في عقيدته وعبادته ونظمه واخلاقه، وليلغي كثيرا مما الفه العرب في عقائدهم ونظمهم واخلاقهم وعاداتهم، وبدا الدعوة سرا، فآمن به بعض المقربين اليه، ثم امره الله ان يجهر بالدعوة: «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» فماذا فعلت قريش؟.

ا ـ تصدوا له يكذبونه ويؤذونه، هو يصبر على الاذى والتكذيب، ويبين لهم ما في دعوته من حق وخير، ويدلل على صدقه، وتحداهم بالقرآن ان يأتوا بسورة من مثله، فاذا عجزوا كان عجزهم برهانا على انه من عند الله، وان محمدا رسول اليهم بهذا الدين الجديد.

فهل قدروا ان يأتوا بسورة او بعض سورة؟ لا، وهل صدقوه؟ لا، بل تمادوا في استكبارهم وعنادهم، فرموه بالكذب وبالجنون وبالكهانة وبالسحر، وجعلوا يسخرون منه.

ثم طلبوه بمعجزات تدل على تعنتهم واصرارهم على الكفر: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، او تأتي بالله والملائكة قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف، او ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه، قل: سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا».

لكن النبي صبر على تكذيبهم وسوء اتهامهم وآلام اعناتهم، وامره الله تعالى ان يقول لهم: «ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون».

كانت الدعوة حينئذ تشق طريقها الى القلوب بقوتها الذاتية، وبسموها الروحي والاجتماعي، وكلما ازدادت الدعوة ذيوعا اشتعلت قريش حنقا على النبي وعلى من اسلموا.

فما الذي احنق قريشا؟

لم يكن من سبب لحنقهم الا الانفة من ان يتبعوا رجلا منهم يبلغ عن ربه، والخشية على مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ان يذهب بها الدين الجديد الذي يدعو الى الحرية والعدل والمساواة، والى نظم سامية لم يألفوها، ومثل عالية لم يطيقوها، وعقيدة نقية لا سلطان فيها للاصنام ولا لسدنة الاصنام.

ب ـ فلما اعيتهم الحيلة في مناهضة النبي لجأوا الى احط انواع الخصومة. والامثلة على هذا كثيرة، يكفي ان نذكر منها ان كل رجل اخذ يعذب من اسلم من عبيده عذابا اليما، وبأن كل قبيلة جعلت تنكل بمن اسلموا من اهلها تنكيلا شديدا.

فلما ضاق النبي بما ينزل بالمسلمين من تعذيب، وعز عليه انهم ضعفاء لا يقوون على رد التعذيب عن نفوسهم، امرهم بالهجرة الى الحبشة، حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه، فخرج فريق منهم اليها، فهل تركتهم قريش؟ لا بل جدت في أن تستردهم فبعثت مندوبين عنها الى الحبشة، اتهما هؤلاء المهاجرين امام النجاشي بانهم ابتدعوا دينا يغاير دين العرب ودين النجاشي، لكن النجاشي لم يوافق على ارجاعهم، ورفض الهدايا التي حملها اليه المندوبان، فعادوا خائبين، وبطل تدبير قريش.

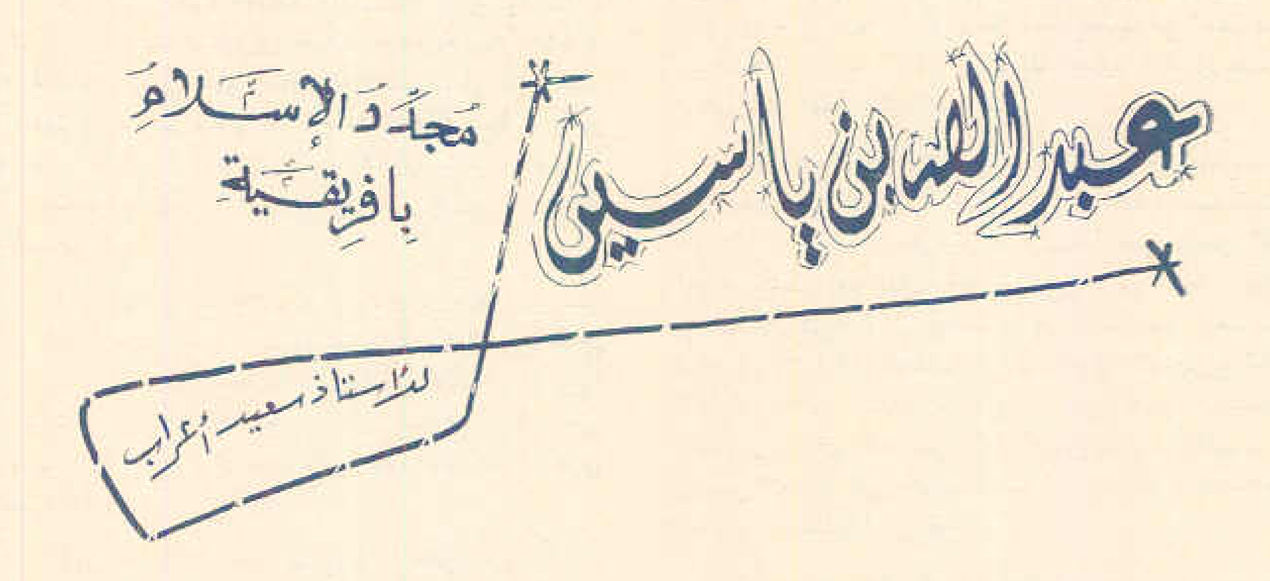
ج ـ وفي هذا الوقت اسلم عظيمان من قريش هما: حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، فازدادت قريش حنقا، فتعاهدت على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم، وكان الغرض من المقاطعة الحصار الاقتصادي والاجتماعي والمدني وتعويق سبل الحياة امام المسلمين وجعلهم منبوذين حتى يموتوا هما وجوعا.

د ـ فانتهز النبي موسم الحج، وعرض الدعوة على جماعة من المدينة فأسلموا، وبايعوه على أن ينصروه اذا هاجر اليهم.

ولكن مشركي قريش طار صوابهم، لما علموا بمحالفة الاوس والخزرج لرسول الله، فتداولوا فيما بينهم، وانتهوا الى ان يجمعوا من كل قبيلة رجلا شجاعا ليضربوا محمدا بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف ان يحاربوا العرب جميعا، فأوحى الله الى نبيه، فهاجر الى المدينة، ونجا، واخفق تدبير قريش وضاع املها هباء.

والى هنا يتبين ان الدعوة شقت طريقها في مكة وفي المدينة معتمدة على الصبر وعلى المقاومة السلبية، لانها ضعيفة لا تقوى على المقاومة الفعلية، وليس لها سلاح الا ما تبشر به من حق وخير وسعادة وحرية وعدل واخاء.

القاهرة: د احمد الحوفي



من زعماء الاصلاح ، الذين خلدوا صفحات مشرقة فى تاريخ الاسلام : ابو محمد عبد الله بن ياسين ، التامانارتي الجزولي ، ولد بتامانارت من بلاد جزولة ، فى تخوم صحراء سوس ، ونجهل كل شيء عن حياته الاولى، وكل ما نعرف انه رحل اوائل القرن الخامس الهجري الى بلاد الاندلس فى طلب العلم، والاستزادة من المعرفة ، واقام بقرطبة سبع سنوات او تزيد ، يكرع من مناهل العرفان ، ويجني من ثمار العلم ، فى نهم وتلهف شديدين ، وكانه كان يخشى ان يغيض ذلك البحر الفياض ، او تذبل تلك الحدائق الفيحاء، من علوم وفنون، وكانه كان ينظر بنور الله ، فقد بدات تتراءى فى الافق غيوم ، وهبت عواصف واعاصير حطمت السدود ، واتت على الاخضر واليابس ، ودب الفساد فى سائر نواحي المجتمع ، وتضعضع ذلك الملك الشامخ الذى وضع لبنته الاولى طارق بن زياد ، وشيده عاليا ملوك عظام ، امثال صقر قريش عبد الرحمان الداخل ، والخليفتين الناصر والمستنصر ، والحاجبين المنصور والمظفر ، فسرعان ما تطايرت تلك المملكة العظمى شعاعا ، وتفرقت طرائق قددا ، وعادت دويلات صغيرة ، واغصانا ضئيلة ، فوق كل فرع منها ديك، وعلى كل منبر امير ، وتسمى بالمظفر والمتوكل ، والمعتضد والمعتمد ، كل مغلف ضعيف ، فتكونت بضع عشرة دولة فى رقعة اضيق من سلافة الذباب ، حتى قال قائلهم :

مما يزهدني فى ارض اندلس
اسماء معتصم بها ومعتضد

القاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وهكذا تقلص ظل الاسلام بالاندلس ، واصبح الخطر يهددها من حين لآخر ، وكان امراء الطوائف يؤدون الاتاوة والجزية عن يد وهم صاغرون .

والاسف ان يستشري هذا الداء فى جسم الامة الاسلامية لهذا العهد ، فى سائر بقاع الدنيا ، ففى هذا الظرف بالذات ، كانت العدوة الاخرى ، تعاني نفس الادواء ، فقد توزعتها خمس دويلات : بنو يفرن بسلا وتادلا ، والمغراويون بفاس واغمات ، والبرغواطيون بتامسنا ودكالة ، والخزرونيون بسجلماسة ودرعة ، وبنو حمود بطنجة وسبتة وما اليهما .

وكانت اصوات المومنين ترفع فى كلتا العدوتين ، وفى كل جهة ومكان ، أن يأتي الله بناصر لهذا الدين ، ويجمع على يديه كلمة المسلمين ، وكان الطالب السوسي يشارك المومنين فى ابتهالاتهم ، ويؤمن على دعواتهم ، بلسان ضارع ، وقلب خاشع ، وكان يحملق بعينيه الى السماء ، وكانه يستشف من وراء الغيب هاتفا ينادي : « قد اجيبت دعوتكما فاستقيما » .

عاد الطالب السوسي الى وطنه وكأن هناك امرا يدفعه دفعا ، فنزل على عالم سوس ، وشيخها الاكبر وقتئذ، ابي محمد وجاج بن زلو اللمطي ، نزيل نفيس، ليقتبس من علمه وينال من بركته . وبينما هو ذات يوم يقلب اوراقه ، ويبحث بين دفاتره ، وكأنه يريد شيئا ، اذا بضيف كريم ، يدخل على الشيخ ، في حلة الامراء ، متلثم ، اسمر اللون ، يبدو عليه اثر السفر ، وسمعت جلبة بين صفوف الطلبة : من ؟ ولماذا ؟.. فبادر الشيخ بالتحية ، وسلم اليه كتابا لم يلبث ان دعا الى الاستماع اليه سائر طلبته ، وكان مضمون الكتاب :

« .. سلام عليك ، اما بعد ، اذا وصلك حامل كتابي هذا ، وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي ، فابعث معه الى بلده ، من تثق بدينه وورعه ، وكثرة علمه وسياسته . ليعلمهم القرءان وشرائع الاسلام ، ويفقههم في الدين، ولك وله الثواب والاجر العظيم، « والله لا يضيع اجر من احسن عملا » والسلام.

ولم يكد ينتهي الشيخ من تلاوة الكتاب ، حتى انفتح له صدر ابن ياسين ، وكأن الامر يعنيه ، وكانت انظار الشيخ تتجه منذ اللحظة الاولى الى ذلك التلميذ الحاذق النبيه ، الورع النزيه ، الذي لبس في طلبة قطره من بواديه او بداتيه ، علما وعملا ، وحنكة وتجربة ، فقد اخذ عن اقطاب الاندلس علما كثيرا ،وخبرته الاسفار ، وحنكته الازمات ، ورأى من تقلبات الاحوال ، ومآسي المجتمع الاسلامي ، ما حز في نفسه ، وما لا يزال عالقا بذهنه ، مال الشيخ على هذا التلميذ الذي اتجهت كل الانظار اليه ، والذي هو — وحده — يستطيع ان يقوم باعباء هذه المهمة الشاقة ، وقال له : انت لها يا ابن ياسين :

« فلم تك تصلح الا له
ولم يك يصلح الا لها »

ودع ابن ياسين شيخه ، والتمس منه صالح الدعاء ، فشد الشيخ على يديه بحرارة ، وقال له : انت موفق ان شاء الله .

كان السفر باكرا ، وكان نور الفجر يرمز الى امل بعيد ، ومستقبل نسجت حوله غيوم كثيفة فيها رعد وبرق ، وكان ابن ياسين يؤول ذلك بما سيلقاه في طريقه من اهوال وشدائد ، ولكن لابد للصبح ان ينجلي . فالحق ابلج ، والباطل لجلج .

« ودع الايام تفعل ما تشاء »

كان السفر طويلا ، والطريق وعرا ، ووهج الشمس يلفح الوجوه ، ولابد — كما قال الاعرابي — ان تحملني او احملك (أي تحدثني او احدثك) .

راى يحيى بن ابراهيم ان يؤنس رفيقه ، وقد استولى عليه وجوم شديد ، فجعل يحدثه عن رحلته الى الشرق ، وعن ارتساماته اللطاف عن القيروان ، التي قدر له ان يلتقي فيها بابي عمران الفاسي ، الذي خسره المغرب في الوقت الذي كان في اشد الحاجة اليه ، وقد طردته السلطة الفاشمة ، لا لشيء ، الا انه كان قوالا للحق ، شديد النكير على الطغاة ، وكان من حظ القيروان ان ينشر ابو عمران — بها — علمه الواسع ، وفيضه الغزير ، فهو قد اضاف الى ثقافة القيروان علم قرطبة وبغداد ، وجمع بين الفقه والسنة ، وفلسفة علم الكلام . ويقول الامير يحيى لقد قدر لي ان احضر مجالس ابي عمران ، وهو اول عالم استمعت اليه بقلبي ، وشعرت بنفسي انجذب اليه ، ويشدني اليه شعور قوي ، وهنا بدت من ابراهيم ابتسامة عريضة، غابت في مجاهل الصحراء، وقال : اي والله ، لقد غر ابا عمران مظهري ، وظنني احد العلماء الذين يحسب لهم حسابهم ، ولما اختبرني لم يجدني شيئا ، وقد لامني على جهلي ، فابديت له عذري، ما وسعني ذلك ، واي عذر يبرر الانسان جهله ، والجاهل والبهيمة سواء ، ولا اضر على الامة من الجهل ! ، فهو الذي دلني عليكم ، واليه يرجع الفضل في التعرف بكم ، ا وعسى ان يجعل الله من امرنا يسرا .

وما ان وطئت قدم يحيى ارض الصحراء ، حتى بدات الوفود تستقبله من سائر الواحات ، فيقدم اليهم ابن ياسين ، ويقول لهم : هذا هاديكم ، ومحيي السنة فيكم ، فخذوا عنه ، واقتبسوا من نوره ، وسيحيي الله هذه الارض بعلمه وحكمته ، وقد رحبوا به ايما ترحاب ، وفرحوا له اشد الفرح ، ويبدو انهم كانوا يحسون بالدور الخطير الذي ينتظرهم، وذلك المستقبل الزاهر الذى اخذ هذا الفقيه الجريء يرسمه لهم، ويذكر ان شيخا منهم قال ، حين رآه يمتطي راحلته ، ويمضي في طريقه : « ارايتم هذا الجمل ، لابد ان يكون له في هذه الصحراء شان عظيم » ! وكان ابن ياسين يحسن اللسان البربري ، ويعرف من اقوال الصحراويين ، وعاداتهم وطبائعهم ، ومكان الضعف فيهم ، ويدرك ذلك اتم ادراك .

تلمذ الامير يحيى لابن ياسين ، وكان لا يكاد يفارقه « وانما اتيت بك ، لانتفع بعلمك . » وكان يعلم حق العلم ان مهمة استاذه ابن ياسين شاقة ، وشاقة جدا ، فهي في حاجة الى من يمهد لها السبيل ، فلم يأل جهدا في تذليل الصعاب امامها ، وكان يعمل كل ما يستطيع ، لانجاح عمل هذا الرائد المظفر ، الذي يعلق عليه الآمال الكبار .

ومن هنا يبدأ الدور الاول من مهمة ابن ياسين، ويفتح صفحة جديدة في تاريخ الملثمين ، كلها كفاح وجهاد وعمل .. بدا يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده ، يرتاد واحات الصحراء ، ويجول قبائل الملثمين واحدة واحدة ، يعلمهم القرءان ، ويشرح لهم السنة ، ويعرفهم احكام الدين . وقد ابتدأ من الصفر ـ كما يقولون ـ فالقوم لم يكونوا يعرفون من الاسلام الا اسمه : طقوس باهتة ، وتقاليد بالية ، يتزوج الواحد منهم عشر نسوة واكثر ، ولا يعرف للدين معنى .

اتجه ابن ياسين ـ اول ما اتجه ـ الى تصحيح العقيدة ، ونبذ العادات الفاسدة ، والتخلق بآداب الاسلام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والسير على النهج القويم . وعرف الرؤساء والحكام ، كيف ينبغي ان يعاملوا سائر افراد الرعية ، وان عليهم ان يسووا بينهم في الحقوق والواجبات ، فلا طبقية ، ولا محسوبية ، ولا غش ولا خيانة .. وكان الجور والتعسف والاستغلال والاستخذاء ، صفات ظاهرة في كل الولاة ، يعاملون الناس معاملة البهائم ، ويسوقونهم سوق الاغنام ، فوقف في وجههم ، وحدد من تعسفاتهم ، وكان يعطي لهم الامثلة الحية ، والشواهد الملموسة ، من سيرة الرسول ، وخلفائه الراشدين . ولكن الرؤساء ثقل عليهم ذلك ، فتنمروا وتنكروا له ، ولقي الوانا من الاذى والاضطهاد ، على عادة المصلحين في كل زمان ومكان . وصادف ان توفي الامير يحيى ، الذي ءامن بمذهبه وءازره في دعوته ، وكان يستشيره في الصغيرة والكبيرة ، ويعمل بتوجيهاته وارشاداته . والامير المثالي ـ كما يقول الطرطوشي ـ : « .. هو الذي يجمع حوله حملة العلم الذين هم حفاظ ، وزعاته وفقهاؤه ، وهم الادلاء على الله تعالى ، والقائمون بامر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله ، فواجب عليه ان لا يقطع امرا دونهم ، ولا يفصل حكما الا بمشورتهم ، لانه في ملك الله يحكم ، وفي شريعته يتصرف .. »

وعز على ابن ياسين ان يرى دعوته التي شقت طريقها في شعوب الملثمين ، ورددت اصداءها واحات الصحراء ، والتي كافح من اجلها ، ووهب له فكره وعقله ، وكل آماله ، وقد بدات براعمها تتفتح ، وكادت تعطي ثمارها المرجوة ، تذبل وتضيع ، وتتلاشى كما يتلاشى السراب في الفلوات ، وتتحكم في مصيرها طائفة من الاقطاعيين ، ذوي الاغراض الشخصية ، والاهواء الفاسدة ، حفظا على نفوذهم الجائر ، وشهواتهم الدنيئة ، ولكن ماذا عسى ان يفعل ، وشان دعوات المصلحين هكذا ، لابد ان تمر بمراحل وتتعثر في طريقها ، وتقف وقفات ، وكانها تثبت وترسو ، كما ترسو الجبال ، فلا تؤثر فيها الزعازع ، ولا تنال منها العواصف !

فكر ابن ياسين طويلا ، وكاتب اشياخه واساتذته ، يستشيرهم ، ويستنير بآرائهم ، وعلى رأسهم وجاج فقيه سوس ، الذي كان يتتبع حركاته ، ويبارك خطواته ، وكل امله ان ينجح في مهمته ، ونصحوه ان يتريث ، وياخذ للامر عدته ، ثم يعيد الكرة مرة اخرى ، فالباطل له جولات ، ولابد للحق ان ينتصر . رأى ابن ياسين ان يعتزل الناس ، فاختار لنفسه مكانا قصيا في تخوم الصحراء ، وصحبه سبعة نفر ، ءامنوا بمذهبه ، وآثروه على انفسهم وذويهم ، فابتنى على حوض السينغال رباطا، ءاوى اليه هو وصحبه ، يتقربون فيه الى الله ، ويتزهدون ويجاهدون ، وكاني بالشيخ يردد على تلاميذه « يا ايها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ايناني ، نجاحا في الصبر ، وفلاحا في التقوى والعمل الصالح ، فليكن ذلك شعارنا « وكان حقا علينا نصر المومنين » ويذكرهم بحديث « .. قيل يا رسول الله : اي الناس افضل ؟ قال مومن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله عز وجل ، قيل ثم من يارسول الله ؟ قال ثم مومن معتزل في الشعاب ، يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة .. »

والرباط محك الرجال ، ومصنع الابطال ، وابن ياسين نفسه خريج هذه المدرسة ، فقد قضى برابطة وجاج فقيه سوس ، زمنا تدرب فيه على مباهج الحياة ، وكان ابن ياسين يرمي من وراء هذا حياة الجد والعمل ، وشظف العيش ، والزهد في الرباط ، الى حماية الملثمين من عدوهم ، وتهييء قوة للزحف على ممالك الزنوج ، ونشر الاسلام بها ،

ووضع تخطيط لدولة اسلامية شامخة البنيان ، ثابتة الاركان ، عزيزة الجانب ، قوية الاسس ، واضحة الاهداف ، وقد جرب حياة الفشل ، « والمومن لا يلدغ من جحر مرتين » . وربما كان المكان مناسبا ، والظروف مواتية ، فالموضع الذي اختاره رباطا له ، يقع في الحدود الفاصلة بين مضارب الملثمين ، ومواقع الزنوج ، وحفنة من الزهاد ، تعيش في القفار حياة التبتل والعبادة ، لا تهدد امن الجانبين ، وليس هناك ما يدل على انها تبيت شيئا .

ومما ساعد على هذه العزلة ، ان المكان يتوفر على المياه العذبة ، ووفرة النباتات ، والاشجار البرية ، (فيها الحلال المحض ، الذي لا شك فيه ، من شجر البرية ، وصيد البر والبحر، من اصناف الطير والوحش والحوت ..) وتكاد تكون هي الحياة العادية ، لاهل البدو المتقشفين ، وربما كانت لهم مزارع يفلحون ارضها ، ويتعاونون في اعداد حاجتهم منها . وايا كان ، فقد كانت حياتهم بسيطة ، متواضعة خشنة ، وكان مجتمعهم مجتمعا فاضلا حقا .

كانت هذه الرابطة بمثابة شعلة ، تسرب نورها في ظلمة الصحراء ، يعشو الى ضوئها كل من قدر له ان يرى النور ، فتسامعت قبائل الصحراء بخبر ابن ياسين فقيه الرباط ، وتقشفه وزهده ، واخلاصه وجهاده ، وبخبر رفاقه المخلصين ، الذين تجردوا من الدنيا وعرضها ، تاركين الحياة والمال في سبيل الفوز برضاء الله ، فبدات العصبة الصغيرة يطرد نموها ويكثر عددها ، ولم يكتف ابن ياسين بهذا فقد بعث البعوث الى القبائل للقيام بالدعاية ، ونشر مبادئه واهدافه ، فتوافد عليه الناس من كل جانب ، حتى بلغت عدة المرابطين نحو الف او تزيد ، فلما كثر انصاره ، وتعزز جانبه ، شعر انه مقبل على خوض معارك ، يحتاج في مغامرتها الى استعداد قوي ، وتدريب قاس ، فهي حياة الجلاد والجهاد ، يجب ان تبنى على قوة الايمان ، وصفاء الضمير ، والتفاني في الاخلاص ، وخشونة العيش ، ووحدة الصف ، والتدريب الكامل ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

وكان لا يسمح بالدخول الى زمرة المرابطين ، الا لمن طهر نفسه ، وهذب روحه ، واسلم اسلاما جديدا ، وحاسب نفسه على ما اقترف من ءاثام في حياته السابقة ، فيطلب اليه أن يتوب من كل الذنوب ، ويقال له : « .. لقد اذنبت ذنوبا كثيرة في شبابك ، فيجب عليك ان تقام عليك حدودها ، ثم تقام عليه الحدود ، فيضرب حد الزنا والقذف ، وحد الشارب ، ثم تضاعف العقوبة بالتدريج ، لا فرق في ذلك بين قائد وجندي ، وشريف ووضيع ، فاذا تقبلها راضيا ، طهرت نفسه ، واصبح قادرا على تحمل اعباء الدعوة ومشاقها ، فاذا تجاوز هذا الامتحان بنجاح ، وحصل على ارقام الفائزين ، دخل في زمرة المرابطين ، فيتولى الشيخ تثقيفهم وتعليمهم ، كان يقرىء القرءان ويفسره ، ويروي الحديث ويبينه ، ويعلمهم احكام الدين ، وكان ياخذهم بالجد ، ولا يترك لهم فرصة للهو او عبث ، ويحملهم على الجادة ، ويتشدد في اقامة الحدود ويجبرهم على الصلاة جماعة ، (صلوا كما رايتموني اصلي) فكان يجمع بين التعليم النظري والعملي ، فمن تخلف عن ذلك ، ضرب عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة ، ضرب خمسة اسواط ، ويقضي مع كل صلاة جماعة صلاة اخرى ، ويقال له انك لابد قد فرطت في سالف عمرك ، فاقض ذلك ، ومن رفع صوته في المسجد ، ضرب حسبما يراه الضارب وهي روادع زجرية ، وتاديبات قانونية ، اكثر منها احكاما فقهية ، وربما كان للرجل عذر في ذلك ، فهو يهذب امة بلغت نهاية ما يتصور من الوحشية والجفاء ، ولا يزيل التطرق في الاباحية والفوضى ، ولا التطرق في ضده ، كما انه لا يعصم المجتمع من الفساد ، الا الشدة في الحق ، على انه نجح في مهمته نجاحا باهرا ، كما سنعلم . وما احوج شبابنا ــ اليوم ــ وهو يعيش حياة الترف والميع ، واللامبالاة في كل شيء ــ الى مثل هذه التدريبات القاسية ، والتعود على التقشف وخشونة الملبس والماكل ، لتكتمل رجولتهم ، وتقوى معنوياتهم .. (والمومن القوي خير من المومن الضعيف) .

واقترح ان يقام ببسائط زعير معسكر ، يحمل لقب ابن ياسين ، يقضي فيه الشباب ايام الخدمة العسكرية ، ويتدربون على الاعمال الجندية ، يؤدون الصلاة جماعة في مسجد ابن ياسين ، حيث ترفرف روحه ، ويستوحون من بطولاته واعماله الخالدة .

واذا مر الدور الاول من حياة دعوة ابن ياسين سلبيا ، وكان مجرد تهذيب وارشاد ودعوة الى الله بالتي هي احسن ، فقد آن الاوان للدور الايجابي الذي يمتشق فيه الحسام ، ويبدد الظلام ، وهو امر طبيعي في حياة كل دعوة قدر لها ان تعيش ، وكان لابد ان تنجح .

جمع ابن ياسين اصحابه ، وقد تكاثر عددهم ، حتى ضاقت عنهم رحاب الرابطة ، التي لم تكن تعرف سوى سبعة نفر ، كانوا ياوون اليها في جنح الظلام، واصبحوا الآن قوة ، يحسب لها حسابها ، فاصدر امره اليهم بالخروج الى الجهاد ، وسماهم « المرابطين » ، وخطب فيهم يقول : « معشر المرابطين، انكم ــ الآن ــ جمع كثير ، ولن تغلبوا من قلة ، وانتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد اصلحكم الله تعالى ، وهداكم الى صراطه المستقيم، فوجب عليكم ان تشكروا نعمته ، وتامروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في الله حق جهاده ، ثم يسكت ، وكانه ينتظر جوابهم ، ومدى استعدادهم، فترتفع الاصوات من كل جانب : (ايها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئت ، تجدنا سامعين مطيعين ، ولو امرتنا بقتل ءابائنا لفعلنا) ــ ثم يواصل خطابه يقول : « اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وابلغوهم حجته ، فان تابوا ورجعوا الى الحق ، واقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وان ابوا من ذلك ، وتمادوا في غيهم ، ولجوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .. »

كانت هذه الخطبة بمثابة دستور للدولة المرابطية ،سارت عليه منذ قيامها، وطبقته في فتوحاتها حتى النهاية .

وقد حاربت جيوش ابن ياسين قبائل كدالة المتمردة تحت قيادة احد تلاميذه المخلصين ، يحيى ابن عمر اللمتوني ، وكانت المعركة حامية الوطيس ، استماتت فيها المرابطون ، حتى انتزعوا النصر من ايدي اعدائهم ، على كثرة عددهم ، ووفرة عدتهم ، ولعل ابناء القبائل الذين حاربوا الى جانب الطغاة ، كانت قلوبهم مع ابن ياسين ، فهو ليس بعيدا عنهم ، وقد عرفوه في مواقفه الصارمة امام الجبابرة ، يدافع عن المستضعفين ، ويحارب الظلم والطغيان ويندد بالتعسف والاستبداد . على ان اكثر جنود المرابطين من اخوتهم وعشائرهم يضعف عليهم محاربتهم ، والوقوف في وجههم ، فكانوا يختارون الاسلام ،وينحازون الى صفوف اخوانهم وهم بذلك راضون . والا فكيف نعلل هذا الانتصار المدهش ، الذي حققه المرابطون في فترة قصيرة من الزمن ، ولم تنهزم لهم راية في تاريخ حياتهم ! ومما يؤيد هذا ، ان قبائل لمتونة اذعنت للطاعة منذ البداية، ولم تبد اية مقاومة ، وربما كان لتعيين قائد الجيش منهم اثره ، ثم استسلمت باقي القبائل الاخرى ، فتوحد الصحراويون ، بعد ان فرقت بينهم الحروب والنزعات ، واسلموا اسلاما جديدا ، واجتازوا لذلك امتحانا عسيرا ، واختبارا دقيقا ، كان يشرف عليه القائد الاعلى بنفسه .

وكان من اولى اهداف ابن ياسين ــ فتح جبهة جديدة للاسلام ، في ممالك السودان ، فحارب دولة غانة ، واسترد منها مدينة اودغشت ، التي انتزعها الزنوج من اطراف الصحراء ، وارجعها لى حظيرة الملثمين ، واوغل في ممالك الزنوج ، وسجل انتصارات باهرة ، اضطر معها صاحب التكرور الى عقد حلف مع المرابطين ، والوقوف الى جانبهم ، وهكذا دخل الاسلام الى السودان ، لاول مرة ، وكان ذلك من اغلى اماني ابن ياسين ، ومطامحه الواسعة .

فيكون بذلك قد وضع لبنات ثلاثا في صرح الدولة الجديدة ، اخضاع غانة ، وقهر كدالة ، واستمالة لمتونة . ثم واصل سيره فاخضع مسوفة ولمطة وجزولة ، وبايعته على الكتاب والسنة ، وهكذا استطاع ابن ياسين ان يحقق الهدف الذي كان يسعى اليه ، في اقامة حلف جديد بين قبائل الملثمين، يقوم على اساس روحي ، من احياء الدين ، ونشر الفضيلة ، وبسط لواء العدل ، ورفع راية الاسلام ، فاصبحت هذه الجموع الغفيرة من القبائل التي انضوت تحت لواء ابن ياسين ، قوة يحسب لها حسابها ، لا في الصحراء وحسب ، بل في سائر اطراف المغرب ، وكان المرابطون يجلون ابن ياسين ، ويرفعونه الى درجة القديسين ، يحفظون فتاويه ، ويعملون بها ، ولا يخرجون عنها ، وظلت محفوظة لديهم احقابا من السنين .

ومن الاصلاحات التي ادخلها ابن ياسين على الوضع الجديد ــ ان اسقط المغارم والمكوس ، والغى الضرائب الجائرة التي كان الحكام والولاة يلجاون اليها لامتصاص دماء الناس واذلالهم ، ولم يفرض الا ما اوجبه الكتاب والسنة ، ففرض الزكاة ، واخذ الاعشار ، والزم الاغنياء بدفع صدقاتهم للفقراء ، وفسح الغنائم والاسلاب ، وجعلها فيئا للمرابطين ، واقام بيت مال للمسلمين ينظم دخلهم ومصرفهم .

وكان لهذه الاصلاحات صداها البعيد في بلاد المغرب قاطبة ، فقد كتب اهل درعة وسجلماسة الى المرابطين ، يذكرون لهم ما يعانونه على يد الاقطاعيين من تعسف وجور ، ويطلبون منهم ان ينقذوهم مما هم

فيه من بؤس وشقاء ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه ، وشاورهم فى الامر ، فاشاروا عليه بان هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسربنا على بركة الله . على ان ابن ياسين لم يغفل الجانب الدعائي ، فقد كان يبعث من فيض الزكوات والاعشار والاخماس ، الى فقهاء مصمودة ، وقضاتها ومحتاجيها ، حتى يعرف الناس ان من اهداف الدولة الجديدة ، حماية الفقير ، ونصر الضعيف ، واكرام اهل العلم ، ومد يد العون لهم .

وقبل ان يتجه صوب الشمال لمحاربة الزناتيين، والمغراويين ، عين ابا بكر اللمتوني قائدا اعلى للجيش، خلفا عن اخيه يحيى بن عمر ، الذى استشهد فى حروب السودان ، وفقد فيه ابن ياسين جنديا مطيعا، وقائدا مثاليا فى الحرب . تحركت جيوش المرابطين فى نظام بديع ، وقوة هائلة ، فقاتلوا المغراويين ، والحقوا بهم هزيمة منكرة ، واراقوا الخمور ، وغيروا المناكر ، وازالوا المكوس ، واسقطوا المغارم المخزنية وجبوا الزكوات والاعشار ، وفرق ابن ياسين خمس الاموال التى افاء الله بها عليه على الفقهاء والصلحاء. ثم عرج على بلاد سوس ، ودخل مدينة تارودانت ، وطهرها من الرافضة البجلية ، واقام فيهم الكتاب والسنة ، ودخلت سائر بلاد مصمودة فى طاعته ، واتته قبائل رجراجة وحاحة طائعة، فبايعته ، وفتح اغمات ، واتخذها قاعدة له ، ومنها اغار على تادلا ، وقتل من بها من ملوك بني يفرن ، وفتح بلاد تامسنا ، وهناك اطلع على امم عظيمة من المجوس ، كانت تعيش فى سواحل هذه البلاد ، وتعرف ببرغواطة .

رتب ابن ياسين العمال فى سائر الجهات ، فاقاموا العدل واظهروا السنة ، واعادوا الى النفوس الطمانينة .

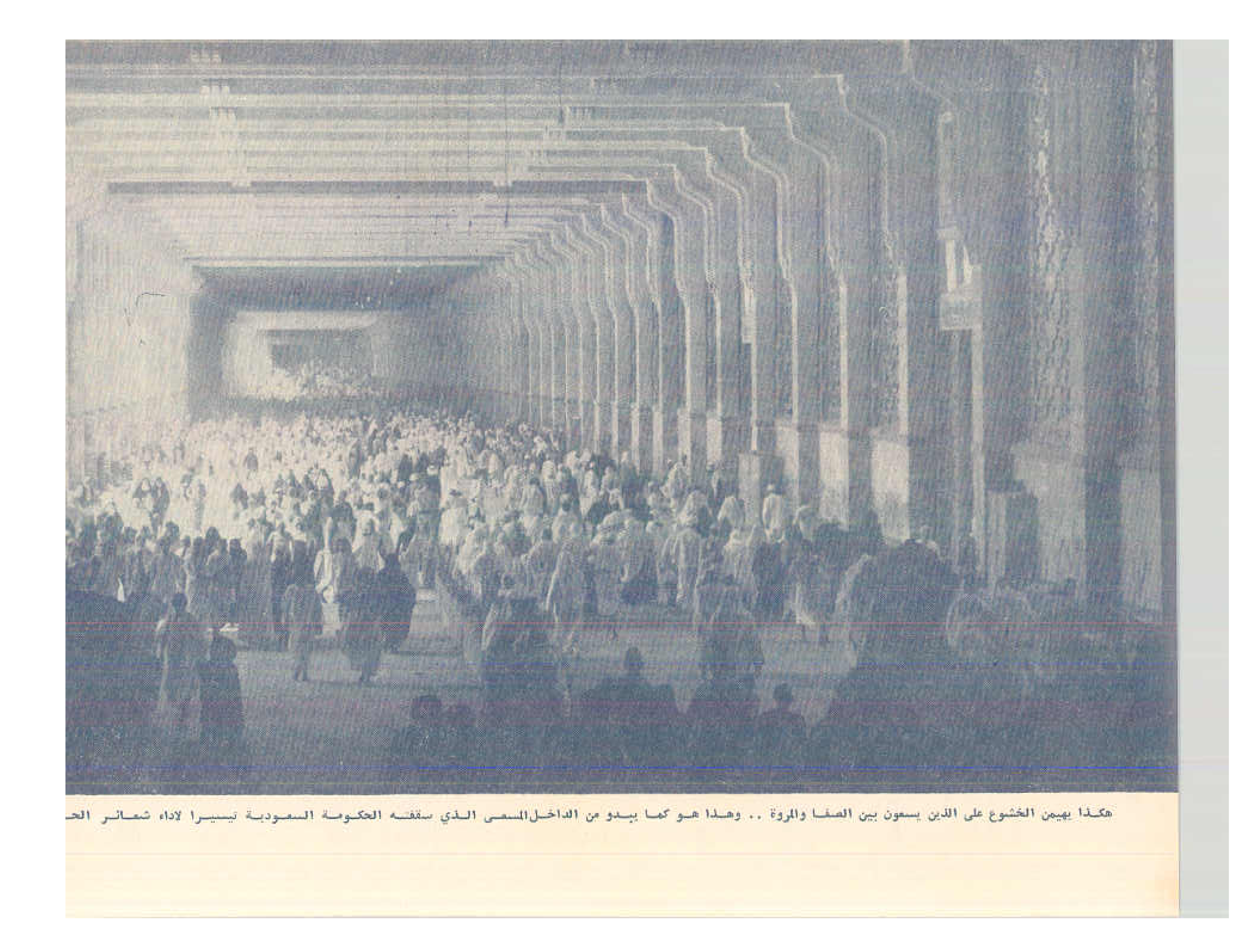
ثم عبأ الجيوش ، لمحاربة برغواطة المرتدة ، تحت قيادة ابي بكر اللمتوني، وابن عمه يوسف بن تاشفين، وكانت عادة الفقيه ابن ياسين اذا تقدم للحرب ، ان يسير فى المقدمة ، ومن ورائه الامير ، وقواد الجيش ، فكانت بينهم معارك هائلة ، وملاحم شديدة ، وكان عبد الله بن ياسين ، يقود المعركة بنفسه ، ويذكي الحماس فى جنده ، ويذكرهم بانهم يقاتلون احفاد برنيط اليهودي اللعين ، الذى دنس بنحلته الخبيثة ، ارض المغرب الطاهرة ، وكافح ابن ياسين كفاح الابطال، حتى لقي مصرعه ، مجاهدا فى سبيل اعلاء كلمة الله ، وكان ذلك عشية يوم الاحد 24 جمادى الاولى سنة احدى وخمسين واربعمائة (451 هـ) .

وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة ، جمع اشياخ المرابطين ، ورؤساءالجند ، وحملهم مسؤولية الاسلام فى هذه الديار ، وقال لهم : « معشر المرابطين ، انكم فى بلاد اعدائكم ، واني ميت من يومي هذا لا محالة ، واياكم ان تجبنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وكونوا الفة واعوانا على الحق ، واخوانا فى ذات الله تعالى، واياكم والمخالفة ، والتحاسد على الرئاسة ، فان الله يؤتي ملكه من يشاء ، ويستخلف فى ارضه من احب من عباده ، واني ذاهب عنكم ، فانظروا من تقدمونه منكم .. » ثم اسلم الروح الى باريها راضية مرضية.

وهناك ببسائط (زعير) حوز الرباط ، فى مكان متواضع (كريفلة) ، تعلوه هيبة وجلال ، يرقد البطل الاسلامي ، عبد الله بن ياسين ، الذى اعاد الاسلام غضا طريا فى هذه البلاد ، واسس دولة جديدة ، تقوم على الكتاب والسنة ، واصلاح الفساد، ونشر الفضيلة ، وتطهير المجتمع من عوامل الشر ، واشاعة نور العلم والمعرفة ، ومحاربة الطائفية والاقطاعية ، وهكذا كان ابن ياسين — فى ءان واحد — مصلحا دينيا ، وزعيما سياسيا ، امتدت دعوته فى تخوم الصحراء ، الى ما وراء نهر النيجر من بلاد السودان ، ولذا يعتبر بحق ، مجدد الاسلام بافريقية، وباعث نهضة اسلامية صحيحة فى هذه الديار ، تعمقت جذورها ، واتسعت ابعادها ، وكان لها اثرها فى سلوك تلاميذه ملوك المرابطين ، فحاربوا الصليبية والطائفية فى بلاد الاندلس ، وردوا المغرب الى احضان الجامعة الاسلامية ، بعد ان اقتطعه الولاة من جسمها منذ زمان .

فما اجدرنا — ونحن نحيي ذكرى مولد منقذ البشرية ، محمد بن عبد الله — بتمجيد ابطالنا العظام، الذين ضحوا بمهجهم وارواحهم فى سبيل رسالة الاسلام ! وما احرى شبابنا بقراءة سير امجادهم ، واخذ العبرة من بطولاتهم ومآثرهم الخالدة ، والله ولي التوفيق .

تطوان — سعيد اعـراب



هكذا يهيمن الخشوع على الذين يسعون بين الصفا والمروة .. وهذا هو كما يبدو من الداخل المسعى الذي سقفه الحكومة السعودية تيسيرا لاداء شعائر الح



كثيرا ما وضع هذا السؤال من جانب المهتمين بالاسلام ، سواء من العرب والمسلمين ، او من جانب غيرهم من الباحثين ، ومع ذلك فان السؤال سيظل موضوعا الى ان يجد الباحث المطلع الخبير الذى يجيب عنه علميا وتاريخيا واجتماعيا بطريقة موضوعية لا عاطفية ، تستند على نصوص الاحاديث النبوية التى تنبات هي نفسها بمستقبل المسلمين ، وما سيواجهونه من تغير شامل فى حياتهم ، كما تستند على تحليل طبيعة الثورة الصناعية الحديثة ، وتاثيرها البالغ فى تغيير قيم وتقاليد المجتمعات التقليدية ، بما فيها المجتمعات الاسلامية ، وتعالج بصفة خاصة مشاكل التوافق والاندماج بين الحضارتين الاسلامية والغربية الصناعية ، ومدى قدرة المسلمين على حل هذه المشاكل ، ومنافسة الغرب فى الميدانين العلمي والصناعي .

لقد اجتاز الاسلام خلال الاربعة عشر قرنا التى مرت على ظهوره عدة مراحل تاريخية ، عرف فى اولها الانتشار والتمكن فى الارض ، مع ادراك كامل لرسالته ، واخلاص كبير فى ادائها . وجاءت المرحلة الثانية متميزة بانشاء واستقرار الدولة العربية الاولى ، وامتداد واتساع سلطانها ، ولكن هذا الاتساع الجغرافي والامتداد البشري جعلا الاسلام ينفتح على شعوب وثقافات واجناس ولغات مختلفة ، ليحقق عالميته الانسانية ، وهكذا دفعه تطوره المرحلي ليخرج من اطار عروبته المحلية ، ويبدا مرحلة ثالثة يشترك فيها مع العرب شعوب اخرى غير عربية فى بناء وادارة الدولة الاسلامية العالمية . وقد احتفظ الاسلام مع هذه المرحلة ايضا ، ليس فقط بسيادته المطلقة على هذه الشعوب ، وانما بقدرته على خلق الاندماج بينها ، والتآخي بين افرادها ، وربطها فى اطار (امة اسلامية عالمية) ، وامتصاص ثقافاتها المحلية ، لتصبح كلها من عناصر الثقافة الاسلامية العالمية ، ولتلتحم وتتلاقح وتزدهر ، ولتصبح بعد ذلك اساس التقدم الفكري والعلمي ، الذى سيتمخض عنه عالم القرنين التاسع عشر والعشرين . اما المرحلة الرابعة فانها تبدا بزوال السيادة من يد العرب ، امة الاسلام الاولى ، لتنتقل كليا الى امة اسلامية اخرى ، ولتتوزع بين امم اسلامية مختلفة بعد ذلك، وقد رافق انحسار السيادة العربية فى هذه المرحلة انحسار الثقافة الاسلامية ، وتاخر الفكر والعلم العربيين . وتنتهي مرحلة التراجع هذه بوقوع اغلبية البلدان الاسلامية تحت حكم دول نصرانية استعمارية، وزوال السيادة الاسلامية عنها، وهذه المرحلة مراحل الشيخوخة .

ومن خلال هذه المراحل يتبين ان سيادة الاسلام ارتبطت تاريخيا بسيادة العرب ، بحكم انهم امة الاسلام الاولى ، واصحاب لغته الدينية ، وحملة رسالته الاولون الى سائر الامم الاخرى. كما ان ضعف

سيادة الاسلام ، ثم زوالها ، ارتبط بضعف ثم زوال السيادة العربية .

وقد عرف العالم الاسلامي بعد ذالك بداية (عصر اليقظة) الذى تمثل فى الاستقلال السياسي والتحرر من سلطة الدول الاستعمارية النصرانية ،

ولا نزال نحن اليوم نعيش هذا العصر الذى لم يستكمل فيه المسلمون بعد يقظتهم ، ويبدو انه لا بد ان يمر جيلان او ثلاثة قبل أن تتم هذه اليقظة .

ان مستقبل الاسلام مرتبط ارتباطا عضويا بمستقبل المسلمين ، والمسلمون متاخرون عن عصرهم الحالي بعدة قرون ، وهذا التاخر هو الذى خلق رد الفعل عند اجيال الشباب المعاصرة ، المتمثل فى حالة التمرد والثورة على كل القيم والانظمة ، حتى الاسلامية منها ، اذا اعتقدوا انها تقف حجر عثرة فى سبيل التقدم والتطور السريع ، واستدراك الوقت الذى ضاع .

وقد برهنت ماساة فلسطين منذ نصف قرن ، وحتى اليوم ، على ان شعوب العالمين العربي والاسلامي لم تستكمل بعد شروط اليقظة ، ولا اقول النهضة ، وهذا ما يفسر عدم قدرتهم على استيعاب مدركات عصرهم ، ان عصور الجهل والفقر والخمول والاستبداد اضعفت شخصيتهم الدينية والقومية ، وخصائصهم الفكرية والعقلية ، وقبل ان يتم انتشار التربية والتعليم، ومحو الامية ، وتعميم الثقافة ، ومحاربة الفقر والتخلف ، ورفع مستوى الفرد الادبي والمادي، لا يمكن ان يسترد المسلم شخصيته — وخصائصه الضائعة .

ان الحضارة المعاصرة قامت على تقرير واستغلال ثلاث مدركات رئيسية : المال ، والعلم ، والصناعة ، ومع ان الاسلام حث المسلمين ، بكل الحاح على اكتساب وتنظيم واستغلال هذه الطاقات الحضارية الهائلة التى سخرها الانسان ، الا ان توقف سير الحضارة الاسلامية ، وما تبعه من توقف تقدم الانسان المسلم ، عطل الفكر الاسلامي عن الاستفادة من هذه المدركات التى استوعبها الفكر الغربي ، ليجعلها فى خدمة نهضته وتقدمه وسيطرته على العالم .

لقد فشلت حتى الآن عدة حركات اسلامية فى اقامة مجتمع اسلامي شبيه بالمجتمع الاسلامي الاول ، لانها لم تقم الحساب فى دعوتها واسلوبها لاختلاف العصرين ، ولم تستطع ان تحقق التوازن — فى الميدان الفكري والتنظيمي على الاقل — بين مدركات الحضارة المعاصرة : المال والعلم والصناعة ، التى تعتبرها ناحية مادية للانسان ، وبين مدركاتها الخاصة عن الحضارة الاسلامية ، التى كثيرا ما تقصرها على القيم الدينية والخلقية ، باعتبار انها الجانب الروحي الاهم للانسان . وهكذا برهنت هذه الحركات على انها لم تصل بعد الى مستوى الفكر الاسلامي الاول فى سعة وعمق ادراكه للحقيقة الانسانية والاجتماعية ، وهو الفكر الذى لم يفرق بين المادية والروحانية ، ولم يطالب من المسلمين ان يزهدوا فى الحياة ويعيشوا فى فقر وقناعة ، لان الدنيا دار فناء ، وانما طالبهم بالعمل والسعي من اجل الدنيا ايضا : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، لينهاهم بعد ذلك عن اهمالها : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ». فهل ءان الاوان ليدرك العرب والمسلمون بعد تجاربهم التاريخية القديمة ، وبعد تجاربهم المعاصرة مع الاستعمار والصهيونية ، انه لا اسلام ابدا مع الفقر ، فى عالم غني، ولا اسلام ابدا مع الجهل ، فى عالم عالم ، ولا اسلام ابدا مع التخلف فى عالم متقدم ، وان الصناعة الآلية التي هي طابع العصر الذى انتهى اليه التقدم البشري ، ما هي الا ثمرة من ثمرات العلم والمال .

انني اقف دائما مندهشا امام الحديث المعجز الذى اخبر فيه الرسول عليه السلام عن العصر الذى يعيشه المسلمون اليوم حيث قال : « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تتداعى الاكلة الى قصعتها ، قالوا : يا رسول الله امن قلة نحن يومئذ ؟ ، قال : لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » فهذه كانت الحال التى انتهى اليها امر المسلمين منذ القرن الماضي ، والاستقلال السياسي للدول الاسلامية لم يغير من حقيقتها الا قليلا ، كان فقط تعبيرا تاريخيا واجتماعيا عن يقظتها ، وبقي ان نتساءل عن عصر نهضتها متى يبدأ ؟ ، ونجيب بان هذا العصر سيشرق عندما يصمم المسلمون على اعلان الثورة ، لا ضد اعدائهم فقط ، ولكن ضد انفسهم ، ضد قيمهم النفسية والاجتماعية التى حافظت على تخلفهم وفقرهم وجهلهم عدة قرون ، ان الاجيال العربية والاسلامية الثائرة اليوم ، لم تثر ضد الاسلام ، فى واقع الامر ، ولكنها ثارت ضد نظام التخلف الذى قيل لها انه هو الاسلام ، وثارت

ضد العقلية المتحجرة التى ارادت ان تحمي المسلمين من سيئات الحضارة المعاصرة ، فاضافت اليها حرمانهم من حسناتها ، وثارت ضد المسلمين الذين تركوا شعوبهم فريسة للفقر والجهل والاستغلال ، فاضحت لقمة سائغة للاستعمار ثم للصهيونية .

ولا يمكن لمن يحاول ان يتحدث عن مستقبل الاسلام ، ان يغفل ايضا عن دراسة وتحليل تجربة مرة ، عاشها العرب منذ الحرب العالمية الاولى ، تمثلت فى اتجاه كثير من الزعماء والاحزاب - لدوافع واسباب مختلفة - لخلق اطار موحد للعمل ، يكون اساسا للنهضة العربية ، ويجمع شمل الامة العربية، اصبح يسمى « القومية العربية »، وقد قبل العرب هذا الاطار باعتبار انه مجرد غطاء خارجي لمحتوى اساسي هو الاسلام ، ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليجعل «الغطاء» يحل محل «المحتوى» ، وبدا الناس يبحثون عن فلسفة خاصة للقومية العربية ، واشتراكية خاصة بالقومية العربية ، وثورة نابعة من القومية العربية وهكذا .. واصبحنا نحن الذين ايدنا القومية العربية « الاطار » نراها تتحول الى «المذهب» ، رغم ذلك ، ان تتمتع بالتأييد لزمن اطول ، لو انها استطاعت ان تحقق اقل قدر من النجاح ، فاثبتت اصالة بنائها ، وانها قامت حقا على ارض صلبة ، لا على كثبان من الرمال .

ان اقل ما يجب ان يخلقه المذهب ، اي مذهب كان ، هو الايمان به ، والتضحية من اجله ، ولكن مذهب (القومية العربية) لم يستطع ان يخلق فى نفوس اصحابه شيئا من هذا الايمان ، او قليلا من هذه التضحية ، وكان من المفروض ان تحقق فكرة «القومية العربية » ذاتها على الاقل ، اي الوحدة العربية ، ولكن هذه الوحدة لم تتحقق حتى بين دعاتها وانصارها الذين اتخذوها شعارا لهم ، ان مذهب الدولة يعتبر القوة المعنوية التى تستدها فى الشدائد ، فضلا عن انه المثل الاعلى الذى يستميت الناس من اجله ، فهل حقق مذهب (القومية العربية) بفلسفته واشتراكيته وثورته شيئا من ذلك للعرب المومنين به ، سواء قبل هزيمة يونيو 67 او بعدها ؟. واذا لم يستطع انصار القومية العربية ان يحققوا نصرا عسكريا فى جولة رابعة ضد اسرائيل ، فان تجربة هذا المذهب تكون قد استنفدت غرضها بعد ان ادى العرب ثمن فشلها غاليا، ويتفتح الباب امام الاسلام من جديد ، برجال جدد من العرب انفسهم ، ويمضي العرب مرة اخرى الى تحقيق وحدتهم ، ولكن باسم العقيدة التى وحدتهم اول مرة ، وباسم هذه العقيدة سيواصلون معركتهم فى واجهتين : ضد التخلف بجميع صوره داخل الوطن الاسلامي الكبير ، وضد الاستعمار والصهيونية فى كل مكان فى الارض ، عندئذ فقط، يكون عصر اليقظة الاسلامية قد انتهى ، يبدا فجر النهضة ، وتشرق شمس الاسلام من جديد على العالم .

الرباط - ادريس الكتاني

مثل يوم « محمد »

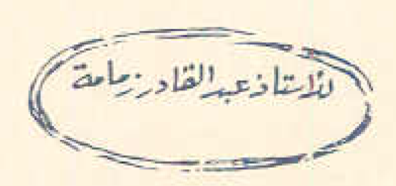
... وجد وديع البستاني فى سنة 1920 العرب متفرقين ، مختلفي المسالك والدروب ، فانتهز فرصة عيد المولد النبوي بفلسطين ليقول :

ابكل عام حفلة للمولد	تقضى مراسمها وتنسى فى الغد؟؟
وتجدد الذكرى لمجد تالد	والمجد تاو ليس بالمتجدد ؟
ايامنا ترى تمر ، ومن لنا	منها بيوم مثل يوم « محمد » ؟



ومظاهرها الاجتماعية والفكرية

في المغرب



العقلية هي مركز الينابيع التي تتوفق في حياة الامم بتكوين مجتمعاتها : فكريا ، واعتقاديا ، وسلوكيا ... وكل واحد من هذه الثلاثة يكون زاوية الهيكل القائم بوحدة المجتمع ، وتماسكه في سيره عبر التاريخ ...

فالعقلية اذن نقطة البداية ومعين الحياة ومحرك الفرد والمجتمع ، نحو الاهداف المعينة والغايات المنشودة ... واشتراك افراد الامة في العقلية ، حقيقة تظهر أحيانا واضحة كالشمس ... وتختفي احيانا حتى ليخيل الينا أن هناك تباينا في العقلية بين فرد وفرد .. ! مع انهما ينتميان الى مجتمع واحد .. وامة واحدة .. والتعليل الصحيح لهذا التباين الفكري ، او الاعتقادي ، او السلوكي . يكمن في ان عقلية مجتمع او امة هي نقطة البداية ... وليست هي نقطة النهاية .. !

فالعقليات في المجتمع الانساني تاخذ مظاهر التصارع والتكامل والتباين فيما بينها ... وقد كان هذا التفاعل يتم ببطء وحذر طيلة قرون واجيال يوم كانت الامم والمجتمعات تعيش في شبه انعزالية من ناحية عقليتها الخاصة .. وكانت هذه العقلية الخاصة بها هي التي تطبع « في القالب » سلوك الافراد ... واعتقادهم ... وتفكيرهم ... والامر بخلاف ذلك في العصر الحديث ...

ولا حاجة تدعونا الى رفع سجوف التاريخ عن العقليات التي عرفتها البشرية وعن خصائصها ومميزاتها وتفاعلها منذ الماضي السحيق ... لاننا هنا بصدد عقلية خاصة طبعت مجتمعنا الاسلامي في المغرب بطابعها في فكره واعتقاده وسلوكه منذ ان اختار الاسلام ، دينا والقرءان كتابا ...

وهذه العقلية التي نسميها اليوم « العقلية القرءانية » على أساس ان القرءان كان هو المعين الذي تفجرت منه ينابيعها ... ليست شيئا زائدا على المنهاج الاسلامي في تربية الفرد الصالح ... وتكوين المجتمع الصالح ... بالسير على الترتيب الدقيق والاخذ في سلم الحياة الخاصة والعامة بدرجاتها من البداية الى النهاية ... على اساس ان الانسان روح وجسم ... وان المجتمع وحدة تتكامل وتتكافل ...

ونقطة البداية في العقلية القرءانية هي الاقتناع والايمان عن طريق استعمال الفكر الانساني في ذات الانسان .. ومحيطه .. والمنشأ والمعاد .. وقد جاء في القرءان الكريم :

« ءانتم اشد خلقا ام السماء . بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها . واخرج ضحاها . والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم » .

فالبداية من هنا ... ! من ايمان الانسان انه ذرة في ملكوت الله .. ! وان الصورة التي يراها امامه في استوائها ونظامها واحكام صنعها ... ليست الا دليلا قاطعا على ان وراء المخلوقات خالقا قادرا حكيما ... خلق كل شيء ... وقدر كل شيء ... وعلم

كل شيء .. ولا يقبل العقل الانساني السليم اي لون من الوان الهرطقات التي تحاول أن تنسب الى المصادفة الطبيعية ما خلق الخالق جل وعلا ...

فالمصادفة الطبيعية من السلبيات التي لا يصح عقلا ان توجد من العدم هذه العوالم : السابحة ، والجامدة ، والناطقة ، وما تشتمل عليه : من نظام محكم دقيق ، رصدته البشرية منذ عرفت الحياة .. فلم تجد به خللا .. ولم تشاهد له تبديلا ..!

فاذا اخذ الانسان حظه من الاقتناع والايمان يكون بذلك قد خطا خطوة اولى فى سبيل المنهاج الاسلامي وصعد درجة اولى فى سلم العقلية القرءانية.

وهذه الدرجة تسلمه الى درجة ثانية وهي العقيدة ... والعقيدة الصحيحة الثابتة هي التى يصل اليها الانسان عن طريق التفكير السليم والنظر السديد ...

ولهذا كان الخطاب الالهي فى القرءان الكريم متجها منذ بداية نزول الوحي ، الى ضرورة استعمال الفكر الانساني السليم ، ليكون وسيلة الى الوصول به الى العقيدة التي تضيء ارجاء النفس وتبعث فيها حيوية الاقتناع .. وحرارة الايمان ...

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما كان يتلو على الناس ءايات السور المكية كان يدعوهم بها الى الاسلام ... فهي وحدها كانت الجذوة الاولى لتكوين عقيدة الاسلام ... وذلك لانها كانت تنادي باستعمال الفكر للوصول الى العقيدة وتلك ميزة القرءان المكي .

والعقيدة التي يكونها المنهاج الاسلامي ضرورية لبناء السلوك الانساني على قاعدة ثابتة يطمئن الفرد والمجتمع اليها ... فهي الرقيب العتيد ... وهي الحارس الامين .. وبدونها يكون كل تشريع هيكلا اجوف فارغ المدلول ... عديم القيمة ... وبدونها يكون الانسان هباء فى مهب الرياح .. مهما حاول ان يجعل لتفكيره وسلوكه قواعد من الشكليات ...

وياتي السلوك فى العقلية القرءانية والمنهاج الاسلامي غاية وهدفا وتاجا يتوج التفكير والعقيدة..

والسلوك الفردي والاجتماعي يعني كل اعمال الانسان التي تدخل فى نطاق التكاليف الشرعية بسائر اقسامها .. ولا شك ان هذه التكاليف ترتبط ارتباطا متينا بالعقيدة التي يكنها الانسان فى قلبه ويومن بها فى اعماق ضميره الديني ...

فليست حركات جامدة ... ولا كلمات محفوظة ... ولا ضروبا من الانظمة تؤدى فى مناسبات وطقوس ... ولكنها تعتمد اولا وقبل كل شيء على اخلاص النية الذى يعطي لسلوك الانسان معنى العبادة والطاعة والامتثال لامر الله فى سائر الاحوال .

وبهذا المنهاج الدقيق فى بناء العبادات والمعاملات على اساس العقيدة .. يمكننا ان ندرك الحكمة الالهية فى جعل السور المدنية من القرءان تهدف الى تقرير الاحكام الشرعية بسائر اقسامها ... بعد ان جعلت السور المكية تهدف الى بناء العقيدة على اسس صحيحة من النظر والتفكير ...

وبهذا المنهاج الدقيق ايضا يكون المسلم المتشبع بروح العقلية القرءانية .. قد وقف من الحياة والكون والعقل موقف المطمئن الثابت على ارض مستقرة لا تميد به ... ولا تطوح به وراء سراب الضلال ...

فالحياة لها وجهان : وجه مادي نشاهده ونعيش فيه فى حدود الزمان والمكان ... ووجه آخر لا نشاهده الان ... ولكننا سنشاهده يوم ينتهي اجلنا فى هذه الدنيا .. وياتي دورنا فى الجزاء والعقاب ..!

والكون : ليس قاصرا على هذه الاشياء التي تخضع لحواسنا وتقديرنا وحدسنا بل انه فوق كل ذلك وقد خلقه المولى جلت قدرته ... واحاط بها علما وتدبيرا ..

والعقل : اداة التفكير ووسيلة الفهم والتمييز ولكنه كسائر الادوات والوسائل تعمل فى نطاقها المحدود .. فاذا خرجت عن نطاقها ، بان عجزها .. وظهر ضعفها ...

واذا وصلنا بالعقلية القرءانية الى هذه الغاية وعرفنا انها صبت فى نفوس المومنين بها هذه الطريقة فى التفكير والعقيدة والسلوك ... فاننا نجد انفسنا امام مجتمع قرءاني ... اتخذ من كتاب الله المنار الهادي فى سائر اعماله واخلاقه وافكاره وعلاقاته ... ولهذا حرص على ان يكون القرءان اول شيء يتعلمه البنون والبنات ... من اول يوم يدخلون فيه الكتاب ... وقد جاء فى خاتمة سورة الانعام :

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم . دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا . وما انا من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين.

قل اغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء . ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى . ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيـه تختلفون وهـو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما ءاتاكم أن ربك سريـع العقـاب وانه لغفور رحيم » .

ولا شك ان الفرد في مجتمع قرءاني العقلية يجد نفسـه محاطا بسياج من الحصانـة فهو بالنسـبة الى الناس في حصانة حرم الاسلام على الناس دمه ومالـه وعرضه وغيبته ... وهم بالنسبة اليه في حصانة لا ينالهم بمكروه في حضورهم ولا يقذفهم بسوء في غيبتهم ... وهكذا تنعـكس العقليـة القرءانيـة على مـرآة المجتمع المسلم فينال الجميع حظه منها ...

والتكييف العملي للعقلية الاسلاميـة في تاريـخ الوجود الاسلامي يظهر جليا في ان المسلمين ادركوا من اول يوم اشرق فيه نـور الاسـلام .. انهم يعملـون ويفكرون ويجاهدون في سبيل اقامة :

— ديـن لـه دولـة ...
— ودولـة لهـا ديـن ...

فالدين يعطي الدولـة منهـاج الحـق والعدل والاستقرار والتـوازن بين المصالـح المتداخلـة ... والاهداف المتشابكة ... ويجنبها مزالق الانانية ... والاسراف ... والانحلال ... والظلم بسائر انواعه.

والدولة تحمي الشريعة ... وتعطي المجتمـع الاسلامي امثلة حية من رجالها الذين اتضح في سلوكهم وخلقهم وحكمهم الاثر الفعال للعقلية القرءانية المومنة بالله ... المدافعة عن الحق بالحق .. ! الحاملة لواء القيادة الصالحة ... لاسعاد مجتمع ينشـد الخيـر والفضيلة في هذه الارض ...

ولم تنفصم هـذه الوحـدة يوما مـا في عقليـة المسلمين ... لانها كيان ، وعقيدة ، وتجربة . اثبتت صلاحيتها من أول يوم ...

واثبت التاريخ ان ما سبق الاسلام من ديانـات وفلسفات ومذاهب كان بعيدا كل البعـد عن العمـق الذي حققه الاسلام في حياة الفرد والجماعة ... لا من حيث الغايات فقط ... ولكن من حيث الوسائـل ايضـــا ...

ولعلنا اليوم في امس الحاجة الى مراجعة رصيد العقلية القرءانية في منجزاتها واهدافها ووسائلها ... ونفهم طبيعة التيارات التي تحاول بكل الوسائـل ان تسلبها صلاحيتها وفعاليتها ومزاياها ... وكل واحد منا يدرك بالبداهة ان عصرنا هذا فتح المجال الواسع لصراع المبادىء والاراء والعقليات ... فصرنا نشاهد الاضاليل والترهات تحاول ان تحتل مكانة العقائـد الصحيحة والحقائق الثابتة ... !!

ولعلنـا الان على بصيـرة من مفهـوم العقليـة القرءانية التي طبعت مجتمع المسلمين بطابعها فجعلوا القرءان محور اهتمامهم حفظا ... وتلاوة ... وتعبدا ... ودراسـة ... ووعظـا ... واستنباطـا ... وفتوى ... وحكما ...

ويدفعنا ذلك الى شيء آخر وهو البحـث عـن المظاهر الاجتماعية والفكرية لهذه العقلية في المغرب ..

فالمجتمع المغربي مجتمع اسلامي ... والمظاهر الاجتماعية والفكرية للعقلية القرءانيـة فيـه اصيلـة عريقة ، الا ان ابرازها في دقة وانسجام لابد ان يتطلب تفكيرا شاملا في حياة المجتمع والفكر وما تعطيه هذه الحياة من اخلاق وعادات وتقاليـد في سراء الحيـاة وضرائها ... وما يعطيه الفكر من تعبير وتصوير عن هذه العقلية القرءانية الاصيلة ..

فالمظاهر الاجتماعية تجدها في المدن والقرى من خلال حياة الناس وتصرفاتهم واتصالاتهم وتعاملهـم وتعاقدهم وافراحهـم ومآتمهـم وما يعتـادون مـن استحسان اشياء ... واستقبـاح اخـرى ... وما يتوارثونه من تقاليد تكونت على ممر السنين .. وما يركنون اليه من اعراف محترمة معمول بها عند النزاع فيما لم يرد فيه نص شرعي قاطع ...

والمظاهر الفكرية نجدها في التعليم ومعاهده ... وفي كل ما يتصل بالتعبير المكتوب او المسمـوع مـن نشيـد او قصيـد او مثل ... وما الى ذلك مما يعطيه الفكر تعبيرا او تصويرا لحالات وجدانية متعددة ..

فالقرءان الكريم كتاب احتلت قدسيتـه شغاف قلوب المغاربة ... والمصحف الشريف لا يتجرأ على حمله او لمسـه الا المطهرون ... امتثالا لامر الله :

« انه لقرءان كريم في كتاب مكنون لا يمســه الا المطهـــرون » .

وفي كل منزل نجد المصحف الشريف اخذ مكانته من الاعلاق والنفائس ... تقبله المرأة والرجل والفتى والفتاة ... ثم يجعل على الصـدر والـراس تيمنـا

وتبركا ... وربما نجد فى المنزل الواحد عدة مصاحف مطبوعة ومخطوطة ايضا فى عده احجام ... وقد اخذت كلها او بعضها حظا كبيرا من جودة التسفير والزخرفة ... وتحت وساده المريض ... والنفساء ... والطفل الصغير تجد المصحف الشريف اعتقادا من اولياء هؤلاء ان القرءان شفاء ... كما فى الاية الكريمة ...

« وننزل من القرءان ما هو شفاء ورحمة للمومنين » .

واعتقادا منهم ايضا ان الارواح الخبيثة لا تحل مكانا يوجد به كتاب الله ... فهو فى حصن حصين من كل شيطان ما دام كتاب الله موجودا فيه ...

والتسمية الشائعة لكتاب الله هي :

— المصحف

— مصحف الله الكريم

— الستين حزبا

اما كلمة «القرءان» فتستعمل عند سماع التلاوة او السرد فيقولون لشخص يقرا القرءان :

— يتلو القرءان ... اذا كان يرتل

— يسرد القرءان ... اذا كان يستظهر ...

ونجد التعبير عن القرءان (بكلام الله) ... فعند الاستشهاد باية من القرءان .. او عند تنبيه المخاطب على الانصات ... يقولون :

— اسمع كلام الله ... !

والمجتمع القرءاني الذي يحفظ صغاره القرءان ... ويتلو كباره القرءان ... ويسمع افراده رجالا ونساء القرءان عند كل مسجد وعند كل صلاة ... لا شك انه يتخلق باخلاق قرءانية ويفكر بعقلية قرءانية ... ويتكلم احيانا بكلمات قرءانية ... ويتعامل معاملة قرءانية ...

فالزواج وهو الرباط الاجتماعي الاساسي في تكوين كل مجتمع بشري يتم تحت عنوان مسموع ومكتوب .

— على سنة الله ورسوله ... ! على الكتاب والسنة ...! والمعاملة التجارية فى السوق من بيع وشراء وما اليها تتم تحت عنوان مكتوب ومسموع .

— احل الله البيع وحرم الربا ...

والمعاملة الاخوية التى يتعامل بها الاصدقاء والجيران والاقارب والاخوان والشركاء تكون تحت عنوان مسموع بينهم فى كل هذه الحالات :

— على هدى من الله ...

ولا شك ان هذه شعارات قرءانية دخلت المجتمع فى ظل العقلية القرءانية .. واخذت مكانتها من العقود والالتزامات وسارت مسرى العادات والاعراف جيلا بعد جيل . والشعور الديني يغذيها وينميها...وهي بطبيعة الحال تتاثر بقوة هذا الشعور وضعفه فى الافراد والجماعات ... والمنهاج الاسلامي حينما فرض الشعائر الدينية المتكررة من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، كان يهدف الى تربية الضمير الديني الذي يغذي العقلية ويعطيها طابع الاستقرار والاستمرار فى الفرد والمجتمع ...

فاذا انعدم المغذي والمربي جف معين العقلية وبذلك تنكمش وتتوارى ... وتاتي عقلية اخرى تزاحمها أولا ... ثم تنازعها ثانيا ... ثم تصرعها ثالثا ... وقد عهدنا من سنن الكون التى لا تتخلف ان العقل البشري يعمل باستمرار تحت شعاره المعهود :

— لا فراغ ...

فكما انه لا فراغ فى الحياة ... فكذلك لا فراغ فى العقل ... وقد اشتهر قول الحكماء :

— انما يعشش الشيطان فى الرؤوس الفارغة .

واذا تعمقنا فى دراسة المجتمع المغربي فى المنازل والمساجد والاسواق ... والمدن والقرى باحثين دارسين نجد جذور العقلية القرءانية عريقة فى الافراد والجماعات ... ولكنها خاضعة العامل الديني الذي يدفعها نحو الفضيلة والخير والاستقامة ... فاذا فتر ذلك العامل فترت ... كما اشرنا الى ذلك آنفا .

وفتور العامل الديني يكون لعدة اسباب ايجابية وسلبية فهناك العامل المادي فى مقدمة الاسباب الايجابية ... وهناك عامل الجهالة فى مقدمة الاسباب السلبية ...

فالتيار المادي الذي يحجب عن الابصار والبصائر الوجه الآخر للحياة والكون ... ويربط الانسان الى عجلة انانيته الشخصية ... وشهواته الفردية ... ويوهمه انه يسير به نحو المستقبل السعيد ... فى عالم سعيد ... تتدفق فيه كنوز المادة ... فتشبع الرغبات . وترضي المطامح ...

هذا العامل الخطير الذي يجذب نحو الهاوية آلاف الاغرار المخدوعين . . . !

وعامل الجهالة ينحرف تدريجيا بالمفاهم الدينية فيجردها من نصاعتها ووضوحها وسموها وبذلك يفتح الطريق . . . اما الاضاليل والخرافات التي تتراكم وتغطي كثافتها المعاني السامية للشعائر والاخلاق الاسلامية . . .

ولهذا كانت المظاهر الاجتماعية للعقلية القرءانية شفافة الى اقصى حد . . ! تشف عما وراءها . . . فكل خطا او فساد او جهل او انحراف عن الصراط المستقيم في العقلية يؤدي حتما الى الانعكاسات على صفحة الحياة الاجتماعية عند المراة والرجل والصغير والكبير فرديا واجتماعيا وخلقيا . . .

والامثلة الحية التي تصادفنا يوميا في مجتمعنا المغربي لا تزيدنا الا اقتناعا بان وراء الانحراف الاجتماعي . . . انحرافا آخر في العقلية . . . وان هذا الثاني ناتج عن فتور او ضعف العامل الديني . . . لاسباب منها الايجابي والسلبي . . . !

والآداب الاجتماعية في المغرب تشتبك بالآداب والاخلاق الدينية الى درجة انه لا يمكن ان نفرق بينهما . . . فبرور الابناء بالامهات والآباء . . . في المعاملة . . والخطاب . . . والمساكنة . . . ورضا الامهات والآباء عن سلوك البنات والابناء يضفيان على البيت المغربي والاسرة حلة ناصعة من الحنو والرحمة والسعادة والتماسك الاجتماعي . . . ويربطان افراد البيت الواحد والاسرة الواحدة برباط متين يحفظ الاسماء والالقاب العائلية لعدة اجيال . . . بل ويحفظ استمرار الملكيات في الاصول والعقارات لعدة احقاب . . . وطبقات . . .

والعلاقة بين الزوجين المبنية على المبدا القرءاني:

– امساك بمعروف او تسريح باحسان . . .

مدرسة اجتماعية يشاهد فيها البنون والبنات اساس الحياة في المجتمع الاسلامي . . . وينالون حظهم بالشعور والممارسة . . . من هذا المبدا . . . واذا طبق هذا المبدا بدقة فان جزءا هاما من اسباب الشقاء العائلي لا يعرف السبيل الى البيت والاسرة . .

والحياة التي تدب في الاسواق والشوارع والاحياء والقرى والحقول تبدا بتحية الاسلام يتبادلها الانسان مع اخيه وجاره ورفيقه في الطريق . . . وهذه التحية عنوان صفاء . . . وسبيل مودة . . . ودليل تماسك . . . وتركها انحراف اجتماعي ناتج عن انحرافات اخرى تتصل في النهاية بالانحراف الاساسي عن الصراط المستقيم الذي خطته العقلية القرءانية المسلمين . . .

والنسبة الشخصية والاسم الشخصي حقان يتمتع بهما القاصر والرشيد والمراة والرجل في سائر الظروف والاحوال . . . ولا يحق – شرعا ولا عرفا – ان يفرض الزوج اسمه على الزوجة لتضاف اليه . . . فلزوجته ان تتمتع باسمها الشخصي والعائلي . . . سواء بقيت في عصمته ، او فارقها بموت او طلاق . .

فالاساس دائما ياتي من العقلية القرءانية اي من المنهاج الاسلامي في الاخلاق والعادات والعبادات . . . واقامة الشعائر الدينية في مظهرها الاجتماعي بالمغرب من :

– صلاة الجماعة والجمعة . . .
– صلاة العيدين . . .
– سنة الاضحية . . .
– عادات شهر الصيام في المساجد وغيرها . . .
– وداع الحجاج واستقبالهم . . .
– الاحتفال بالمولد الشريف . . .
– صلاة الاستسقاء . . .
– الاسراء والمعراج . . .
– العقيقة . . .
– الاعذار . . .
– الجنازة . . .

مناسبة تظهر فيها عقلية المجتمع القرءاني بوضوح . . . فرغم كل الاعتبارات نجد ان المدلول العميق لهذه الشعائر يحيي في نفوس المغاربة معاني دينية قرءانية قبل كل شيء . . . ويدفعهم تلقائيا الى جو يفيض بالحنين الى حياة الاشراق والطهر والقرب من الله عن طريق العبادة الصحيحة والشعائر المعروفة . . .

وبالمقارنة والاستنتاج يبدو أن ظاهرتي :

– الجهالة التي تشوه بعض المظاهر الاسلامية الاجتماعية . . .

— والانحلال الذي اخذ يدب خطره في بعض النفوس ... هما من السطحية والضحالة بالمكان الذي يعرفه المتعمقون في دراسة احوال المجتمع المغربي ... !

ولا شك ان هاتين الظاهرتين اعوجاج يقوم ... وانحراف يعالج ... لان في ذاتية العقلية القرءانية ما يدعو اهلها دائما ... والى الابد ... بقوله تعالى :

« أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي احسن » .

ومن المظاهر الاجتماعية ننتقل الى المظاهر الفكرية للعقلية القرءانية في المغرب ...

وتبتدي هذه المظاهر من المكتب القرءاني الذي يؤمه الصغار منذ الطفولة المبكرة ...

فهذا المكتب القرءاني يسمى في كل ناحية من نواحي المغرب باسم خاص :

— ففي مدينة فاس وما اليها يسمى «المسيد»

— وفي مراكش يسمى « الحضر »

— وفي نواح متعددة من الشمال والشرق يسمى « الجامع »

— وفي ناحية تافيلالت وبعض القبائل البربرية يسمى « خربش »

وبراس هذا المكتب القرءاني « فقيه » او طالب يعلم الصغار القراءة والكتابة ويحفظهم سور القرءان تدريجيا سورة ... تتلو اخرى ... ولهذا التحفيظ وسائل معروفة تنتهي بحفظ التلميذ « الستين حزبا» ومعرفة رسمها وتجويد تلاوتها ...

ولقيام هذا المكتب القرءاني بعمله هذا نجده في الغالب يستفيد من احباس خاصة به ... او تعمه وغيره من المكاتب في المدينة او القرية ... فان لم تكن هناك احباس ... كانت (الشروط) التي يلزم بها اهل القرية ... كفيلة بحياته وازدهاره ... واكرام فقيه المكتب ... والترفيه عن تلاميذه ... هما من العرف الجاري في القرى والمدن قديما وحديثا ...

وتلاميذ المكتب القرءاني اخيار اطهار في نظر الناس . لانهم يحفظون كتاب الله . ويتلونه صباح مساء ... فلهذا يلتجيء المضطرون الى رحمة الله : من مريض ومنكوب ونفساء تعذرت ولادتها ... الى هؤلاء يحسنون اليهم ... والى فقيههم .. ليرفعوا اكفهم الطاهرة الى المولى جلت قدرته بالدعاء . عساه سبحانه يرحم هؤلاء المضطرين ... ويكشف عنهم الضر والبلاء ... فهو وحده لا شريك له الذي « يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » .

وحول المكتب القرءاني هالة اجتماعية واخرى عقلية ... وحول هذه الاخيرة نجد مجموعة من المظاهر الفكرية تنمو بنمو تلميذ المكتب ... وقد تنبه الى نموها ابن العربي المعافري ... وابن خلدون ... وابو الحسن القابسي ... وكل هؤلاء لهم ملاحظات على المكتب القرءاني بالخصوص في البيئة المغربية والاندلسية ولهم مقارنات ... واستنتاجات معروفة في الموضوع ...

ومع ان المكتب القرءاني يتعدى احيانا نطاق تحفيظ القرءان وتجويده الى تعليم مبادىء العلوم حسب ظروف الزمان والمكان ... فان العمل الاساسي كان يبدو وضاحا مشرقا في تكوين عقلية الصغار وتهذيبهم بالاضافة الى الثروة اللغوية التي يحصلون عليها وهم يحفظون ابلغ كلام ... واعرفه في الافصاح والبيان .

وهذا يعني ان المظهر الفكري الذي يظهر به هؤلاء الصغار حينما يكبرون يكونون متأثرين الى اقصى حد بلغة القرءان ... واسلوبه ... وثقافته ... كما ان فضائل القرءان تسري في كيانهم الباطني وضميرهم الديني وهذا شيء لا جدال فيه ...

واذا علمنا ان ثقافة المكتب القرءاني كانت عامة في المغرب وان كل واحد ياخذ منها حظا لا بأس به .. علمنا الدور الفكري الذي كان المكتب القرءاني يؤديه .

وثقافة المكتب القرءاني تسلم الى ثقافة المسجد او المعهد ... ويجب ان نلاحظ هنا ملاحظة تاريخية تدخل في هذا النطاق الفكري وهي :

ان الضرورة التي دفعت أسلافنا الى فصل المكتب القرءاني : المسيد ، الحضر ، خربيش ، عن المسجد المعد للعبادة ... ليظل هذا الاخير بعيدا عن أصوات الصغار وحركاتهم .. هي نفسها التي فرضت عليهم ان يؤسسوا مدارس التعليم المعروفة في ماضي المغرب ... ليجد فيها طلبة العلم كامل رغبتهم في التعليم والسكنى والمطالعة والكتابة ... في الليل والنهار ... والعلم يدرس في المسجد والمدرسة ... لكن دروس المسجد لها طابع خاص ... يفرضه احترام بيت الله .. الذي بني للعبادة قبل كل شيء ...

والعبادة تقتضي السكوت ... والوقار .. وغض الاصوات ..

والمظاهر الفكرية للعقلية القرءانية في تراثنا المغربي في الكتب الدينية والخلقية والادبية لا تخص موضوعا ولا جيلا ولا مدينة ولا قرية ولا دولة ... فقد كان القرءان محورا تدور حوله سائر الدراسات في التوحيد والفقه والتجويد والسيرة واللغة والادب ...

واللغة التي تكون في الامة مرءاة عقليتها وحصيلة ثقافتها تجدها هنا في المغرب زاخرة بالآثار التي جاءت عن طريق العقلية القرءانية :

— فالوعد والوعيد يختم بعبارة « ان شاءالله »

— وكل شيء يبتديء بـ «باسم الله» وينتهي بـ « الحمد لله »

— والرسائل تفتح بـ « الحمد لله » وكذلك الخطب ...

— والتعجب يقرن بـ « سبحان الله »

— التعوذ يكون من « الشيطان الرجيم »

— وءاية الكرسي ... وطه ... وياسين .. وتبارك .. تدور على الالسنة عدة مرات وفي عدة مناسبات ...

حتى ان بعض الآيات القرءانية اصبحت لكثرة دورانها على الالسنة تجري مجرى الامثال ..

واسماء الاشخاص نجد فيها اسماء الانبياء عليهم السلام : يوسف .. ابراهيم .. اسماعيل .. موسى .. عيسى .. ادريس .. داود .. سليمان . يعقوب .. صالح .. يحيى .. زكرياء .. بالاضافة الى اسم خاتمهم محمد عليه السلام ...

اما الاعلام التي اضيفت فيها كلمة « عبد » الى اسم الله سبحانه وتعالى او صفة من صفاته .. فهي كثيرة جدا ..

عبد الله .. عبد الرحمن . عبد القادر . عبد اللطيف . عبد السلام . عبد الوهاب . عبد الكريم . عبد الرحيم . عبد الغفار . عبد العزيز . عبد المومن ... الخ ..

وكل هذا انعكاس يترجم عما في ضمير الذين يختارون مثل هذه الاسماء لابنائهم .. فالعقلية اولا هي التي تدفع العادات والاعراف وتحرك الرغبات ..

ولا شك ان العقلية تتاثر احيانا بعوامل اخرى اشرنا اليها سابقا ...

والى جانب هذا نجد ان ظاهرة حفظ القرءان كلا او بعضا والاهتمام فكريا بكل ما يتعلق بالثقافة القرءانية امر اشتهر عن المغاربة ... وجاءت بالحديث عنه اخبار واقاصيص يتناقلها الناس في المغرب والمشرق فيقولون :

— نزل القرءان بلسان العرب ...
— والفرس فسروه ...
— والمصريون رتلوه ...
— والمغاربة حفظوه ...

ويقولون عن معلم القرءان بالخصوص :

« من علمك حرفا من القرءان فهو سيدك ومولاك الى يوم القيامة » .

وهذه الاقوال لا تبحث عن سندها واصلها ... وانما تبحث عن دلالتها التي ترسب في اذهان الناس . وعن العقلية التي اوحت بها ...

وفي الفنون المغربية التي تستعمل عبقريتها في الزخرفة والتخريم والتلوين والنقش نجد ءايات القرءان الكريم ... بل وسوره الطوال والقصار تزين جدران المساجد والمدارس العلمية والاضرحة والقصور وابهاء المنازل الفخمة في المدن المغربية القديمة والحديثة ... في فاس ومراكش والرباط ومكناس وتطوان وغيرها ...

والخطوط المغربية المتاثرة بالكوفي والاندلسي والشرقي والفارسي والتركي تمد الفنون المغربية بمادة خصبة جميلة تتجلى في منجزاتها الفنية في كتابة المصاحف ... وترصيع المنابر والمحاريب والقباب بآيات القرءان واحاديث الرسول ... وقصائد المديح ... وما الى ذلك ... والمسالة هنا ليست فنية عديمة الصلة بالعقلية ... ولكنها استجابة لرغبة متاثرة بالعقلية ولا ريب ...

والمظاهر الفكرية للعقلية القرءانية اذا كانت تبتدىء من المكتب وتستمر في المسجد او المدرسة فانها ليست وليدة حقبة ولا حصيلة عصر .. ولكنها عمل القرون المتتابعة التي رافقت وجودنا التاريخي المتسلسل ... وثقافتنا وحضارتنا ...

واذا كان المعروف عن الثقافة انها تعني في الجملة كل وسائل التفكير .. وكل حصائل التعبير ...

واذا كان المعروف عن الحضارة انها تعني على العموم كل وسائل العيش الاجتماعي المادي منها والادبي ...

فان العقلية القرءانية استوعبت كل ذلك وحركت طيلة تاريخنا الاسلامي وسائل الثقافة ... وعوامل الحضارة ... وصبغت كل ذلك بصبغتها المعهودة ..

ولم يحدث تاريخيا ان انفصمت حضارتنا او ثقافتنا مجتمعتين او متفرقتين عن العقلية القرءانية.

ولم يحدث تاريخيا ان ضاقت العقلية القرءانية عن استيعاب عوامل ونتائج الحضارة الصحيحة ... والثقافة المفيدة ...

فالبون شاسع بين درجات الثقافة والحضارة عبر العصور التاريخية الاسلامية في المغرب ... لكن العقلية القرءانية كانت هي المحرك الاول ... والمؤثر الاول ولها تأثير ملموس في كل تراث ثقافي أو حضاري وصل الينا ...

فالعقلية القرءانية بالنسبة الينا رسالة خالدة.. اعطت ثمارها في :

- عقيدة سليمة ...
- واخلاق مستقيمة ...
- وكيان موحد ثابت ...
- وحضارة لا تبلى جدتها ...
- وثقافة لا تذوى زهرتها ...

فاس : عبد القادر زمامة





دفاع عن التاريخ ...

للأستاذ محمد زنيبر

من بين العلوم التي ازدادت أهميتها في عصرنا هذا علم التاريخ . لقد كان علم التاريخ فيما سبق عملا فرديا يتطوع به بعض الكتاب ، كل حسب طاقته وقدرته على البحث وذوقه ، دون التقيد بقيود واضحة . فكانت كتب التاريخ في الغالب سلسلة من الاخبار المشوقة تنحو الى مقاصد مختلفة . فهي اما كتب ترفيهية يقصد منها تزجية الفراغ والاستئناس بنوادرها في الاندية والمجالس ، واما كتب موعظة واعتبار يراد بها التدليل على قدرة الله وعنايته والدعوة الى تقويم الاخلاق واصلاح السيرة ، واما تآليف يقصد بها تحقيق بعض الاهداف الدينية مثل كتب السيرة النبوية واخبار الصحابة والتابعين ورواة الحديث كما يترتب عن ذلك من اهمية بالنسبة لتقرير الاحكام الفقهية والترجيح بين الاقوال المروية اي ، بعبارة واضحة ، وضع أسس السنة .

بحيث ان التاريخ لم يكن يقصد لنفسه ولم يكن يعتبر كعلم مستقل يستطيع ان يوحي بنوع خاص من التفكير ويغير نظرة الانسان الى العالم والى الناس ويؤثر على سلوك الحكام وسياستهم وعلى المفاهيم الجماعية في المجتمع . ولم ينتبه الى اهميته انتباها عميقا ودقيقا الا ابن خلدون الذي استطاع ، لاول مرة في تاريخ الفكر ، ان يصور بما يكفي من التوسع والتفصيل ما يكمن وراء الاحداث من قوانين وتركيبات آلية وصلات متشابكة .

لكن ابن خلدون ، الذي كان سابقا لعصره بعدة قرون ، لم يستطع أن يبلغ صوته لمعاصريه ويبين لهم اهمية ما اكتشف . ولم يظهر الصدى الحقيقي لارائه الا في القرن التاسع عشر حين بدا التاريخ يدخل في الطور العلمي واصبح الشعور بالتاريخ من مقومات الفكر البشري في عصرنا . وقد ترتب عن هذه التطورات اننا اصبحنا اليوم نصادف التاريخ على صورتين :

1) نصادفه كعلم مستقل بذاته له قواعده ومنهاجه وأساليبه .

2) ونصادفه كعلم متداخل مع مختلف العلوم ، فالذي يدرس القانون لا يستطيع أن يفهمه حق الفهم دون أن يلم بتاريخ القانون ، والذي يدرس الفلسفة لا غنى له عن تاريخ الفلسفة . والذي يدرس الاقتصاد لابد له من أن يستند على التاريخ . والذي يدرس التاريخ نفسه في حاجة الى معرفة تاريخ التاريخ .

ما معنى هذه الوثبة الكبيرة الذي وثبها التاريخ في سلم المعارف الانسانية ؟ وما معنى هذه الظاهرة التي اصبح يتميز بها بين مختلف العلوم ؟ معنى ذلك ان الفكر الانساني أدرك بعد طول التجربة والممارسة انه لا يستطيع أن يستوعب الحقائق العلمية استيعابا كافيا ومرضيا الا اذا استعمل المقاييس التاريخية . ومعناه ايضا ان فكرة التقدم المطرد مرتبطة بمعرفة التاريخ لان هذا العلم يلخص لنا التجربة الانسانية في كل مسالة مسالة ويقدم لنا صورة مركزة وواضحة عن

مراحلها الجوهرية وبذلك يساعدنا على العمل الجديد والابتكار .

فلولا التاريخ لاعاد الناس نفس التجربة مرارا وتكرارا . ولولا تاريخ الفلسفة ، مثلا ، لكان كل فيلسوف ناشىء يعود الى نقطة الابتداء التي انطلق منها اول مفكر ليكرر عبثا المجهود الذي بذله من سبقوه في ذلك المضمار . ولكن بفضل وجود هذا التاريخ ، اصبح في مستطاع كل فيلسوف ان يطلع على المجهود السابق ويأتي بشيء طريف من عنده . بحيث ان التاريخ يوفر عليه مشقة الانطلاق من لا شيء .

وفي القديم حيث لم تكن دراسة التاريخ مضبوطة ولا معممة لدى سائر المثقفين ، كان يقع كثيرا مثل هذا التكرار في المجهودات والاعمال مما يؤدي الى كثير من التبذير الفكري ، لكن المنهاج التاريخي لم يفرض نفسه، في الحقيقة ، الا منذ أواسط القرن الماضي مع المدرسة الهيجلية وما تفرع عنها من ماركسية وغيرها حيث تبين ان التاريخ ينبني على حلقات متشابكة ومتعارضة اي ما يسميه هيجل الجدلية واننا لا يمكننا ان نفهم الحدث الاجتماعي سواء اكان سياسيا أم اقتصاديا أم ثقافيا أم اجتماعيا اذا لم نضعه في اطار هذه الجدلية .

ولا ننسى ان هذه الحقبة هي التي ظهرت فيها ايضا ، نظريات بيولوجية ثورية اقامت المحافل العلمية واقعدتها عند اعلانها ، واعني بذلك نظريات داروين وسبنسر ولامارك التي ابرزت فكرة التحولات الشكلية والنوعية التي خضعت لها اصناف الاحياء مبدئية في نفس الوقت ما تتسم به فكرة التطور من أهمية بالنسبة للعلم وما ينطوي وراءها من حقائق عميقة تنير لنا ماضي الانسان وتجعلنا نتكهن بمصيره في المستقبل . فكانت هذه الاكتشافات من الحوافز القوية التي دفعت عددا من العلماء الى البحث بتدقيق في الاطوار التي مر منها البشر منذ العهد البدائي الى عصر الحضارة الحديثة . وبفضل ذلك ، عرفت العلوم الانتروبولوجية انطلاقة جديدة ظهر اثرها في كثرة التآليف والابحاث والاستكشافات الرامية الى التعرف على كل المجتمعات من بدائية وغيرها .

ومع هذا التيار البيولوجي التقى في نفس الوقت تيار الفلسفة الوضعية التي كان الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » أول الداعين اليها وفيها يعلن عن نظريته المشهورة التي تشخص تطور الفكر الانساني في مراحل ثلاث :

1) **المرحلة اللاهوتية** : التي يؤمن فيها الانسان بالخوارق والغيبيات ولا يجعل لمبدا السببية قانونا مضبوطا .

2) **المرحلة الميتافيزيقية** : وهي التي يحاول فيها الفكر ان يوجد فهمه لسير العالم الا انه يقبل ان يفسر ذلك السير بالاعتماد على الاسباب المستفادة من الميتافيزيقية .

3) **المرحلة الوضعية** : وهي المرحلة الاخيرة التي يعود فيها الفكر الى اليقين العلمي الصحيح ، المبني على التحقيق المباشر الذي ينبذ كل تفسير ميتافيزيقي . وكان لهذا التيار اثره في مختلف العلوم الانسانية ، وخاصة علم الاجتماع الذي عرف هو ايضا انطلاقة جديدة في هذا العصر ، ووضع لنفسه برنامجا ومنهاجا ولا زال منذ ذلك الحين وهو يوسع تجاربه وابحاثه .

كل هذه المذاهب والفلسفات ، على اختلاف مشاربها ومنازعها ، جاءت من طرق مختلفة لتلفت النظر الى اهمية ظاهرة التطور في الوجود الانساني اي في الحقيقة ، الى اهمية التاريخ . ومن هنا اخذ المنهاج التاريخي يكتسح الميادين العلمية كلها واصبح المثقف الحقيقي لا يمكنه ان يستغني عنه في تصوره للاشياء، في دراساته وابحاثه . ونجد لهذا المنهاج اثره ، ايضا في الصحافة والادارة مثلا ، فالصحافة الجدية ، كلما تعرضت لقضية من القضايا الوقتية الا ورات من الضروري أن تتحدث عن نشأتها والمراحل التي مرت منها . كما أن الادارة لا تنسى ان تكون ملفا عن كل مسألة من المسائل التي تشتغل بها ، فتسجل كل جديد يتعلق بها وتجمع كل المعلومات والمذكرات والتقارير المتعلقة بها . وهكذا تضم كل العناصر التي يتكون منها تاريخ تلك المسألة ، منذ نشأتها الى نهايتها؛ ولهذا كان التاريخ يجد غذاءه الطبيعي والاساسي في مجموعات الملفات المختزنة عند الدولة والتي نسميها الوثائق أو المستندات .

الروح التاريخية ، الشعور بالتاريخ ، الادراك التاريخي ، تلك عبارات اصبحنا نستمع اليها باستمرار لدى المثقفين والمفكرين على اختلاف انواعهم ومهنهم واهتماماتهم، يستعملونها سواء عند تناولهم لموضوعات سياسية او اقتصادية او ثقافية او غيرها ومنذ زمن بدات تترسخ في الاذهان نظرية تقول بأن أحد العوامل التي تفسر وضعية الشعوب المتخلفة هو عدم توفر الوعي التاريخي لدى تلك الشعوب ، وهذا يعني ، في العمق ، أنها تعيش في حاضر مستمر ، فلا تقيس الزمان بمقياس الاستمرار والسببية ولا تشعر بظاهرة

التطور التي يمكن ان تكون تحولا نحو الاحسن أو نحو الاسوا أي اتجاها نحو الانحطاط او التقدم .

فالشعوب الراقية اليوم شعرت منذ زمان بعيد أن الانسان يستطيع أن يجعل من تاريخه بناء ينمو ويستمر بانتظام لا يجري فيه الهدم الا فيما دعت الضرورة الى هدمه . وهكذا استطاعت مع مرور الزمان ، أن تضيف المكاسب الى المكاسب وان تخلق من ظاهرة التراكم هذه مصدرا للخلق المتواصل وللقفزات الثورية نحو التجدد بحيث ان المجتمع اصبحت له طرق معبدة ومناهج مضبوطة لكل انواع النشاط الجماعي والفردي حتى يقع اقصى ما يمكن من الاقتصاد في الوقت وحتى يصبح الانتاج الفردي او الجماعي في نمو مستمر . هذه الشعوب ما استطاعت أن تصل الى هذه الدرجة الا بعد أن قوى لديها الشعور بعامل الزمان وأهميته ، فبدأت ترى نفسها من خلال المنظار التاريخي وتزن يومها بامسها ومستقبلها بحاضرها .

هذه النظرة اثيرت ولا تزال تثار بالنسبة للشعوب العربية . فقد قيل ان العرب يعيشون خارج التاريخ او انهم لا يفهمون التاريخ على الطريقة التي يفهمه بها الشعوب المتقدمة ، وهذا قول يحتوي على حق وعلى باطل في آن واحد . حقا ، ان العرب بوصفهم شعبا من الشعوب التي لا زالت لم تتخلص من التخلف يعانون فتورا كبيرا من حيث الوعي التاريخي بمفهومه العام . ولكن هذا الفتور راجع ، في الواقع ، الى اتصافهم بوعي تاريخي آخر ، ولكنه وعي له مفهوم خاص . وهذا الوعي الاخير يتمثل في الحساسية القوية التي يتصف بها العرب ازاء ماضيهم التاريخي منذ ان دخلوا في طور الانبعاث . وكلمة « وعي » لا تؤدي هنا هذه الظاهرة بسائر جوانبها . ان العرب ، في الحقيقة ، يعيشون ماضيهم وهم يواجهون حاضرهم . والعرب حينما اكتشفوا تاريخهم في عصر الانبعاث ، فانهم ، خلافا لما قيل في بعض الآراء والنظريات ، لم يكتشفوه على طريقة اجدادهم ، بل تمثلوه في صورة جديدة لها ارتباط بالظرف والوضعية التي يعيشون فيهما .

فالاجداد كانوا يرون التاريخ العربي ممزوجا بالتاريخ الاسلامي لا ينفصل عنه ولم يكن لفكرة القومية العربية أي وجود مذهبي قبل عهد الانبعاث . بل كانت فكرة الامة الاسلامية هي الغالبة . فالعرب حينما كانوا اقوياء في عهد الدولة العباسية وغيرها قبلوا ان تندمج في كيانهم الجماعي شعوب واجناس أخرى من ايرانيين واتراك واقباط وبربر ، على اساس تكوين امة اسلامية واحدة . وحينما ضعفوا قبلوا ان يندمجوا هم في مجموعة اسلامية اخرى ولو لم تكن تحت قيادتهم . وهكذا انخرطوا في سلك الامبراطورية العثمانية ، لم يشذ عنهم في ذلك الا المغرب الاقصى الذي حافظ على استقلاله . وهم حينما خضعوا للدولة العثمانية لم يكن انقيادهم ناتجا عن الاجبار بالقوة . بل كان سلوكهم يتمشى آنذاك مع منطق الامة الاسلامية الذي الفوا ان يعيشوا فيه منذ عهد الخلفاء الراشدين .

لكن الحدث الجديد الذي ظهر في تاريخهم منذ عهد الانبعاث هو بروز فكرة القومية العربية التي لم تبق مجرد شعور غامض ومائع بل اصبحت عقيدة لها مضمون مذهبي يستمد مبادئه من مراجعة عميقة ومفلسفة للتاريخ العربي الاسلامي ، من جهة ، ومن المفاهيم التي برزت بها التيارات القومية الجديدة التي انطلقت في أوربا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، من جهة اخرى . الا ان الجانب التاريخي ربما كان اشد غلبة على النفوس واكثر انتشارا في الاوساط الشعبية لانه يلتقي مع ميول وتصورات عاطفية توجد لدى العرب ، بصفة عامة . وطغيان هذا التأثير التاريخي من ناحية العاطفة والوجدان هو الذي عاق ولا زال يعوق العرب عن العودة الى نظرة تاريخية واقعية عملية . اذن ، فليس بصحيح ان نقول ان العرب بعيدون عن الادراك التاريخي ، بل الصحيح هو ان نقول ان تشبث العرب بتاريخهم وارتباطهم به من ناحية وجدانية جعل جانبا من التاريخ يطغى على جانب آخر وأحدث لديهم نوعا من الانحباس في الوعي التاريخي ، بالمفهوم المتداول عند المفكرين الاروبيين .

على ان هذا الوعي التاريخي يختلف حسب المرحلة التي يوجد فيها المجتمع من حيث التطور الاقتصادي . فهنالك ما يسمى بالمجتمع الصناعي ويمثل ارقى صورة لحياة الشعوب في عالم اليوم لانها تجاوزت كل أنواع الانتاج المعروفة في التاريخ ومكنت الانسان من مباشرة سيطرة اقوى على الطبيعة واقترنت مع ارتفاع المستوى الحيوي سواء لدى الفرد او لدى الجماعة وهنالك المجتمع الفلاحي ، وهو الذي يعتمد فيه الانتاج اساسا على المحصول الفلاحي . والتجربة العالمية تدل على ان مثل هذا المجتمع لا يستطيع في الغالب ان ينافس المجتمع الصناعي من حيث توفير الثروة وفتح مجال العمل أمام الانسان . بل ان المجتمع الصناعي يضيف الى ضخامة الانتاج في الصناعة ، انتاجا وفيرا كذلك في الفلاحة ، كما هو الشان بالنسبة للدول

الكبار مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . بحيث ان المجتمع الصناعي يمثل تراكما في الثروات ولذلك ظل هو الهدف بالنسبة للدول التي تعاني مقدارا من مقادير التخلف .

وبالطبع ان هذين المجتمعين يمثلان عقليتين مختلفتين . تتراءى لنا بصورة جلية عندما ننتقل من قرية زراعية الى مدينة تحتضن مجموعة من المعامل . فالانسان يختلف من الاولى الى الثانية . وتشعر بان ساكن هذه المدينة يمثل فكرا اقوى ادراكا واوعى للاشياء من ساكن القرية ، فالاول بحكم الممارسة اليومية وتعدد الاتصال وتنوعه يحصل ، بالضرورة على ثقافة عملية أوسع وأخصب من الثاني . وقس على الافراد وضعية الشعوب .

فالوعي التاريخي بمعناه العميق الذي يتوفر للمجتمعات الصناعية ليس هو نفس الوعي الذي نجده لدى المجتمعات الفلاحية . فالشعوب العربية ما دامت لم تتحول بصورة فعالة وتامة الى المرحلة الصناعية ستظل نظرتها الى التاريخ تتسم بشيء من الرومانسية والعاطفية . ومثل هذه النظرة تجعل المجتمع يعجز عن رؤية الواقع ، وبالتالي ، عن القيام بالنقد الذاتي بمعناه الصحيح ، فلا بد من معركة داخلية ومن تجارب مرة ليستطيع الانسان ان يرى عيوبه فيقومها . وما يقال هنا عن الفرد يقال عن الجماعة ، والشعوب العربية ، التي لم تستكمل استقلالها الا منذ أمد قصير ، بدات تدخل الآن ، بالفعل ، الى طور الممارسة الحقيقية للحياة القومية وتتحمل مسؤوليتها وتصطدم بالمشاكل والمصاعب وهذا شأن كل الشعوب التي بلغت طور الرشد .

انما الذي يجب التنبيه اليه ، في هذا المضمار ، هو عدم الخلط بين الوعي التاريخي الحقيقي والتخلي عن مسؤولية التفكير القومي . فهنالك من يعتقد أن الوعي التاريخي هو الانسلاخ عن كل ما يمثل شخصيتنا التاريخية او التنكر لها بدعوى انها هي السبب في تخلفنا . وامامنا التجربة الكمالية في تركيا التي سارت في هذا الاتجاه ، لكنها لم تستطع ان تفصل الشعب التركي عن ماضيه . وليس من مصلحة الدول الكبرى التي لها رغبة واضحة في السيطرة على العالم ان تحتفظ الشعوب النامية بمقوماتها التاريخية ، لان تلك المقومات هي التي تمنح لتلك الشعوب القوة المعنوية التي تجعلها قادرة على المقاومة والصمود والشعور بالكرامة الذاتية . والتجربة التي عشناها مع الاستعمار خير شاهد على ذلك . ولو لم يكن أثر لتلك المقومات في نفوس العرب ، لما استطاعوا أن يواجهوا القضية الفلسطينية بمثل هذا الصمود الذي يرجع في بدايته الى اكثر من خمسين سنة ، اي منذ وعد بلفور .

والدول التي تساند الصهيونية تريد أن تقنع العرب بالتخلي عن موقفهم بطرق مختلفة ، من جملتها محاولة الاستدلال على ان ذلك الموقف لا يتماشى مع الوعي التاريخي الحقيقي ، فتأخذ على العرب ، مثلا ، انهم غير واقعيين وانهم يتشبثون ببعض الافكار العتيقة التي لم يعد لها ذكر في هذا العصر وان عليهم ان ينصرفوا الى التنمية الذاتية بدل ان يرهقوا ميزانيتهم بالمصاريف العسكرية الخ .. الخ .. ثم يقترحون على العرب عن طريق التلميح والكناية ان يتخلوا عن كل ما يربطهم بماضيهم وان يتقمصوا عقلية جديدة مستمدة من الغرب . وهذا ما يجعل العرب على حق حينما يظهرون الثبات في موقفهم ويرفضون بعض « النصائح » المبنية على المغالطات ، فالوعي التاريخي الحقيقي ليس هو الذي يجرفهم في تيار التخلي والميوعة ، وليس هو الذي يدفعهم الى التقليد المجاني ، بل هو الذي يدفعهم الى التفكير الحر المستقل الذي يزن الاشياء بميزانها ، لان الشعوب حينما تتحمل مسؤولية الحياة في نطاق السيادة والاستقلال ، لابد لها من ان تصوغ لنفسها نوعا من التفكير القومي ، يقربها من غيرها من الشعوب ما وسعها التقريب ، ولكنه يحفظ لها في آن واحد مقوماتها المعنوية التي ، بفضلها ، تستطيع ان ترسم مكانها واضحا في عالم اليوم .

فالوعي التاريخي ، اذن ، هو حاسة دقيقة تستطيع بها الشعوب ان تحدد سلوكها دون أن تهوى في بعض المزالق والاخطاء التي لا تغفر . واذا كان هذا الوعي ينمو مع تقدم الامة وارتقائها الى الطور الصناعي فانه كذلك يتسع مع انتشار الدراسات التاريخية ، سواء في أوساط المثقفين او لدى الجمهور بصفة عامة . وهنا يجب ان نعترف بان العرب ، لا زالوا متخلفين نوعا ما في هذه الدراسات . نعم لقد حققوا تقدما لا ينكر حينما اسسوا جامعات متعددة وزودوها بكراسي للتاريخ ، وحينما أقدموا على نشر عدد مهم من الكتب التاريخية ما بين تآليف قديمة وحديثة . ولكن هذا المجهود اذا قورن بما يجري في البلاد المتقدمة ، يظهر آنذاك متواضعا ومتواضعا جدا . يضاف الى هذا ان كثيرا من التآليف لا زالت لم تتحرر من المناهج القديمة التي لم تعد تفي بالحاجة التي ينتظرها العلم اليوم من التاريخ اي انها ، بعبارة أوضح ، تعاني نقصانا من

الناحية العلمية بالنسبة لما ينشر في اوربا مثلا . فالتاريخ لم يعد سلسلة من الاقاصيص والحكايات تمل لانها تعاد وتكرر باستمرار مثل اللازمة في القصيدة الطويلة ، بل هو مجهود علمي يهدف الى المزيد من استكشافات الاسرار والمعاني الكامنة وراء شريط الاحداث . وعلى أي حال ، فان فائدته لا تظهر الا اذا توفرت فيه الشروط العلمية .

ونظرا للخطوات الواسعة التي حققها التاريخ كعلم في عصرنا هذا ، فقد اصبحت له علاقة وثيقة مع سائر العلوم والمعارف الانسانية . ولا يمكننا ان نعتبر المثقف قد استتم تكوينه الصحيح اذا لم يكن له بعض الالمام بالتاريخ . فالتاريخ يساعدنا على التعرف الى التطورات الداخلية التي جرت في مختلف العلوم ، كما يمكننا من تقييم المكاسب العلمية على مختلف العصور وتاثيراتها على الحضارة ، فلولا التطورات المهمة التي جرت في تاريخ الملاحة منذ العصر القديم الى اليوم ، ولولا معرفتنا بها ، لما عرفنا قيمة المبدا العلمي الذي اكتشفه العالم اليوناني « ارخميدس » ولولا التطبيقات العديدة لما يسمى في الرياضيات باللوغاريزمات لما عرفنا فضل الخوارزمي على الانسانية . ولولا ما حفظه لنا التاريخ عن التطبيقات المهمة لما اكتشفه العالم باستور في موضوع الجراثيم والميكروبات لظللنا نجهل اهمية ذلك الاكتشاف في تطور العلوم الطبية . والامثلة من هذا النوع لا تدخل تحت الحصر . بحيث ان التاريخ هو الذي يقيم الاعمال الانسانية بما لها وما عليها ويبين نتائجها في التطور العام للعالم .

وحكم التاريخ في هذا الصدد يحمل طابع الحكمة النهائية التي لا ينقض حكمها ولا يرد . وما اكثر المرات التي تختلف فيها مع حكم الرجال المعاصرين ، فيهمل اناسا اشتهر ذكرهم في عصر من العصور ويشيد باناس ظلوا خاملين في زمانهم ويرفع من اعمال وآثار ويخفض من اخرى ويعطي لكل ذي حق حقه . ولنذكر بعض الامثلة من التاريخ الاسلامي . لقد كان اجدادنا الاقدمون يتحاملون على المعتزلة ويسفهون آراءهم ويندون بهم . لكن التاريخ جاء اليوم ، فبين فضل المعتزلة على العلوم الاسلامية وعلى تطور الفكر عند المسلمين حتى اصبح الباحثون في كل مكان يتسارعون الى التنقيب عن آثار المعتزلة والاطلاع عليها . وكذلك كان شان الفلسفة والفلاسفة ، فلم يقبلهم العلماء المسلمون في القرون الوسطى وظلوا محل ريبة وتحامل الى عهد قريب . لكن التاريخ انصفهم اليوم وبين اهمية الدور الذي لعبوه ، سواء في نطاق الثقافة العربية الاسلامية او في نطاق تاريخ الفكر الانساني بوجه عام.

هذه الروح التاريخية ضرورية ، اذن ، للجماعة لانها تساعدها على فهم التطور والتهيؤ له وقبول حتمياته . وهي ضرورية كذلك ، بصورة اقوى ، للمثقف مهما كان اختصاصه لانها تساعده على تصحيح منطقه ونظرته الى الاشياء وعلى اكتساب بعض المزايا الفكرية الاساسية . فبفضل التاريخ سيصبح اقدر على التثبت في احكامه وتمحيص آرائه والاتصاف ببعد النظر ووضع الاشياء والناس في مكانهم الحقيقي، والابتعاد عن التعميمات والتجريديات التي تقذف بالانسان في مزالق التوهم والغلط . التاريخ مدرسة تعلم الانسان العودة الى المحسوس والملموس والاتصال مع الحياة في واقعها وتياراتها النابضة . فهو بهذا المعنى يتوازن مع التكوين الفلسفي المبني على التجريديات ويتكامل معه .

لكن التاريخ له ، من ناحية اخرى ، علاقة بالحياة العملية ، ولا ينحصر دوره في التكوين النظري . ومنذ قديم والمؤرخون يرددون هذه الفكرة وهي ان التاريخ مدرسة طبيعية بالنسبة لكل من يتحمل مسؤولية ذات اهمية في المجتمع فهو حينما يقدم له دروسا عن الماضي يتيح له الفرصة ليستفيد منها في عمله حاضرا ومستقبلا فهذا « تيوسيديد » Thucydide وهو من اقدم المؤرخين اليونانيين ، اذ توفي في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، ينادي هو الاول بهذه الفكرة وهي ان التاريخ بمثابة مخبر يستفيد منه الانسان في عمله الحالي . ومعنى ذلك ان التاريخ لابد وأن يعيد نفسه وتتكرر احداثه . فالحكمة، اذن ، تقتضي أن نستفيد من تجارب الماضي . وحري بالرجل السياسي وبالقائد وبالمفكر أن يعود الى تلك الدروس الحية دروس الاحداث . ونجد هذا الراي عند مؤرخ يوناني آخر « بوليب » Polybe الذي لا يقل شهرة عن السابق فهو يرى ان للتاريخ دورا في تقويم السلوك الانساني . ونفس الموقف نجده عند المؤرخ الروماني المشهور « تيتوس ليفيوس » Tite - Live الذي يعتبر التاريخكصورة تنعكس عليها المبادىء الاخلاقية للانسان . واذن ، فمن الواجب استعمال هذا العلم كطريقة لتلقين بعض الدروس الاخلاقية .

ويذهب المؤرخون المسلمون بدورهم الى نفس الاتجاه . فالتاريخ في نظرهم سجل حافل بالمواعظ والعبر من شانه ان يقوي عقيدة المسلم في الله وان يدفعه الى سلوك الطريق المستقيم . فالمؤرخ الكبير أبو الفرج ابن

الجوزي يقول في مقدمة المنتظم : « وللسير والتواريخ فوائد كثيرة اهمها فائدتان . احداهما أنه ان ذكرت سيرة حازم ووصفت عاقبة حاله افادت حسن التدبير واستعمال الحزم او سيرة مفرط ووصفت عاقبته افادت الخوف من التفريط فيتأدب المتسلط ويعتبر المتذكر ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول ويكون روضة للمتنزه في المنقول ، والثانية ان يطلع بذلك على عجائب الامور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر وسماع الاخبار . ويقول العماد الاصبهاني : « لولا التاريخ لضاعت مساعي اهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة ، وتعذر الاعتبار بمسالة الايام وعقوبتها وجهل ما وراء صعوبة الايام من سهولتها وما وراء سهولها من صعوبتها » ويعتبر المؤرخ شمس الدين السخاوي التاريخ مفيدا للانسان سواء في الشؤون العامة او الخاصة فيقول : « ويستفاد من أنباء هذا الفن ما لعله مندرج في علوم أخرى كالسياسة ، العلم الذي يتعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات الفاضلة والمردية وتوابع ذلك ، وكعلم الاخلاق الذي يعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وانواع الرذائل وكيفية اجتنابها وكعلم تدبير المنزل الذي يعلم منه الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجه وولده وخدمه ووجه الصواب فيها » .

يضاف الى هذه النظرة الفلسفية التي التقى فيها المؤرخون المسلمون مع سابقيهم من المؤرخين اليونانيين والرومانيين ، نظرة دينية تفردوا بها وكانت في الحقيقة نتيجة منطقية للتعاليم الاسلامية ، فهم يعتبرون ان هنالك حقبة كان يوجد بها سلف صالح وأن المسلم يجب عليه ان يستمد مثله ومبادئه الاخلاقية من دراسة تلك الحقبة المفضلة التي عاش فيها ذلك السلف الصالح . ولهذا تركزت عناية المؤرخين المسلمين ، قبل كل شيء ، بالسيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين وعصر المغازي والفتوح. فهم يعتبرون ان دراسة هذا العصر لا تهم المعرفة وحدها ، بل تهم السلوك أيضا . وكان بعض الخلفاء الكبار مثل معاوية والسفاح والمأمون يحبون من يسامرهم بالاحاديث التاريخية عن الامم والاجيال السابقة . ولاشك ان مثل تلك الاحاديث كانت ترفع مستواهم المعنوي وتقويهم على مواجهة مسؤولياتهم الكبرى ، زيادة على ما فيها من متعة وتسلية .

فاذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد ان هذه النظرة تغيرت بعض الشيء ، اذ أصبح التاريخ يطمح أن يكون علما وضعيا كغيره من العلوم فيجتنب كل تفسير مبني على الفروض والنظريات ويظل مرتبطا بالوقائع والاحداث ويتسلح بالروح النقدية في كل حركاته وسكناته . ومنذ القرن الماضي اصبح المؤرخون يرفضون ، على العموم ، ما يسمى بفلسفة التاريخ ويعتبرونها خطوات عشوائية في ميدان يتطلب كثيرا من التثبت والحذر . ومن ثم ، فهم يترددون في اعتبار التاريخ كمخبر للتجارب الانسانية يستفيد منه انسان اليوم . بل يرون أن الفوارق الزمانية والحضارية تجعل هذه الفائدة غير مضمونة ، ذلك لان فكرة « التاريخ يعيد نفسه » لا ترتكز ، في نظرهم ، على أساس صحيح .

ومع ذلك ، فان القادة والرجال المسؤولين في عصرنا الحديث لا يستغنون عن الثقافة التاريخية . فهي تدخل بنصيب كبير في تكوينهم ، وتعرض على تفكيرهم العملي والنظري ذخيرة من المراجع والمقارنات التي تساعدهم في مهامهم الثقيلة . لهذا كانت الدراسات التاريخية تحتل مقاما كبيرا في المدارس العليا التي يتخرج منها السياسيون والدبلوماسيون والاداريون مثل معاهد العلوم السياسية والمدارس الادارية بفرنسا وغيرها .

يتضح لنا مما تقدم ان التاريخ له علاقة بمختلف العلوم وببث الوعي التاريخي في المجتمع وبالتكوين الفكري للانسان في العصر الحاضر ، كما أن له مكانة البارز والضروري في تفكير الرجل المنصرف للعمل المتحمل للمسؤوليات . لكن التاريخ له فوائد أخرى يجب أن نتحدث عنها ولو بايجاز .

1) في هذا العصر الذي اصبحت الامم تتسابق فيه نحو التقدم والسبق الى الاختراع والاكتشاف ، أصبح من الضروري لكل امة ان تعود بالنظر من حين لآخر الى ما وراءها لتنظر الخطوات التي خطتها حقيقة ولتملأ عينيها من رؤية ماضيها . وكلما كان ذلك الماضي حيا حافلا بجلائل الاعمال ، كلما ارتفعت معنويتها ووجدت اسبابا قوية للثقة في نفسها والسير الى الامام برباطة جاش واطمئنان .

وبهذا المعنى ، فالتاريخ يلعب دورا كبيرا بالنسبة للحياة القومية ، انه يحافظ للامم على كيانها وشخصيتها وقد جربنا نحن ذلك في حياتنا القومية . فمن المعلوم ان الاستعمار حاول بشتى الوسائل أن يهضمنا في كيانه وينسينا هويتنا وشخصيتنا التي نعتز بها . لكنه كان يصادف مقاومة طبيعية لدى كل طبقات الشعب .

وعندما اقول طبيعية ، فاني أقصد بذلك انها لم تكن منظمة ولا مهياة ، وانما هي مقاومة تلقائية نابعة من رد فعل أوحت به السجية الوطنية . وهذه المقاومة لها في الحقيقة جذور كامنة في اللاشعور الجماعي . فنحن امة ذات تاريخ يرتفع في عراقته الى العهد الذي ظهر فيه اليونان على مسرح التاريخ وفي هذه المدة الطويلة، كانت لنا حياة وطنية في بلادنا مرت من أطوار مختلفة. فعرفنا الحلو والمر وعرفنا الرقي والانحطاط . وبسبب التجارب التي مررنا منها كجماعة ، تكونت بيننا وشائج وروابط وتاصلت فينا ثقافة قومية تعبر عن حقيقتنا . ومن كل هذا ، تكون لدينا ، مع مرور الاعوام، شعور بوجودنا وبشخصيتنا . ولم يعد من الممكن على كل قوة اجنبية مهما عظمت واستعملت من وسائل وأساليب أن تدمجنا في شخصية أخرى غريبة عنا .

وهنا تظهر لنا اهمية التاريخ في التربية الوطنية وتكوين المواطن الصالح . فالوطن ليس فقط بقعة جغرافية تشغل حيزا معلوما في الكرة الارضية ، ولكنه يمثل ايضا انطلاقة شعب وعمله وحركته وارادته كما ترتسم على مر الزمان . وبما أننا شعب لا زال فتيا ولا زال يتحفز للنهوض الاكبر ، فنحن احوج ما نكون الى دراسة التاريخ والى ادخاله بصورة كافية وفعالة في برامجنا التثقيفية . والعمل الذي ينتظرنا في هذا الباب كبير جدا . فاذا كان الشاب الفرنسي او الانجليزي او الالماني ، حينما يفتح عينيه على بلاده وعلى العالم ويصل الى درجة الوعي والنضج ، يجد أمامه تاريخ بلاده مدروسا بالجملة وبالتفصيل في كتب وضعها علماء مختصون كرسوا حياتهم لذلك ، فان الشاب المغربي، لسوء الحظ ، لا يجد شيئا من ذلك . فتاريخ بلادنا لا زال مجهولا ولا زال لم يكتب . نعم هنالك كتب قديمة عديدة وأخرى حديثة . ولكنها كلها لا تفي بالمطلوبات . فالقديمة لا يمكن أن تصلح الا كمراجع ومصادر ، لانها لا تتوفر على الشروط المطلوبة اليوم في الكتاب التاريخي اما الحديثة ، فهي ، في الغالب ، كتب مدرسية ألفت بسرعة لتملأ الفراغ الموجود في هذه المادة المهمة . ولكن التاليف الذي ننشد والذي ننتظر هو الذي يرضي المقتضيات العلمية ويرضي في آن واحد هذا التعلق العاطفي الذي نشعر به ازاء بلادنا . ولعل هذه المهمة سيضطلع بها الجيل الصاعد باحسن صورة وسيسد هذا الفراغ الذي نشعر به . فنحن نتالم عندما نجد الطفل والمراهق والشاب عندنا يستطيعون ان يتكلموا عن تاريخ أوروبا بكل طلاقة ومعرفة واهتمام . فاذا تحولوا الى الحديث عن تاريخ المغرب ، تعثروا ولم يجدوا نفس السهولة والطلاقة في الكلام . وليس الذنب فيما اعتقد ، ذنبهم ، وانما ذنب الظروف الخاصة التي مررنا بها في حياتنا الوطنية منذ جيلين كاملين ، فجعلتنا نهمل الكتابة بالصورة الجدية في تاريخ بلادنا .

2) لكن لا ينبغي ان ينحصر اهتمامنا في تاريخ بلادنا وحده ، بل يجب ان يشمل دراسة التاريخ ، بصفة عامة ، دراسة التاريخ كعلم قائم بذاته يحب لنفسه ويستخرج منه الانسان الفطن العاقل قوانين التطور التي تحتم على المجتمع التنقل من حال الى حال والمرور من حسن الى احسن ولا اجد هنا للتعبير عن هذه الفكرة خيرا من هذه الصفحة التي كتبها مؤرخنا العظيم اذ يقول :

« ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام. وهو داء دوي شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة ، فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من اهل الخليقة. وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول ، سنة الله التي قد خلت في عباده . وقد كانت في العالم امم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط ، وكانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم سياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ، ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب ، فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها او يشابهها والى ما يباينها أو يباعدها . ثم جاء الاسلام بدولة مضر ، فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة أخرى ، وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ياخذه الخلف عن السلف، ثم درست دولة العرب وايامهم وذهبت الاسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر في ايدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال . فذهبت بذهابهم امم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شانها واغفل امرها » .

ولا يمكن للانسان ، بعد الاستماع لمثل هذا الكلام الا ان يصفق بكلتا يديه لابن خلدون ، متمنيا أن يقتدي به مواطنوه في القرن العشرين ، قرن الوثبات الكبرى في ميدان العلم واستكشاف المجهول .

الرباط — محمد زنيبر



ـلال الفن يتجلى فى جدار المسعى بمكة المكرمة وكان هذا الانجاز من المشروع الكبير الذي نفذته الحكومة السعودية لتوسعة المسجد الحرام تيسيرا لاداء الشعائر الدينية



هذا العنوان ماخوذ برمته من كتاب صدر باسم « الاقتصاد العربي بين التخلف والانماء » لصاحبه الدكتور انطوان ايوب من كلية الحقوق بجامعة حلب بسورية ، خصصه المؤلف لدراسة مظاهر التخلف الاقتصادي فى البلدان النامية والدول العربية والاسلامية بنوع خاص . والكتاب يشمل على 438 صفحة من القطع الكبير وزعت محتوياته على ثلاثة ابواب : الباب الاول فى ظاهرة التخلف الاقتصادي واسبابها ، الباب الثاني فى ذكر مشاكل الاقتصاد المتخلف والباب الثالث والاخير يتناول بحث الطرق المختلفة التى تهدف الى الانماء الاقتصادي .

ونظرا لاهمية المواضيع التى طرقها المؤلف والعناية الخاصة التى شمل بها هذه البحوث التى لها فائدة كبرى بالنسبة لعالمنا المتخلف فقد بدا من المفيد ان نسوق لقراء مجلة « دعوة الحق »، بمناسبة مرور اربعة عشر قرنا على الدعوة الاسلامية الغراء ، ملخصا لبعض ما جاء فى هذا الكتاب من دراسات نافعة مقتصرين على الباب الاول مما يتعلق خاصة بعنوان هذه المقالة .

* * *

وقبل ان يتصدى السيد انطوان ايوب الحديث عن هذا الموضوع القيم بروح علمية نقادة يعتمد فيها على احدث الدراسات التى ظهرت لحد الساعة فى مادة الاقتصاد وتطور البلدان المتاخرة راى من المناسب ان يتعرض لتحديد معنى العالم الثالث ، او ما ينضوي تحت عنوان « البلدان المتخلفة » التى قيل عنها بانها هي التى توجد الآن فى طريق النمو الاقتصادي او التى قال عنها كذلك علماء الاقتصاد بانها امم يمكن ان يقال عنها بانها فى طريق الصيرورة، وهي أيضا بلدان متاخرة فتية ، شابة ، فقيرة او هي بلدان العالم الثالث ، عالم الجهل والفقر والمرض. (1)

وفى هذا الصدد يشير المؤلف الى ان العالم الاجتماعي جاك برك Jacques Berque يتساءل، بحق، عن مدى صحة هذه التسمية ويقترح كبديل لها « العالم الاول » بمشاكله واهميته وخطوره تطوره على نمو الحضارة الانسانية (2) . ونحن لا تهمنا تسمية هذه البلدان بقدر ما يهمنا ان نعرف ، بناء

---

(1) الاقتصاد العربي بين التخلف والانماء للدكتور انطوان ايوب – مطبعة جامعة حلب (سورية) سنة 1965 – 1966 – ص : 3

(2) من محاضرة القاها الاستاذ جاك برك (J. Berque) بمدينة حلب فى خريف 1965 (تعليق انطوان ايوب) .

على الدراسات التى ظهرت لحد الآن فى موضوع التنمية والاقتصاد انه بقدر ما يزداد نمو البلدان المتقدمة صناعيا او تكنولوجيا بقدر ما يظهر ويتجلى بكل أسف تخلف البلدان السائرة فى طريق النمو والتطور ، هذه الظاهرة التى اعرب عنها فى المدة الاخيرة الامين العام للامم المتحدة السيد اوطانت بجعل ذوي النيات الطيبة من العاملين لفائدة الدول المتخلفة فى حيرة من امرها ، فلا هم يعلمون ماذا يصنعون لتلافي هذا التقهقر الذى جعل الهوة تبدو سحيقة على مر الزمان بين الدول الصناعية المتطورة والبلدان التى تلهث من ورائها عسى ان تلحق بها فى يوم من الايام ترجو الا يكون بعيدا ! والامور تتعقد وتتشابك حينما يتعكف المرء على دراسة اسباب هذا التخلف الذى يعاني منه العالم الثالث الامرين ، تتتابع الحيرة حينما يعلم ان هناك مشاكل ظهرت للقادة السياسيين فى هذه البلدان وهي مشاكل جاءت فى ركاب التحرر السياسي والاستقلال وكذلك فى ركاب الاستعمار الجديد الذى واكب احيانا الاستقلال السياسي ، وهو نوع جديد من الاستعمار مختلفة الوانه ، متعددة مشاربه ، منه الاستعمار الاقتصادي والاستعمار الاجتماعي والاستعمار الخلقي والاستعمار اللغوي وهو اشد خطورة من غيره نظرا لما يحمله فى طيه من وسائل تنذر بشر مستطير على الامة التى فارقها منذ حين ، وانفه راغم ، ثم يتبع ذلك كله « الايديولوجيات » او العقائد السياسية والاجتماعية التى يستوردها او يسعى فى استيرادها بعض اصحاب البلد المتخلف ظنا منهم انهم جاءوا بعصا سحرية سوف تاتي بتغيير الاوضاع الاقتصادية السيئة التى يعاني منها ذلك البلد الذى حاولوا ان يسلطوا عليه نظرية فلسفية مستوردة يعتقدون انها ستضفي عليه ربيعا سرمديا لا اثر له فى الواقع الا فى عقولهم المريضة المتنكرة لاوطانهم .

❊ ❊ ❊

بعد هذا الاستهلال ينظر الكاتب فى تقسيم البلدان الى فئتين ، فئة البلدان المتقدمة المحظوظة وفئة البلاد المتاخرة ، مع العلم ان عدد البلدان المتاخرة قليل ويزداد قلة على مر السنين والاعوام بالنسبة البلدان الصناعية ، وذلك منذ ان تركت وراءها عصر القرون الوسطى لتدخل بقوة ونشاط فى عصر انبعاث ونمو مستمر على اثر الانقلاب الذى لحق بالاوضاع السياسية والاقتصادية والادبية التى كانت تعيش عليها تلك الجماعات الاوروبية قبل ذلك . ويقول المؤلف بعد ذلك فيما يتعلق بهذه الثورة التى تعرضت لها الجماعات الاوربية فجاة من سائر الوجوه : « وكان من نتيجة ذلك ان توسعت الحملات الاستعمارية وتغير طابعها ، فمن سياسية وعسكرية وتبشيرية انقلبت الى حملات اقتصادية ـ سياسية بالدرجة الاولى ، ذلك ان الثورة الصناعية كان لابد لها من مناطق غنية بالمواد الاولية لتسيير معاملها ، ومن اسواق واسعة تصرف فيها منتجاتها ، فكان استعمار واستغلال بلدان «العالم الثالث» خير وسيلة لتحقيق هذين الفرضتين (3).

ويستطرد المؤلف فى القول مؤكدا بان العامل الجديد فى هذا الموضوع هو ليس اقتناع الدول المتقدمة صناعيا بضرورة بسط نفوذها على البلدان المغلوبة على امرها بل هو شعور هذه البلدان الاخيرة ، خصوصا عقب الحرب العالمية الاخيرة بفقرها وجهلها وباعتبارها امما مسيطرا عليها ، بحيث راحت تومن ايمانا قويا بانه لا سبيل الى فك ذلك الخناق الذى يطوقها معنويا واقتصاديا الا بشن حرب لا هوادة فيها ضد المستعمرين الغاصبين ، بل اصبحت موسنة بانه بعد ما يكتب لها استرداد حريتها واستقلالها على اثر جهاد مرير وكفاح طويل فان الدول المتقدمة ستغير مخططاتها بالنسبة لتلك الدول الفقيرة لاقرار نفوذها على العالم الثالث وذلك باتخاذها مناطق نفوذ ستراتيجية وفكرية فى بعض تلك الدول ، فيصبح العالم كله مقسما الى شطرين عسكريين يحاول كل منهما استمالة طائفة من الدول الى جانبه .

❊ ❊ ❊

هذا وقبل الحديث عن ظواهر التخلف الذى هو موضوع هذه المقالة يحسن بالقاريء الكريم ان يعلم أن فكرة التخلف تلاحق فى الواقع كل بلد من بلدان العالم فى وقتنا الحاضر بما فى ذلك البلدان المتقدمة نفسها ، فهي رغم تقدمها من الوجهة الاقتصادية ، تضم مناطق متخلفة لم تبلغ درجة النمو الكامل كشبه جزيرة بريطانية فى فرنسا ، فمما لا شك فيه ان هذه المقاطعة فقيرة تعاني تخلفا ظاهرا من الوجهة الاقتصادية ، وهناك بلدان متخلفة وان كانت مكتظة بالسكان كالهند ، واخرى متخلفة مع انها تعاني نقصا فى السكان كالمملكة

(3) انظر كتاب : الامبريالية كمرحلة قصوى للراسمالية للسيد لينين
Lénine : L'impérialisme, stade suprême du Capitalisme

العربية السعودية . ومع ذلك كله فانه بالامكان ان نتحدث للقارىء استنادا الى الكتاب الذي اعتمدناه عن مظاهر التخلف بالنسبة للدول السائرة في طريق النمو وهي ظواهر بشرية واقتصادية واجتماعية .

والذي لا شك فيه ان ما يميز البلدان المتخلفة اقتصاديا هو تزايد السكان فيها بصورة مقلقة جدا لم تعهدها البشرية من قبل مطلقا ، ومعدل تزايد السكان في تلك البلدان كلها يتراوح بين 2،5 و 3 بالمائة ، فبالنسبة للمغرب الاقصى مثلا يزداد عدد السكان بثلاثة في المائة فاصلة واحد في كل سنة ، وهذا معناه ان في مطلع كل سنة دراسية يجب على المسؤولين ان يستعدوا لقبول ما يقرب من 350.000 تلميذ في سن الدراسة . واخوف ما في الامر هو ان عدد سكان المغرب يتضاعف بعد كل 30 سنة، والقضية في الواقع لا تنحصر فقط في ايجاد مجموعة من المقاعد في المدارس الابتدائية لهذه الجموع من الاطفال ، ولكن المشكل يتعلق بايجاد الخبز لهذه الافواه والعمل لتلك السواعد الفتية . واذن فالقضية قضية معركة اقتصادية ينبغي على السلطة ان تربحها مهما يكن الثمن . وهذا الذي حمل جلالة الملك المعظم على ان يتصدى لمحاربة التخلف الاقتصادي بكل الوسائل ويشنها حملة فلاحية تضمن الخبز لهذه الافواه الجديدة . ان الزيادة الفاحشة في عدد السكان خصوصا مع انتشار وسائل الوقاية من الامراض هي التي جعلت جلالة الملك الحسن الثاني يتساءل عن نوع النظام الذي يضمن لهؤلاء الافراد وسائل العيش ، ولابد ان يكون نظاما سياسيا واقتصاديا ينسجم مع تقاليدنا العريقة باعتبارنا امة مسلمة لا ترضى الخضوع لاية ايديولوجية رخيصة مستوردة من الخارج ، وذلك النظام هو الذي عبر عنه صاحب الجلالة بانه اشتراكية تغني الفقير ولا تفقر الغني ، واكثر ما يحمل على القلق هو ان تزايد السكان في العالم لا « يكتسي نسبة معلومة بالنظر للبلدان كلها ، ولكنه يكتسي خطرا داهما بالنسبة لدول خاصة ، هي الدول المتخلفة ، والدول الاسلامية من بينها ، ولذلك ترى الامم المتحدة ضرورة تنبيه المسؤولين الى هذا الوضع عسى ان يتخذوا من الاجراءات ما هو كفيل بالقضاء شيئا فشيئا على هذا التورم » .

ومما لا ريب فيه ان هناك ارتباطا وثيقا بين هذا التزايد المقلق الذي تشكو منه الدول الضعيفة والحالة الاقتصادية التي يعيش عليها سكان تلك الاقاليم المختلفة ، فقد لاحظ الاخصائيون ان الطبقة الضعيفة التي لا تأكل جيدا ولا يتنوع طعامها كالعمال مثلا يمتازون بكثرة الولادة لانهم يجدون في العلاقات الجنسية متنفسا لما يعانونه من ضنك وضعف في الموارد ، وهكذا لوحظ ان عمال المناجم مثلا ومن هو في حالتهم من حيث صعوبة المهنة التي يتعاطونها هم ايضا اولئك الذين يزداد في اسرهم عدد الاطفال بصفة مخيفة ، كما يؤكد ذلك خوسي دي كاسترو J. de Castro في نظرية شهيرة له من ان هناك علاقة بيلوجية بين الجوع او سوء التغذية وبين ارتفاع نسب الولادات (4) . ويرد بعضهم الاسباب الرئيسية في هذه الطفرة من الولادات في البلاد المتخلفة لا الى عوامل بيولوجية ، ، كما يعتقد كاسترو، ولكن الى عوامل اجتماعية بحتة ، ذلك انه اذا كانت الولادات الشرعية في البلدان الاوربية والبلاد الاسلامية التي تعرف بحسن اخلاقها على وجه العموم تتراوح بين 90 و 95 بالمائة فان النسب المئوية في الولادات غير الشرعية في بعض الدول الافريقية التي تمتاز بحرية جنسية مبالغ فيها تبلغ رقما مخيفا ، كما يلاحظ بأن سن الزواج المبكر يؤثر على عدد الولادات ، ولذلك تقرر في احدى الندوات التي انعقدت بالجزائر العاصمة سنة 1967 تحت اشراف وزراء التربية الوطنية لبلدان المغرب العربي ان تعطى البنات كل التسهيلات لمتابعة دراستهن في التعليم الابتدائي والثانوي على الاقل حتى يتأخر سن الزواج بالنسبة اليهن ، فلا ينجبن الا بعد العشرين سنة من عمرهن على الاقل .

يضاف الى هذا كله ان مفهوم العائلة نفسه سواء نظرنا اليه بالنسبة للاوربيين او بالنسبة للمسلمين لمما يؤثر هو الآخر في قضية ازدياد السكان في البلدان المتخلفة ، فاذا كان من الاسرة يفهم مجموعة من الانفار يعيشون تحت سقف واحد هم الاب والام والابناء الذين لا يتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة على الاكثر في البلدان الاوربية المتقدمة ففي البلاد الاسلامية يعطى للمفهوم الاسروي معنى قبلي ، فالعائلة تعيش تحت سقفها جماعة تتكون من الجد

(4) انظر J. do Castro : Géopolitique de la faim ; les Editions ouvrières - Paris, 1952 - p. 84 à 93.

والجدة واحيانا من الاعمام والاخوال بالاضافة الى الابوين والاولاد المتعددين بحيث اصبحت حتى بالنسبة لبعض الدول السائرة في طريق الرقي المادي والاقتصادي كالمغرب الاقصى من الصعب جدا على بعض العائلات ان تهتم بتربية اولادها وتقوم بتدبير شؤونها على الوجه المطلوب ، ومما زاد في الطين بلة ان الامراض التي كانت متفشية في كثير من البلدان المتخلفة وكانت تقضي على عدد من الاطفال وهم في طور الصغر او الرضاعة تضاءلت بصورة واضحة نظرا لانتشار الوقاية والمحافظة على الصحة في كل مكان ، بل هذه الوسائل ابعدت شبح الموت حتى بالنسبة للكبار الذين كانوا يموتون في سن مبكرة نسبيا ، ومن اجل ذلك تضاعف عدد السكان من فوق ومن تحت ، ان صح هذا التعبير ، وذلك ليس نتيجة لتقدم البلدان المتخلفة في العلوم الطبية واكتشافات ابنائها ، ولكنه تقدم مستورد في شكل كميات هائلة من الادوية الرخيصة التي اصبحت تلك البلاد تستوردها بسهولة من العالم المتقدم . ومن التناقضات اننا نعيش اليوم في عالم اصبح في امكانه المحافظة على حياة الانسان بل تمد يدها حتى يعيش سنوات طويلة على ان يقاسي، مقابل ذلك، ما يقاسي من الفقر والبؤس والجهل ، ولهذه الاسباب كلها اصبح من الممكن ان نلقب ما نشاهده اليوم من زيادة في سكان العالم الثالث والعالم الاسلامي بنوع خاص بثورة بشرية عارمة لا ندري اين يقف اثرها اذا لم يتداركها المسؤولون بالوسائل الكفيلة بالتخفيف من الضغط الذي تحدثه على هذا العالم المتأخر المتخلف .

اما الظواهر الاقتصادية للتخلف في الدول النامية والدول الاسلامية فيبدو جليا ، حسب ما جاء في الكتاب الذي اعتمدناه ، في نواح ثلاث هي ضعف الدخل الفردي السنوي واهمية القطاع الزراعي واسعار المواد الاولية وتأثيرها على التجارة الخارجية ومستوى الدخل القومي .

اما متوسط الدخل الفردي فهو الحاصل من قسمة الدخل القومي العام على عدد السكان العام في بلد معين . وهذا الدخل قد يعلو وينقص بحسب المؤثرات التي تعمل فيه ، وقد يكون قليل الاهمية حتى بالنسبة لبلاد تحتل فيها الصناعة المقام الاول اذا كان عدد سكانها من الكثرة بحيث لا يستفيدون الا قليلا من منتوجات البلاد الصناعية . ومن المؤثرات على الدخل القومي كيفية توزيع الدخل العام بمعنى اذا كانت معظم مداخيل الدولة تصرف في اغراض عسكرية فمن الطبيعي انيكون الدخل الفردي المتوسط اذ ذاك ضعيفا حتى او كانت البلاد مصنعة او آخذة في طريق النمو الاقتصادي والازدهار كما ان ذلك الدخل سيبقى ضعيفا اذا كان مدخول الدولة يكنز من طرف فئة قليلة او ينفق في مصالحها دون مصالح الامة وافراد الشعب عامة .

وسع هذا كله يمكن الاعتقاد بأن متوسط الدخل الفردي قد ارتفع في كافة البلدان مصنعة كانت او غير مصنعة لان الانسانية قد اجتازت المرحلة الزراعية التي كنا نعيش وسطها منذ ما يزيد على نصف قرن ، ولونت الحضارة العصرية كيفية الحياة بالنسبة للفقير والغني على حد سواء بحيث اصبح المرء بصفة عامة في حاجة الى خوض معركة الحياة للحصول على ربح يسعى في ان يزداد يوما بعد يوم لاشباع حاجاته في الحياة وما اكثرها في هذا العصر الذي طبعته التكنولوجية وسرعة التنقل والانتاج . ومع ذلك فان الاخصائيين يقدرون الفروق التي لا تزال موجودة بين هذا البلد وذاك ويعتبرون بلدا ناميا يجب عليه ان يعمل ما في وسعه للحاق بركب البلدان المتقدمة كل بلد لم يتجاوز فيه متوسط الدخل الفردي قدرا يتراوح بين 250 الى 300 دولار سنويا. ومن ثم ندرك ان بعض البلدان تعيش في فقر لا يطاق كالقارة الاسيوية مثلا التي لا تنتج الا عشر الدخل القومي العالمي في حين انها تستوعب نصف سكان العالم على وجه التقريب .

وهناك ظاهرة اقتصادية اخرى تدل على تخلف البلدان الاسلامية في الوقت الحاضر هي اهمية القطاع الزراعي بالنسبة للقطاعات الاخرى في تلك البلدان . ولا شك ان البلاد التي تعتمد في تغذية اهلها على الزراعة تعتبر في فجر نهضتها اذ ثبت عند علماء الاجتماع ان الدول ترقى حسب قاعدة ادناها الحياة الزراعية واقصاها المبادلات التجارية على نطاق واسع تتوسطهما حياة صناعية مزدهرة ، على ان هناك من يعتقد بأن الشروع قبل كل شيء في تصنيع البلدان النامية من العوامل التي تحرك النمو الزراعي فيها وتدفع به الى الامام بصورة لم تكن في الحسبان ، ولذلك يعتقد بعضهم أن تركيز صناعة ثقيلة وخفيفة في بلد نام قمين بأن يدر على المشتغلين بها من الارباح ورؤساء الاموال ما يمكنهم من استثمارها في اغراض زراعية بصورة واسعة تعتمد وبالذات على الادوات والآلات الفلاحية العصرية التي يتطلب شراؤها كثيرا من المال . على أن تاريخ تطور

البلدان من الوجهة الاقتصادية يعطينا البرهان على ان الاقطار الاسلامية النامية يغلب عليها حتى الآن حياة البداوة على وجه العموم لانها تعتمد قبل كل شيء على الزراعة التي لا تتطلب من المهتمين بها عملا خاصا او ابتكار طريقة انتاجية من شأنها ان تزيد فيما يؤملون من انتاج . واعتمادها على الزراعة يجعل دخلها متأرجحا بين الزيادة والنقصان بحسب اختلال الامطار في سنة معينة ، وهذا يؤثر بالتالي في السلم التجاري نظرا لان التجارة في بلداننا مرتبطة الى حد بعيد بالانتاج الزراعي ، فهو بين ارتفاع وهبوط طبقا لتهاطل الامطار النافعة وكيفية توزيعها على الشهور الفلاحية اللازمة ، في حين ان البلدان المصنعة التي تعتبر القطاع الزراعي ضئيلا بالنسبة للقطاع الصناعي يمتاز دخلها بنوع من الاستقرار لان الارقام — لا الاعتماد على التخمين والترقب — هي التي تعطي المشتغلين في ذلك القطاع الحيوي نتيجة للخدمات التي يقومون بها والتجهيزات التي يجودون بها في مقابل نتائج يستطيعون ان يقدروها من قبل بكثير من الدقة والضبط .

وملاحظة اخرى يجب الادلاء بها فيما يخص البلدان التي يغلب فيها القطاع الزراعي على القطاع الصناعي هو اهتمامها بالتجارة الخارجية . فاذا نظرنا الى المغرب ، مثلا ، نجد ان آمال المسؤولين معقودة دائما بمصير ما تنتجه البلاد من حوامض وفواكه ومواد غذائية بحرية لان دخل المواطنين يزداد كلما وجدت تلك البضائع طريقها الى الخارج حيث تروج ويقع عليها الاقبال ؛ وهذا يدعو الى ربط علاقات سياسية وتجارية وثقافية مع البلدان التي لا تنتج ما تنتجه بلادنا حتى ولو كانت تلك البلدان بعيدة عنا جغرافيا وايديولوجيا ، نجد دليلا على ذلك في الصفقات الرابحة التي ابرمتها الحكومة المغربية مع الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان الاجنبية في اوربا الوسطى على الخصوص مما لم يسبق للمغرب ان كان على اتصال بها متين من قبل، وغني عن البيان ان مثل تلك المعاهدات تعطي بلادنا حرية اكبر في تصرفها مع البلدان الاجنبية معربة بذلك عن استقلالها التام وعدم تبعيتها لكتلة عسكرية دون كتلة .

لكن مع هذا كله قد تصيب مثل هذه التعهدات تقلبات تؤثر ولو الى حين في السلم التجاري ، وبالتالي في الدخل القومي الذي كان مرتفعا من قبل، وكلما عسر التصرف في ما تنتجه بلاد نامية او متخلفة كما هو الحال في البلدان الاسلامية بصورة عامة ولم تتمكن من تصدير ما تنتجه من بواكير وحوامض وغلات زراعية على اختلافها فانها تكون مضطرة بالطبع الى دفعها للسوق المحلية ، فيترتب عن ذلك انخفاض في الاثمان نظرا لتراكم البضاعة الواحدة في الاسواق . ويؤدي ذلك طبعا الى انخفاض محسوس في الدخل القومي فضلا عما يصيب المنتجين من خيبة امل تشل حركتهم او تنقص من نشاطهم في ميدان يفضلون العمل فيه على غيره . وهذا ما دفع المغرب الى ان يسعى بكل وسيلة ممكنة للانضمام الى السوق الاوربية المشتركة اذ انتسابه اليها يجعله واثقا من ان منتوجاته الزراعية المركزة في البواكير والحوامض وغيرها ستجد منفذا الى الخارج حيث ستباع بأثمان مناسبة بضمن للفلاحين وللحكومة توازنا سليما ودائما في الميزان التجاري نعم قد يؤثر هذا الترابط في توجيه صناعة البلد المتخلف بحيث قد يشترط عليه ان يستورد الآلات والادوات المصنعة من البلاد المتقدمة التي ارتبطت بدورها بحكم ما تستورده من منتوجات زراعية من البلد النامي، ولكن قد لا يؤثر ذلك فيها كثيرا اذ عرفت البلاد المتخلفة كيف تحافظ على صناعتها بأن لا تستورد الا ما يعينها على تطوير صناعتها وحمايتها عن الغزو الاقتصادي الاجنبي .

* * *

وبعد هذا العرض الطويل يتطرق الدكتور الطوان ايوب الى الحديث عن الظواهر الاجتماعية للتخلف الاقتصادي ويعني بذلك كافة الشروط والاوضاع الاجتماعية والصحية التي تميز المجتمعات المتخلفة ومن بينها المجتمعات الاسلامية على راس القائمة بالطبع .

ومن تلك الظواهر الاجتماعية ضعف نسبة المتعلمين او قل ان احببت ارتفاع عدد الاميين اي اولئك الذين لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة وبالاحرى لا يقدرون على كتابة رسالة او تحرير برقية هم في اشد الحاجة الى ارسالها .

ولا حاجة الى القول بانه اصبح من المسلم به اليوم ان ارتفاع عدد المتعلمين في بلد ما يؤدي حتما الى ارتفاع في الدخل القومي عند المواطنين لان العمال الذين يفهمون ما يطلب منهم اثناء مباشرتهم لاعمالهم اليومية خاصة اذا كانت تحملهم على ادارة آلات ميكانيكية فانهم يزيدون من الانتاج ، والزيادة في

الانتاج زيادة فى الدخل القومي بصورة عامة . وهناك ظاهرة خاصة يجب التنبيه اليها فى مثل هذا المقام هو ان للتخلف الاقتصادي تاثيرا على الثقافة فى بلد معين ، ذلك انه كلما انتشر التخلف بانتشار القطاع الزراعي الا واصبح الفلاحون مضطرين الى تشغيل ابنائهم وبناتهم الصغار فى الحقول والبيوت نظرا لعدم قدرتهم على استئجار عملة يساعدونهم على اتمام مهامهم الفلاحية ، وذلك الحرمان الذي يقاسيه الاطفال يزيد طبعا من عدد الاميين بعد بلوغهم سن الرشد ، واخطر ما فى الامر هو ذلك الاعتقاد السلبي الذى يستولي عليهم ويحملهم على التسليم بانه لا سبيل الى تغيير الوضع الاقتصادي المتورم الذى تربوا عليه ووجدوا عليه آباءهم واجدادهم ، فيصبحون فى حالة لا يمكنهم معها دخول ما يسمونه اليوم بعالم « الآلة » ، ونظرا للاهمية التى تكتسيها هذه القضية فقد عزمت منظمة هيأة الامم المتحدة منذ اول نشأتها على انشاء منظمة خاصة هي التى تحمل اسم: «المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة او اليونيسكو » (5)، وقد قامت هذه المنظمة العتيدة فيما قامت به من الاعمال فى اوائل 1950 باحصاء لعدد الاميين فى بلدان العالم كله ، فكانت النتيجة اقسى وامر مما كان الاختصاصيون يترقبون ، والصراحة فى الرواية تحملنا على القول بأن تلك هي احدى النتائج التى ترتبت عن استعمار الدول التى اصبحت اليوم تنعت بالتخلف من طرف اولئك الذين قبضوا على اعنتها بيد من حديد طيلة عشرات من الاعوام لم يعرفوا ولم يروا فائدة فى توجيهها التوجيه اللائق بها ، وهي مدة كانت الدول المستعمرة لا تستطيع ان تطرق سمعها كلمة استقلال لان الاستقلال كان فى نظر المواطنين الاحرار الوسيلة الوحيدة لدفع عجلة بلادهم الى الامام وجعلها على سكة التقدم الاقتصادي والاجتماعي .

يضاف الى ما تقدم انه بقدر ما تجد الامية منتشرة فى البلاد الاسلامية المتخلفة تجد التعليم ايضا متأخرا فيها بالنسبة لسائر اطواره وفى المرحلة الثانوية والعالية على الخصوص . فالتعليم الثانوي حتى فى بلاد المغرب التى قطعت ــ والحق يقال ــ مرحلة بعيدة فى نشر التعليم وتنظيمه لا يتجه الاتجاه الصحيح الذى تحتاج اليه البلاد ، فهذا التعليم الثانوي ادبي فى مجمله ولا يعطي للتعليم الصناعي والتقني الا اهمية ضئيلة ، فى حين أن الثانويات المهنية على اختلافها هي التى تمكن التلميذ من دخول عالم الآلة الذى سبق عنه الحديث ، ودخول عالم الآلة يمكن الشبان من غزو عالم الصناعة الذى استطاعت الدول الاوربية بفضله من ان تغزو ما تسميه بالعالم الثالث وتقعد على صدره حقبة طويلة من الزمان! ومن الافكار العزيزة علينا التى سبق شرحها بشيء من التفصيل فى غير هذا المكان هو ان عملية التصنيع لا يعود نفعها على البلاد من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وحدها بل تفيدها ايضا من الوجهة الثقافية واللغوية ، من ذلك ان تركيز وحدات صناعية فى طول البلاد وعرضها يمكن اللغة العربية من دخول ميدان الصناعة ، وهو ميدان يساعدها على التطور والارتقاء والتلون بلون الحياة العصرية ، فلا تعود متاخرة ولا تصبر الا على المواد الادبية والدينية بل تغزو الآلة والمكنات وتعطي الصانع والعامل فرصة خلق الكلمة والتركيب المناسب لمايزاوله من اشغال وحركات (6) .

ومن ظواهر التخلف الاجتماعية التى تتخبط فيها كثير من البلاد الاسلامية ضعف المستوى الصحي الذى يبدو على كثير من المواطنين نظرا لسوء التغذية وانتشار الامراض والاوبئة وتلوث الاحياء والطرقات بسبب الازبال والاوساخ فى كل مكان ، ومن حسن الحظ ان المغرب لا تنطبق عليه هذه الصفات لما اظهره من تقدم محسوس فى جميع الميادين وذلك بشهادة الذين لا يشك فى صحة احكامهم واستقلال آرائهم . وهناك ظاهرة اخرى تنبيء عن التخلف الاجتماعي الذى اصاب البلدان المتاخرة هو الوضعية التى توجد عليها المرأة بحيث لا يقام لها وزن ولا يعتمد عليها فى القيام باي عمل مفيد ، فتبقى منزوية لا تشارك فيما يقوم به الرجل من اعمال خارج البيت . واذا كانت هذه الوضعية تعني بعض البلدان الاسلامية فى الشرق الادنى والاقصى على الخصوص فان بلدان المغرب العربي والمغرب الاقصى بنوع خاص اعطى للمرأة المغربية قيمة واعتبارا مما خولها مكانة مرموقة

---

(5) United Nations Educational Scientific and Cultural Organisation (U.N.E.S.C.O.)

(6) انظر بحثنا بعنوان : « مستقبل اللغة العربية فى بلدان المغرب العربي او التنمية الاقتصادية وعلاقتها بازدهار اللغة وانتشارها» ــ مجلة دعوة الحق الغراء ــ العدد الاول ، السنة الحادية عشرة، نوفمبر (ص 49 ــ 59) .

بالنسبة لزميلاتها حتى فى بعض الاقطار الاوربية المتقدمة . فقد اشركتها حكومتنا بناء على ما خولها الشرع الاسلامي فى كل ما يتعاطاه الرجل واعطتها حرية العمل والمساهمة فى المشاريع القيمة التى يدعو الى تحقيقها صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني فى سبيل مصلحة الشعب المغربي ، ومن عناية جلالته بمصير المراة المغربية واقحامها فى ميدان العمل والانتاج خاصة فيما يتعلق بنشاطاتها الاجتماعية هو قراره الاخير حفظه الله بانشاء اتحاد نسوي كي تنضم المراة الى الرجل وتتكاثف معه فى خلق الجيل الصالح الذى تتوقف عليه البلاد بغية اخراجها من مرحلة النمو والتخلف الى مرحلة التقدم والازدهار ، وغني عن البيان ان ابقاء النساء ، وهن يكون نصف المجتمع ، بعيدات عن مراكز العمل والانتاج حكم فى الواقع على ذلك المجتمع بالعقم والافلاس مسبقا . وهذا الذى ادركه جلالة المغفور له محمد الخامس بعقله الثاقب وعبقريته الوقادة ، فعمل بكل قواه على اعطاء الفتاة المغربية ما تستحق من الحرية والانعتاق حتى لا تبقى عضوا اشل فى المجتمع ، ومن اجل ذلك اشار — طيب الله ثراه — بتعليمها واقحامها فى ميادين العمل والانتاج القومي باعتبارها عاملا انتاجيا فعالا فى التنمية .

هذا وهناك ظواهر اجتماعية اخرى للتخلف فى البلدان الاسلامية لها اثر بعيد فى قلة الانتاج واقرار مبدا الروتين فى تلك البلاد هو موقف الافراد من الزمن ؛ ذلك ان المجموعة البشرية فى تلك البلدان ينظرون الى الاحداث الزمانية نظرة الخاضعين لها كما لو كانت مفروضة من القضاء والقدر ، فهم بالنسبة لتقلبات الجو وانحباس الامطار الذى يؤثر اثرا بليغا فى الانتاج الزراعي بوجه عام لا يملكون حولا ولا قوة ، ولا يفكرون فى تغيير نظرتهم الى العالم . ومعلوم ان تغير هذا الموقف ينبغي ان يكون صادرا من نظرة القوم انفسهم الى العالم تبعا لانقلاب قد يقع فى الاوضاع الجغرافية والاجتماعية والخلقية التى يعيشون عليها منذ زمن بعيد ، فى حين ان بعض المهتمين بشؤون الاقتصاد والاجتماع لايطمئنون الى حدوث ثورة كهذه فى تلك الاوضاع الجامدة ، بل يعتقدون ان التقدم الصناعي المنشود واحلال الآلة فى الاوساط التى تمتاز بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي هي التى يمكن ان تكون سببا فى تحويل عقلية الجمود المخيمة على تلك المجتمعات الزراعية ، بل ربما كانت تلك الوحدات الصناعية سببا حتى فى تحريك اللفة التى يعتمدها اولئك المشتغلون فى المعامل والاوراش واعطائها قدرة على التكيف مع الحياة الصناعية الجديدة .

* * *

يستخلص من ذلك كله حاجة البلدان المتخلفة اقتصاديا الى اقحام نفسها فى وسط مصنع لان الصناعة هي وحدها او هي مع غيرها من الوسائل الاخرى التى تمكن تلك البلاد من تحقيق الرقي المادي والاجتماعي الذى تصبو اليه .

وبما ان المستوى المادي الذى توجد عليه تلك البلاد لا يساعدها على سلوك طريق النمو والازدهار بعصا سحرية وجب ان نذكر فى الختام ان هناك مرافق عامة ينبغي اعدادها وتركيزها فى البلد المتخلف قبل ان يكون لهذا البلد امل فى ان يضع نفسه على قضيب التقدم والرقي الصناعي ، تلك المرافق العامة هي ما يحتاجه البلد المتخلف من قناطر وجسور ومرافىء وسدود وخطوط اتصال يجب ان تعطى الاسبقية قبل غيرها ، ثم بعد ذلك يشرع فى عملية التصنيع ، وقد يقام بالعمليتين فى وقت واحد ، وهي تحقيق وسائل التصنيع المذكورة وارساء الاجهزة الصناعية والوحدات الاستثمارية التى من شأنها ان تزيل عن البلاد المتخلفة غبار التواكل والركود ، هذه الطريقة اذا ما اتبعت كان التصنيع بعيد الفائدة والاثر المحمود .

ان التصنيع عملية شاقة وبطيئة تحتاج الى مراس ومران طويلين (7) وتجربة تتجلى فى الخبراء الذين يستوردهم البلد المتخلف من الخارج لمدة معينة لتسيير العمل اول الامر ، ولكن عمل الفنيين او الخبراء ينبغي الا يطول ، ولذلك وجب ان يوضع بازاء كل خبير — وهذا صحيح فى القطاعات الصناعية وغيرها من القطاعات الاخرى على الاطلاق — مواطن له من الدراسة والمعلومات ما يجعله قادرا على اكتساب الخبرة اللازمة التى تؤهله بعد حين من احتلال الوظيفة التى يقوم بها الخبير الاجنبي ، والا اصبحت البلاد مربوطة على الدوام بعجلة الخبير واصبح انتاجها فى يد الاجانب يوجهونه بحسب مصالحهم لا طبقا لمصلحة الوطن الذى وضعوا انفسهم رهن اشارته .

(7) الاقتصاد العربي بين التخلف والانماء للدكتور انطوان ايوب ص 50

هذا ملخص مع كثير من التصرف ما جاء في باب مظاهر التخلف في البلاد العربية والاسلامية اوردناه بصفة يمكن معها للباحثين ان يعودوا الى المرجع المذكور وغيره من المراجع الاخرى فيما يتعلق بهذا الموضوع الذي كتبناه احتفاء بمرور اربعة عشر قرنا على ظهور الدعوة الاسلامية . ان غايتنا من هذه المقالة هي اظهار ما اصاب المجتمع الاسلامي من ركود ذهني وتحجر بوجه عام كاد ان يقضي على الروح الوثابة التى كان الفضل الاكبر فيها للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في بثها بين افراد جماعة عربية راكدة استطاعت بفضل ايمان النبي العربي من ان تحول الجزيرة العربية وغيرها من البلدان التى بلغتها الدعوة المحمدية الكريمة الى مجتمعات متطورة ناهضة كانت مثال التقوى والعمل الصالح من اجل اسعاد المجتمعات البشرية دينا ودنيا في كل بقاع الارض .

الرباط ــ محمد محيي الدين المشرفي





« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » .

(قرءان كريم)

من المعروف عند علماء السيرة ان يصفوا ذلك الجدال العنيف الذى استمر فى يثرب بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين اليهود والنصارى فى موضوع العقيدة التي جاء بها الاسلام ... فاذا كانت قريش انكرتها فى مكة ولجات الى العنف لاسكات صوت العقيدة فان اليهود وهم اصحاب كتاب والنصارى وهم اصحاب كتاب كذلك لجأوا الى اسلوب آخر فى مقاومتها لم يكن اسلوب الحرب التى تشهر السلاح لان المسلمين اصبحوا فى منعة عددية ، وفى مدينة تأويهم فتحسن الايواء وتدافع عنهم فتستميت فى الدفاع . واذا كانت اليهودية منتشرة فى ضواحي المدينة تكايد الاسلام وتدس للمسلمين فان النصرانية لم يكن امرها ظاهرا فى مدينة يثرب وانما كانت النصارى جماعة فى نجران التي تقع فى شمال جزيرة العرب ... ولذلك لم يكن للنصارى جدال مستمر مع المسلمين الاولين سواء فى المجال الفكري او فى المجال العسكري كما كان مع اليهود الذين طالما نقضوا العهد ، واساءوا الجوار واستخفوا بالاسلام والمسلمين .

والقرءان العظيم شرح العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية كما هما قبل ان يحرفا عن دعوتهما وعن اسلوبهما وفى فكرتهما الحق ـ اما ما يتعلق بالموسوية فقد جاءت تفاصيل عنها فى سورة البقرة، واما ما يتعلق بالمسيحية ففي سورة آل عمران ، وفى سورة مريم تحليل كاف لها ايضا.. وخلاصة ما يقرره الاسلام عنها ان المسيح عيسى بن مريم رجل كان معجزة منذ بداية خلقه، فلم يلده اب كما هو الشان فى الناس كافة وانما هو كلمة الله وروح منه .. وكانت معجزته الباهرة ان كلم الناس فى المهد صبيا واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص، وان يجعل من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا باذن الله ـ كما انزل عليه وعلى اصحابه مائدة من السماء كانت لاصحابه عيدا لاولهم ولآخرهم ... وقد جاء فى القرءان وصف لتعنت اليهود ومحاربتهم العنيفة النابية للمسيح عليه السلام فكذبوه وعذبوه وتعاونوا مع الرومان ليصلبوه ... ولكنهم لم يصلوا الى شيء من ذلك بل شبه لهم ورفعه الله اليه ولكن المسيحيين من بعد حرفوا تعاليم المسيح عليه السلام . فقد الهته كثير من الفرق المسيحية او جعلته جزءا من الخالق عند بعضها فقالت بان الله ثالث ثلاثة ... والاسلام حين يدافع عن المسيح والمسيحية ويرد دعاوي اليهود فى عدم اقرار ولادته دون اب ويستدل على ذلك بان مثل عيسى كمثل ءادم يشد الحملة على المسيحيين الذين حرفوا الكلم عن مواضعه.

لقد كان الجدال فى هذه الموضوعات عنيفا حادا فى يثرب بين المسيح واليهود وبين المسلمين والنصارى .. اما بين المسلمين واليهود فهو شيء معروف وغير متصل بموضوعنا من قريب او بعيد وأما بين المسلمين والنصارى فان اهل السيرة يذكرون أن وفدا من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا منهم بعض المسيحيين المتفقهين فى دينهم من الرهبان .. وقد جدا هذا الوفد الى المدينة ولا نعلم السبب الذى دعاهم الى المجيء الى المدينة فهم ليسوا أصحاب تجارة وليس لهم صلات عائلية او أخرى تربطهم بسكان المدينة ولكن الظاهر انهم سمعوا بالدين الجديد الذى ظهر فى مكة ويثرب وسمعوا بما يعرض للمسيحية في تحليل ونقد .. وعلى ابلغ الفروض فربما سمعوا بهذا الخلاف الحاد بين الوثنية المكية واليهودية فى يثرب وبين الدين الجديد فجاءوا ليظهروا موقف دينهم من هذا الدين الجديد ، ولم يكن الا موقف النقد وارجاع الاشياء الى نصابها كما نقول فى هذا العصر ، وأما ليزيدوا فى تصعيد هذه المعركة حتى تبلغ أشدها لتسريح النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من غلواء الوثنية ودسائس اليهودية ...

وموقف الاسلام من المسيحية كان واضحا صريحا .. فهو لا ينكر نبوة عيسى كما يزعم اليهود وانما ينكر تحريفهم لحقيقة المسيحية ويدافع عنها بمنطق اقوى مما تدافع به النصارى عن أنفسهم ...

ولذلك فلم يجد الوفد الحجة فى مقارعة الدعوة الجديدة الا فى تمسكه بالعناد الذى اضطره الى الرحيل عن يثرب ... ولكن النبي لاحقهم بأسلوب المباهلة العربية (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) وابى النصارى المباهلة وانما قرروا ان يتركوا المسلمين ويرجعوا الى ديارهم غير ان بعضهم أقر ما فى الدين الجديد من وضوح الفكرة المسيحية فطلبوا من الرسول ان يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى اشياء اختلفوا عليها فى اقوالهم فبعث الرسول معهم ابا عبيدة ابن الجراح ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه ، وهكذا جامل وفد المجاملة المسلمين وهادنهم واقر بجوانب فى الدعوة لم يكن له حق رفضها ولا حق قبولها جملة وتفصيلا ويذكر علماء السيرة فيما يذكرون ان ابا حارثة أكثر نصارى نجران علما ودينا ادلى لبعض رفقائه باقتناعه بما يقول الرسول ، ولما سأله رفيقه عن سبب رفضه للاقتناع كان جوابه ان ما صنعه اليهود به من حفاوة وارتشاء يمنعه من الادعاء ... وهكذا انتهى الجدال مع الوفد المسيحي غير ان القرءان الكريم لم يتخذ من تحليل العقيدة المسيحية ونقدهما ومن دعوة القارىء الى المباهلة آخر مواقفه ، بل امر الله نبيه ان يدعو اهل الكتاب من النصارى واليهود الى كلمة سواء بين المسلمين وبينهم تتلخص فى اقرار التوحيد ونفى الشرك فى مختلف مظاهره واشكاله ونتائجه ، وهي خلاصة الدعوةالاسلامية التى ابتدأت بابراهيم كمله حنيفية مجملة ، وتلاحقت جوانبها التفاصيلية فى عدوة النبي موسى ثم النبي عيسى ، وباقي الانبياء عليهم السلام، ثم انتهت واضحة متماسكة فكريا ووجدانيا واجتماعيا فى عهد آخر الانبياء محمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك حاج الاسلام اليهود والنصارى فى ابراهيم، واوضح لهم ان ابراهيم ليس يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، بل هو اب المسلمين . وهو الذي سمى المسلمين بهذا الاسلام ، وان اولى الناس به هم الذين اتبعوه، وهم المسلمون ، اما اليهود والنصارى فلا علاقة لهم به الا ما حرفوا من تعاليمه ، فلم يتخالفوا اذ فى ابراهيم، وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده .

ولا يهمنا فى شيء ان نتابع خطوات وفد النصارى بعد رجوعهم الى بلادهم ، ولا عزمهم على محاربة الاسلام لاسباب سياسية واقتصادية ترجع الى نفوذ البزنطيين وتأثيرهم على الغساسنة الذين يقيمون على على حدود الشام ، وتأثير هؤلاء على المسيحيين في جزيرة العرب ولا الى بداية الغزوات معهم فى سرية موته ، التى ابلى فيها خالد بن الوليد البلاء الحسن او فى غزوة تبوك التي حضرها الرسول فهذه الاشياء لا تتصل بالموضوع الذي نريده وهو الشرح العقائدي للاسلام وهدفه الانساني واستيعابه لما فى المسيحية واليهودية واخلاصه لنقطة الانطلاق السليمة فى الابراهيمية السمحة .

فالقضايا الاصلية التي يرتكز عليها الخلاف بين الاسلام وبين تحريبات المسيحيين المسيحية مظهر فى قضية التوحيد اي توحيد الالوهية وتوحيد القوامة ، وما يتبع ذلك من نفي الشريك والواسطة وتأليه المسيح واستمرار الخطيئة وفداء الاب وعصمة حماة المسيحية واعطائها صلاحية التغيير والتبديل كما تظهر فى تحديد حقيقة الدين ومهمته الشمولية التى لا تفرق بين الدنيا والاخرة وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله وما يتبع ذلك من اقامة نظام كهنوته واعترافات لطائفة خاصة من الرهبان وقيام دولة ملحدة علمانية تتكامل

من بعيد مع الكنيسة سياسيا واجتماعيا ولذلك جاء الاسلام واقر حقيقة المسيحية وانصفها واجلى عنها التحريفات التي تقرب بها من الشرك وما يتبعه من العبودية لغير الله ، وما يتبع ذلك من نظام فاسد يفقد فيه المجتمع العدالة والمساواة .

فلذلك جاءت دعوة الاسلام منصفة داعية الى كلمة سواء يقف فيها الجميع موقفا واحدا متساويا لا يعلو بعضهم على بعض ولا يتعبد بعضهم بعضا . دعوة الرجوع الى نقطة الانطلاق من توحيد ابراهيم وتكامل دعوته مع الدعوات الموسوية والمسيحية وختامها فى دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا فليس من شاننا ان نعرض لتفاصيل عن فلسفة الاسلام ولو باختصار فهذا بالنسبة الينا كمسلمين من المكرر المعاد الذي لا يزيد تكراره تقررا ، وانما تهمنا النقط البارزة فى هذا الانحراف عن الحقيقة الدينية او ما يتبع هذا الانحرف من آفات لترى ان معجزة القرءان فى استمرار دعوته الحقة به فهذه الاية الكريمة ما تزال تدعو الى كلمة سواء ، وما تزال تفتح باب الحوار النزيه المستقيم وان جدلية التاريخ وحتمية الاحداث قد اضطرت الكنيسة ان ترجع عن انحرافاتها ، غير ان الرجوع تحت ضغط الاحداث لا يعطي للافكار قيمتها الحقيقية لانها تصبح تنقصها السماحة والانصاف ، فتضيع فى التحديات الحانقة . . وقد يجوز ان نلخص تراجع المسيحية عن انحرافاتها فى الميادين العقيدية والفنية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ولا اريد ان انقل باختصار تطور الافكار الدينية فى الكنيسة ، بهذا موضوع آخر لا علاقة لنا به ، وانما يهمنا ان نستعرض النقط التي تراجعت عنها الكنيسة عبر القرون الى المواقف الاسلامية سواء فى عصر تاثرها بالفلسفة الاسلامية او فى عصر تحديها للمذاهب الاقتصادية والاشتراكية المادية . اما عن المجال العقيدي ، فان فكرة التثاليب فى المسيحية ظهرت شكلها وعدم عمقها لكثير من الفلاسفة والعلماء الغربيين .

اول ءافة الانحرافات المسيحية واليهودية هي فى ابتعادها بالانسان عن الفطرة السليمة التى جاء بها الاسلام ، والتي بدات منذ اخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على انفسهم ، الست بربكم قالو بلى ، ثم جاءت ملة ابراهيم تحمل الميادين الاولى لتطبيق النزعة الفطرية لان الانسان لم يكن فى وسعه ان يستسيغ المعطيات الدينية كلها لسبب بسيط جدا وهو بدائية الحضارة الانسانية وعدم قدرتها على تحديات الطبيعة لعدم وجود التعقيد الحضاري الذي ظهر بالتحدي والتجربة ، ولكن بعد قرون من تجربة الكهانة والسحر والقانون والفلسفة وتعاقب الحضارات ذوي النزعات المختلفة . . . رياضية كالفرعونية ، او فلكية كالبابلية او كهانوتية كاليهودية او فلسفية كالاغريقية ، وغير ذلك مما يطول ذكره فهذا التعاقب هو الذى عمق التجربة الانسانية وفتح العقل والفكر واسمح الوجدان فكان نهاية المطاف فى العقيدة الاسلامية الخالصة التي تتم بداية الانطلاق ، وتعطي للانسان بعد موت الرسول مقدرة الفكر على الاجتهاد لمواجهة التطور الحضاري وكما يقول الرسول الكريم العلماء ورثة الانبياء .

ولعل اهم نقطة ترتكز عليها الفلسفة الاسلامية هي (الاعتدال) فى كل شيء حتى لا تتصارع الارادات وتتبدد داخل الانسان مع نفسه او مع غيره ، والاعتدال فى الاسلام اعتدال شمولي فى كل مظاهر الحياة وعمق التجارب ؛ هو اعتدال بين العقل والوجدان ، واعتدال بين الفرد والجماعة واعتدال بين الملكية الفردية والملكية الجماعية واعتدال فى حقوق الوطن وحقوق المواطن ، واعتدال فى صلات الانسان مع الانسان الى آخر الاعتدالات ، واذا كانت الفلسفة الاغريقية عرفت مبدا (الوسائط) فلم تعرفه كما هو فى الاسلام وبذلك فقدت شمولية الاعتدال

واذا كان افلاطون حاول ان يقيم مدينة فاضلة عن اساس مجتمعي طبقي قوي تتبدل فيه الاعتدالية فقد شعر بخيالية تفكيره ورجع الى سيادة القانون ودعوة خضوع الجميع له ؛ رغم ان افلاطون فى دعوته الى طبقية قسرية لم يكن شيوعيا يقيم الفلسفة على الاقتصاد ولا دروينيا يقيم بقاء الاصلح على الانتخاب الطبيعي . . فان اعتدالية الاسلام ذات فلسفة خاصة واقعية تقرر الواقع وتطوره فى دائرته الكونية دون قسر وتكلف ، وقد جاء الماركسيون لياخذوا فكرة الصراع للانتخاب الطبيعي عن داروين والجدلية عن (هجل) ولكنهم اقاموا المجتمع على (اعتدالية) اقتصادية اكيدة لم يعد الانسان فيها اكثر من آلة صماء .

واذا كان الفرد هو اساس الفلسفات والمذاهب وموقعه فى الجماعة اهم نقطة شغلت الفكر الانساني ، فمن الطبيعي ان تبدا الفلسفة والمذهب بالفرد لان المعرفة انبثقت من الفرد ، وعلى اساس ذلك انتقل

المحللون للجانب النفسي والاجتماعي للفرد ، فالاهتمام بالفرد وحالته العقلية والنفسية والاقتصادية هو اساس العلوم التجريبية ، والاهتمام بالتحليل النفسي والمجهول والمصير ، اساس للفلسفة والمذاهب الدينية القديمة ، وعن صلات الفرد بغيره تولدت المذاهب الاجتماعية الاشتراكية والليبرالية والشيوعية والاعتدالية وكلها فلسفات لا تستوعب الواقع الانساني من كل جوانبه كما فعل الاسلام .

اما الاسلام فالفرد فيه جزء من الوجود ومن فيضه وهو جزء من الكون كله ولم يبخل الاسلام على الفرد بحريته ولا على المجتمع بحقوقه ، وظل المجتمع الاسلامي ينمو فى ظلال حرية الفرد والجماعة على اساس فلسفة الاسلام الاعتدالية بين الوجود الفردي والوجود الاجتماعي ، والاعتدالية ظاهرة الوجود الاجتماعي والذاتي . . .

وقد فقدت اوربا هذا الاعتدال على يد الكنيسة التي حاربت الوجود الفردي فاتجه الفكر الغربي الى تنمية روح الفرد بعد الصراع مع الكنيسة فكان التطرف فى الحرية ايضا على حساب الجماعة .

وهكذا (فالاعتدالية الاسلامية) دائما موفقة فى التصالح بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة ، غير ان فلاسفة اوربا تاثروا بمدرسة ابن رشد على يد طوماس الاقويني فحاربوا الصوفية الذين شجبوا العقل ، كما حاربوا النظرية المزدوجة التي ترى ان ما هو صحيح فى اللهوت قد يكون صحيحا فى العلم ، وهذا الاتجاه الرشدي يخالف الاعتدالية الاسلامية السنية السلفية ويساير النزعة الرشدية التي انتقدها المسلمون السلفيون .

واذا كانت الفلسفة الاغريقية عرفت مبدا (الوسائط) فلم تعرفه متكاملا فى كل وحدات الكون وبذلك فقدت شمولية الاعتدال بل فقدت الشمول الاساسي حتى فى الفلسفة لان الفلسفة الاغريقية والعلم الاغريقي اهتما بالحياة الانسانية بالدرجة الاولى فكان العلم علما بيولوجيا لا علما رياضيا ، ولم تكن الفلسفة شمولية كذلك لتعدد الفلاسفة والنظريات الفلسفية فانحرفت عن الاعتدال بينما استوعب الاسلام سائر جوانبه ، بل ان افلاطون حاول ان يقيم مدينة فضيلة على اساس مجتمع فاضل يحقق المساواة داخل الطبقات نفسها ولكن تبددت الاعتدالية مجتمعه ثم شعر بخيالية تفكيره فرجع الى سيادة القانون ودعوة خضوع الجميع له . . . ولم تعد فى فلسفة داعيا الى طبقية قسرية ولا شيوعيا يقيم فلسفته المتساوية على الاقتصاد ، ولا دارونيا يقيم الاعتدال على بقاء الاصلح والانتخاب الطبيعي وانما عاد ليساير التجربة الانسانية العشوائية ولذلك فان اعتدالية الاسلام ذات فلسفة خاصة واقعية تقرر الواقع وتطوره فى دائرته الكونية دون قسر وتكلف ، وقد جاء فلاسفة ماديون متاخرون لياخذوا فكرة الصراع للانتخاب الطبيعي والجدلي فاقاموا المجتمع على (اعتدالية) اقتصادية لم يعد الانسان فيها اكثر من آلة صماء ، فقد الانسان انسانيته حين فقد الاعتدال ، ومن الطبيعي ان يخرج التفكير الانساني عن الاعتدال عندما لا يرتكز على هداية الله ، لان الفرد هو اساس الفلسفات والمذاهب ينظر الى العالم فى خلال نفسه وموقعه فى الجماعة واهم نقطة تشغل فكره ووجدانه ، فكان من الطبيعي ان تبدا الفلسفة والمذاهب بالفرد لان المعرفة انبثقت من الفرد ، وعلى اساس ذلك انتقل المحللون للجانب النفسي والاجتماعي للفرد فكان الاهتمام بالفرد وحالته العقلية والنفسية والاقتصادية هو اساس العلوم التجريبية ، وكان الاهتمام بالتحليل النفسي والمجهول والمصير ، اساس للفلسفة والمذاهب القديمة ، وعن صلات الفرد بغيره فقط تولدت المذاهب الاجتماعية الاشتراكية والليبرالية والشيوعية والاعتدالية كلها فلسفات لا تستوعب الواقع الانساني من كل جوانبه كما فعل الاسلام الذي انبثق مبادئه عن الشمول الكوني وعن العقل والاعتدال .

ذلك ان الاسلام يرى ان الانسان جزء من الوجود ومن فيضه ، وهو جزء من الكون كله ، فاقر الاسلام تفكيره الفردي وحريته وصلاته المجتمع ولكنه ربطه بالكون كله وحقائقه التي لا يدركها الانسان فجاء المجتمع الاسلامي لينمو فى ظلال حرية الفرد والجماعة والاتصال بالكون كله على اساس فلسفة الاسلام الاعتدالية بين الوجود الفردي والوجود الاجتماعي ، والاعتدالية بين ظاهرة الوجود الاجتماعي والذاتي بينما فقد الفكر الفلسفي هذا الاعتدال الذي فقد على يد المحرفين، من اهل الكتاب من قبل، الذين حاربوا الوجود الفردي فاتجه الفكر الغربي الى تنمية روح الفرد فكان التطرف .

وعندما اهتم الفكر الغربي بالعلم اختلف فى نوعية العلم بحسب العصور فكان فى القرون الوسطى علم الاخلاق ، وكان فى العصر الحديث علم طبيعة ، اما الاسلام فمازج بين الطبيعة والاخلاق والبيولوجية

ووفق بينهما على أساس فلسفته في الاعتدال واخذ كل شيء بالميزان .

وكم نلاحظ في الفلسفة الغربية في القرون الوسطى نظريات وءاراء اسلامية تسربت الى فلسفة توما الاقويني سواء في الاجتماع او الاقتصاد ونادى بافكار على الطريقة الاسلامية السلفية .

فدافع هذا الفيلسوف عن الملكية الخاصة بالاستناد الى فكرة الصالح العام ، واصبح يرى ان على الانسان ان يتملك الاشياء الخارجية لا على انها ملكه الخاص . ولكن على انها ملكية عامة ، وذلك ليكون مستعدا لان يشارك غيره من الناس في ساعة ضيقه وهذا هو مبدأ قرآني معروف في الآية الكريمة (وفي اموالهم حق للسائل والمحروم) غير ان اراء هذا الفيلسوف كانت عديمة التاثير لان الكنيسة الغربية خلال تاريخها كانت مهتمة بادارة املاكها اكثر من اهتمامها بالحركة الاصلاحية فتركت مجالا لتسرب الاراء في الاقتصاد الصهيونية التي نشرت الربا ، واذن لهم في ذلك «فيليب اوغست» في القرن الثالث عشر على حساب مصلحة الجماعة المسيحية، اما الاراء والنظريات الاسلامية التقدمية التي غزت الفكر الغربي فكانت محدودة المجال ولم يكن نفوذها بارزا الا في الجماعات العلمية وعقلية احرار الفكر الغربي .

ويظهر ان مرونة الفكر الاسلامي السني والاعتزالي التي اقرت التاويل اثرت على « امبروز » الذي اعترف « لاوغسطين » معتمدا على سلطته الدينية انه لا يجب الايمان حرفيا بما جاء من قصص في الانجيل وكذلك ان الشرط العقلي في الايمان انتقل الى الغرب في عصر اباء الكنيسة وكان (اسلم) يقول في القرن الحادي عشر انه آمن لكي يستطيع الفهم كما قال بعده « ابيلار » انه اراد ان يفهم لكي يستطيع الايمان .

واخيرا جاء « لوثير » ليظهر تاثره الواضح بالتفكير الاسلامي فترجم الانجيل ووضعه بين يدي المؤمنين وشدد اصحابه في التاويل الظاهري متمسكين بحرفية النص على طريقة مذهب ابي داود ، كما حجر كثير من الاباء في اسلوب المعرفة حتى يبقى ما يؤمن به الناس من اقتناع يبلغ حد اليقين .. وقد اتبع لوثر الاسلام حتى ترجم الانجيل ووضعه بيد الاتباع المسيحيين فاصبحت الثوراة كتاب آداب وتحليل لذى الامم الشمالية التي اتبعت مذهبه ولم يزد ان ردد العبارة القرآنية : (اقرا باسم ربك الذي خلق) ..

ومبدا حرية الفكر والعقيدة أتاحت للعلم ان يخطو بعد ذلك خطوات واسعادات بالفكر الانساني الى صورته الحاضرة لان الفكر هو عنصر الحضارة الخلاق ، وهو الذي يصلنا بالماضي وبالمستقبل اكثر مما تتصل بهما عن طريق الروابط العريقة والطبيعة والمصالح المشتركة ، فالعقل وهو مزيج من العقائد والمثل العليا بل هو الذي يحرك البشرية لتنشأ الحضارة وليكون التاريخ والاسلام اذ يعتمد على العقل يزوده بقوة الايمان وسلامة الموضوع لينتصر هذا الصراع الابدي بين المادة والروح والجسد والعقل ، ويرى الايمان اساس كل عمل لانه فلسفيا اقوى دعائم التوحيد ... ونحن نعرف ان العلم نفسه وان الحقائق العلمية لاتنطلق الا من الايمان. فهو مفتاح العلوم كلها ، فمثلا علم الفزياء تبدأ بفرضية والهندسة بمبدا وعلم الاجتماع برأي فلابد اذن من البداية بشيء ثابت ليقوم عليه البحث ، والايمان هو اليقين الاول وجماع اشتات الفكر والتركيز عليه للانطلاق .

لقد كانت الكنيسة في الغرب من قبل لا تحلل موقف الانسان في الارض ولم تكن لها صورة كونية لبناء العالم وانما لها معلومات مفرقة ، والغريب ان الكنيسة في المغرب على يد (تارتوريان) كانت كذلك تؤمن بالمستحيل وترفض المعرفة الفكرية بصفة عامة ، بينما كان (ارنوبيوس) لا يجد فائدة لاية معرفة كانت، لقد كان هذا الجمود الفكري في المغرب قبل مجيء الاسلام عندما كان (كليمونطت، واورجين،واثناسيوس) يضعون في الاسكندية نظرية التثليث الخيالية ايضا ، وكم يلاحظ ان (سيبريان وامبروز واغسطن) وجهوا عنايتهم وجهودهم الفكرية نحو كفاح الانسان الاخلاقي ومشاكل الخطيئة والتعميد ، حتى اصبح التدين المسيحي في المغرب رواقيا يؤمن ان محافظة الانسان على روحه في صفائها وهدوئها فوق كل شيء . وظل الصراع دائما بين المعرفة عن طريق الايمان الخالص والحدس،او عن طريق التفكير الجدلي مما جعل الاسلام له حدا في (الاعتدال) في نظريته في المعرفة التي يرى انها مزيجة من البصيرة والحدس والعقل والفكر .

واذا كانت الاخلاق المسيحية تبنى على المحبة وتحتاج لفلسفة اضافية فالاخلاق الاسلامية تبنى على العمل والحرية والمسؤولية . وليست في حاجة الى فلسفة لتفسير موقفها من الكون لانه واقع، والفلسفة تفسره، وليست جزءا منه، او بنى على آراء فلسفية والواقع ان المسيحية عندما تتقدم تتصل بالخط الاسلامي . و (فيكو) في كتابه خطبة في كرامة الانسان

عندما انتقد الآراء المسيحية متحررا تحررا عقليا ردد كثيرا من الاراء الاسلامية ، مقرا ان الله خلق ءادم على صورته كما في الاسلام ، كما ان (كلفان) اعلن عداءه التصوير في الكنائس لانها تشغل عن العبادة جريا على المذهب السني الاسلامي متأثرا بالاسلام الذي حرم الثقافة التصويرية لانها كانت استمرارا للثقافة الوثنية ومظهرا بارزا لها فجاء الاسلام ليحول الانسان من الانبهار بعالم الصورة الخارجي الى التأمل الداخلي ، فالايمان محله القلب وهو عملية داخلية بحتة ، وليس محله جمال الصورة التي هي تناسق خارجي يبعد الانسان عن البحث العميق .

بل ينص الاسلام ان الاصنام كانت عملية فنية ، وخلق انساني ، ولكن الانسان تحول تفكيره عن عبادة خالقه الى عبادة مخلوقه .

ان القرءان الكريم تكلم عن التصوير في قوله تعالى : « اخلق لكم من الطين كهيئة الطير وانفخ فيه فيكون طائرا باذن الله » .

وهكذا اعطى المزج بين الصورة والحياة وما ينشأ عن فكرة التصوير من مقدرة الخلق ، مما يستتبع اعجاب الفنان بفنه الى حد العبادة ، وقد استطاع رفائيل ان يسمو بالتعبير التصويري في فن النحت ، ولكنه لما اتم تمثال موسى عليه السلام ضربه بقوة فائقة : لما لا تتكلم . فاظهر انحراف الفنان واعجابه بالخلق .

وعند تقلص الوثنية اجاز الاسلام التصوير ، فابن عباس اجازه بشرط عدم وجود الراس ، الذي هو مظهر الحياة ، مع اعطائه شكل الازهار للجسم مما ساعد على تطوير فن الزخرفة في الاسلام ، ذلك الفن الذى تولد عن الثقافة الاسلامية الجديدة التى اقرت عبادة الله والوصول الى الحقيقة عن الاخلاص في محبته وعبادته في كونه وخلقه ، واعتمد بعض الفقهاء جواز التصوير على ما جاء في القرءان من الاناة الحديد للنبي سليمان عليه السلام حيث صنع التماثيل ، وبما ان المعتزلة من المجتهدين قد اجازوا التصوير لان علة الحرمة تدور مع المعلول وجودا وعدما وبما ان العبادة قد زالت فقد جاز التصوير .

وفرق بعض علماء السلفية كمحمد عبده بين الرسم والتصوير اذا كان خلقا ، او وضعا بشريا ، واذن ففكرة المزج بين خلق الصورة والحياة هو الذي دعا الاسلام الى تحريم الصورة ، بل ان الاديان السماوية كلها حاربت التصوير ، فالمسيحية الاولى كان بها مذهب قوي ضد (الايقونات) وتابعته البروتستانية التى تقرب كثيرا من نفحات الاسلام .

وتبدو الاعتدالية الاسلامية في بناء سلوك المسلم، فلا رهبانية في الاسلام بمفهوم الرهبانية الكنسي ، اما بالمفهوم الاسلامي فالرسول يقول الجهاد رهبانية امتي، وقد نصح المسلمون الاولون رجال الحرب بعدم مهاجمة الرهبان لانهم سلبرون في المجتمعات ، فالاسلا وسط بين الرهبانية والفطاقورسية .

ولقد اقر البروتستانت الايمان بالعقل وحققه الفرنسيون في الايمان (الديكارتي) وهم في ذلك يتأثرون بالاعتزالية الاسلامية . .

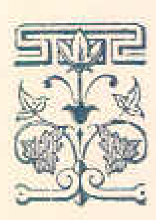
اللوثيرية تعتقد بان لا صلة بين الخلاص والاخلاص لان الاخلاص امر ديني محض لا ارتباط له بالكمال المطلق لانه شحنة الايمان لا شحنة الاعمال ، والايمان ياتي من الله لا من الانسان . لتخرج من مشاكل (الوجوب) على الله متأثرة بالاسلام في اعتداليته الذي قرن العلاقة وفوض الامر لله تعالى ، بل ان اللوثيرية لم تخرج عن نهج بعض الفرق الاسلامية في اعتقاداتها .

ويعتبر مذهب التطهير في المسيحية الكسل خطيئة . ويشدد بضروب الاستمتاع وهو في هذه المحاولة يقترب من الدعوة الاسلامية الى العمل وترك التوكل والكسل .

ومن مقررات مجمع (ترانت) في قواعد تعلم الدين المسيحي ان الايمان التقليدي هو الايمان الصحيح على غرار الكلمة الاسلامية اللهم ايمانا كايمان العجائز ... فاذا تركنا الكنيسة ورجعنا الى المفكرين الاحرار الذين انتقدوا الفكر نرى بوضوح تقرير المذهب الاسلامي وعلى سبيل المثال اذكر ان (ديدرو) عندما انتقد المسيحية ووصفها بالقسوة والغموض والتخيل والانقسام والخطر على الامن العام انما انتقد الانحرافات المسيحية الحقة بل قال لو عاش المسيح لسانده في نقده مما اصابها على يد الرهبان ، بل يرى (ديدرو) ان اللوثرية افضل من الكاثوليكية ، ويرى ان الكالفانية افضل من اللوثيرية والسوشيانية افضل منها ، وعبادة الله في المعابد فقط افضل من السوشيانية ... فهل يرى وصل الى غيرما دعا اليه الاسلام من عبادة الله المطلق الوجود الذي هو معكم اينما كنتم ؟ .

ومن هنا يبدو ان المذهب الفلسفي والعلمي الذي سار يناهض الكنيسة انما كان يسير على الخط الاسلامي ، فمذهب (لوك) الحسي الذي تصدر منه الاسس اللازمة للديمقراطية ، وهو ان الناس يولدون متساوين ثم تختلف معارفهم بناء على التجارب الحية، هو راي اسلامي عريق ، فكل مولود يولد على الفطرة وابواه يهود انه او (يمجسانه او ينصرانه ... وانتزع الفكرة السياسية من هذه الفطرة الخليفة عمر (رض) حين قال : كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا .

الرباط ـ حسن السائح





تحل في هذه السنة المباركة ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على ظهور الدعوة المحمدية وبدء انتشار الرسالة الاسلامية الخالدة التى حملها الى الوجود محمد بن عبد الله رسول الله الامين ونبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد عرفت الرسالة الاسلامية خلال هذه الحقبة من وجودها احداثا كثيرة ووقائع عديدة اثبتت صلاحيتها واكدت فعاليتها كما عاشت ظروفا صعبة عسيرة استطاعت ان تجتازها رغم عبث العابثين . وقد اصاب هذه الرسالة فى طريق حياتها ما اصاب الدعوات الصالحة كلها من هزات عنيفة واضطرابات شديدة الباس تمكنت اثناءها من الصمود والرسوخ نظرا لما تتوفر عليه من عقيدة سديدة واحكام رشيدة واركان شديدة لم تسمح للمغيرين عليها بالنيل منها او النقص من قيمتها فقد عرف الاسلام اول ما عرف من نكبات حروب الردة التى اضطر الخليفة الاول ابوبكر الصديق الى اشهارها ضد اولئك الذين كانوا يعبدون الله على حرف والذين زاغوا عن الطريق السوي بمجرد ارتحال الرسول الى الرفيق الاعلى . واذا كانت هذه الحروب قد تكللت بالظفر والفوز ورجوع الحق الى نصابه نظرا لكونها كانت مثارة من طرف جماعة من المسلمين المذبذبين الذين كان من اليسر التغلب عليهم فان الاسلام واجه بعد ذلك بقليل محنة شديدة عندما بدا الخلاف بين المسلمين انفسهم فى عهد عثمان بن عفان حيث انقسم المسلمون وهم فى فجر حياتهم الى فريقين يتنازعان السلطة والحكم ، ويتقاتلان من اجل فرض النفوذ السياسي والسيطرة القبلية . واذا كان الواقع يشهد بان الاسلام خرج منتصرا من هذه المعركة فان التحري يفرض علينا ان نعترف بان ديننا الحنيف وعقيدتنا السمحة قد اصيبا فى الصميم لان اثر هذا النزاع ظل كامنا فى صفوف المسلمين الذين انقسموا الى فرق وملل عديدة والى شيع ونحل كثيرة كادت الخلافات بين اعضائها وافرادها ان تضعف العقيدة لولا متانة اركان هذه العقيدة الراسية ورسوخ قواعدها الثابتة والحقيقة ان ارساء دعائم الدولة الاموية لم يضع حدا نهائيا لهذا الصراع الذى احتدم بين المسلمين ولكنه اطفا فى الحين نيران الثورة والغضب التى ما فتئت ان اندلعت بعد حين . وقد يطول بنا المقام لو اردنا تعدد النزاعات التى زعزعت صفوف المسلمين وزرعت الاضطراب والحفيظة بينهم والتي ما زالت مع الاسف الشديد آثارها بارزة للعيان حتى الآن .

وقد واجه الاسلام ضربات قاسية وجهها ضده الخصوم الاجانب الذين كانوا وما زالوا يتربصون الدوائر بالاسلام والمسلمين والذين عملوا فى اشكال مختلفة والوان متعددة للقضاء على العقيدة الاسلامية وتمزيق عرى وحدة المسلمين . وقد تجلى هذا الهجوم الاجنبى فى الحروب الصليبية وضربات التتار خلال العصور الماضية والقرون الخالية ثم تجدد فى القرن السابق والعصر الحالي عندما قامت الدول الاستعمارية باستغلال ضعف المسلمين فاخذت تحتل اراضيهم وتغزوهم فى عقر ديارهم . ولم يفق العالم الاسلامي من هذه الغفوة ويحاول استرداد ما ضاع من اطرافه واجزائه حتى تفتقت عبقرية القوات الامبريالية والاستعمارية فابتكرت عنصرا جديدا يخلفها فى محاربة المسلمين ومواصلة الزحف فى اقطارهم . وقد ارتدى هذا العدو الجديد رداء الصهيونية التى لا تكتفي ببث الدعوات الهدامة فى صفوف المسلمين ولكنها تتسلح وتتقوى لاغتصاب اراضيهم وتلطيخ

مقدساتهم معتمدة فى ذلك على حلفائها المبثين فى بقاع المعمور والذين يؤيدونها سرا وجهارا ليلا ونهارا ، علها تحقق لهم ما عجزواهم عن تحقيقه. وان من دواعي الاسى والاسف ان نشاهد اليوم دولا اسلامية تتعاون مع الصهيونية وتتحالف للوصول الى اغراض دنيوية عن طريق المساعدات التقنية المتبادلة والتعاون الفني المشترك وهي فى غفلة من الغايات الحقيقية التى تسعى الصهيونية جاهدة هذه للوصول اليها . وقد شاهدت بنفسي خلال الرحلات العديدة التى قمت بها الى افريقيا عددا من اقطار هذه القارة تمد يدها الى الصهيونية التى استطاعت أن تتسرب الى حشو حشاها وتمكنت من السيطرة على اجهزتها الحية واخذت تستغلها وتوجهها حسب اهواء الصهيونية العالمية وميولها السياسية والدينية . والواقع ان الامر لا يقتصر على القارة الافريقية وحدها ولكنه يشمل عددا من الاقطار الاسلامية فى آسيا وغيرها من القارات التى توجد بها جماعات اسلامية مهمة ما زالت تعمل يدا فى يد مع اعداء الاسلام عن جهل وعدم ادراك تارة وعن عناد واصرار فى غالب الاحيان متناسية القاعدة التى اتفق عليها علماء الاصول المسلمون والتى تنص على ان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ذلك ان التعاون مع الصهيونيين يؤدي الى تعزيز مركزهم فى العالم وتقوية معنوياتهم الامر الذى يشجعهم على الهجوم على المسلمين ومواصلة احتلال اراضيهم والعبث بمقدساتهم ، واذا كنا لا نشك فى انتصار الاسلام والمسلمين فى نهاية المطاف لان الله وعد المسلمين الصادقين الصابرين بالنصر اذا ما استقاموا على الطريقة وصرنا نستبشر بمظاهر الوعي التى بدات تغمر المجتمعات الاسلامية فاننا مع ذلك نتخوف من الحملات العقائدية الجديدة والايديولوجيات الحديثة التى اخذت تتسرب الى العالم الاسلامي والتى تعتبر فى نظرنا اشد وطأة واعظم خطرا على الاسلام والمسلمين .

والواقع ان الاسلام لم يواجه هذه المعتقدات الفاسدة فى العصر الحاضر فحسب ولكنه عرفها طوال حياته . ان تاريخ الاسلام يزخر بالدعوات المزيفة والنبوءات الكاذبة والرسالات الخداعة التى حاولت بدون جدوى ان تشغل بال المسلمين عن دينهم وتصرفهم عن عقيدتهم ، فبمجرد ما اخذ الاسلام ينتشر فى مختلف بقاع العالم وصارت حدود الامبراطورية الاسلامية تتسع شيئا فشيئا وبدا الناس من كل مكان يدخلون فى دين الله افواجا بعد ما كانوا يتبعون ديانات اخرى ومعتقدات وثنية فاسدة وامست العقيدة الاسلامية تحتك بالحضارة الفارسية والهندية والفلسفة اليونانية والديانة المسيحية واليهودية شرعت العناصر الدخيلة على المسلمين والتى كانت تعتنق فيما قبل اديانا مختلفة لم تفتا عالقة فى اذهان بعض المسلمين الجدد تعمل جهد المستطاع للحفاظ على معتقداتها القديمة بل ان بعض تلك العناصر التى لم يكن الاسلام عندها الا طلاء ظاهرا اخذت تدعو الى دياناتها السابقة صراحة او تحت ستار الاسلام الامر الذي ادى لى بلبلة افكار المسلمين والى خلق ارتباك فى عقولهم خصوصا بعد ظهور عدة طقوس دينية وعادات فى العبادة وتقاليد دخيلة كانت مزية الاسلام العظمى ، وما زالت ، انه برا ءمنها بعيد كل البعد عنها. وقد استطاع الاسلام الذى كان فى عنفوان شبابه وقوة دعوته أن يقاوم بسماحته ويسره وبساطته ووضوحه هذه الادعاءات مقاومة شديدة حتى قضى عليها وخرج بحول الله منتصرا ظافرا بل ان الاسلام تمكن، وهو في اوج عظمته وطهر عقيدته ، ان يتفاعل مع هذه الحضارات القوية التى لم يكن له بد من الاحتكاك بها وهو فى مسيرتها المظفرة الكبرى ويهضمها حتى انصهرت فى بوتقة الحضارة الاسلامية التى طبعت العقلية العربية والفارسية والهندية على السواء والتى تجلت فى سلوك المسلمين ومظاهر حياتهم على اختلاف جنسياتهم واصولهم ومشاربهم والتى اصبحت واضحة الصوى بارزة المعالم تحددها الآيات والاحاديث المسطرة وتجمعها الكتب المدونة وتحويها العلوم المنتشرة .

ومما لا مراء فيه ان خصوم الاسلام لم يتورعوا فى مقاومة العقيدة الاسلامية بشتى الوسائل ومختلف الطرق . فقد حاولوا هدم كيان هذا الدين بالقوة والعنف غير انهم لم يفلحوا فى محاربته ولم ينجحوا فى النيل منه بهذه الطريقة ، فلما اعياهم الامر لجأوا الى الحيل الابليسية والمخادعات الماكرة محاولين التوصل الى مبتغاهم بالدس والكيد بعدما اعناهم استعمال القوة واستغلال النفوذ ، وهكذا دفع اليهود والنصارى والمجوس والوثنيون وغيرهم بعض اتباعهم وانصارهم للدخول فى الاسلام وامروهم بالعمل على افساد العقيدة الاسلامية من الداخل وذلك بتشويه بعض الحقائق الاسلامية وادماج بعض عاداتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم فى الدين الجديد ليلبسوا

الحق بالباطل ويفسدوا معالم الاسلام الناصعة ومبادئه الواضحة . وقد عمل انتشار الاسلام واتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية وقوة المسلمين العسكرية والسياسية على جلب بعض الطامعين في السيطرة والنفوذ من ذوي الشفاه المتلمظة الى حظيرة الدين الجديد والذين وجدوا في الاحتماء بالاسلام خير وسيلة لاستمرار سلطتهم وضمان سلامتهم واحسن طريقة للوصول الى اغراضهم الدنيئة وغاياتهم البذيئة حتى تسرب الى حظيرة الاسلام نفر من الكذابين والمنافقين الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون. ومما زاد الامر خطورة واستفحالا توصل بعض هؤلاء العابثين والكائدين في الخفاء الى زمام الحكم واستيلائهم على دواليب الدولة وتمكنهم من التأثير بقوة على الحاكمين والمحكومين واخضاعهم لخدمة نواياهم واجبارهم على قضاء مآربهم وانجاح مراميهم، وقد استغل هؤلاء الدجالون ضعف الفقهاء وبساطة تكوينهم وضآلة تفكيرهم الفلسفي فاخذوا بناصيتهم ونفخوا فيهم من ارواحهم وغرسوا فيهم بذور معتقدات بدائية وعادات وثنية استطاعوا أن يقنعوهم برجاحتها وصلاحية تطبيقها في العبادات والتشريعات التي جاء بها الدين الاسلامي الحنيف والحوا عليهم في قبولها باللطف والليونة تارة وبالقهر والقسوة تارة اخرى بعدما زينوها لهم وعرضوها عليهم في حلل قشيبة مزركشة . ولم يقف عمل هؤلاء الدجالين عند هذا الحد بل تعداه الى محاولة التأثير على الملوك والخلفاء والولاة والامراء الذين كانت قلوبهم تهفو الى سماع أحاديث الدخلاء والمتدينين المزيفين والذين كانوا يسرعون في فرض بعض الآراء والنظريات والمعتقدات على محكوميهم ومن يعيش في اطراف اماراتهم .

واذا صدقنا ما ذكره البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» ان البرامكة قد زينوا للرشيد ان يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود ابدا فعلم الرشيد انهم ارادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وان تصير الكعبة بيت نار حتى كان ذلك احد اسباب قبض الرشيد على البرامكة، وعلمنا ماقاساه المسلمون من بعض الطوائف الضالة المضلة ووقفنا على بعض مظاهر التصوف الفاسدة التي علقت بمعتقدات المسلمين خصوصا في عصور الظلمة والانحطاط التي تعتبر مرتعا خصبا لادعياء التصوف ادركنا غرابة المكائد التي كانت تحاك ضد الاسلام والمسلمين على مر الدهور وتوالي العصور وضراوة الضربات القاسية التي كانت توجه لاحباط كيان هذا الدين السمح .

ورغم ذلك فقد واصل الاسلام طريقه في صمود وعناد عماده ما جاء في الكتاب والسنة واساسه شريعة مرنة تعمل بالقرآن والحديث وتلجأ الى الاجماع والقياس في بعض الحالات الطارئة وتتكيف مع الزمان والمكان وتخضع لظروف التطور والتقدم ما دامت لا تمس جوهر العقيدة ولا تفسد روحها ولا تصل الى اركانها . وقد ساعد الاسلام على مواصلة مسيرته القرآن الكريم الذي ظل محفوظا من العبث في صدور القراء وبين دفتي المصحف منذ جمع في عهد عمر وعثمان الذي الهمه الله هذا العمل والذي بعث بنسخ صحيحة منه الى الامصار الاسلامية خلافا للديانات الاخرى التي حرف اصحابها كتبهم السماوية وقسموها الى عهود قديمة وجديدة . واذا كانت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعتراها في اول امرها بعض من الوضع والتحريف كان القصد منه خدمة الاغراض السياسية والدعايات الطائفية والحزبية فان هذا الحديث النبوي الكريم سرعان ما تلقفه المحدثون وحموه من التحريف والتزييف وعكفوا في القرون الاولى على بيان صحيحه من موضوعه وحسنه من ضعيفه مما جعل الاسلام يتوفر منذ حداثة سنه على اصلين سليمين من اصول الشريعة الاسلامية ومصدرين صحيحين من مصادر الرسالة السماوية كانا وما زالا يعتبران منبعا صافيا تنهمر منه في انسياب رائق وانساق بديع التعاليم الالاهية والتوجيهات المحمدية وما اثر عن الرسول الكريم من قول وفعل وتقرير وبفضل هذين الاصلين سلم الاسلام من التلاعب والدس والعبث والكيد بعدما حافظ المسلمون على دعامتين اساسيتين هما قوام هذا الدين والصياصي التي يعتمد عليها بنيانه وترتكز عليها اركانه تبعا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله » ولم يكن صمود الاسلام في وجه التيارات الفاسدة والدعوات الباطلة والمعتقدات المزيفة يرجع الى الشكل الذي وقى التعاليم الاسلامية من الضياع وحماها من العبث والتلاعب فحسب ولكنه كان مستمدا من جوهر العقيدة الاسلامية وروح الدعوة المحمدية التي حاربت الطقوس الدينية وقاومت فكرة « الاكليروس » وقضت على وجود الوساطة بين العبد وربه وجاهرت بأن الله احد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد

وان حامل هذه الرسالة انما هو رسول قد خلت من قبله الرسل وانه بشر مثلنا اوحى الله اليه بما اراد ان يوحي الى خلقه لا اقل ولا اكثر . وهكذا وضع الاسلام حدا لفكرتي التثليث والبنوة اللتين كانتا وما تزالان تنخران هيكل الديانات السابقة واللتين يصعب على الفكر البشري والعقل الانساني قبولهما واللتين اصبحتا اليوم مرمى الضربات العنيفة الموجهة الى المسيحية وغيرها من طرف ابناء العالم اجمع بصفة عامة واتباعها وانصارها بصفة خاصة .

ان الدين الاسلامي يخاطب الفكر والشعور فى آن واحد ويغذي العقل والوجدان فى نفس الوقت ، وهو ، بهذه المثابة ، يحارب الخوارق ويقاوم الطقوس ويعتمد فى طرق الاقناع على القواعد والفروض التى يتطلبها العقل المعاصر والفكر الحديث ، وهذا ما يفسر جانبا من صلاحيته لكل زمان ومكان وقد امتلأ القرآن بالآيات التى تدعو الى التفكير فى الكون والتدبير فى صنع العالم والتامل فى المخلوقات يكفي ان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الآيات المحكمات : « ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » .

وان مخاطبة الفكر البشري بهذا الشكل جعلت من الاسلام فى القرون الماضية والحالية قوة روحية متينة كفيلة بلم شتات بني الانسان حولها وحفظ الجنس البشري من التطاحن والتنازع المؤديين الى الخراب والهلاك .

وذا كان الاسلام قد نجح فى مقاومة الحملات التى وجهها ضده خصومه فى الماضي بفضل سماحة مبادئه ، وسمو عقيدته ونبل تعاليمه ومطابقة اهدافه وغاياته للتطور الذى بلغه الفكر الانساني آنذاك وتجلى هذا الصمود فى ابتلاع الحضارات التى احتك بها وصهرها فى قالب الحضارة الاسلامية، ونبذ المعتقدات المستوردة التى اراد بعض ضعفاء الايمان ان يلصقوها به والقضاء على الانتهازيين والانتفاعيين الذين ارادوا الاحتماء بلوائه لتقويض اركانه من الداخل بعدما اعياهم امر لاطاحة بها من الخارج؛ فان الاسلام يواجه اليوم خطرا عظيما يتمثل فى هذه المذاهب الهدامة التى تجوب العالم شرقا وغربا شمالا وجنوبا لتجد مكانا تستقر فيه كما يتمثل فى طغيان الماديات والابتكارات العلمية والايديولوجيا القوية التى تحاول ربط مصير الانسان بتطور المادة وجعل سلامة العقل البشري منوطة بالتقدم العلمي الذى اصبح بعض الملحدين يعتقدون انه الطريق الوحيدة المهيمنة على فكرة الوجود والخلق والسبيل الكفيل بالردعلى التساؤلات التى يلقيها البشر لمعرفة حقيقة الكون والتوصل الى الاسرار المحيطة بخلقه وصنعه كان غزو الفضاء وتطواف الاقمار الاصطناعية حول الكرة الارضية ونزول بني الانسان فى القمر والكواكب الاخرى يشكل النهاية الحتمية التى تصل بالنوع البشري الى الحقيقة التي اضناه البحث عنها منذ القدم والتى يمكن ان تضع حدا للترددات المخيفة والاسئلة المريبة التى تراود الفكر البشري منذ خلق الله هذا الكون واستخلف بنى الانسان فيه .

ولو ان العلماء نظروا الى ما اخترعوه فى الارض واعتبروا ما آل اليه هذا الاختراع من استخدام المادة لبني الانسان واستعبادها له بدلا من الوضع المعاكس الذي كان ينبغي أن ينتهي اليه هذا الاختراع وقدروا تسخير النوع البشري للتقنيات المستحدثة وادركوا ان التقدم العلمي والتقني فاق التطور الاجتماعي والفكري الى حد اصبح فيه الفكر البشرى يخاف على مصير الانسانية اذا ما استمر هذا البون الشاسع بين ازدهار الآلة الذى يقفز قفزات مهولة الى الامام وبين الرقي الفكري والاجتماعي الذى لا يمكن ان يتمشى الا بخطى وئيدة متلكئة — اقول — لو اخذ العلماء بهذه الاعتبارات الضرورية لعلموا انهم يفسدون الكون ولا يصلحون ويخربون الحضارة فى الوقت الذى يظنون انهم يبنونها . ان المطلوب من الآلة هي خدمة الفرد ومساعدته على تحقيق رفاهيته وهنائه ولكننا نلاحظ ان هذه الآلة اصبحت تتعب الانسان لانها ترمي بمصالحه ادراج الرياح وتزج به فى خضم صعاب مفتعلة وعراقيل مصطنعة كان الظن السائد ان الآلة ستقضي عليها حتى تمكن الفرد من تحقيق نموه الفكري ورقيه الاجتماعي .

ولو فرضنا ان هذا التطور العملي والمادي تحقق دون احداث الهزات والرجات التى خلفها فى كل مكان فان الفكر العملي يعجز كيفما كان الحال عن ارضاء بني الانسان واعطائهم فكرة عن حالتهم يرتاحون اليها ويطمئنون بها ولكن المعضل فى عصرنا الحاضر أن الميل الحالي عند الجانب مهم من الفكر العلمي يرمي الى قيادة البشر وسوقهم الى فكرة العدم الامحاء . ولو اردنا ان نعرف بالشيطان فى هذا العهد لاكدنا انه يتجسم فى هؤلاء الافراد الذين يختلج فى

نفوسهم شعور قوي بتنقيص النوع البشري يؤدي بهم في بعض الحالات الى خرق اوضح القواعد فى الفروع والمواد المهنية التى يتخصصون فيها .

واذا كانت اهم وظيفة يضطلع بها الدين فى حياة الانسان الاجتماعية تتلخص ، كما قال العالم انشتاين : فى تحديد الاهداف الاساسية وتقدير القيم المثلى وتوطيدها في حياة الفرد. فان هذه الاهداف وهذه القيم لا تتحقق عند بني الانسان الا فى اطار الاسلام الذى يمكن الفرد من تحقيق وجوده وذاتيته فى العقائد والعبادات كالشهادة والايمان بوحدانية الله والصلاة والحج اللذين يتصل اثناءهما العبد بربه دون وساطة ولا طقوس ولا رهبانية فى تساو وتواضع والتزام بين المرء ونفسه كما يمكنه من تاكيد وضعه الاجتماعي فى المعاملات مع نفسه واسرته ومجتمعه وبني جنسه وسائر المخلوقات العاقلة منها والجاهلة والناطقة والجامدة والمحيطة به فى الارض وباقي الكواكب السيارة .

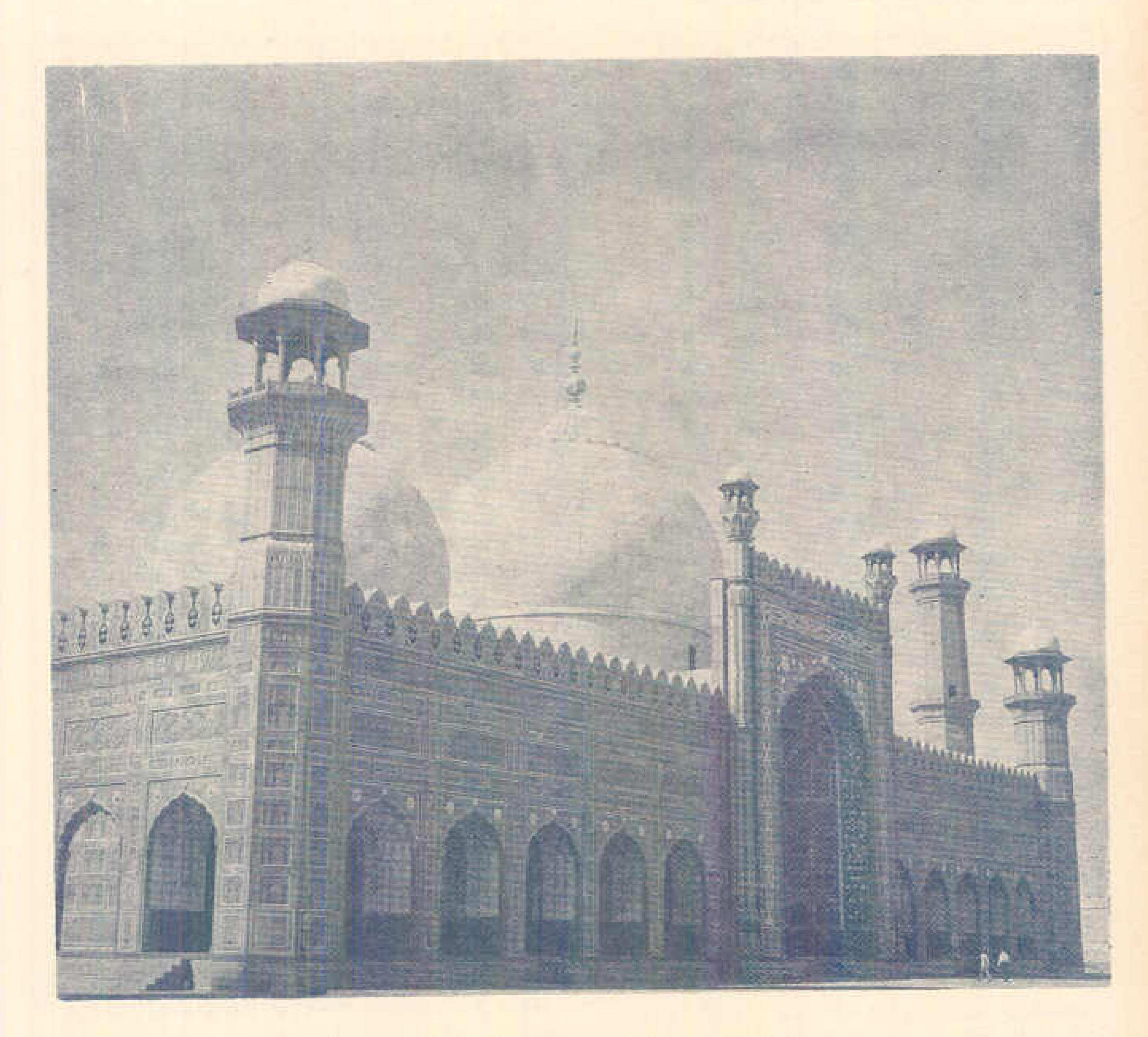
ومهما بلغ طغيان الماديات والتقنيات فى العصر الحاضر فان الحقيقة الازلية ستظل رهنا بسمو الوجدان وتحليق الادراك الفردي فى ملكوت الخليقة التى عرفت الوجود قبل الطبيعة وعروج القلب الى عالم الاسرار الروحانية الربانية .

ولن يدرك الفكر المعاصر روحانية عليا تضمن سلامته وتحفظ توازنه الا عن طريق الاشعاع الاسلامي والتجلي الالاهي الذى يخص الله به من يشاء من عباده ، وكيفما كان الامر فان تجربة المختبرات المجردة والعلوم الانسانية الملحدة ونشاط الشيوعية المطبق على تجهيزات التاريخ الاساسية وواقعية التقنيين الذين تنهار اعمال تقديراتهم بمجرد ما يمسون جوهر الوجود لن تحقق للبشرية هذا الاطمئنان الروحي والانبعاث الذاتي الذى تهفو اليه قلوب ابنائها وتتطلع الى انواره وجدانهم لان ذلك متوقف على الدين الذى يجمع بين العقل والوجدان ويؤلف بين الفكر والروح فى تناسق موفق وتوافق محكم يسمحان للفكر والعقل بالحركة والنشاط الى ان يبلغا الحدود التى يبتديء منها حيز الروح والوجدان والتى يستحيل عليهما اجتيازها خوفا من الوقوع فى الارتباك والاضطراب والشك والارتياب والعجز والقصور والتراجع والدبور.

اننا نعلم ان مدى الهجوم الخطير الذى يقوم به انصار المذاهب الجديدة والايديولوجيات الحديثة والتاثير الذى تلعبه التطورات المادية والتقنية في عقول الناس لا يقتصران على الدين الاسلامي وحده ولكننا نومن اشد الايمان ان العقيدة الاسلامية ستصمد فى وجه هذه التيارات والتقلبات نظرا لما تتوفر عليه من مبادىء سامية ومثل عليا ستفرض ارادتها على دعاة الانهزام وادعياء التنكر الذين يتشبثون بكل جديد طرق سمعهم وابصارهم ويتمسكون باخر ما تقع عليه ايديهم متناسين ان الخلود والبقاء لا يكتبان الا للاشياء التى اظهرت قوتها عبر القرون والاجيال وبرهنت على انها صالحة بالدوام والاستمرار .

وخلاصة القول فقد تصدى الاسلام فى تاريخه لتيارات قوية وحضارات عريقة ومعتقدات كانت كامنة فى نفوس اصحابها ، وقد واجهها بصدق عزيمة رجاله وثباتهم فى حلبة الصراع العقائدي حتى كانت له الغلبة وتمكنت رسالته من الاستمرار . وان الحملات التى يتعرض لها الاسلام فى غضون هذا القرن اشد ضراوة وانكر وطاة من سابقاتها لانها جاءت فى ظروف تكاد تتسم بعقم الفكر البشري اذا ما قيس هذا الفكر بالقفزات التى تقفزها الالة والمادة واذا ما قورن بالخطوات الجبارة التى يخطوها التقدم التقني . ورغم تخوفنا من ضعف الفكر البشري وامكانية عجزه فى الوقت الراهن على الاقل عن مواكبة التطورات الالية والاكتشافات الفضائية والاختراعات العلمية التى تحمل فى طياتها بذور فشلها فى الميدان الاجتماعي نظرا لما تثيره من مخاوف فى نفوس ابناء البشر وماتحدثه لهم من ازمة معنوية مقابل راحة بدوية وطمانينة جسمية فاننا متاكدون من ان التفكير الانساني سيتكيف مع المدنية الالية فى النهاية ويفرض عليها ارادته ليوجهها لخدمة مصالح البشرية . وان الامل لمعقود فى ان يهيىء المسلمون انفسهم ويعدوا لهذه الحقبة المقبلة بما لديهم من حول وقوة حتى يشاركوا فى وضع دعائم الحضارة الفكرية المرتقبة وحتى تكتسي هذه المشاركة صبغة ايجابية تتمثل فى الاخذ والعطاء طبقا لسنن الكون وطبيعة الاشياء لا فى الترقب والانتظار فقط كما كان شانهم فى عصور الانحطاط وحتى الآن . وبذلك يتلقف الاسلام مشعل التقدم والتطور ويسترد المكانة التى كان يحتلها منذ ظهرت رسالته وانتشرت دعوته ويضطلع بالدور الجليل الذى جاء من اجله والذى يتلخص فى هداية البشر وضمان سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص



مسجد بادشاهي بمدينة لاهور وهو من اكبر المساجد فى العالم
وقد بناه الامبراطور المغولي اورنكذيب فى القرن السابع عشر



هذه ايام الموسم النبوي الزكية الانفاس ، واعياد الفترة النبوية المترعة الكؤوس ، تدار فيها اكواب الامداح والاناشيد ، وتسقى الشفاه والحناجر باعذب الالحان ، وترطب بما لذ وطاب من اوصاف خير البرية ، وبما شف وراق من كلمات المديح في جانبه الشريف وتكريمه وتمجيده صلى الله عليه وسلم .

وهذا موضوع يتصل بالامداح النسوية المأثورة عن بعض الفضليات العربيات المومنات اللائي تغنين بمكنونات صدورهن وعبرن عن ذات نفوسهن وايمانهن نحو هذا النبي الكريم القائل : « انما انا ابن امراة كانت تأكل القديد » .

كنت حررت في هذا الموضوع منذ زمن نتفا واوزاعا لم ابلغ به الغاية ولا قاربتها فرايت ان اعود اليه بالمناسبة علني اضيف اليه شيئا جديدا او ابلغ به ولو شاوا قريبا .

ذلك ان مدح الرسول الاكرم وتفضيله وتمجيده امر تهفو اليه نفوس المومنين والمومنات ، وتطمح اليه همم الصادقين منهم والصادقات ، اذ هو من صميم الايمان به وعنوان الاخلاص والتعلق به والتغاني في حبه « لا يومن احدكم حتى اكون احب اليه من نفسه واهله وماله » او كما قال (ص) ..

فمن ثم كان مدح النبي (ص) غاية قصوى وهدفا اسمى لكل مسلم ومسلمة استطاع ان يفصح عن ذات نفسه ويعبر عما يجده وتفيض به مشاعره نثرا او شعرا .

كيف لا ، والله تعالى قد مجد عبده محمدا في الازل واثنى عليه في التنزيل ثناء خالدا . اثنى عليه سبحانه بكونه رحمة للعالمين وهي اعلى مراتب المدح بقوله : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » ووصفه بالرافة والرحمة في قوله : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف رحيم » كما وصفه سبحانه بلين الجانب ورقة القلب والسماحة في المعاملة بقوله : فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ،وبجميل الصفات وكمال الاخلاق بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » ، وهو سبحانه قد اقسم بالرسول في قوله : « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون » فهو قسم من الله تعالى بحياة النبي الكريم ، وهذا منتهى التشريف والتكريم .. الى آيات اخرى تدل على ان مدح الرسول سنة سماوية وامر الهي يقتفيه المومنون والمومنات :

ايا مصطفى من قبل نشاة آدم
والكون لم تفتح له الاغلاق
ايروم مخلوق ثناءك بعدما
اثنى على اخلاقك الخلاق

ماذا عسى ان يقول احد من البشر بعد الثناء الالهي .. وماذا عسى ان يطرى بعد تلك الايات السرمدية الباقية بقاء الدهر ..

ومع ذلك فقد كانت الافواه وما تزال تبغي الى مدح النبي كل وسيلة وتسلك كل طريقة نظما او نثرا

.. فالكل يتمنى ان يسلس له القول وينقاد البيان ليبلغ الغاية وينال تلك المزية .

كان ذلك منتهى امل البلغاء واشرف غاية عند الكتاب والشعراء الى يومنا هذا والى ما شاء الله ، حتى انه اجتمع فى مدح الرسول من القول المنثور والمنظوم ما لم يجتمع فى اي غرض من الاغراض الادبية. ورغم ذلك لم ينالوا من بحر معانيه الا وشلا ، ولم يغرفوا من فيض خصائصه الا صبابة :

وعلى تفنن واصفيه بمدحه
يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وغني عن القول انه صلى الله عليه وسلم كان يطرب لسماع الكلام البليغ ولاسيما الشعر الصادق .. فقد كان يقول للخنساء وهي تنشده : هيه ياخناس ! هيه يا خناس ! اي زيدي زيدي، استحسانا لما تقول .. بل انه صلى الله عليه وسلم كانت تاخذه الاريحية ويهتز طربا للمديح ولا يملك الا ان يخلع على المنشد بردته وهي انفس ما عنده ، من ذلك قصة البردة التى خلعها على كعب بن زهير مكافاة له حين انشده قصيدته « بانت سعاد » الاستعطافية التى يقول فيها :

ان الرسول لسيف يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

فضرب الرسول بذلك مثلا حميدا وسن سنة للذين يمدحون او يمدحون على السواء .

وبعد ، فهذه بعض النساء العربيات اللائي وقفت على شيء من مديحهن وتمجيدهن للنبي الكريم، ولا فرق بين مدحه فى حياته او بعد مماته لان الشان عند الادباء الا يطلقوا كلمة الرثاء على ما يقال فى الرسول بعد مماته بل الكل مدح فى حقه .. ومعلوم ان رواة الادب القدماء بالغوا فى قصر المجال الادبي للمراة على موضوع الرثاء، وقد قل ان اعترفوا بها شاعرة غير راثية ، فعلوا ذلك مع الخنساء ومع الرباب بنت امريء القيس ام سكينة بنت الحسين ومع سكينة نفسها ومع غيرهن من الشواعر وهن كثيرات .. ومن هنا كان دور المراة فى فن المديح بمعنى الرثاء تمجيدا للرسول ربما فاقه جانب مدح الرجل فى هذا المضمار غير ان الرواة تعودوا ان لا يروا للمراة الا اقل القليل .

فمن هؤلاء الفضليات :

آمنة بنت وهب ام النبي عليه الصلاة والسلام ، ذكر ياقوت فى معجمه انها كانت على جانب من الفصاحة والبلاغة ومن شاعرات العرب **المجيدات** ، ذكر انها حين حضرتها الوفاة وهي بيثرب قالت تخاطب طفلها محمدا وهي فى النزع مشيرة الى قصة ابيه عبد الله يوم فداه ابوه عبد المطلب بمائة من الابل :

بارك الله فيك من غلام
يا ابن الذى فى حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام
فودي غداة الضرب بالسهام
بمائة من ابل سوام
ان صح ما ابصرت فى المنام
فانت مبعوث الى الانام
تبعث فى الحل وفى الحرام
تبعث بالتوحيد والاسلام

ثم همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وانا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

– ومنهن **الشيماء** اخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاع ، ثبت انها كانت تهز مهده وترقصه قائلة :

يا ربنا ابق لنا محمدا
حتى اراه يافعا وامردا
ثم اراه سيدا مسودا
واكبت اعاديه معا والحسدا

كما ثبت انها كانت تفد على الرسول ويكرمها ويبالغ فى برها . جيء بها فى سبايا هوازن ، ولما تعرف عليها بسط لها رداءه وقال لها ان احببت اقمت عندي مكرمة محببة ، او متعتك ورجعت الى قومك ، فاختارت قومها فمتعها . وكذلك كان يفعل (ص) مع حليمة امه من الرضاع يكرمها اذا وفدت عليه ويبسط لها رداءه لتجلس عليه ، ويردها مكرمة معززة . ولما توفي وكانت هي ما زالت حية كانت تفد على ابي بكر وعمر ويبالغان فى تكريمها .

– ومنهن **خديجة بنت خويلد** زوجه صلى الله عليه وسلم ، كانت من اوساط قريش فصاحة وحكمة ورجاحة عقل . لما جاءها النبي (ص) بعد نزول الوحي عليه اول مرة فى غار حراء يرجف فؤاده ويقول : اني اخاف على نفسي ، قالت له تهدىء روعه وتثني عليه ذلك الثناء المشهور : « ابشر يا محمد ، فلن يخزيك

الله ابدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الامانة ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .. » فكان هذا الثناء اول مديح نثر على مسمع الرسول الاكرم فى الاسلام ، وتلك مزية اخرى للمراة المسلمة .

— ومنهن **عائشة بنت الصديق** احب نسائه اليه صلى الله عليه وسلم ، كانت افصح اهل زمانها واصحهم منطقا ، كانت اذا رات الرسول تنشد :

وابيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للارامل

ولها كلمات كثيرة فى مدح الرسول ، من ذلك قولها تصف كلامه: «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، لو شاء العاد لاحصاه .. » وقالت مثنية على اخلاقه : « كان خلقه القرءان » . وقالت : « كان اذا خلا فى بيته الين الناس بساما ضحاكا » وعنها ايضا : « لم يكن النبي فحاشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الاسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح » . وقالت : « كان فى بيته فى مهنة اهله : يفلي ثوبه ويحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويقم البيت ويعقل البعير ويعلق ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق » وكتب الشمائل تزخر باقوال عائشة وغيرها فى هذا الشأن .

— ومنهن **تماضر المعروفة بالخنساء** الشاعرة التى اجمع النقاد على انها اشعر النساء ، كانت تنشد الرسول من شعرها ويقول لها مستعيدا : هيه يا خناس هيه يا خناس ! ولا ريب انها انشدته امداحها غير ان التاريخ لم يرو منها شيئا ، او لم نقف منها على شيء .

— **وقتيلة بنت النضر** القرشية ، كانت شاعرة شجاعة وكان ابوها النضر ممن حاربوا الرسول يوم بدر ، فاسر ثم امر النبي بقتله لشدة اذاه واستهزائه بالقرءان ، فلما علمت بقتله اشتد عليها المصاب ، فقالت من قصيدة مؤثرة تستعتب النبي ، وفيه معنى المدح ، جاء فيها :

امحمد يا خير ضنو كريمة
فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر اقرب ما يكون قرابة
واحقهم ان كان عتق يعتق

فرق لها النبي وبكى ، وقال : لو جئتني من قبل لعفوت عنه ، فطابت نفسها، وذهب ما بقلبها، فقالت قصيدة اخرى طويلة تمدحه ، جاء منها هذا البيت :

الواهب الالف لا يبغي به بدلا
الا الاله ومعروفا بما اصطنعا

— ومنهن **ولائد المدينة** ونساؤها ، كن يتناشدن يوم وفد عليهن رسول الله ودخل المدينة المنورة ذلك النشيد الشعبي الجميل :

اشرق البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا
جئت بالامر المطاع

— ومنهن **امراة من الانصار** ذكرها ابن اسحاق ولم يسمها ، ذكر ان اباها واخاها وزوجها قتلوا يوم احد مع رسول الله فقالت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا: خيرا هو بحمد الله كما تحبين . قالت : ارونيه حتى انظر اليه ، فلما راته قالت : كل مصيبة بعدك جلل . معبرة بذلك عن مقام الرسول فى قرارة نفسها مفضلة اياه عن نفسها وعن سائر اهلها .

— **وصفية بنت عبد المطلب** عمته صلى الله عليه وسلم ، كانت شاعرة فصيحة قالت ترثيه — على ان الرثاء كما قلنا باب من ابواب المدح :

الا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا برا ولم تك جافيا
وكنت رحيما هاديا ومعلما
ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله امي وخالتي
وعمي وخالي ، ثم نفسي وماليا
عليك من الله السلام تحية
وادخلت جنات من العدن راضيا

— **وعجوز غير مسماة** ذكرها زيد بن اسلم حين روى ان عمر رضي الله عنه خرج ذات ليلة يحرس الناس فراى مصباحا فى بيت واذا عجوز تنفش صوفا وتقول :

على محمد صلاة الابرار

صلى عليه الطيبون الاخيار
قد كنت قواما بكا بالاسحار
يا ليت شعري والمنايا اطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلس عمر رضي الله عنه يبكي .

الى غيرهن من السيدات الصحابيات اللائي كن في الرعيل الاول ممن انتظمن عهد النبوة الاغر .

وأردفهن بجماعة اخرى في العصور المتلاحقة تفنين هن ايضا بمكارمه بعد وفاته وحفظ لنا التاريخ بعض آثارهن.

من هؤلاء :

ـ الجارية المسماة **تحفة الزاهدة** التي كانت جارية لبعض تجار بغداد ، وكانت ذات جمال ودلال وبارعة في العزف والحديث والغناء .. غير انها ليست مثل الجواري في النزوات والصبوات ، فهي مثال الاستقامة والعزوف عن الدنايا .. سمعها سيدها يوما تغني في حرقة ولهفة :

وحقك لانقضت الدهر عهدا
ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجدا
فكيف الد او اسلو واهدا

فصار يتساءل : من تراه يكون هذا الحبيب الذي جنت به وخلب لبها .. فجعل يرقبها ، ويحصي عليها الانفاس .. فاذا بها لا تنفك تنشد الاشعار الرقيقة في الحبيب ، وطال بها الوجد والهيام وسلكت مسلك المجاذيب وظنوا بها الجنون .. في اخبار طويلة .. وقالت :

معشر الناس ما جننت ولكن
انا سكرانة وقلبي صاح
انا مفتونة بحب حبيب
لست ابغي عن بابه من براح

واخيرا ادركوا انها متيمة بالحب النبوي، فحجوا بها وزوروها ، ومكثت هناك على تلك الحال ، تنشد الاشعار في الحرمين الشريفين الى ان توفاها الله في جوار نبيه الكريم .

ـ **وام السعد بنت عصام الحميرية** ، من النساء المشهورات بالاندلس ، من اهل قرطبة ، وتعرف بسعدونة ، انشدت لنفسها في تمثال نعل النبي ، تكملة لقول غيرها :

سالثم التمثال اذ لم اجد
للثم نعل المصطفى من سبيل
لعلني احظى بتقبيله
في جنة الفردوس ، اسنى مقيل
في ظل طوبى ساكنا آمنا
اسقى باكواس من السلسبيل
وامسح القلب به علـه
يسكن ما جاش به من غليل
فطالما استشفى باطلال من
يهواه اهل الحب في كل جيل

ـ **وبديعة بنت سراج الدين الرفاعية** المصرية ، كانت ذات عرفان ويقين ، واشواق وحنين ، وكانت تحدث بحديث رسول الله ، وعلما من اعلام الشريعة.

قالت في مدح الرسول :

رسول الهدى ، ادعوك والقلب خاشع
هلوع ، فيا للغارة الاحمدية
عليك تحياتي ولو ان همتي
حطيطة حد عن مقام التحية
فانك مصباح الوجادات كلها
وشمس اسارير الهدى للبرية

ـ ثم **عائشة بنت يوسف الباعونية** الدمشقية ، من بيت شامي عريق في العلم والدين ، من اهل القرن العاشر ، كانت لها مشاركة في علوم الادب واللغة والدين ، والفت تاليف حسنة ، وجلست للتدريس فانتفع بها خلق كثير . من تاليفها كتاب « الفتح المبين في مدح الامين » وهو شرح لقصيدة لها بديعة مدحت بها النبي . ولها « المورد الاهنى في المولد الاسنى » وهو مولد للنبي اشتمل على رقائق النظم والنثر ، قالت في مقدمة شرح قصيدتها المذكورة : « وبعد : فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، شاهدة بسلامة الطباع ، منقحة بحسن البيان ، مبنية على اساس تقوى من الله ورضوان .. »
ومطلع هذه القصيدة :

في حسن مطلع اقمار بذي سلم
اصبحت في زمرة العشاق كالعلم
اقول والدمع جار جارح مقلي
والجار جار بعدل فيه متهم

الى ان قالت :

يا سعد، ان ساعد الاسعاد واجتمعت
لك الاماني ، وجئت الحي عن امم
عرج على قاعة الوعساء متعطفا
على العقيق ، على الجرعاء من اضم
واقصد مصلى به باب السلام وقف
لدى المقام ، وقبل موطيء القدم
محمد المصطفى ابن الذبيح ابو الزهرا
جد اميري قتيبة الكرم
خير النبيين ، والبرهان متضح
عقلا ونقلا ، فلم نرتب ولم نهم
اعظم به من نبي مرسل نزلت
فى مدحه محكم الآيات من حكم
اعظم به من نبي سيد سند
هاد سراج منير صفوة القدم
قالوا هذا الغيث ، قلت الغيث اونة
يهمى ، وغيث نداه لا يزال همي
يا اكرم الرسل ، سؤلي فيك غير خف
وانت اكرم مدعو الى الكرم
مدحت مجدك والاخلاص ملتزمي
فيه ، وحسن امتداحي فيك معتصمي

والها ايضا منظومة رائية طويلة تضمنت نظم كتاب « الخصائص » للسيوطي معنونة : درر الفائص فى بحر المعجزات والخصائص » نظمت بها كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي المشتمل على خصائص النبي ومعجزاته ، ولا شك ان لهذه السيدة آثارا ادبية نسوية خلقية بالدرس والتمحيص وجديرة بكل اعجاب وتقدير .

— وبعدهن **عائشة التيمورية** الاديبة المصرية المشهورة الشاعرة الناثرة المعدودة من الاديبات المعاصرات ، وقد بلغت فى صناعة الانشاء درجة لم تبلغها امراة فى عصرها . لها آثار ادبية قيمة منها قصيدة توسلية بالمقام النبوي :

اعن وميض سرى من حندس الظلم
ام نسمة هاجت الاشواق من اضم
اني رددت عناني عن غوايته
وقلت : يا نفس ، خلي باعث الندم

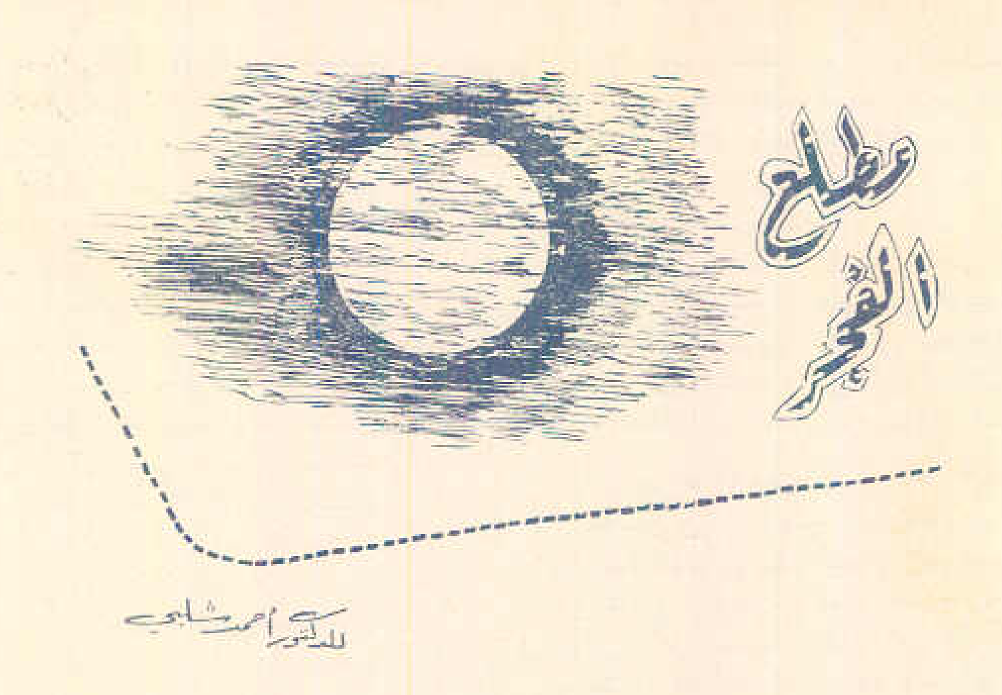
ولذت بالمصطفى رب الشفاعة اذ
يدعو المنادي ، فنحيا الناس من رمم
طه الذى قد كسا اشراق بعثته
وجه الوجود سناء الرشد والكرم
طه الذى كللت انوار سنته
تيجان امته ، فضلا على الامم
نعم الحبيب الذى من الرقيب به
وهو القريب لراجي المجد والنعم
روحي الفداء ، ومن لي ان اكون له
هذا الفداء ، وموجودي كمنعدم

وغير هؤلاء وهن كثر .. وفى النية ان شاء الله ان اتتبعهن فى الدواوين وفى المظان — وخاصة فى مجموعة الشيخ يوسف النبهاني التى جمع فيهاالاشعار فى المدائح النبوية من عصر الصحابة الى عهده المعتبرة اكبر مجموعة باقية فى هذا الشان بعدما ضاعت او تضاءلت المجموعات الاخرى — فاقدمهن بحول الله مرة اخرى فى فرصة آتية .

واخيرا يطيب لي ان اذكر ذلك التقليد المتوارث الذى ما زالت بعض العائلات تحافظ عليه ايام المولد النبوي ، وخاصة السيدات الشريفات من البيوتات العريقة ، فان كثيرا من العائلات المغربية ما زالت تقيم حفلات نسوية صرفة خلال ايام المولد النبوي ولاسيما الليلة الكبرى ليلة ميلاده صلى الله عليه وسلم ، حيث تبتديء هذه الحفلات مساء وتستمر طول الليل الى طلوع الفجر ، تنشد فيها الحاضرات الامداح النبوية ويتغنين بالاهازيج الدينية ويترنمن بالاشعار والاذكار وخصوصا بردة البوصيري والهمزية ويرتلن قصة المولد فى الليلة الغراء .. والجو يعبق بشرا ، ويطيب ذكرا ، وتهيج المشاعر ، وتفيض الذكريات والعبرات :

ليلة المولد التى كان للناس
سرور بيومها وازدهاء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب
من فخار ما لم تنله النساء

الرباط — د. آمنة اللوه



طال ليل البشرية قبل بعثة محمد ، ومر الجنس البشري بالوان من التجارب والخبرات اوقفته حائرا امام كثير من مشكلات الحياة ومشكلات ما بعد الحياة ؛ ولكنها في الوقت نفسه هيأته لتلقي رسالة تنظم له هذه الشؤون وتعالج ما بدا من مشكلات ، ووقفت الانسانية ترقب مطلع الفجر ، واخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال، باحثة عن الامل الذى يقود الانسانية الى الهدى، وباحثة عن شعاع الضوء الذى يزيل طبقات الظلام المتراكم .

وانبثق الفجر من هناك، من مكة، المدينة المقدسة التى تربض فى منتصف الطريق الواصل بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها تقريبا ، ولم يكن احد يعرف حينما ولد محمد ان هذا الوليد اليتيم سيكون ذلك الامل الذى ترقبه الملايين ، والذى سيهدي البشرية الى سواء السبيل .

وولد محمد في ضوء التاريخ ؛ لا شكوك حول اسرته ، ولا غموض حول تاريخ مولده ، ولا ظلام حول نشاته ، ولا تردد حول بعثته ومبادئه ، وانما هي وضوح كلها ، ويقين كلها ، يؤمن به من يشاء ، ويكفر به من يشاء ، ولكنه على كل حال كفران ناشيء عن التحدي او العصبية ، او سبب مماثل من الاسباب ، وليس ناشئا عن الجهل او الغموض ، ويقول غوستاف اوبون ، عن حياة محمد ووضوحها : اذا استثنينا محمدا لم تجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعا صحيحا .

تعال بنا نقص طرفا من سيرة محمد نستقصيها مما كتبناه عنه بتفصيل واطناب فى المظان التاريخية المخصصة لذلك :

انتقل السلطان فى مكة من خزاعة الى قريش سنة 440م وكان قصي الجد الرابع للرسول قد تزوج بفتاة من خزاعة كان لابيها السلطان على مكة ، فمهد له ذلك ان يستولي على السلطان بعد موت هذا الاب واضمحلال قوة خزاعة امام قريش الناهضة .

وقصي هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها اهل مكة للتشاور فيما بينهم تحت اشرافه ، وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها ، وهذه الوظائف هي السقاية والرفادة واللواء والحجابة .

وبعد قصي انحدرت وظائف الكعبة الى اولاده فاحفاده ، وكان هاشم ابن عبد مناف بن قصي من اكثر احفاد قصي حظا، فقد ءالت له السقاية والرفادة، وتولاها بعده اخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول الذى عز شانه وذاع صيته ، واصبح مرجع كل الامور بمكة ، وفى عهده كان عام الفيل حيث هجم ابرهة بالفيلة يريد تدمير الكعبة وتخريبها ، ولكن الهزيمة حاقت به وكتب للبيت المقدس النجاة ، وفى هذا العام ولد محمد .

ومحمد حفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان لعبد المطلب مجموعة من الابناء تزيد عن العشرة ، وكان من بينهم ابنه عبد الله ابو محمد ، وكان عبد الله احب ابناء عبد المطلب اليه ، كان شابا جميلا تغلب عليه الوداعة والخير ، وقد زوجه والده في سن مبكرة من فتاة قرشية في ميعة الصبا ، هي آمنة بنت وهب ، والتقى الزوجان الشبان التقاء قصيرا تكونت فيه نطفة طفل قدر له ان يكون في قمة القادة والمشاهير ، وافترق الزوجان افتراقا لم يتم بعده لقاء ، فقد سافر عبد الله في تجارة ابيه الى المدينة فالشام ، ولما عاد سقط مريضا بالمدينة ومات هناك .

لقد كان جديرا بقلب آمنة ان يتحطم ، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة في غمرة الحزن، ورضاها مع الاسى ، وقد وجدت آمنة سلواها في جنينها ثم ولدته فانست به ، واصبح دنياها الذي نسيت له وبه كل شيء ، ولكن آمنة سرعان ما ماتت وطفلها في السادسة من عمره ، وكانما اراد الله ان يتولى هو تنشئة الطفل ، وقد عبر القرءان الكريم عن هذا المعنى بقوله « الم يجدك يتيما فآوى » وعبر عنه الرسول بقوله : « ادبني ربي فاحسن تاديبي »

وتولى عبد المطلب الاشراف على حفيده الحبيب، ولكن عبد المطلب ايضا مات بعد سنتين من آمنة فتولى ابو طالب بن عبد المطلب كفالة محمد .

وواجه محمد الحياة في ظل عمه ابي طالب ، تربى في بيته ، وساعده في اعماله التجارية ، وسافر معه الى الشام متاجرا قبل أن يبلغ الحلم ، وعندما كان في الرابعة عشرة من عمره وقعت حرب الفجار الرابعة ،وقد حضرها الرسول ويروى عنه قوله : «كنت انبل على اعمامي يوم الفجار وانا ابن اربع عشرة سنة »

وتقدم محمد نحو الشباب ، ولكنه كان طرازا وحيدا ، لم يشرك اترابه فيما اعتادوه من لهو وعبث ، فلم يشرب الخمر ، ولم يغش مجالس الميسر ، ولم يسجد لصنم قط ، وكان حليف الامانة وحليف الصدق حتى عرفه الناس بالصادق الامين .

وتاجر محمد في مال خديجة بنت خويلد ، وسافر في هذه التجارة الى الشام ، وصحبه ميسره غلام خديجة ، وقد ربحت هذه التجارة ربحا عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة ، وقد توج هذا الارتباط بزواجه منها وهو في الخامسة والعشرين وهي امراة في الاربعين من عمرها تزوجت قبله مرتين .

وقد هيا مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للفكر الذي كان يراوده ، فكان محمد كثيرا ما يخلو لنفسه ويفكر في الكون مبدئه ونهايته ، ولكن السعي للمعاش كان يقطع عليه فكره ويحول دون استمراره في هذه اللذة العقلية التي كان ينعم بها ، ولكن حياته الجديدة مع خديجة الغنية ضمنت له فراغ الوقت ، ومنحه تقدم سنه مزيدا من العمق ، ومنحته اخلاقه الحسنة مزيدا من الصفاء ، وشملته عناية الله فراى ان يخلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته ، فكانت تعد له الطعام فياخذه ويذهب الى غار حراء حيث يخلو ليفكر في الكون وخالقه ، والموت ومصير الناس بعده وهكذا ، وصفت نفس الرسول فاصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف .

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان وناداه :

ـ اقرا

ـ ما انا بقاريء

ـ اقرا

ـ ما انا بقاريء

ـ اقرا باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .

وكانت هذه اول ءايات من القرءان الكريم ، ومن الملاحظ ان هذه الآيات لم تكلف محمدا بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن الا اعلانا بشيء غير عادي لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع الى البيت خائفا مذعورا .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة اخرى ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع الى بيته في حالة من الخشية ، وقال لاهله : دثروني دثروني ! فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو في هذه الحال والقى اليه نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » وادرك محمد بهذه الآيات ما يراد منه ، فهب ينذر الناس ، وبدات

بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد ، وافتتحت هذه الآيات للانسانية عصرا جديدا هو عصر النور وعصر السلام والاسلام .

وبدأ محمد دعوته بمكة ، ولكن الدعوة تعثرت ووقفت قوى الشر فى طريقها ، ولكن محمدا بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الاسلام فهاجر الى يثرب ، وحاولت القوة الغاشمة ان تلحق به وان تحطم بالمدينة الدعوة المهاجرة من مكة ، ولكن محمدا قاوم القوة بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له فى نهايتها النصر المبين ، وعلا صوت الحق ، ودخل الناس فى الدين افواجا ، وعندما استكمل محمد الثالثة والستين كان علم الاسلام يخفق على الجزيرة العربية كلها ، واصبح لهذه الجزيرة ، التى كانت اشتاتا متنافرة ، دين واحد ، ورئيس واحد ، وغاية مثلى تقودها ، وافكار سامية توجهها ، ثم انطلقت هذه الوحدة من حدود الجزيرة بعد وفاة محمد فاتجهت الى ارقى الممالك التى عرفها ذلك التاريخ ، فخرت بسرعة مذهلة امام الزحف الاسلامي الذى لم يطق الباطل ان يوقفه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى كان الاسلام يخفق فى الاندلس ويرفرف على السند ، ويشمل بخاري وينساب الى قلب افريقية ، ويعم ما بين هذه البلاد من بقاع .

ولنعد الى محمد نبي الاسلام ، لنذكر جملة اخرى من صفاته قبل ان نختم هذا الحديث .

لقد بعث محمد وتبعه بعض الناس ، وعاداه آخرون ، ولكن اعداءه لم يستطيعوا ان يجدوا فى اخلاقه مطعنا ، ولم يستطيعوا ان يزعموا ان فيه نقيصة ، او ثلمة .

وعظم شأن الاسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الديني والرئيس السياسي ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها اليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير اصحابه فيه الا رائدا وصديقا ، كان ينهاهم عن الوقوف له اذا اقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، واذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ، ويعود المرضى من اقصى المدينة .

ولم تقف سماحة نفسه عند اتباعه ، بل امتدت الى اهل الكتاب ، فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهدا فى الدنيا يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئا لغده، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودي فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ، اتخذ فراشا خشنا ، وطعاما بسيطا ، بل لقد عانى الجوع اكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به احيانا مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم امام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ، وحسبك ان تذكر موقفه عندما حلت به الهزائم فى غزوة احد ، وخر صفوة من اتباعه ، وتشتت شمل جيشه ، ومسه هو الضر ، وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادي قريش ان محمد قد مات ، فاراد احد المسلمين ان يكذبه ، وان يصيح بان محمدا لا يزال حيا ، ولكن الرسول اسكته فقد ادرك وهو فى حاله تلك — ان خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من اتباعه وهذا ما كان .

ومحمد — ككل مصلح وكل رسول — كان له اعداء ، ولا يزال له اعداء ، ولكن احدا من هؤلاء لم يستطع ان يجرح اخلاقه ، او انيجد فى صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الاسلام يذكر ان نجاح محمد كان نتيجة — لا لصدق دعوته — بل لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للامور ، وتفوقه الذهني والخلقي على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذي لا هوادة فيه ،وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعده عن الكهنة والقرابين ، وقد اتخذ محمد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ، كما ان من اهم خصائص هذا الدين اصراره على ان المسلمين جميعا اخوة متساوون تماما ، مهما اختلفت الوانهم او اجناسهم أو مراكزهم .

رحم الله محمدا ! لقد كان نفحة سماوية امدها الله بالتأييد ، وحباها كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده دينا جديرا بان يكون خاتم الاديان لما يكفله لمعتنقيه من تنظيم امور الدين وامور الدنيا.

القاهرة — احمد شلبي



لي مع هذا الموضوع قصة وتاريخ قديم

فلقد تناولته وانا ما زلت في طور التلمية ، بالسنة الخامسة من الثانوي ، وناولته زميلي ادريس بن كيران (المحامي) فترجم منه فصلا نشره سنة 1937 بجريدة « La Unidad Marroqui »

ولما عدت من مصر سنة 1949 ، وانا محصل على ليسانس ودبلوم عال وطالب بغرفة الدكتوراه ، اجتمعت في الباخرة ، براهبين اسبانيين ، تناول احدهما معي قضية المراة في الاسلام ،، كما تناول اشياء اخرى شخصية .. وبوصولي الى الدار ، بحثت عن الاوراق التي كانت تضم الموضوع ، فوجدتها ، وسطرت ما فيها بمجلة « لسان الدين » ، واشرت الى القصة « الراهبة الرهيبة » .

غير ان اضطرابا مطبعيا حصل في الورقات ، فاختل تناسقها ، فاختل بذلك الكلام ..

وتداركت الموضوع ، فنشرته ، بزيادة التعاليق ، في « مجلة المعرفة » واشرت الى القصة ، مع ما وقع في التنسيق او التناسق المذكور .

ثم اطلعت على الموضوع مجلة The Islamic Review التي تصدر بلندن ، فترجمته الى الانجليزية وكتبت الي بما يلي : اننا قد ترجمنا الموضوع بقصد نشره ، ونرجو منك، ان ترسل لنا صورة فوتوغرافية لك ، ونبذة عن حياتك وتذكر لنا المكافاة المالية التي ترسل اليك حوالة بها

فكان الجواب هكذا :

فيما يتصل بصورتي ، فهي هذه تصلكم ، وفيما يتصل بحياتي فليس فيها ما يستحق الذكر ، اما المكافاة المالية ، فانا مستغن عنها ، فان كان لا بد فقاموس انجليزي فارسي ، تتفضلون به علي كهدية

وانتظرت بعد ذلك النشر والقاموس ، فما حصل شيء من ذلك البتة

والسبب، التواضع ، نعم : التواضع الذي اهلكني ويهلكني وسيهلكني ...

لقد القي في روعي ، ان اصحاب المجلة ، بروقهم التواضع لله ، وفاتني انهم يعيشون في لندن، من بلاد اوربا التي لا تعرف معنى للتواضع ، فالتواضع والترافع على السواء ، لا وجود له في تلك البلاد ، التي تحرص على الصدق كما هو فتقصه كما هو او كما تراه قريبا من الواقع ، فالتواضع عندها كذب كالترافع الذي تعده ــ وهو الواقع ــ كذبا ، ايضا ..

هذه هي قصة الموضوع ، وتاريخ اتصالي به ، وهو كما ترون تاريخ جيل ، مضى عليه ثلاث وثلاثون سنة .. اما الموضوع نفسه ، فهاكم ذا :

يجني على الاسلام ايما جناية من يظن ان الاسلام ــ وهو دين الحرية والمساواة ــ يهضم المرأة فتيلا من حقوقها ، فالاسلام رفع من شان المرأة وعظم من حرمتها وشرع لها حقوقا ما كانت لتحلم بها فضلا عن ان تنالها ..!

راع الاسلام ان يرى المراة ضعيفة بين قوم غلاظ الاكباد يحقرونها لدرجة ان يئدوها « واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هـون ام يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون . . . » قال احدهم للنبي (ص) كانت لي فى الجاهلية بنت فأمرت امراتي ان تزينها واخرجتها فلما انتهت الى واد بعيـد القعـر القيتها فقالت يأبت قتلتني . .

ليس هذا فى شبه الجزيرة العربيه فقط فهذا مجمع «ماكون» المنعقد فى اوربا سنة 685 ميلاديـة يشهد بأن المناقشة امتدت فيه بين القوم فى البحث عن المراة « هل هي انسان ؟ »

وبعد مناقشة طويلة عريضة قرر القوم ــ والحمد لله ــ ان المراة انسان ولكنها خلقت لخدمـة الرجـل هذا ماحدث بفرنسا ، وكذلكم اليونان والرومان مـا كانوا ينزلون المراة الا منزلة المتاع والحيوان ليس لها حق فى التملك عن اية طريقة ولا لها ميراث اصلا ولا حظ لها من التعلم والتهذب ، بل ان الرجل اذا مات وترك نساء فان الاقرب نسبا هو وحده له الحق ان يرث اولئك النساء .

وهكذا كانت المراة فاخذ الاسلام بيدها وصاح فى وجوه القوم صيحة اهتزت لها اركـان العـالم : « انما النساء شقائق الرجال » يا قوم اتقوا الله فى المراة فان « المراة سيدة بيتها » . . . لم يشا ان يقف الاسلام بالمراة عند هذا الحد بل جعل « الجنة تحت اقدام الامهات » وجعل لها حرمة سجلها لها مالـك والاوزاعي ، فالمراة الكافرة اذا تترس بها العـدو فى ميدان القتال فلا يحل لنا ان نرميه ، رعيا لحرمـة هذا المخلوق المقدس . .

هذا حق لم تنله المراة حتى فى عصر النـور والـذرة !

واذا كان قوم من المفكرين الذين يحسب لهم الف حساب ينزلون بالمراة الى درجة الشيطان فان الاسلام يعتبرها تعويذة من الشيطان سأل النبي (ص) معاذ بن جبل : هل لك زوجة يامعاذ ؟.. فاجـاب : كـلا ، فقال له : اذن انت من اخوان الشياطين . . .

وجعلها نصف الدين فقال النبـي (ص) مـن رزقه الله امرأة صالحة فقد اعانه على شطـر دينـه فليتق الله فى الشطر الثاني . .

هذا بعض ما سن الاسلام للمراة من حرم قلما نجدها فى غيره ، وهاك بعض ما جعل لها من حقوق وما شرع لها من واجبات :

نظر الاسلام الى المراة فى مراحلهـا الثـلاث ، مرحلة البنت ، ومرحلة الزوجة ، ومرحلة الام ، فأقام لها حقوقا وهي بنت ، كما اقام لها حقوقا وهي زوج وكذلك صير لها حقوقا وهي ام .

البنت حقها على والديها كفالتها وتربيتها تربية حسنة ، ومكنها من الحق فى اختيار زوجها بشرط ان لا يحط هذا الاختيار من كرامة عشيرتها . عـن النبي (ص) لا تنكح الايم حتى تستامر ولا البكر حتى تستاذن ، ولقد اتت جارية بكر الى رسول الله (ص) فذكرت ان اباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي بين قبول الزوج وبين رفضه . .

ولهذا الاعتبار فقد ابطل بعض المالكية العقد اذا قالت البكر : « ما علمت ان اذني صمت » . . . اما اذا كانت زوجا فان على زوجهـا مهرهـا ونفقتهـا مـن المطعم والملبس والمسكن والمخدم اذا كانت ممن يخدم ولها عليه احترامها وحسن معاشرتها وعدم مضارتها « اطعموهن مما تاكلون واكسـوهن ممـا تكسـون ولا تضربوهن ولا تقبحوهن ايها الناس ! » « خياركم خياركم لنسائهم» . .

وكذلك جعل للمراة الخيـار اذا عسر زوجهـا وعجز عن نفقتها . واذا كان بخيلا فلها ان تاخذ من ماله ما يصلح شانها وشان اولادها بالمعروف ومن غير اذنـــه .

واذا كانت اما فلها على اولادها حق طاعتـهـا وبرها والاحسـان اليها ، قال رجل للنبـي (ص) اي الناس احق بحسن الصحابـة ؟ قـال امـك وكـرر السؤال مرات فأعاد عليه السلام الجواب : «امك . .»

ومن هذا فقد قدم القاضي عياض الام على الاب فى حق النفقة اذا لم يتسع الانفاق الا على احدهما . ويكفي ما عرضنا فى حق المراة على هذا النحو .

اما ما يتعلق بها فى باب الارث فى هذه المراحل ايضا فقد جعل لها حقوقا وهي ام فيه كما جعلهـا وهي اخت او غير ذلك من انواع القرابات المعتبرة فى الميراث . المراة فى غلب احوالها ترث نصف الرجل « للذكر مثل حظ الانثيين » وذلك لان الاسلام راعى فيها انها عالة على الرجل فاذا كلف الشرع القوامين عليها أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف فقد جعـل

لها مع ذلك حظا فى الارث وأي حظ . فاحر بالاسلام ان يتصف بمنتهى الرافة فى حق المراة فى ميراثها !

وكذلك اطلق لها التصرف فى مالها اذا كانت رشيدة، فهي تتصرف فى مالها من غير ما تحتاج الى اذن اب او زوج او غيرهما ...

اما الطلاق، فتمهلوا يا قوم ! حقا ان الاسلام اباح الطلاق ونعم ما فعل ! فقد اباحه على انه ضرورة لا بد منها فى المجتمع الانساني الذى لم يصل ولن يصل الى العالم المثالي . ومع هذا فقد قال فيه النبي (ص) : « ابغض الحلال عند الله الطلاق » . ونهى الفقهاء عنه عند استقامة الزوجين وحرموه مستدلين بقول النبي (ص) « لا ضرر ولا ضرار » وما اعظمه ضررا حينما يكون الطلاق فى هذا الوضع من الحياة !

فهو عملية جراحية ، لا تجري الا عند الضرورة ، ليصح بها « الجسم الاجتماعي » والا فهي كباقي العمليات التي تجري فتؤدي الى الموت او العاهة او الى استفحال المرض او مضاعفات اخرى ..

هذا هو المبدأ الذي وضعه الاسلام ، وهو الذى عبر عنه بعبارات شتى واحتاط له احتياطات عديدة ، وكل بعضها بالضمير الانساني ، وبعضها الآخر بقانون الحياة المتبع ، وقواعد المجتمع المرعية

وكانه نظر فيه نظرته الاولى ، وهو شيء لا يباح على الاطلاق ، بل جعل الاصل فيه الحذر والحظر

ولهذا ، قال ابن عابدين (1) : **« الاصل فى الطلاق الحظر »** ، والاباحة للحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق ووجود البغضاء ، فاذا تجرد عن الحاجة المبيحة كان محظورا قال تعالى : « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » فاعتبر الطلاق فى هذه الحال بغيا وعدوانا ...

نعم . ان الاسلام جعل الطلاق بيد الرجل فى اغلب الاحيان ذلك لان الرجل هو المسؤول عن الاسرة وتدبير معاشها وتربية الابناء. ورباط الزوجية هو اساس كل هذا فمن الخطل ان يوضع الطلاق فى يد غير مسؤولة ...

على ان الاسلام بالرغم من كل هذا قد عوض المراة ما عساه تخسره من جعل الطلاق بيد الرجل فقيد الرجل بقيود لا يمكن ان ينفك منها ومن شأنها ان تمنعه من العبث بهذا الرباط المقدس . اذ كلفه بدفع للمراة صداقها ومنعه أن يأخذ منه شيئا ، ولو كان من الذهب قنطارا ، « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا ، اتاخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » .

كما نصحه ان لا يقدم على الطلاق حينما يراه السبيل الوحيد الا بعد ان يعرض ما بينه وبين زوجته من خلاف على حكم من اهله وحكما من اهلها « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما »

لقد مرت الازمان وتوالت الاجيال واذا باورب تدين او بدين مشروعها على التحقيق بأن الاسلام ابلغ حكمة فيما كانوا قد عابوه عليه منذ الدهور ادهمتهم حكمته فلم يستطيعوا الا ان يقولوا بملء فيهم ما قاله الاسلام ونبيه منذ الدهور فرددوه باساليبهم « الطلاق شر ولكنه شر لابد منه لصالح المجتمع لانه العلاج الوحيد لشر قد يكون اكثر منه بلاء، وتحريم الطلاق بما فيه من ضرر هو بمثابة تحريم ممارسة فن الجراحة لان الجراح سوف يضطر الى بتر عضو من اعضاء المريض ، وليس ثمة خطر من شرعية الطلاق ، اذ ليس الطلاق هو الذي يفسد الحياة الزوجية ، وانما هو سوء التفاهم وعدم الانسجام : فهو الذى يعوق سير الحياة الزوجية ويجعلها فسادا : فتنعدم الهناءة ويفقد الاطمئنان » . فالطلاق وحده هو الذى يضع حدا فاصلا بين ما يمكن ان يحدث من خلل فى بناء هذا الصرح المشيد على التقوى والرضوان : والا فسلاما على المجتمع الانساني وسحقا لقوم يجحدون ..!

هذا فى الطلاق

وثالثة الاثافي عند من يهاجم الاسلام ظلما وبهتانا فى اباحة تعدد الزوجات !

ان من يقف مثل هذا الموقف انما يكون بمثابة من يحجب عن الكون قرص الشمس بسبابته . اباح الاسلام للرجل ان يتزوج «مثنى وثلاث ورباع» واذا امعنا النظر فاننا ندرك بديهة ان ما يتوق اليه الاسلام

(1) هو محمد امين بن عبد العزيز عابدين الدمشقي، فقيه الديار الشامية ، وامام الحنفية لعصره ، وصاحب التآليف المفيدة 1252

فى «معاملة» النكاح والزواج هو النسل وقضاء الحاجة البشرية بشكل مشروع ولا يبتعد جميع الاديان وجميع القوانين الوضعية فى مرماها عن هاتين الغايتين لان الحقيقة الواقعية ــ وما اكثر ان تداهمنا الحقيقة ــ هي هذه مجردة سافرة ، فليس لاحد ان يكون ذلك الذى اشرنا اليه آنفا . . اذن فالدين والعقل مجمعان على مراجعة الشكل المشروع فى المناسبات التى اعتبرت فى طبيعة الاجتماع والازدواج . . ومتى دعت حاجة رجل الى الاقتران باية امراه فلا سبيل اليه عند العقل والنقل الا السبيل المشروع وهو الزواج ، وما دام فى هذا الكون الانساني من لا يكتفي بمن عنده من زوجة ــ وهذه حقيقة مرة ــ فالاعتراف بتعدد الزوجات ضروري وجد ضروري ، والا كنت ذلك الذى يحاول ان يغمط الحقائق ويظلم الوقائع . .

التعدد يا سيدي ضرورة من ضروريات الحياة، قلها وانت مطمئن الى ان الواقع سيؤيدك . تشتد الحروب وتطحن الخلائق ــ وامامك مثل ناطق ــ فيجري على سوق الزواج ما يجري عليه من قوانين (العرض والطلب) فكلما كثر العرض قل الطلب وهو قانون يجري عليه الاقتصاد كما يجري عليه ناموس الكون ويعضده ما كان قد جرى فى أوربا التى اكلت رجالها الحرب فلم يبق هناك تعادل او ما يقاربه ورجحت الكفاف واختل نظام الميزان وقامت الارامل يطالبن بتعدد الزوجات والا فالكارثة حالة لا معدى عنها . .

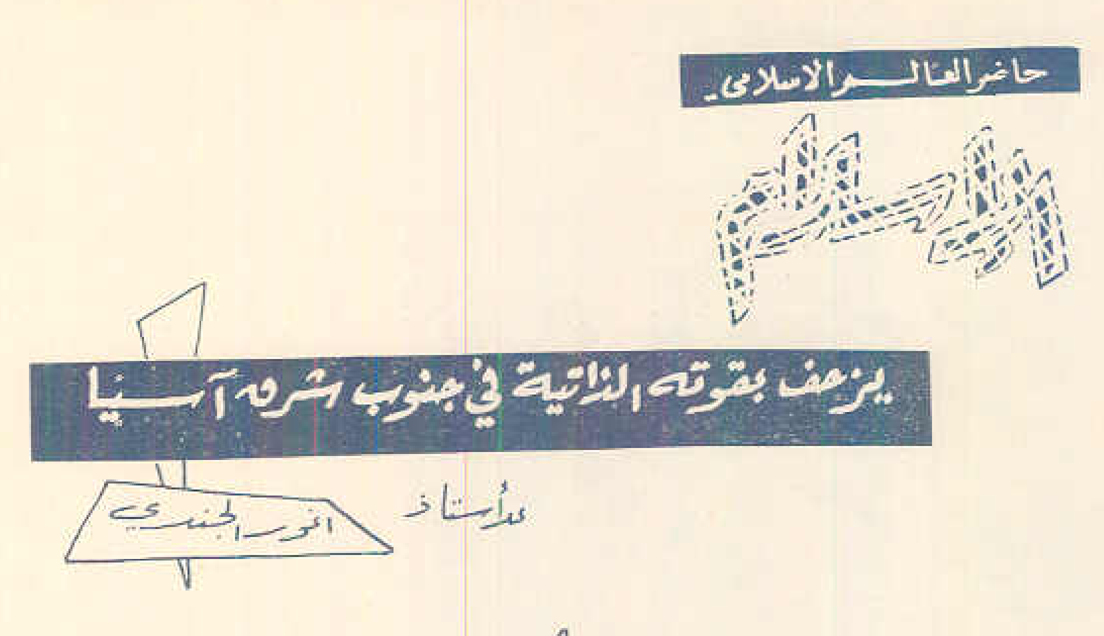
فتعدد الزوجات كفيل بان يسد هذا النقص ويرتق هذا الخرق فيعوض الارامل ازواجهن ويعيد الى الامة ما فقدته من رجال فتنهض من كبوتها كما انه كفيل بان يحل مشاكل شائكة كان تكون المراة عاقرا او مصابة بمرض والمصلحة تقضي ببقائها فى العصمة . اضف الى هذا انه سبيل لتلافي زيادة عدد البنات وهن غالبا ما يفقن عدد الشبان . . . كل هذه الاعتبارات لا بد من مراعاتها فى مجريات الحياة ، والاسلام لم يدع هذا الباب مفتوحا على مصراعيه بل فتحه بمقدار ما تدعو اليه الضرورة القصوى فقد اجازه بشرط ليس من الميسور جدا تحقيقه وهو العدل بين الزوجات « فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم » ونبه الى ان هذا الشرط صعب تحقيقه وان المقدم على تعدد الزوجات يجب ان يكون ذا يقظة ومراعاه الله لان العدل بين الزوجات قلما يتحقق « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »

اما يقظة المسلمة فى القرن العشرين ، فليست يقظة المراة المسلمة على الحقيقة ، بل يقظة المراة المسلمة ، كانت منذ ان كانت المراة المسلمة ، اذ جعل الاسلام « النساء شقائق الرجال » ، فمارست المراة فى الاسلام كل ما مارسه الرجل فى معترك الحياة ، من سلم وحرب ، ومقتضياتهما ، ولم يبعد المراة الا عن الحكم المباشر ، اما خوضها فى السياسة، فقد وجدناها تخوضها ، وتعترض على خلفاء الاسلام ، وهم على منابر الخطابة ، كما حصل من العجوز ازاء عمر ، بل تشهر الحرب كما حصل من عائشة ازاء علي . . والى هنا نمسك عن الموضوع وهو ان عدل الاسلام فى حق المراة واضح وضوح الشمس لا يكابر فيه الا معاند ، ودع عنك ما يحصل ، فنحن لا نتكلم الا عن الاسلام ، اما ما يحصل فلن يلام عليه الاسلام كما ان الاجرام لا تلام عليه القوانين . وكم من جريمة يستقل فيها القانون ــ والعدالة الانسانية براء منها ــ ولهذا قال النبي عليه السلام لبعض المتخاصمين (ولعل بعضكم يكون الحن من بعض فاقضي له على حسب ما اسمع)

تطوان ــ محمد بن تاويت



الحاج حكيمجان نيازاخونوف يحدث المؤمنين عن زيارته لمكة. (مسجد طلا شيخ، مدينة طشقند).



الاسلام يزحف بقوته الذاتية في جنوب شرق آسيا

بقلم الأستاذ أنور الجندي

- 4 -

« سجلنا تلك الظاهرة الفريدة التي ما تزال موضع رصد المراقبين السياسيين والباحثين والمؤرخين ، وهي ظاهرة زحف الاسلام بقوته الذاتية فى منطقتين من اخطر مناطق العالم : هما قلب افريقيا وجنوب شرق آسيا وقد تحدثنا عن افريقيا وهذا حديث جنوب شرق آسيا

يرجع انتشار الاسلام فى جنوب شرق آسيا الى التجار العرب الذين وصلوا هذه البلاد فى القرن الاول للهجرة ، واستطاعوا ن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان كلها فى أيديهم فى القرن الثاني ، ثم راجت تجارتهم مع الصين رواجا عظيما ، وكانت « كانتون » هي اكبر مراكزهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجري حين ظهر البرتغاليون وتطلعوا الى هذه الافاق ، وقد اسس المسلمون مستعمرات تجارية فى اكثر من موقع فى ارخبيل الملايو ، وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطره الغربي ، ويرجع الاثر الحقيقي فى الدعوة للاسلام فى هذا القطاع الى الدعاة المسلمين الذين وفدوا الى ارخبيل الملايو من جنوب الهند ، والذين حملوا الاسلام اليها ، مما ارث جذوره فى جاوه وسومطره ، كما كان لاصهار التجار المسلمين الى سكان البلاد اثره البعيد فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجماعة الاسلامية ظلت اعدادها تتزايد ، مما طبع المنطقة بطابع اسلامي واضح ثم امتدت الدعوة الى الاسلام الى سومطره وسيام وبورنيو وحملها وجاهد فى سبيلها كثير منهم .

ثم انتقل تيار الاسلام من سومطره الى شبه جزيرة الملايو فاصبحت احدى معاقل الاسلام ، وفى جاوة الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الامارة الهندوكية واهتدوا منها الى جاوة الغربية فى القرن العاشر الهجري ، ويمكن القول بانه منذ منتصف القرن السابع الهجري استطاع « ضوء الاسلام » ان يكسب جولة جديدة فى ربوع الارخبيل الاندونيسي وشبه جزيرة الملايو وجزائر الفلبين .

وقد قاوم الاستعمار الهولندي فى مطلع القرن العاشر الهجري حركة توسع الاسلام الذاتية وبذل جهودا ضخمة لتحطيم جهود الدعاة المسلمين واستئصالها وطمس الصلات التى ربطت بين مسلمي اندونيسيا والعرب ، كما عمل الاستعمار

الهولندي على ايقاف هجرة المسلمين الى اندونيسيا وسن قوانين صارمة وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين الى ارخبيل الملايو من الهند او جزيرة العرب .

كما حفظ تاريخ انتشار الاسلام فى ارخبيل الملايو اسماء كثير من المجاهدين الاعلام الذين قاموا بدور ضخم فى سبيل الدعوة الى الاسلام ، وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لايواء المريدين والطلاب والقيام بتكاليف معاشهم وتعليمهم عقائد الاسلام والواجبات والمباديء ، ثم بث المتخرجين فى مختلف النواحي والقرى ؛ لاقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرءان والاحكام .

وقد اعان على انتشار الاسلام فى ارخبيل الملايو امران هامان :

(الاول) كان اغلب سكان هذه المناطق على الفطرة فوجدوا فى بساطة الاسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم .

(الثاني) مرونة الدعاة وصدق ايمانهم وصبرهم وقدوتهم الحسنة .

ولقد استطاع الاسلام بمرونته ان يتقبل فى يسر طابع افراحهم واناشيدهم واغانيهم واضاف اليها مفهومه ، ثم استطاع ان يحول ابطال الاساطير الى ابطال من قادة الاسلام ، كما حول الصور المجردة الى معاني انسانية .

ويرى بعض الباحثين ان بساطة الاسلام استطاعت ان تسيطر فى مواجهة الدعوات المتعددة التى كان ينشرها معتنقوا دياني شيوا ووشنوا وما كان بين البوزيين والحيثيين وبينهم من خلافات وخصوماتهم .

وقد اتاح هذا الجو المضطرب الفرصة للاسلام الواضح الصريح البعيد عن النقص ، فكسب الجولة وانتشر لسماحته وبساطته التى تتمثل فى الايمان المطلق بالله . والمساواة بين البشر وحرية العقل والراي فى الحياة العملية مما الغى حواجز اللون او المنصب او النسب بين الناس .

وقد كان عمل التجار العرب فى مجال الدعوة الى الاسلام بارعا ودقيقا ؛ فقد نالوا تقدير اهل البلاد بتعلم لغتهم وعاداتهم ، وقد بداوا اولا بضم النساء اللائي تزوجوا منهن الى الاسلام كما جعلوا كل من يتصل بهن يعتنق الاسلام ، ومن ثم اخذوا يندمجون فى عامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الغرور او الكبرياء ، واخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين فى ذلك ذكاءهم الفائق وحضارتهم العظيمة واظهروا مقدرة كبيرة فى تفسير الاصول والعادات المتعلقة بالاسلام بحيث اصبح امره يسيرا لمن اتصل به .

وقد مضى الاسلام يشق طريقه ويوسع آفاقه فى ارخبيل الملايو ، حتى صدمته صدمة الاستعمار الهولندي والبريطاني فى اواخر القرن السادس عشر فحاولت ان توقف نمو الاسلام ودفعت بارسالياتها التبشيرية ذات النفوذ القوي ، والموارد الضخمة ، وحماية الدولة المستعمرة ، لتجد مجالا خصبا بين الوثنيين .

غير ان جهود المسلمين الذاتية لم تتوقف ، فقد ظل المسلمون يعملون فى سبيل بناء مدارس تحفيظ القرءان ، وانشاء المساجد ، ومضى كثير من العلماء والتجار فى الآفاق يحملون معهم كلمة الاسلام البسيطة السمحة التى كانت تجد استجابة طيبة ولقاء وترحيبا حيثما حل المسلم الذى كانت شخصيته واخلاقه ومعاملته ونظافته وملبسه هى العامل الاول فى تقبل الوثنيين لكلمته : كلمة لا اله الا الله وزاد من قوة هذه الجهود الفردية انها قد ارتبطت فى نفوس الناس بالحرية فى نفس الوقت الذى ارتبطت فيه ارساليات التبشير بالنفوذ الاستعماري مع بساطة الاسلام وسماحته .

وقد اشار الى ذلك المبشر زويمر فى تقريره عام 1911 : الى ان انتشار الاسلام بسرعة فى (الهند الهولندية) قد ازعج الارساليات، فهو اي الاسلام يتوطد ويثبت هناك لان المسلمين اخذوا يستعيضون عن التقاليد الحشوية والخرافية بعقائد ثابتة قويمة ، ففي (سومطرا) اكتسح الاسلام الارجاء الوثنية ، وفى (جاوه) ظهر بمظهر جديد على اثر تاسيس المدرسة الجامعة الاسلامية وكثرة طبع القرءان وازدياد عدد الدعاة والمرشدين المسلمين وما زال الوطنيون يدخلون فى شبكة الاسلام الى درجة يتعذر فيها على المبشرين المسيحيين ان يلقوا لاعمالهم رواجا »

اما فى (ماليزيا) فقد اشار الى قيام شباب جاوه بانشاء صحيفة الاتحاد العام التى ترمي الى احداث ارتقاء اجتماعي واتباع مباديء التربية الاسلامية وقد فسروا القرءان بلغتهم .

هذا ما اوردته تقارير المبشرين وهو لا يمثل كل الحقيقة ، ولكنه يلقي الضوء على حركة امتــداد الاسلام فى ارخبيل الملايو على النحو الذى اتسع من بعد . وقد كان لتحـرر اندونيسيــا ، والفيليبيـن ، وماليزيا ابعد الاثر فى توسع الدعوة الاسلامية .

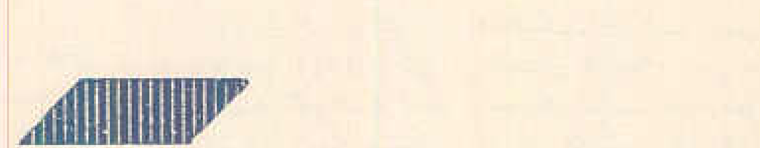
وبالرغم مما حاولته البعثات التبشيرية ومـا قامت به الخطط الاستعمارية فقد بقى الاسلام قادرا على الحركة والتوسع ، وفى هذا يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف :

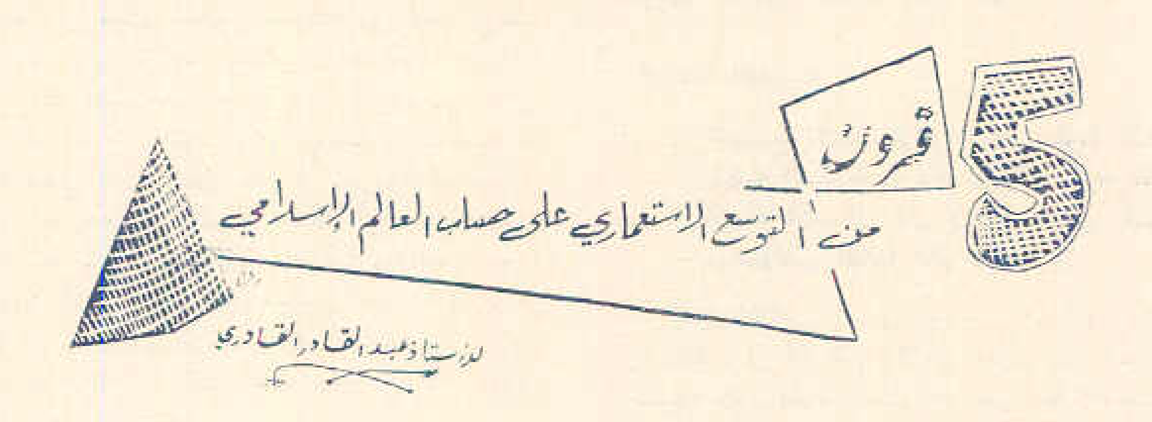
« ان قوة المستعمرين وحربهم ضد الاسلام لم تفلح فى محو الاسلام ، بل بقي الاســلام على رغمهـم وقد طردوا من البلاد وظل الاسلام ديـن عشرات الملايين ، ودين الدولة فى ماليزيا وبرونـاي، وديـن الاغلبية العظمـى فى اندونيسيا ، بـل ان فظاعـة لديهم وزادتهم استمساكا به وشجعت من كان مترددا فبادر باعتناق الاسلام لما راى من سماحته ووحشية اعدائه ، حتى انك لا تكاد ترى باتحاد الملايو ملاويا غير مسلم وحتى اصبحت كلمة (ملايـوي) تستعمل مرادفا لكلمة «مسلم» .. »

وما تزال القافلة تمضي والتوسـع الاسلامـي الذاتي يجري بين الوثنيين عن طريق التاجر المسلـم والداعية المسلم اللذين لا تسندهما قوة مادية ، ولا نفوذ ولكنهما يكسبان للاســلام بالقـدوة والصـدق والبساطة ما لا تكسبه ارسالية التبشير ومن ورائها قوى الاستعمار وامواله ..

وما تزال منطقة جنوب شرق ءاسيا ميدانــا خصبا لتوسع الاسلام واطراد نموه بقوته الذاتية .

القاهرة ـ انور الجندي





لقيت الامة الاسلامية على يد الاستعمار الاروبي الوانا من العذاب والقتل والحريق والابادة قل ان لقيتها امة سواها ومع ذلك لم تذب في غزاتها ولم تتنصر ولم تكف عن الكفاح بخلاف بعض الامم غير الاسلامية ذابت في غزاتها وتنصرت وكفت عن الكفاح.

ويحدثنا الكاتب المصري القدير الاستاذ أنور الجندي في كتابه « الاسلام وحركة التاريخ » طبعة الرسالة عام 1968 فيقول : « تعد حركة الغزو الخارجي لعالم الاسلام من ابرز صفحات تاريخ الاسلام فقد واجه الاسلام غزوا مزدوجا من خارجه عن طريق حملات التتار والمغول الوثنية القادمة من الشرق زاحفة على « كاشغر » وعن طريق حملات الفرنجة والغرب والاروبيين على عالم الاسلام من طرفيه : حدود بيزنطة وحدود الاندلس . اما هجمات القوى العسكرية المغولية فقد توالت وامتدت خلال قرن ونصف قرن من الزمان وكان ابرز موجاتها ثلاث حملات كبرى هي حملات جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك ، غير ان الاسلام استطاع ان يغزو من داخلها هذه القوة ويحولها من الوثنية الى التوحيد .

اما القوى التي حاربت الاسلام بعنف واصرار وشراسة :

فهي القوى التي اطلقت عليها اسم القوى الغربية الفرنجية الاروبية هذه القوى التي احست منذ اليوم الاول لظهور الاسلام انه قد يسيطر على مناطق كانت داخلة تحت نفوذها كالشام ومصر وافريقية . ثم كانت اندفاعة الاسلام الى اروبا من خلال معارك القسطنطينية في آسيا الصغرى ومعارك شبه جزيرة ايبريا في اسبانيا مصدر قيام فكرة استعمارية صليبية في عالم الغرب واوروبا تهدف الى محق تيار الاسلام والحيلولة بينه وبين النفاذ الى قلب اروبا وقد استمرت هذه الحركة وازدادت على الايام قوة وعنفا وتشكلت في صور مختلفة ومضت تضعف وتقوى وتتقدم وتتراجع حسبما ترى الظروف امامها .

وقد اثبت التاريخ ان حركات الانقضاض على الاسلام من بيزنطة ومن اسبانيا استمر متصلا طوال القرون وفق خطة لم تمت ابدا وما اظن انها ماتت حتى اليوم او ستموت غدا ذلك الصراع الذي اطلق عليه : الصراع بين الشرق والغرب او الاسلام والمسيحية او ما نطلق عليه نحن : « الصراع بين عالم الاسلام والغرب » . واذا كانت هذه الفكرة قد بدات منذ بدا الاسلام يمد نفوذه الثقافي والسياسي الى مناطق كانت تابعة بالاستعمار والاخضاع الى الدولة الرومانية ثم حيث مد الاسلام نفوذه الى الاندلس والى القسطنطينية ، فان هذه الفكرة لم تلبث ان اخذت طابع الغلو لتسيطر على مقدرات الفكر الغربي وتكون هدفا اساسيا ضخما لم يكن في ذاته جديدا فقد كان الصراع بين الغرب والشرق قديما . وكان في آخر مراحله يتمثل في فتح الاسكندر الاكبر للشرق وبه

رجحت كفة الغرب وسيطرته ولكن هذا الصراع القديم قد اخذ طابعا جديدا اشد عنفا وشماسا حينما بزغ الاسلام فاحال هذه المنطقة الى طابع جديد من حيوية التوحيد والعدل والمساواة هذه القيم التي ايقظت المنطقة واهلها فاحست بكيانها الاسلامي قادرة على ان تباشر مفهوم السيادة وان تقف موقف الند للغرب وان تواجهه بالمقاومة الصامدة لعدوانه وغزوه . لقد طبع هذا الموقف عالم الغرب من خلال مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة بطابع التحدي الذي اطلق عليه « الحروب الصليبية» والتي اشتعلت فعلا واستمرت مشتعلة طوال هذه القرون لا تتوقف منذ بلغ الاسلام القسطنطينية والاندلس حتى جاء اللورد اللنبي على راس قوات الغرب الغازية الى القدس 1918 فقال كلمته التي عبرت عن ضمير الغرب وفكره ازاء الاسلام وعالمه حين قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

حركة الغزو الخارجي لعالم الاسلام :

المرحلة الاولى : الحروب الصليبية :

(من الحملة الصليبية الاولى عام 1099 الى الحملة الصليبية الثانية عام 1290) .

1099 — الحملة الاولى : بيت المقدس
1147 — الحملة الثانية : ساحل الشام
1188 — الحملة الثالثة : ساحل الشام .
1187 — صلاح الدين يسترجع بيت المقدس
1203 — الحملة الرابعة : القسطنطينية .
1217 — الحملة الخامسة : عكا .
1219 — استيلاء الصليبيين على دمياط
1228 — الحملة السادسة : استعادة بيت المقدس (فردريك الثاني)
1221 — انسحاب الصليبيين من مصر
1244 — الملك الصالح يسترجع بيت المقدس
1249 — الحملة السابعة : دمياط — الهزيمة في المنصورة 1250
1250 — مقتل توران شاه وتولي المماليك الحكم في مصر
1289 — الحملة الثامنة : تونس
1291 — سقوط عكا في ايدي المسلمين (الاشرف خليل)

وفي الاندلس :

معركة الزلاقة عام 1086 ثم معركة الارك عام 1196 ثم سقوط غرناطة عام 1492 فمعركة المخازن ففي مقابل الحروب الصليبية على المشرق كانت هناك الحروب الصليبية الغربية على المغرب .

المرحلة الثانية :

التوسع الاستعماري (من سقوط طنجة في قبضة البرتغاليين عام 1471 ، وغرناطة في قبضة الاسبان عام 1492 الى غزو موسوليني البانيا عام 1939)

يقول الدكتور حسين مؤنس : ان أروبا لم تكف عن التفكير في الاسلام والاخذ بثارها من الحروب الصليبية حتى عداها الفكر الى حركة الالتفات الجنوبي . وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر (السابع والثامن الهجري) سعت الى تنصير المغول حتى تحصر الاسلام بين دولتين مسيحيتين وكيف اتصلت الاسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية في مصر ثم كيف بدأت تتجه الى الغرب للوصول الى الهند وللوصول الى بلاد الاسلام » .

ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشيرية التي ارسلت الى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها ان تحقق امل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس الى الابد بيد ان هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره ثم تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لاصحابه في الخيال صورة آسيا واوروبا المسيحية تحصران الاسلام بينهما فلا يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن اسبانيا وفي جانب من شرق البحر الابيض ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام عام 1316 م واسلم اهل آسيا الوسطى في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري)) وتربعت على عرش الصين اسرة منج الشهيرة بين سنتي 1368 — 1370 م واقفلت ابواب الصينيين في وجه التجارة الاجنبية فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعا بعيدا في رقعة الاسلام الذي ادرك شاوا بعيدا من الاتساع بظهور الاتراك العثمانيين ولكن املا جديدا تراءى للغرب الذي لا ييأس وكان هذا الامل الجديد سببا في اكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الاروبيون : اذا كان طريق البر قد اقفل فلم لا تسلك أروبا طريق البحر

لماذا لا تبحر الى الشرق وتهاجم الاسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا امل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا انهم برحلتهم الى بحار الهند يعملون لتخليص الاراضي المقدسة » .

وقد اشار انور الجندي في كتابه : « الاسلام وحركة التاريخ » الى ان احتلال بريطانيا للهند وهولندا لجاوة وارخبيل الملايو كان هو الخط الاول لتطويق عالم الاسلام وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فكرة استعمار عالم الاسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام 1613 . وأسس الهولنديون عام 1600 الشركة الشرقية واسسوا شركة الهند الغربية عام 1621 فامتلكوا غينيا وسوريتام وركاب وسيلان عام 1653 وجزائر ملقة ، وفي عام 1680 استولوا على جاوة وكان الحضارمة (أهل حضرموت) قد غزوا بعد ذلك باربعمائة عام الى جزائر الهند الشرقية ونشروا فيها الاسلام ، وبعد ان تمت حركة التطويق تحولت شركتي هولندا وانجلترا الى استعمار صريح . لم يلبث الغرب الى أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الاسلام : الامبراطورية العثمانية ، وقد ظل هذا العمل مستمرا من سنة 1684 الى سنة 1818 خلال مائتي وأربعة وثلاثين عاما وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة واستطاعت بالضغط ان تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الاجنبية وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمت روسيا (حين عبرت القوقاس وبسطت سلطانها على اواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا وتتمثل في هذه الحركة الضخمة « أزمة الاسلام الكبرى » المكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تتوقف اكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت — ولا نقول توقفت — في اواخر القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجري) وقد تمثل ذلك في عدة خطوات :

1) تطويق العالم الاسلامي
2) السيطرة على الهند وارخبيل الملايو
3) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل
4) اقتطاع اجزاء الدولة العثمانية
5) تنازع السيطرة على فارس .

وقد كان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه اليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الابيض بالبحر الاحمر » .

الغزو الاستعماري البرتغالي للبلاد الاسلامية

1471 — استيلاء البرتغال على طنجة
1505 — سيطرة الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما على زنجبار
1509 — احتلال البرتغال لمسقط
1511 — سقوط ملقة بالملايو في قبضة البرتغاليين
1505 — استيلاء البرتغاليين على اكدير وعلى أزمور عام 1513 وعلى الصويرة عام 1514 وعلى سبتة عام 1420 .

الغزو الاستعماري الاسباني للبلاد الاسلامية

الاسبان يستولون على غرناطة عام 1492
وعلى طرابلس الغرب عام 1510
وعلى وهران عام 1509
وعلى مليلية عام 1497
وينزلون في الفلبين عام 1521
ويحتلون طرفاية عام 1916
ويبسطون نفوذهم على شمال المغرب 1912
ويحتل القائد الاسباني كاباز آيت باعمران باقليم يفني عام 1934
القوات الاسبانية تحتل طنجة عام 1941

الغزو الاستعماري الروسي للبلاد الاسلامية

استيلاء القيصر ايفان الرابع على خانة قازان عام 1552 ، وعلى استراخان عام 1554 .

استيلاء القائد الكوزاكي ايرميك على سيبريا الوسطى ودخوله عاصمتها ايسكر عام 1581 بعد سقوط سلطانها المسلم كرجم خان رئيس دولة بني قوندي في قبضته .

— استيلاء الروس على جزيرة القرم عام 1773 بعد حروب طويلة . وانهائهم احتلال القوقاز عام 1859 بعد ان دامت الثورة فيها 137 سنة من 1722 الى 1859 وبعد استسلام الامام شامل لهم .

بمؤازرة الاساطيل الانجليزية بعد ان اعلن احمد سوكارنو استقلال بلاده سنة 1945

المرحلة الثالثة :

عهد احتلال البلاد الاسلامية فى الحرب العالمية الاولى (1914 — 1918)

لما قامت هذه الحرب عام 1914 ودخلتها الدولة العثمانية الى جانب المانيا وضع الحلفاء خططا لتمزيق الامبراطورية العثمانية من الداخل والهجوم عليها من الخارج وهكذا عقدت اتفاقية سرية فى 18 مارس 1915 بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة اخرى بتبادل المذكرات بين سان بطرسبورغ وباريس ولندن ، وفى 26 ابريل 1915 عقدت فى لندن معاهدة سرية وقعت عليها بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وايطاليا. وكانت هذه المعاهدة ثمنا دفعه الحلفاء لايطاليا مقابل انضمامها لمعسكر الحلفاء . ثم عقدت فرنسا وبريطانيا فى 16 مايو 1916 اتفاقية « سايكس — بيكو » وهكذا نشبت الثورة العربية فى يوم الاثنين 15 يونيه 1916 بينما كانت القوات التركية تحارب الجيوش الانجليزية فى العراق تحت قيادة نور الدين بك وفى مصر تحت قيادة جمال باشا ، وتقاوم بشجاعة نادرة المثال تحت قيادة مصطفى كمال باشا حملة الحلفاء على مضيق الدردنيل فرغم استسلام تاوسند قائد الحملة الانجليزية على العراق فى دجنبر 1915 الى القائد التركي نور الدين بك وفشل حملة الحلفاء على مضيق الدردنيل فقد اصبحت القوات التركية بين نارين نار العرب ونار الحلفاء مما ادى بها الى التقهقر فى جبهة البلاد العربية ، فاحتل الانجليز العريش فى دجنبر 1916 ورفح فى يناير 1917 وخان يونس فى مارس 1917 .. وفى يونيه 1917 تسلم الجنرال اللنبى قيادة حملة فلسطين فاحتل يافا فى 11 نونبر 1917 والقدس فى 17 نونبر 1917 بعد انسحاب القوات التركية منها ، وفى مارس 1917 دخل الجنرال الانجليزي مود بغداد بعد مقاومة الاتراك المستميتة وسارع الكولونيل الانجليزي لورانس الملقب بملك العرب غير المتوج بغارات شمال الجزيرة العربية وسوريا لقطع طريق بقاء الاتراك فى الولايات العربية . وفى اكتوبر 1917 دخل الجنرال اللنبى الانجليزي دمشق ثم احتلت قواته بعد ذلك حمص وحماة وحلب وحيفا وعكا وبيروت وواجهت مقاومة صلبة فى ضواحي حلب حيث كان القائد التركي مصطفى كمال باشا على راس فيلق جيد الاعدادات مؤلف من فرقتين .

وفى اكتوبر 1917 احتلت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع الى القسطنطينية وسوريا والعراق وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالا لان تركيا وقعت فى اليوم التالي هدنة مدروس . Mudros

وهكذا انتهى الحكم التركي لبلاد المشرق العربي . وكان من سوء الحظ انه قدر للعرب ان يواجهوا استعمارا شرسا الا وهو الاستعمار الاروبي الذي دام فى هذه البلاد زهاء ربع قرن .

المرحلة الرابعة :

فترة ما بين الحربين العالميتين (1919 — 1939) .

أ — عهد الاسترداد :

لما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها وخرج الحلفاء منتصرين استردوا استانبول عاصمة الخلافة العثمانية التي سقطت فى قبضتهم واستردت روسيا الشيوعية البلدان الاسلامية فى آسيا الوسطى وما وراء القوقاز التي اعلنت استقلالها عقب انهيار النظام القيصري بروسيا وقيام الثورة البولشفية فيها سنة 1917 . . . . .

تقول السيدة هيلين كاريير دانكوس فى كتابها القيم : « الاصلاح والثورة عند مسلمي الامبراطورية الروسية » .. شبت الحرب العالمية الاولى رغم انها لم تكن تعني الا المانيا والحلفاء فقد كان لها تاثير فى المقاطعات الاسلامية بروسيا وبخارى ، لقد وجدت الاراء التي برزت ابان النزاع المسلح ميدانا خصبا فى هذه البقاع المتاخرة ماديا وادبيا والخاضعة لسيطرة رجعية واستعمارية ، وصادفت هذه الدعاية الالمانية آذانا صاغية فى التركستان وبخارى وابدى انصار الاصلاح نشاطا متزايدا برز فى مؤتمر كوزان بين 27 و 29 يونيه 1916 طالب فيه ممثلو هذه الحركة الاستقلال لتركستان ثم كان للثورة التي قام بها شعب تركستان فى يوليوز 1916 والقمع الذي ترتب عنها سند قوي لهذا المطلب وترددت اصداء كفاح مسلمي روسيا فى المعمورة .

تتالت الاحداث الى ان اطاحت ثورة بيراير 1917 بالنظام القيصري فى روسيا فانتعش الامل

— دخول الجنرال الروسي تشيرنايف طشقند عام 1865 دخول الفاتحين بعد استشهاد اميرها المسلم دفاعا عنها .

— سقوط سمرقند في قبضة الروس عام 1868

— الروس يبسطون حمايتهم على بخارى موطن الامام البخاري رضي الله عنه سنة 1918 .

— استرجاع روسيا الشيوعية أعوام 1917 — 1922 للبلاد الاسلامية التي اعلنت استقلالها وهي جمهورية خيوة وجمهورية أذربيجان وجمهورية بخارى وجمهورية داغستان .

— الروس ينتهون عام 1928 من القضاء على الثوار البصماجيين « الفلاقة التركيين » .
« Les fellagas turques »

الغزو الاستعماري الفرنسي للبلاد الاسلامية :

— الامبراطور نابليون الاول يغزو مصر عام 1792 .

— الفرنسيون يحتلون جزيرة مدغشقر عام1638
— والجزائر عام 1830
— وتونس عام 1882
— وميناء جيبوتي بالصومال عام 1876
— وتمبكتو عام 1894 .
— والسنغال عام 1868
— والنيجر عام 1907
— وتشاد عام 1901
— الجنرال ليوطي يحتل وجدة عام 1907 .

والجنرال درود يحتل الدار البيضاء عام 1907
— فرنسا تبسط حمايتها على المغرب عام 1912
— الفرنسيون ينتهون من احتلال المغرب عام 1934 باستيلائهم على الاطلس وعلى تفيلالت بعد معارك طاحنة .

— فرنسا تحتل سوريا ولبنان اعوام 1920 — 1924 .

الغزو الاستعماري الانجليزي البلاد الاسلامية :

— الحملة الانجليزية على مصر عام 1807 .

— استيلاء الانجليز على ممر خيبر بالهند عام 1832 وعلى السند عام 1842 وعلى دلهي في سبتمبر سنة 1857 وخلعهم سلطان المغول المسلم سنة 1858

— الاسطول الانجليزي يضرب الاسكندرية في 15 يوليوز 1882

— الانجليز يدخلون نيجيريا عام 1851

— الانجليز يدخلون القاهرة في شتنبر 1882 ويدخلون بغداد عام 1917

— سقوط سنغفورة بالملايو في قبضة الانجليز عام 1836 ودكا عاصمة البنغال عام 1765

— احتلال الانجليز السودان عام 1896 وعدن عام 1839 وجزيرة بريم عام 1899 والكويت وقطر والبحرين عام 1879 وجزيرة زنجبار عام 1890 ونيجيريا عام 1851 والصومال عام 1920 والجزء الشمالي من الصومال عام 1876 ..

— الانجليز يغزون افغانستان ويدخلون عاصمتها كابول عام 1840 ثم يجلون عنها عام 1881 بعد معاهدة مع ملكها عبد الرحمان خان — القوات الانجليزية تحتل ارتريا عام 1941 .

— اعلان الحماية البريطانية على مصر 1914 .

— احتلال الانجليز العراق عام 1917 وفلسطين عام 1917 .

الغزو الاستعماري الايطالي للبلاد الاسلامية

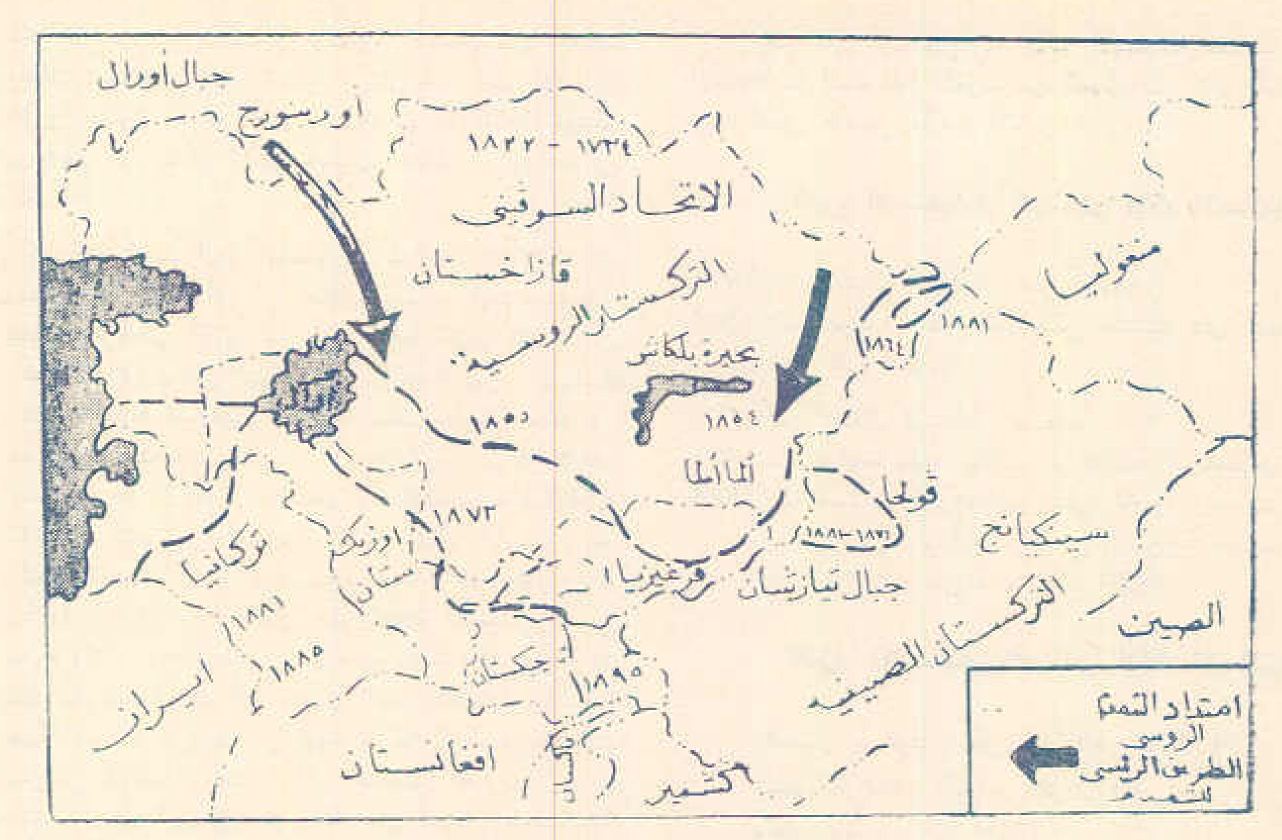
— الايطاليون يستولون على ايرتريا عام 1882 وعلى الصومال عام 1889 وعلى ميناء مصوع عام 1885

— ايطاليا تعلن الحرب على تركيا العثمانية وتنزل جنودها في طرابلس الغرب (ليبيا)

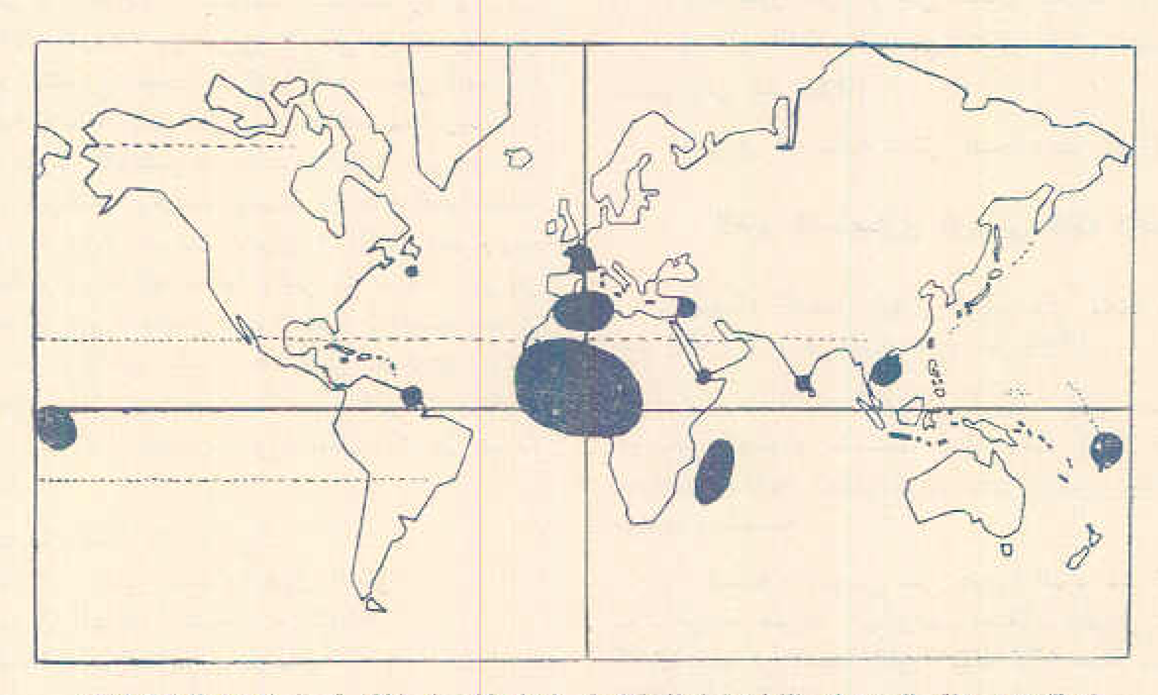
— الدونشي موسوليني يغزو الحبشة عام 1936 والبانيا عام 1939 .

الغزو الاستعماري الهولندي للبلاد الاسلامية :

1680 — الهولنديون يستولون على جاوة
1798 — اندونيسيا تقع في قبضة الاستعمار الهولاندي
1948 — الهولنديون يسترجعون اندونيسيا



خريطة التوسع الروسي في آسيا الوسطى



خريطة تبين مواقع المستعمرات الفرنسية في افريقيا وآسيا وامريكا عام 1939 قبيل الحرب العالمية الثانية

وسط المسلمين وحسبوا ان النظام الجديد سيلبي رغائبهم . لكن الروسيين كانوا يتسابقون على الحكم دون التفات الى رغائب الشعوب الاسلامية المشمولة لنفوذ روسيا وذهبت آمال التركستان سدى ..

ولما حصل الانقلاب البولشفيكي في روسيا واستولى لينين على الحكم في 26 أكتوبر 1917 تطلع انصار الاستقلال الى المستقبل ينتظرون من الحكومة البولشفيكية ان تبر بوعدها فلقد تضمن برنامج الحزب البولشفيكي توصية صادق عليها مؤتمره السابع جاء فيها : **« يجب ان يعترف لكل الامم التي تتالف منها روسيا حق الانفصال عنها بكل حرية لتصبح دولا مستقلة ، ان انكار هذا الحق وعدم اتخاذ التدابير لضمان تطبيقه عمليا يعادل سياسة الغزو والالحاق »** .

لكن البولشفيكيين كانوا يتربصون الفرص للقضاء على محاولة بعث وطن اسلامي في قلب الامبراطورية الروسية وقيام دولة تتعارض وثورة أكتوبر . ولطالما ندد ستالين وغيره من زعماء البولشفيك بما يجري في بخارى والمقاطعات الاسلامية من اعلان الاستقلال وارسال الوفود الى اروبا وتركيا وايران وافغانستان للاعتراف بهذا الاستقلال » .

ورغم ان الزعيم الشيوعي لينين وجه نداءه الى الشعوب الاسلامية في التركستان وبخارى وشمال القوقاز وابديل اورال وشبه جزيرة القرم مع توقيع كاتبه ستالين في 10 دجنبر 1917 جاء فيه : أيها المسلمون اديانكم وعاداتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة عن كل اعتداء . نظموا حياتكم القومية تنظيما يستند الى اسس الحرية والاستقلال وهذا من حقكم الشرعي اعتقدوا ان البلاشفة انما يدافعون عنكم وعن حقوق الشعوب التي تعيش في روسيا كلها . اعملوا على الانقلاب وحيذوا الثورة وساعدوا حكومة البلاشفة ايها الرفاق اننا برفع عملنا هذا انما نعلن للشعوب المستبدة في روسيا شعار الحرية والاستقلال . ايها المسلمون نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والادبية .

التوقيع : لينين — ستالين

فقد بدأت حكومة روسيا الشيوعية في سنة 1918 تتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاسلامية متجاهلة استقلالها ويقول الاستاذ نور محمد خان التركستاني في كتابه : « القصة الحقيقية لحياة المسلمين في ظل الحكم الروسي والصيني » انه حينما رفضت الدول الاسلامية تدخل روسيا الشيوعية في شؤونهم الداخلية صمم البولشفيك على الاستيلاء على البلدان الاسلامية واعادتها الى الحكم الروسي ولو ادى ذلك الى اراقة الدماء الروسية في سبيل انشاء الامبراطورية الشيوعية الروسية كما اريقت من قبل في سبيل انشاء الامبراطورية القيصرية الروسية . وكانت الجيوش الروسية مدربة احسن تدريب ومجهزة باحدث الاسلحة من الطائرات والدبابات والسيارات المصفحة والمدافع البعيدة المدى الخ ... بينما كانت الحكومات الاسلامية التي تمتد من سيبريا شرقا الى جبال القوقاز وأورال L'Oural غربا لا تملك منها شيئا ، فجيوشها غير مدربة واسلحتها قديمة وجيوش موسكو كانت تتالف من الروس الاصليين والاكرانيين واسرى الالمان المرتزقة وفي شهر دجنبر سنة 1919 اصدر الزعيم الشيوعي لينين امرا بزحف الجيوش الروسية على البلدان الاسلامية دون سابق انذار ، فاخذت الدبابات تحصد المدن حصدا بينما كانت الطائرات تدك الحصون والقلاع في جمهورية ابديل اورال وشمال القوقاز وشبه جزيرة القرم وحكومة خوقند في تركستان وفي سنة 1919 دخلت جمهورية الاشي اردوغي أورونبورغ . وفي اوائل سنة 1920 انتهت من احتلال القرم وفي 27 ابريل 1920 هجمت على جمهورية آذربيجان في القوقاز وبعد احتلالها زحفت على جمهورية خيوة في التركستان الواقعة شرقي جمهورية آذربيجان من ثلاث جبهات فدافع عنها أهلها التركمان المشهورين ببسالتهم وانتهت من احتلالها تماما قبل نهاية سنة 1920 . وفي سنة 1921 هجم الروس على جمهورية بخارى المتاخمة لدولة افغانستان من عدة جهات فوقعت الحرب على اشدها بين احفاد الامام البخاري وجنود لينين الشيوعي وانتهت معركة الحرية باستشهاد قائدها البطل انور باشا في 5 اغسطس سنة 1922 وبانسحاب رئيس جمهوريتها فخامتلو عثمان خوجة . واستمرت حرب العصابات في التركستان من سنة 1918 الى سنة 1929 ولكنها فشلت لعدم وجود مساعدات خارجية » .

ثانيا ب : — عهد الفتح

ولم تكد تضع الحرب العالمية الاولى اوزارها حتى جيشت روسيا الشيوعية وفرنسا وانجلترا وايطاليا واسبانيا واليونان الراسمالية جيوشا جرارة



لوحة زيتية تصور المجاهدين وهم يقاتلون العدو الانجليزي بالهند



ساموري توري Samory Ture بطل غينيا
1898 - 1885



مصطفى كمال اتا تورك

لفتح ما بقي من الاراضي الاسلامية التي لم تخضع لهم بعد .

وهكذا فتحت الجيوش الروسية من سنة 1919 الى سنة 1929 البلدان الاسلامية في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز التي اعلنت استقلالها اثر انهيار النظام القيصري في روسيا ونشوب ثورة اكتوبر 1917 وفتحت فرنسا سوريا ولبنان من سنة 1920 الى سنة 1924 وغزت اليونان تركيا اثر انهيار نظام الخلافة فيها واحتل الحلفاء مدينة استانبول عاصمة الخلافة العثمانية في سنة 1920 وفتحت ايطاليا المناطق الليبية التي استعصت عليها في سنة 1919 الى سنة 1932 ونفذت حكم الاعدام في مارس 1932 في المجاهد الليبي العظيم عمر المختار وفتحت فرنسا الاقاليم المغربية التي استعصت عليها من سنة 1928 الى سنة 1934 واستكملت احتلال المغرب بدخول جيوشها تحت قيادة الجنرالات جوان — كاترو — كيوم — جيرو الى تافيلالت من سنة 1934 بعد معارك طاحنة دارت بينهم وبين المجاهدين المغاربة في جبال الاطلس المتوسط واقليم تافيلالت والصحراء.

وحاربت اسبانيا من سنة 1921 الى سنة 1926 المجاهدين الريفيين في حرب الريف التي شنها البطل محمد عبد الكريم الخطابي على جيوش الاحتلال الاسبانية في الريف وشاركت فرنسا في هذه الحرب في سنة 1925 بجيوش جرارة قوامها مائة الف جندي معززين بالطيران والدبابات ولم تنته هذه الحرب الا باستسلام البطل محمد عبد الكريم الخطابي لفرنسا في مايو سنة 1926 .

وفي سنة 1935 غزت ايطاليا الفاشيستية بلاد الحبشة (النصف اسلامية) .

المرحلة الخامسة :

احتلال الحلفاء للبلاد الاسلامية خلال الحرب العالمية الثانية (1941 — 1945)

القوات الانجليزية تحتل غرب ايران وتحتل القوات الروسية شمال ايران

قصد ايصال الامدادات الحربية الى روسيا حيث سدت المانيا النازية اوربا في وجه الروسيين وتحتل القوات الانجليزية سوريا ولبنان وليبيا ومصر والعراق وتحتل القوات الفرنسية الحرة فزان بليبيا وايرتريا ، ونزلت قوات الحلفاء بافريقيا الشمالية لاخراج القوات الالمانية والايطالية منها وللغارة على ايطاليا الفاشيستية ولتحرير فرنسا ودخل الجيش الانجليزي الى بغداد بعد القضاء على ثورة رشيد عالي الكيلاني العسكرية .

حركات المقاومة العسكرية في عصر التوسع الاستعماري

بمراجعة عصر التوسع الاستعماري (من احتلال البرتغال لطنجة سنة 1471 الى غزو ايطاليا الفاشيستية لالبانيا سنة سنة 1939) نسجل ظاهرة عظيمة الاثر في سير الاحداث في العالم هذه الظاهرة ان مقاومة حملات الغزو الاستعماري مقاومة عسكرية في خلال هذه الحقبة وهي حملات متوالية لم تتوقف ابدا بل كانت دائما في اضطراد وتدفق هذه المقاومة لم توقف العمل في مجال الحرب بل يمكن القول ان ثمار مرحلة الجهاد قد تحققت في هذه المرحلة فظهر ذلك بوضوح في مراجعة سريعة للاعلام الذين ظهروا في هذه الفترة وهم من ألمع الشخصيات الاسلامية في مجال المقاومة العسكرية للاستعمار :

في القوقاز 1834 — 1859 (الامام شامل التفقاسي والحاج كراندوف بك) ضد الروس .

وفي التركستان : 1920 — 1922 (رسول صديق القادري) ضد الروس . 1918 — 1928 (الامير سعيد عالم قائد الثوار البصماجيي) ضد الروس .

وفي داغستان واذربيجان 1920 — 1922 (حيدر بامات) ضد الروس .

وفي بخارى 1921 — 1922 (القائد التركي انور باشا) ضد الروس .

وفي الفيليبين والملايو 1532 (عبد الرحمان القادري) ضد البرتغال .

وفي الهند 1857 — 1958 (الامبراطور المغولي بهادر شاه ظفر) ضد الانجليز .

وفي البنغال بالباكستان 1830 — 1831 (احمد شهيد)

وفي افغانستان 1893 — 1894 (الملك عبد الرحمان خان) 1919 (والملك نادر خان) ضد الانجليز

وفي ايران 1820 (الملك فتح علي شاه) ضد الروس — (رضا شاه الكبير) 1922 — 1924 ضد الانجليز والروس — (جلالة الملك محمد رضا بهلوي) 1924 ضد الروس .

وفي البانيا 1939 (الملك أحمد زوغون) ضد الطاليان .

وفي تركيـــا :

1784 — (السلطان عبد الحميد الاول) ضد الروس
1916 — 1923 (مصطفى كمال اتا تورك) ضد الانجليز والفرنسيس والطاليان واليونانيين .

1922 — 1923 — (عصمت اينونو ضد اليونانيين

1828 — (اغا حسين باشا) ضد الروس .

وفي العـــراق :

1915 — (القائد التركي نور الدين بك) ضد الانجليز

1920 — (الاصفهاني) ضد الانجليز .

وفي مصـــر :

1882 — (عرابي باشا) ضد الانجليز

1914 — 1917 — (الجنرال التركي جمال باشا ومصطفى كمال اتاتورك)

وفي سوريا وفلسطين ولبنان :

1914 — 1917 — (جمال باشا ومصطفى كمال باشا) ضد الانجليز .

وفي سوريـــا :

1920— 1925 — (عبد الرحمان شهبندر وحسن الخراط ويوسف العظم وسلطان باشا الاطرش)

وفي السودان :

1882 — 1885 — (أحمد المهدي والتعايشي) ضد الانجليز .

وفي ليبيـــا :

1911 — 1912 — (مصطفى كمال اتا تورك وانور باشا وعزيز المصري) ضد الطليان

1911 — 1932 — (الامام السنوسي وعمر المختار) ضد الطليان .

وفي الصومال :

1921 — (محمد بن عبد الله حسن المشهور بمهدي الصومال) ضد الطليان والانجليز .

وفي غينيا :

1885 — 1898 (ساموري توري ضد الفرنسيس

وفي الجزائر :

1518 — (بابا عروج) 1546 (خير الدين بربروس)
1830 — 1845 — (الامير عبد القادر الجزائري)
1871 — (محمد المقراني) 1838 (الحاج احمد باشا) ضد الفرنسيس .

وفي المغرب :

1578 — (الملك عبد المالك السعدي) ضدالبرتغاليين
1681 — (المولى اسماعيل العلوي) ضد الانجليز.
1844 —) المولى عبد الرحمان العلوي) ضد الفرنسيس .

1914 — (الهيبة) ضد الفرنسيس

1910 — (الشيخ ماء العينين) ضد الفرنسيس والاسبان .

1919 — (مربيه ربو) ضد الاسبان باقليم يفني .

1921 — 1926 — (محمد بن عبدالكريم الخطابي) ضد الاسبان والفرنسيس بالريف .

1917 — 1928 — (موحى احمو) ضد الفرنسيس بخنيفرة .

1930 — 1934 — (بلقاسم النكادي الملقب بالسلطان الازرق) ضد الفرنسيس بتافيلالت.

1923 — 1925 — (زايد احمو) ضد الفرنسيس بالحمام والقباب وسيدي بو يعقوب .

1916 — (عبد المالك بن الامير عبد القادر الجزائري والريسولي والشنقيطي) ضد الفرنسيس بتازة

1918 — (السملالي) ضد الفرنسيس بقصر السوق

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الشعوب التركية والمغولية والتترية والقوقازية والشركسية والالبانية والبنغالية والكردية والبطهانية Pathans والمغربية تعد من أشد الشعوب بأسا في الحروب والقتال وان الاستعمار لم يستطع اخضاع هذه الشعوب الاسلامية لسيطرته الا بعد خوضه ضدها غمار حروب عديدة دامت عشرات السنين .

الحركات الاستقلالية (1941 — 1968)

لم تكد تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى استيقظت امم وشعوب من رقدة دامت قرونا مظهر بين المسلمين قادة وزعماء أشعلوا جذوة الوطنية في أبناء جلدتهم وقادوا الحركات الاستقلالية للتخلص من نير الاستعمار الاوروبي :

امثال المغفور له محمد الخامس
وجلالة الملك المعظم الحسن بن محمد (المغرب)
ومحمد ضياء (السينغال)
أحمد بيللو ، وابو بكر تيفاوة (نيجيريا)
موديبوكيتا (مالي)
سيكوتوري (غينيا)
حماني ديوري (النيجر)
مصالي الحاج وكريم بلقاسم وعباس فرحات (الجزائر)
الحبيب بورقيبة (تونس)
جمال عبد الناصر ونحاس (مصر)
أمين الحسيني (فلسطين)
جلالة الملك حسين (الاردن)
جلالة الملك ادريس الاول (ليبيا)
رشيد عالي الكيلاني القادري (العراق)
شكيب ارسلان وشكري القوتلي (سوريا)
رياض الصلح (لبنان)
جلالة الملك محمد رضا بهلوي (ايران)
محمد علي جناح (الباكستان)
أبو الكلام ازاد وذاكر حسين (الهند)
أحمد سوكارنو (أندونيسيا)
الملك عبد الرحمان طانكو (ماليزيا) الى غيرهم ..

انحسار ظل الاستعمار عن العالم الاسلامي والاستقلال

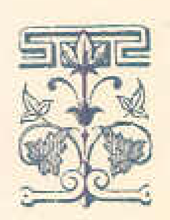
لقد أدت الحركات الاستقلالية بالشعوب الاسلامية اثناء الحرب العالمية الثانية (ثورة رشيد عالي الكيلاني القادري المسلحة بالعراق عام 1941) (وثورة المغرب عام 1944 وثورة سوريا ولبنان عام 1943) وبعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها الى حصول اغلبية دول عالم الاسلام وشعوبه على استقلالها الكامل حتى شرعت دول غرب اروبا الراسمالية تمنح الشعوب الاسلامية الاستقلال الواحدة تلو الاخرى . وفيما يلي جدول بتواريخ واسماء الدول الاسلامية والنصف اسلامية التي حصلت على استقلالها خلال الحرب العالمية الثانية والى يومنا هذا :

16 دجنبر 1941	اعلان استقلال سوريا
دجنبر 1946	اعلان استقلال لبنان
22 مايو 1946	بريطانيا تعترف بشرق الاردن دولة مستقلة
غشت 1945	اعلان استقلال اندونيسيا
14 غشت 1947	تأسيس دولة الباكستان
30 شتنبر 1948	اعلان قيام حكومة عموم فلسطين في غزة
24 دجنبر 1951	استقلال ليبيا
فاتح يناير 1956	استقلال السودان
2 مارس 1956	استقلال المغرب
20 مارس 1956	استقلال تونس
6 مارس 1957	استقلال ساحل الذهب ومولد جمورية غانا

2 اكتوبر 1958	استقلال غينيا
1 يناير 1960	استقلال الكامرون
27 ابريل 1960	استقلال سيراليون
27 ابريل 1960	استقلال الطوجو
26 يونيه 1960	استقلال مدغشقر
اول يونيه 1960	استقلال الصومال
اول غشت 1960	استقلال الداهومي
3 غشت 1960	استقلال النيجير
5 غشت 1960	استقلال فولتا العليا
7 غشت 1960	استقلال ساحل العاج
11 غشت 1960	استقلال تشاد
17 غشت 1960	استقلال الكابون
20 غشت 1960	استقلال السينغال
23 شتنبر 1960	استقلال مالي
اول اكتوبر 1960	استقلال نيجيريا
28 شتنبر 1961	استقلال تنجانيقا
3 يوليه 1962	استقلال الجزائر
يناير 1968	استقلال الجنوب العربي
اكتوبر 1968	استقلال غينيا الاستوائية

والخلاصة ان الشعوب الاسلامية حافظت على كيانها من الضياع ولم تتنصر رغم الجهود الجبارة التي بذلتها الصليبية والاستعمار في سبيل ذلك ولم يحل يومنا هذا حتى أصبحت معظم هذه الشعوب التي كانت خاضعة لاستعمار دول اروبا الغربية الرأسمالية تتمتع بالحرية والاستقلال بما عدا الشعوب الاسلامية في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز الخاضعة لاستعمار روسيا الماركسية والداخلة في الاتحاد السوفياتي ، واما الاستعمار الصهيوني الذي لا يدانيه في الخطر استعمار قديم ولا حديث والذي زرعه الاستعمار الاروبي الراحل في جسم الامة العربية ليعوق تقدمها فقد يتكفل بالكلام عنه غيري .

الرباط ـــ عبد القادر القادري





حني علي وبالانغام ناغيني   يا ملهماتي فقد خفت موازيني

قل ابتهالي الى ربي وما سبحت   روحي بتسبيحة فى البعد تشفيني

فتحت عيني على أم مهجدة   طول الليالي وبالآيات ترويني

حملت يتمي بتنغيص ومترمة   وما تشممت من نفح الرياحين

لكن كفا لأمي زحزحت المي   عن الجبين وضمتني بتحنين

قالت تعال نزر قبر الرسول ففي   مهادها يتجلي قلب لمحزون

ما زال قنديله يهتاج فى نظري   مصباح روحي فى ليلات مغبون

تقول للسادن الخطار : هل سبب   لحجرة ودنو غير ممنون

خل الصبي يقبل جنب مضجعه   لعل ايامه تندى بميمون

قبت انشق رياء التى سكنت   عظمي وراحت على الآماد تكفيني

. . . . .

نجم على الافق والظلماء عاكفة   من فوق يثرب فى صمت وتسكين

نجم تودج فى شهب تضيء له   شعاب مكة قد اوما بتبيين

سوى اليه يشق الصمت راصده   وصاح ملء الدجى فى مثل مجنون

ذا نجم احمد قد هلت بشائره   على زمان يهدي الله مقرون

يا للنداء وقد همت قريش له   لتفرك العين فى فجر وفى دين

ترى الوليد وقد لفته آمنة   بالحزن واليتم فى حظ المساكين

. . . . .

تلك الرمال التى بالشمس لمعتها   من منبت العرب جادت بالميامين

تلك البطولات العرباء موقدها   ما بين منفجر منها ومخزون

داراتها طلعت فى الدهر ساطعة ... على الدروب بابطال مطاعين
«محمد» قادهم للفتح فانطلقوا ... فى الشرق والغرب فى عدل وتمكين
على بيزنطة منهم خفق رايتهم ... وفى المدائن جيش والميادين
كسرى وقيصر قد حطا قيادهما ... تلقاء زحف الى الآفاق مظعون
على الخليج رجال كبروا ولهم ... حماحم الخيل قد اوفت على الصين
محمد علم الاحرار مذهبهم ... وحط عهد مساواة وتمدين

• • • • •

رتل علي من القرآن آيته ... فى سيرة رسمت ابداع تكوين
لا تغريني بأنهار معسلة ... ولا بفمداء بين الفور والعين
فالروح صوفية ، للفن عاشقة ... تعبدت ربها فى غير تمنين
ذاقت كؤوس الهوى من نبع كوثره ، ... قبل الوجود وطافت بالبساتين
فوق النجوم لها برج يشعشعه ... فى الف سر على الآباد مكنون
لولاك يا فتنة الارواح ما انسفحت ... دموع اهل الهوى فى قيد مسجون
تمضي التسابيح فى ركب القنوت الى ... معارج ليتها بالود تدنيني
فاغسل الفكر فى عليا تامله ... وابرىء النفس من زيف وتلوين
يا ليست هفهافة رفت سحائبها ... ضمت حياتي وبالنجوى تناجيني
تهفو الى شرفات انشدها ... يا مبدع الخلق من ماء ومن طين

• • • • •

الشعر سانحة طالب بواعثها ... خلف الغيوب بهبات المفتون
فلمس السحر عطفي شاعر فرد ... تحس فيه نديدا لابن زيدون
او للنواسي او شوقي عالمنا ... فى محكم القول بين الجزل واللين
لكنما المتنبي كان اروعهم ... فهو الذى راح فى الاشعار يعطيني
سكبت من وحيه اهوال ملحمتي ... نشيد فخر بحرب العرب مشحون
حماسة كان «هومير» يمارسها ... فى حرب «طروادة» نارا كانون
حشدت فيها حقيقات مجمدة ... مثل الاساطير فى شكل ومضمون
ابقى روائعها وصفا ومخلدة ... « نشيد احمد » اما بات يبكيني
من كان تاريخه دينا فخط له ... شعر الوفاء بمرصود وموصون
واغمس فيه قلما فى القلب واعقه ... واحلف به قلما فى السطر والنون
عهد الرسول على توكيده عقدت ... ايدي الفداء بايمان وتامين
ما قلت ذكراه قد مرت لتوقظنا ... نحن الذين وردنا الذكر بالحين
نمر نحن علينا فى السنين وما ... نزال تخلع عنا ثوب موهون

جدد بها شرعة الاسلام ان لها
والعرب تمجد فى زهو الخلود على
ما ضامها فترة فى الحرب عادية
واهتف بقيسون فى عهد الولاء اذا
كتاب سورية والدهر يقروه
كانما بردى والنيرسان وما
قد شاركتنا بميلاد الرسول فلا
روحي فداك رسول الله ، فاتنة
وما الربيع سوى شهر الربيع اذا
يبقى الوجود وميلاد الرسول له
وفى امية تخليد وغطرفة

عهدا على الله ان تحيا بتمتين
خير العواصم فى عز وتحسين
تهب منها بابطال مطاعين
رق النسيم على افياء قيسون
دمشق فى مجده احلى العناوين
فى الدوح من شاديات بالتلاحين
والله ما فاتها تطريب ممنون
تأويني اليك فتغريني وتدنيني
فاحت ازاهيره بالشوق تحييني
حتم وعهد بتجديد وتحسين
تحيا عروبتها منها بتحصين

الدكتور زكي المحاسني

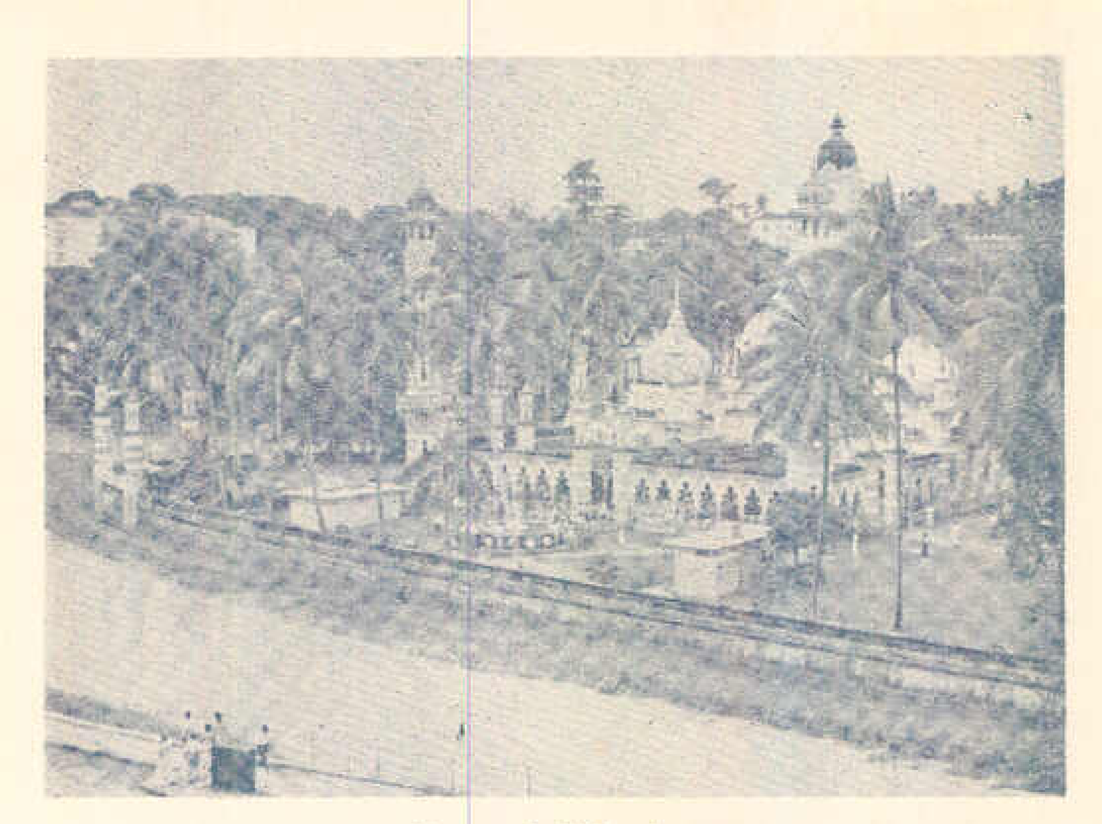
تيمتني لغة

يجعل الشاعر عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة « الضاد » الحلبية وجهه فى المحراب متجها الى عيسى ومحمد ، ومعلنا ان القرآن هو اسنى الكتب ، وانه هو الذى صان لغة العرب وحفظها من الضياع فيقول :

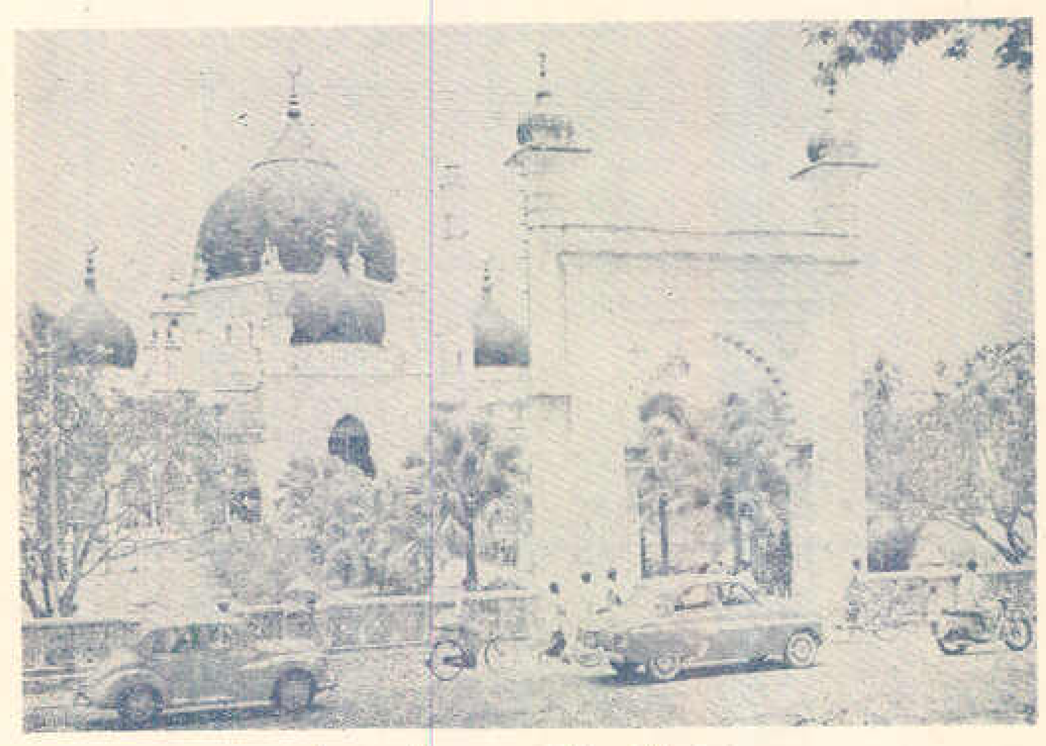
انا صب تيمتني لغة
صانها القرآن أسنى الكتب
وجهة المحراب عندي هيكل
فيه عيسى ، والنبي العربي

ويقول من قصيدة اخرى :

ولي لغة اعلى الكتاب مقامها
فسارت مسير النور شرقا ومغربا
بها نزل القرآن هديا ورحمة
فرد غليظ الاصغرين مهذبا . .
وان كلام الله آيات حكمة
فمرحى لأمي وعاه ليكتبا !!



مسجد جامع کوالا لمبور . ماليزيا



مسجد زاهر ، قدح . ماليزيا





بقلم: الشيخ طه كولي

في مثل هذه الايام من عامنا الذي فات ، وقع قضاء الله وقدره ، وغشيت امتنا غاشية الكآبة والحزن والاسى ، حين خرت بيت المقدس في هاوية الاحتلال اليهودي صريعة الذل والهوان والعبودية تحت ضربات الغدر والعدوان ، عندما انكفا عن ترابها الطاهر الحماة الكماة احفاد الغر الميامين الغزاة ، من امة محمد عليه افضل الصلاة واتم التسليم ، واقتحمتها شراذم شذاذ الآفاق اليهود، المجردون من كل معنى من معاني الاخلاق بدباباتهم ونيران مدافعهم وقذائف اللهب من طياراتهم . وكان ذلك بعد يوم جلب عاره المشين بالسواد الكالح تاريخ الاسلام والمسلمين اثر معركة لم تتكافأ فيها فداحة الخسارة مع حقها من الجهاد والفداء ، فذهبت المقدسات الغالية ، بثمن بخس خلال يوم او بعض يوم ، لامر اراد الله ، جلت قدرته ، ان يجعل منه عبرة لاولئك الذين استبدلوا الذى هو ادنى بالذى هو خير ، حين تناصروا بغير عروة الايمان بربهم ، واستمسكوا بعصم الكوافر من كل نحلة مدخولة ، فذاقوا الوبال وتخبطوا بالخزي والخسران ، فما ربحت تجارتهم في الحياة الدنيا وما كانوا في الآخرة من المنتصرين !..

اجل ، سقطت بيت المقدس ، وفي رحابها القدسية اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وقبور الصحابة والتابعين والسادة المرابطين ، تحت وطأة الصهيونية العاتية ، واصبحت هذه الروضة الروحية ، بما فيها من ذكريات دينية ومعالم اسلامية اسيرة كسيرة ، غضيضة الطرف مهيضة الجناح ، بين مخالب العدو الزنيم الذى تربص بها مئات السنين ليدك بنيانها ويقوض عمرانها وينكس اعلامها ويبيد معالمها .. فياحسرتاه على منائر الاسلام .. ويا حسرتاه على تراث الآباء والاجداد مما انتهت اليه محارم الله ، بعد اربعة عشر قرنا من عبادة العابدين وجهاد المجاهدين وعبق الارواح الطاهرة الزكية لآلاف الشهداء من الابطال المسلمين !..

فهل درى الذين سقطت بيت المقدس في ايامهم وعلى ايدي شتاتهم وفرقتهم ومنازعاتهم ، هل درى بنو قومنا اي خسارة اصابتهم في دينهم وتراث تاريخهم ، وكيان امتهم ، يوم اختاروا الحياة في عار الهزيمة والفشل على شرف الاستشهاد والخلود ، في ساحة القتال ، دفاعا عن الوطن الذى ترك السلف الاكرم ، ما على ارضه ، ارض الاسراء والمعراج ، من معاهد ومعابد ومقدسات ، امانة في اعناقهم .. امانة سماوية ترخص دونها سائر الامانات الارضية !..

هل درى الذين ولوا يوم السادس من حزيران ادبارهم في فلسطين، عامهم الذى فات، اي ارث كريم، خلفوه وراءهم ، وتركوه سلبا للعدو وغنما لاشداق مطامعه وفريسة عزلاء لاحقاده وتراته ومعاولـه ؟!

اذا كان هؤلاء ، لا يدرون ما قدمت ايديهم ، فاننا نضع امام ابصارهم وبصائرهم ، قائمة كاملة بالمنشآت التى جبل تربتها وعقد حجارتها ، الاجداد بالدم المهراق من جراح الجهاد ، حفاظا على راية

لا اله الا الله محمد رسول الله ، لتبقى عالية خفاقة فى البلد الذى باركه الله وبارك ما حوله ، البلد الذى قال فيه الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الاقصى ».

هذه المنشآت .. التى اصبحت اليوم على شفير الهاوية هاوية العدم والخراب والزوال .. فوق ماذنها السامقة وقبابها الناهضة ، ورحابها الواسعة يجثم عليها جميعا المصير المفزع .. مصير التهويد القاتم بعد نور العروبة وضياء الاسلام !..

ايها المسلمون .. يا امة محمد عليه الصلاة والسلام ، يا اهل القرآن وبقية الاسياف من ابطال الدين والايمان .. اليكم اقدم هذه القائمة قبل ان تصبح اثرا من بعد العيان !..

اولا : المساجد والجوامع الشريفة فى القدس الشريف ، مكان كل منها وحالته الراهنة :

قبة موسى	داخل الحرم ، امام باب السلسلة	عامر بالصلاة
باب الحطة	داخل الحرم ، عند باب حطة	عامر بالصلاة
كرسي سليمان	داخل الحرم ، عند باب المغاربة	عامر بالصلاة
المغاربة	داخل الحرم ، من الجهة الشرقية	اصبح متحفا ودارا للكتب
باب الفواغة	داخل الحرم ، عند باب الفواغة	مهجور
دار الامام	داخل الحرم عند باب المجاهدين	مهجور
خان الزيت	داخل الحرم ، داخل السور	عامر بالصلاة
حارة اليهود الكبير	خارج الحرم	مخفر للشرطة
حارة اليهود الصغير	خارج الحرم	عامر بالصلاة
سويقة علوان	خارج الحرم	عامر بالصلاة
القلعة	داخل القلعة بباب الخليل	لا تقام فيه الصلاة
الخانقاه	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
قحبر	خارج الحرم داخل السور	
الجامع العمري	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
اليعقوبي	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
بني حسن	خارج الحرم داخل السور	مهجور
حارة الارمن	خارج الحرم داخل السور	مهجور
النبي داوود	خارج الحرم داخل السور	مهجور
حارة الخوالدية	خارج الحرم داخل السور	مهجور
الشيخ لولو	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
الصغير	خارج الحرم داخل السور	هدمه اليهود
البراق الشريف	خارج الحرم داخل السور	هدمه اليهود
خان السلطان	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
القرمي	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
حارة النصارى	خارج الحرم داخل السور	مهجور
البازار	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
المسعودي	خارج الحرم داخل السور	عامر بالصلاة
الشيخ جراح	خارج السور	عامر بالصلاة
وادي الجوز	خارج السور	عامر بالصلاة
حجازي	خارج السور	عامر بالصلاة
النبي داوود	خارج السور	عامر بالصلاة
عكاشة	خارج السور	عامر بالصلاة
المطحنة	خارج السور	مهجور

هذا بالاضافة الى المساجد والجوامع الشريفة الموجودة في يافا وحيفا والخليل وعكا وطبريا والناصرة وبيسان وسمخ وقاقون وقيسارية والشيخ مونس وسيدنا علي واللد والرملة والمجدل وعسقلان والفالوجة وبئر السبع وبيت جبرين وعراق المنشية وغيرها من المدن والقرى والدساكر الفلسطينية .

ثانيا : المدارس الدينية في القدس الشريف :

تاريخ بنائها واسم صاحبها وحالتها الراهنة :

الصلاحية 588 هـ – 1192 م – انشاها صلاح الدين الايوبي ، هدمها اليهود
(كنيسة جسد حنة والدة مريم ام المسيح)

الافضلية 870 هـ – 1465 م – انشاها الملك الافضل نور الدين ابن صلاح الدين الايوبي ، هدمها اليهود

الميمونية 593 هـ – 1196 م – انشاها الامير فارس الدين ابو سعيد ميمون ابن عبد الله القصري خازندار صلاح الدين ، اصبحت مدرسة رسمية في عهد الانجليز

الجراحية 598 هـ – 1201 م – انشاها حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي وزير صلاح الدين الايوبي

النحوية 604 هـ – 1207 م – انشاها الملك المعظم عيسى

الناصرية – الغزالية 610 هـ – 1213 م – نزل بها الامام الغزالي

البدرية 610 هـ – 1213 م – انشاها بدر الدين محمد ابو القاسم الهطاري احد امراء الملك المعظم عيسى ، اغتصبها رجل من الخليل وسكنها وخربها

الاباصرية 666 هـ – 1261 م – انشاها علاء الدين ايدغدي ، كان يسكنها التعارنة الذين يحرسون الحرم الشريف

الداودارية – دار الصالحين 695 هـ – 1295 م – انشاها الامير علم الدين ابو موسى سنجر بن عبد الله الداودار في زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب ، اصبحت مدرسة للبنات تابعة للاوقاف

السلامية 700 هـ – 1300 م – انشاها الخواجا فخر الدين ابو الفدا اسماعيل السلامي ، يسكنها آل جار الله

الموصلية 1175 هـ – 1761 م – تولاها الخواجا فخر الدين الموصلي

الجالقية 707 هـ – 1307 م – انشاها ركن الدين بيبرس الجالقي الصالحي ، تملكها آل الخالدي وباعوا شطرا منها لآل الخليل

الجاولية 715 هـ – 1315 م – انشاها علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس ، هي الان مدرسة رسمية .

الكريمية 718 هـ – 1319 م – انشاها الصاحب كريم الدين المعلم هبة الله بن مطانس ناظر الخواص الشريفة بمصر ايام تنكز ، كان يسكنها آل جار الله

التنكزية 729 هـ – 1340 م ويسمونها اليوم بالتنكزية – انشاها تنكز الناصري ، اتخذت للمحكمة الشرعية ثم سكنها مفتي فلسطين الاكبر سماحة الحاج امين الحسيني

الامينية 730 هـ – 1329 – انشاها الصاحب امين الدين عبد الله ، كان يسكنها آل الامام وتحته مقبرتهم

الملكية 741 هـ – 1340 م (مدرسة الجوكندار) – انشاها الحاج ملك الجوكندار في ايام الناصر محمد بن قلاوون ، كان يسكنها آل الخطيب وفي قسم منها المكتبة التي اسسها الحاج امين الحسيني

الفارسية 755 – 1354 م – انشاها الامير فارس البكي ابن الامير مطلو ملك بن عبد الله النائب بالساحل وغزة ، كان يسكنها الشيخ ابراهيم العوري

الارغونية 758 هـ – 1357 م – انشاها ارغون الكاملي من رجال الملك شعبان حاكم الشام وحلب وكملها ركن الدين بيبرس سنة 759 ، كان يسكنها آل العقيفي ودفن بجانبها الشريف الملك الحسين بن علي زعيم الثورة العربية .

التشتمرية 759 هـ – 1359 م – انشاها تشتمر السيفي من امراء الملك الناصر بن محمد قلاوون
الحنفية (المعظمية) و (الحكمية)

الاسودية 760 هـ ـ 1358 م ـ انشأها الخواجا مجد الدين بن سيف الدين ابو بكر بن يوسف الاسودي ، كان يسكنها الشيخ ابراهيم البيطار ثم الشيخ ابراهيم العورى

المنجكية 762 هـ ـ 1360 م ـ انشأها سيف الدين منجك نائب الشام . كانت مقرا للمجلس الاسلامي الاعلى

المحدثية 762 هـ ـ 1360 م ـ انشأها الامير عز الدين ابو محمد عبد العزيز العجمي الاربيلي ، قسم منها مدرسة والآخر يسكنه آل الشهابي

الحسنية 762 هـ ـ 1360 م ـ انشأها شاهين الحسني الطويشي ، آلت الى عائلة نصرانية

الطازجية (وهي الطازية) 763 هـ ـ 1362 م ـ انشأها الامير طاز الذى كان حاكما بحلب سنة 355 ، كان يسكنها آل هداية

البارودية 768 هـ ـ 1366 م ـ انشأتها السيدة خاتون بنت شرف الدين ابي بكر بن محمود المعروف بالبارودي ، اصبحت دار سكن

الحنبلية 781 هـ ـ 1379 م ـ انشأها نائب الشام بيدمر ، كان يسكنها آل القطب

اللؤلؤية 781 هـ ـ 1379 م ـ انشأها لؤلؤ غازي عتيق الملك الاشرف شعبان بن حسين

الخاتونية 755 هـ ـ انشأتها الست اغل خاتون بنت شمس الدين محمد سيف الدين القازانية البغدادية ، دفن بجانبها مولانا محمد علي من زعماء الهند والى جانبه موسى كاظم باشا الحسيني وابنه الشهيد عبد القادر .

الطشتمرية 784 هـ ـ 1382 م ـ انشأها طشتمر العلائي ، كان بها آل الامام

الجهاركية 790 هـ ـ 1388م ـ انشأها الامير جهاركي الخليلي امير آخور الملك الظاهر برقوق ، عامرة بالصلاة

الطولونية 800 هـ ـ 1397 م ـ انشأها شهاب الدين احمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهري ايام الملك برقوق ، دارسة

النصيبية 809 هـ ـ 1406 م ـ انشأها علاء الدين بن ناصر الدين محمد نائب نصيبين

الفزية 815 هـ ـ 1412 م ـ انشأها شهاب الدين الطولوني ، دارسة

الصبيبية 809 هـ ـ 1406 م ـ انشأها علاء الدين بن ناصر الدين نائب قلعة الصبيبية

الكاملية 816 هـ ـ 1413 ـ الحاج كامل من اهل طرابلس الشام ، كان يسكنها آل جار الله

الباسطية 834 هـ ـ 1430 م ـ بدا عمارتها شمس الدين الهروى واتمها القاضي الدمشقي نور الدين عبد الباسط ابن خليل ، كان يسكنها آل جار الله .

القادرية 836 هـ ـ 1432 م ـ انشأها ناصر الدين محمد بن عبد القادر ، مستودع لنعوش الموتى

الحسينية 837 هـ ـ 1433 م ـ انشأها حسن الكشكيلي ناظر الحرمين الشريفين ونائب القدس الشريف ، كان يسكنها آل البدرى فيها قبر بنت معاوية

العثمانية 840 هـ ـ 1437 م ـ انشأتها امرأة رومية اسمها اصفهان شاه خاتون بنت محمود العثمانية، رممها مفتي فلسطين الاكبر سماحة الحاج امين الحسيني

الجوهرية 844 هـ ـ 1440 م ـ انشأها كرد الصفدي جوهر زمن الادارة الشريفة ، كان يسكنها جماعة من آل الخطيب

المزهرية 865 هـ ـ 1480 م ـ انشأها المقر الزيني ابوبكر مزهر الانصاري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية ، بعضها خراب وبعضها كان يسكنه آل شعباني

الزمينية 866 هـ ـ 1481 م ـ انشأها الخودجكي الشمسي محمد بن الزمرد خان ، كان يسكنها آل المفيقي .

القرقشندية ـ انشأها القرقشندي ، ذكرها الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي

الاشرفية (السلطانية) 875 هـ ـ 1470 م ـ انشأها الامير حسن الظاهري باسم الملك السلطان خوشقدم واتمها الاشرف قائتباي ، مخزن للشمع والحصر وادوات المسجد الاقصى

ثالثا : الزوايا والخانقاه : تاريخ بنائها ، صاحبها، وحالتها الراهنة :

النقشبندية (الاتربكية) 1052 هـ ـ 1616 م ـ انشاها الشيخ بهاء الدين النقشبندي البخاري ، ماوى لفقراء جاوة وتركستان

الهنود (الرفاعية) ـ انشاها بابا فريد شكركنج الهندي ، كانت لاصحاب الطريقة الرفاعية ثم سكنها اليهود وهدمها اليهود مؤخرا

الادهمية ويسميها العامة الهيدمية ـ انشاها الامير حسام الدين الحسين بن شرف الدين ، كان يسكنها آل لبابيدي

الشيخ جراح ـ عيسى الجراحي من امراء صلاح الدين الايوبي

الرفاعية وتسمى اليوم زاوية ابو السعود ـ يخدمها آل ابو السعود من القدس

اللؤلؤية 781 هـ ـ 1379 م ـ انشاها بدر الدين لؤلؤ غازي عتيق الملك الاشرف شعبان بن حسين

البسطامية 770 هـ ـ 1368 م ـ انشاها الشيخ عبد الله البسطامي

القادرية (زاوية الافغان) 1043 هـ ـ 1733 م ـ كان يتولاها جماعة من الافغان

المولوية 995 هـ ـ 1586 م ـ انشاها قائد موقع القدس الشريف ، آخر من تولاها الشيخ عادل المولوي من طرابلس الشام

الصلاحية (الخانكي) ـ انشاها السلطان صلاح الدين الايوبي ، كان يسكنها آل العلمي

المجيدية (عيال طه) (عيال شاكر) (عيال خليل) ـ جدد بناءها السلطان سليمان العثماني 936 هـ ـ 1559 م ثم الحاج سليمان باشا المعروف بالعادل والي ايالة صيدا 1233 هـ ـ 1817 م

دار الحديث 666 هـ ـ 1267 م ـ انشاها الامير شرف الدين عيسى بدر الدين ابو القاسم الهكاري ، كان يسكنها آل الخالدي

الرباط المنصوري ـ انشاه الملك المنصور قلاوون الصالحي ، استعمله الاتراك سجنا عرف باسم حبس الرباط .

رباط الكرد 693 هـ ـ 1293 م ـ انشاه المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية ، كان يسكنها آل الشهابي

دار السلام القرآنية ـ انشاها سراج الدين عمر بن ابى بكر القاسم السلامي ، عامرة بالصلاة

الشيخ بدر الدين الحسيني (ابو مدين) ـ فى يد اليهود مباشرة هذه الايام

اما بعد ،

فان جميع هذه المعابد والمعاهد والربط والزوايا والخانقاه ، التى تركها السلف الاكرم من ملوك المسلمين واعيانهم وعلمائهم لكي تبقى على مر السنين ذكرى خالدة ، تحدث الخلف من امة الاسلام عن جهاد الذين وقفوا انفسهم وما كانوا يملكون من فضل الله وكرمه فى سبيل اعلاء كلمة الحق والصراط المستقيم فى الارض الطيبة فلسطين ، بالاضافة الى ما فى هذه الارض من المقدسات التى شرفها الله بذكرها فى محكم كتابه العظيم، وجعل فيها الاسلام من يوم انبثاق فجره بضياء الهداية والعدالة والازدهار والتقدم ، اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين التى منها ، من المسجد الاقصى الذى بارك الله حوله الى مسجد عمر ابن الخطاب الى صخرة البراق الشريف التى منها عرج الرسول الاعظم صلوات الله عليه الى رحاب السماوات العلى فى مسراه .. الى البراق الشريف الذى شد اليه صاحب الاسراء عليه السلام ركوبه النوراني .. ان جميع هذه الاثار الدينية الخالدة ، ايها المسلمون ، وقعت اليوم اسيرة كسيرة بيد اعداء الانسانية الظالمين والمظلمين ، اليهود السفاحين ، وكل ذرة من حجارة هذه المنشآت تتلفت متلهفة اليكم ، كبار او صغارا ، رجالا ونساء ، تستصرخ فيكم نخوة الدين وحمية الوطن . .وتستغيث بأهل المروءات من كل جنس ومن كل لون ومن كل لسان ، لانقاذها من تحت اظافر المعتدين ، قبل ان يسبق السيف العذل وتهوى عليها معاول التدمير والتخريب ، وتتردى حطاما تحت نزوة الحقد القاتل الذى تغلى بنيرانه قلوب القوم الظالمين !..

يا اهل الاسلام ، وامة محمد عليه السلام ، هل من سامع او مجيب ؟!

هذي فلسطين استجارت
ان حرا من اجارا
صرخت باعلى صوتها
وضعوا على عنقي شفارا
اني ساذبح فالبدا
ر الى مناصرتي البدارا

بيروت ـ طه الولي

ذكرى المولد النبوي

للشاعر عبدالله العمراني

هبت الدنيا فطنة وانتباها ... ورنت في سعا العلى مقلتاها

تبتغى الهدي والرشاد مع النو ... ر ، كفى من شقائها ما دهاها

طالما ذاقت الامرين من جهـ ... ـل وظلم ، في صبحها ومساها

طالما قاست الشدائد حتى ... لم يعد في احمالها مبتغاها

تلك كانت احوال سالف عهد ... مثقل بالهموم يغلو سفاها

واذا خصلة توالت تباعا ... ايقن الناس ان ذا منتهاها

ادركوا ان منقذا سيوافيـ ... ـهم قريبا ، عشية او ضحاها

* * *

قد اتى الفجر ينسج الدجن نورا ... تتباهي السماء اذ قد اتاها

والصباح البهيج يقفو الليالي ... يتقضى فلولها ودجاها

عله يستطيع من قبلها ان ... يبصر الطلعة البهي سناها

كوكب الارض في حراك دؤوب ... يسرع الخطو يبتغي ملتقاها

وكذا النجم في سماه شفوف ... يتمنى لو استطاع اجتلاها

بينما الشمس في تساميها ودت ... لو يلف البلاد اسنى ضياها

والرياض الفيحاء تعبق عطرا ... ويحيل الاجواء طيبا شذاها

لمتم الزهر وشيها ، فبياض ... واحمرار، وخضرة تتباهى

كيف لا والربيع حب وخير ... وحياة تحلو لمن قد بلاها

كيف لا والبلاد ترتقب البشـ ... ـرى وتحقيق (بنت وهب) رجاها

* * *

مولد المصطفى الكريم هو البلـ | ـسم العرب جاءها فشفاها
جاءها المصطفى الكريم على فتـ | ـرة رسل ، فآمنت وهداها
حملت مشعل الديانة والرحـ | ـمة والوحي والهدى .. وسواها
ودعت سائر الشعوب اليها | فتلقتها مبديات رضاها
كبرت كلمة ، وتبا لمن يز | عم ان الاسلام لما دعاها
لبت الدعوة الكريمة كرها | لا — ورب السما — فذا منتهاها

* * *

يا رسول الاله ، خذها عهودا | لا غموضا يشابها لا اشتباها
لا يرى في الاسلام من خانها يو | ما ، ولا عاش في الحمى من قلاها!
انما دينك القويم عريق | في دنا المجد معتل في سماها
حضنته القلوب جيلا فجيلا | وتفديه دائما بدماها

* * *

هذه القدس يا رسول الهي | قبلة دنس العدو ثراها
اضحت اليوم في الاسار تعاني | فكك الله اسرها وحماها
وفلسطين كلها وبلاد الـ | ـعرب قد داسها العدو ابتلاها
طغمة سامت الاهالي عذابا | حرمتهم ترابهم ومياها
شردتهم فاصبحوا دون ماوى | واستباحت حمى المقدسات قواها
ذبحت ، قتلت ، واحرقت الطفـ | ـل ، بطون النساء سال معاها
طغمة السوء والفساد اذا سا | دت ، تسوء الحياة تحت لواها
يشهد الله انها ستلاقي | ضعف اضعاف ما جنته يداها

* * *

ليلة المولد الكريم تعالى | في سما المغرب العزيز صداها
ليلة ترتدي البهاء فتبدو | كعروس تزهى بحسن حلاها
ليلة تبعث الفتاء فيسري | في عروق الحياة ماء صباها
ليلة ارسلت علينا شعاعا | قدسيا يحبو النفوس هداها
قدسيا اراه في طلعة المو | لي مليك البلاد حامي حماها
عبقري ينمى الى عبقري | وسليل الامجاد عقلا وجاها
خير من قاد شعبه لفلاح | وصلاح ورفعة فاقتناها
(حسن) الاسم والمسمى واعظم | بمزايا فريدة احتواها !

* * *

يحتفي بالرسول مولده الاقـ   ـدس ، عاشت ذكراه ، عاش بهاها
كل يوم له صنائع تترى   في دنا الفضل لا تني في خطاها
في دنا العلم والسياسة والد   ين ودنيا النماء غصت رفاها
همة تحفز الشباب الى الجـ   ـد فيلقي الصعاب لانت قناها
همة تدفع البلاد الى المجـ   ـد فتعلو السماء حتى سهاها
همة تبعث العزائم اقوى   وتحيل البلاد اعظم جاها
همة لا ارى لها من مثيل   فتعالى الاله ، ربي براها !

* * *

اننا شعبك الموحد آلا   ما وآمالا جمة لا تناهى
حبنا فيكم اقانين ود   رفع النبل والولا مستواها
خض بنا ما تشاء سلما وحربا   لا تهاب الاعداء عند لقاها
فبنو المغرب العظيم اسود الـ   ـحرب ، لا يعبأون حر لظاها
منقبات لهم بكل مكان   قد رواها الزمان حين وعاها

* * *

يا مليك البلاد والسعد يحدو   وفخار الامجاد يعلو الجباها
غرس ايدي الكرام آبائك الغـ   ـر الميامين ، سقى الله ثراها :
دم لشعب او امة تتعالى   في سما المجد شامخات بناها
امة باركت فعالكم العظـ   ـمى التي فاق كل حصر مداها
وليعش سيد البلاد ولي الـ   ـعهد ، تبلغ به البلاد مناها

* * *

تطوان ـــ عبد الله العمراني



للأستاذ أبي العباس أحمد التجاني

جاء في امهات كتب التاريخ ومن اشهرها في هذا الباب كتاب حول لابوم الذى سماه تحليل القرءان (Analyse du Coran) وصف جامع لما كانت ترزح فيه الامم في مجموعها من فوضى وحروب داخلية وخارجية في الفترة التي تقدمت بقليل بعثة النبيء العربي صلوات الله عليه وسلامه وذلك في القرن السادس الميلادي . حروب وفتن اصبحت فيه الامم على حد ما يقول المؤلف اشبه بالحيوان منها بالانسان . قانونها الوحيد القوة الغاشمة تجري احكامها وتنفذ في الظلام .

ثم استطرد الى سرد الامم والشعوب التي كانت ترزح تحت نير هذا الطغيان لا ميزة فيه بين ليله ونهاره، الاسير يباع ويرهن كمطلق بضاعة تجلب الى الاسواق ، والعلة الرئيسية لهذه المأساة هي كون المجتمع قائما على غير اساس ثابت الاركان ، لذلك غدا شبه السفينة في عرض البحر في اضطراب دائم ، هذا الاساس المنشود هو الذى كانت تشرئب اليه الاعناق مصداقا للبشرى التي اخبر بها سيدنا عيسى روح الله وكلمته وردد صداها القرءان الكريم في قوله جل ذكره : « واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدي اسمه احمد » بشارة تناقلها الحواريون وكبراء الكهنوت من بعده بشارة الحواريين نجدها في كتاب « ما وراء الموت » للفيلسوف ليون دوني ص 69 نقلا عن انجيل يوحنا فصل 16 ءاية 12 وءاية 13 ، وهذا نصها :

« قال المسيح للحواريين : بقيت عندي اشياء لم اقلها لكم لانها بعيدة عن متناول مداركم ، حتى اذا جاء كاشف الغمة (Le Consolateur) بين لكم جميع الحقائق . »

نعم ان الكنيسة اولت هذا النص بان المراد بالبشارة هنا الاعلام بنزول روح القدس على الحواريين بعد بضعة شهور من يوم رفع المسيح لكن يلاحظ على هذا التاويل يقول المؤلف انه اذا لم يكن في متناول مدارك الحواريين فهم ما لوح اليه كلام المسيح فكيف يتاتى للحواريين او لغيرهم فهمه بعد ان مضى على البشارة ما لا يزيد على الاربعين يوما ؟؟ استدرك عليهم المؤلف بان النص صريح لا مجال فيه للاحتمال لا نقلا ولا عقلا في ان كلام المسيح للحواريين موجه للبشرية جمعاء — وبهذا تنسجم وتتجاوب مع البشارة التي جاء بها القرءان وكل ما موه به رجال الكهنوت انما هو تشويه للحقيقة واشتراء للضلالة بالهدى فلم يبق بعد هذا الا ان استسمح القراء في ان اقول من باب التحدث بالنعمة باني اول من وفق لترجمة هذه البشارة من الفرنسية الى العربية محلاة بالتعليق الذى وشاها به المؤلف فجزاه الله خيرا على ما اظهره من الشجاعة في اداء امانة التاريخ وكشف اللثام عن وجه هذه الحقيقة الباهرة الامر الذى استحق به حقه من الثناء العاطر

الذى اخبر عنه الكتاب العزيز فى قوله جل ذكره : « ولتجدن اقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا انا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » اضيف الى البشرى المروية عن الحواريين بشرى اخرى هي فرع عن الاولى وهي ما اخبر به راهب دمشق سلمان الفارسي يوم ناجاه بقوله :

« اي بني انها فتنة الحياة للاحياء ، لكن صبرا ، ان شعاعا يلوح وانه ليوشك ان يشرق بعده صبح ابلج . هنالك من تلك الصحراء (مشيرا الى الجزيرة) سينشق النور الاعظم الذى يغمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على جميع الانام ، انه نبي قد اظل زمانه ، ياليتني فيها جذع »

دع عنك بعد هذا ايها القاريء الكريم تمويهات وتاويلات الكهنوت فتلك من غراز زالبشر « شنشنة اعرفها من اخزم » ويرحم الله القائل :

لي صاحب افديه من صاحب
حلو التأني حسن الاحتيال

لو شاء من رقة الفاظه
الف ما بين الهدى والضلال

بماذا جاء النبي المنتظر ؟.. جاء وهو ذاك النبي الامي بكتاب غدا تاجا للعلم والعلماء ، ومعدنا لا ينضب للحكمة والحكماء . كتاب شهدت حمرة شفق الانجيل (1) باتصال نسبه بنسب ما بين يديه من زبر الاولين لا تزال تتصعد منه انفاس جبريل تنبعث من اعماقه زمجرة تكاد تسمع من ورائها اهوال الموقف يوم يقول الناس لرب العالمين لاحت سطوره فى رمال الصحراء فغدا من حراسه الليل والنهار الى ان يغمض هذا الوجود الجفن فى دار القرار . كتاب شهدت سرعة تحويله لمجرى التاريخ بأنه اوثق هاد فى الصدور والورود بما انشق عنه فجره من مباديء ومثل عليا اتصل حبلها بحبل الخلود . كتاب تحسد عليه القلوب الآذان . وفى مضماره الفسيح يحسن بين الحواس الرهان . انسجام نغمات عند التلاوة تحدوها روعة الترصيف والتنسيق يسترقان الاسماع والالباب الى حد تكاد تسمع فيه خشخشة اقدام الملائكة يدخلون عليك من كل باب ، الى انتظام تجاوب فى ءافاق سوره بين اصول وفروع ، واشباه ونظائر ، ومحكم ومتشابه ، يكشف لذوي البصائر عن الحقيقة الحجاب . كتاب احكمت ءاياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . تفصيل واي تفصيل تكاد تلمح فى غضونه توقيع منزله والجمال كما قيل توقيع الله على خليقته . درى ذلك من رتع فى رياض قدسه وشرب من حياض انسه رجال فنشوا على القرءان فوجدوه واستعذبوا التطواف بين خمائله فعرفهم وعرفوه ، خدموه عبيدا ارقاء ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل احرارا عتقاء، نعم رجال جعلوا شرب يومهم المعلوم ، ورحيقهم المختوم ، التردد بين فاتحته وختامه ، كالبدر غاديا رائحا بين مطالعه ومغاربه . رصدوا حصة من نهارهم للغوص عن فرائدهم ، وزلفا من الليل لترويض اوابده ، هجيراهم انتظار اقبال الليل للارتشاف من مدام شفقه ، واستنشاق مسك ليلـه :

يود ان ظلام الليل دام له
وزيد فيه سواد العين والشعر

رحماك اللهم لاناس عاشوا فى تجويف موجة فقاتهم التملي وتمتيع البصر بالنظر الى عظمة البحر واتساع ءافاقه .

قلت فيما تقدم بان الفوضى المخيمة على الامم قاطبة سببها الرئيسي كونها فاقدة للاساس الذى يقوم عليه المجتمع فجاءها الاسلام باساس جامع لما يطلب فيه رحيي ومادي واجتماعي يصلح ان تتبوا تحت ظله جميع الامم على اختلاف اجناسها لا يسمع فيه ذكر للعنصرية قانون التفاضل فيه التخلف بما جاء به من مكارم الاخلاق واتباع الصراط الذى رسمه « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم — يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله تساءلون به والارحام » دستور جاءنا فى صورة دائرة معارف تكلم على العقائد وما يتعلق بها من فلسفة ومباديء اخلاقية وسن الشرائع مدنية وجنائية وطهر الجو ببيان الآداب ومكارم الاخلاق الفردية والاجتماعية

(1) حمرة شفق الانجيل : كناية عن البصيص الذى بقي بين ايدي المسيحيين بعد ان طرا على الانجيل الحقيقي ما تقرؤه فى كتب القوم

والمنزلية تدور في مجموعها على قطب العدل على حد ما يقول المثل الشائع : دام الكفر مع العدل ولا يدوم الاسلام مع الظلم « يا ايها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما » لان التأثر بعامل الغنى او الفقر يخرج بكم الى تحكيم العواطف مع عدم الغفلة على ان الله سبحانه كما هو خالق هو ايضا حاكم ، ويرحم الله ابن دقيق العيد قاضي القضاة حيث يقول : «ما حكمت حكما حتى هيات جوابي عليه يوم الوقوف بين يدي الله »، وفي معناه ان الفيلسوف الامريكي ابن جامان فرنكلن وكان سفار كتب في حياته اوصى ان تكتب على على قبره هذه الكلمات :

في هذا المكان جسم ابن جامان فرنكلا تحت التراب فريسة للديدان .

شبه كتاب بال افرغ من مضمونه اندرست حروفه وانمحى تذهيبه

ولكن الكتاب لم يضع كما هي عقيدته

سيعاد طبعه في صورة ابهى من الاولى بعد المراجعة والتصحيح من المؤلف .

نعم الدستور الذي جاء به الاسلام تكفل بتخطيط الصورة الهندسية التي ينبغي للمجتمع ان يتكيف بها ماديا وادبيا واعتقاديا في سائر شؤونه ومظاهر شعاره في ذلك ما يشير اليه قوله جل ذكره: « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وءاتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في الباساء والضراء وحين الباس ؛ اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » معناه ان روح الاسلام ليست في الاقتصار على التوجه الى وجهة من الوجهات لاداء الصلاة بل مع العمل بما اشتملت عليه الآية في مجموعها . من باب ان الشيء بالشيء يذكر يجري على الالسنة : من قال لا اله الا الله دخل الجنة .. هذا الاعتقاد بين حدوده ما جاء في سورة الانفال : « ان الذين ءامنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين ءاووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض ، والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ». فالقارىء يرى انه سبحانه لم ينف الايمان على هذا القسم من المومنين الا ان ايمانهم ناقص زيادة على ان مثل هذا الاعتقاد وهذا التساهل لا يتفق مع تعاليم القرءان الاساسية التي بينت للانسان ما هي الغاية من وجوده في هذه الحياة : « وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا » . « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا ». فالاسلام على هذا دين عمل لا دين امل « انه من يات ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن ياته مومنا قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » وتوج سبحانه هذا الاصل بان العمل يترتب عليه أثره ان خيرا فخير وان شرا فشر : « وانما توفون اجوركم يوم القيامة » « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .» وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين » . « انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وءاثارهم ، وكل شيء احصيناه في امام مبين ». « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعلمون » . فلو كان العمل مقدرا في الازل مفروغا منه فأي معنى يبقى لقوله تعالى : «ونكتب ما قدموا وءاثارهم». وقوله : «انا كنا نستنسخ ما كنتم تعلمون » كلتا الآيتين بالفعل المضارع . وكذلك اي معنى يبقى للميزان في قوله تعالى : « فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين ، والوزن يومئذ الحق ؛ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون — ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين ». نعم نسمع من بعيد وهب بن منبه يقول عند تفسير قوله تعالى : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة : انما يوزن من الاعمال خواتيمها فاذا اراد الله بعبد خيرا ختم له بخير عمله ، من ابن جاءك هذا التخصيص يا وهب .. نص الآيات صريح في ان المراد به العموم لا اشتباه فيه ولا احتمال ، زاد من وسعت رحمته كل شيء ان اذن للعباد ان يستنجزوه وعده : « ربنا وءاتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » « قل أذلك خير ام جنة الخلد التي وعد المتقون ، كانت لهم جزاء ومصيرا، لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربك وعدا

مسؤولا » . فمن نازع في كون العمل يترتب عليه اثره فاته التصديق بكون ما وعد به سبحانه لا يخلف كما تكررت بذلك الآيات البينات . « وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة ، قل بلى وربي لتاتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ، ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين **ليجزي الذين ءامنوا** وعملوا الصالحات الى قوله : ويعلم الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك من ربك هو الحق، ويهدي الى صراط الحميد » معناه انه يتبين لاهل العلم عند مجيء الساعة أن ما جاءهم به الانبياء هو حق وصدق ، وهذا يتجاوب مع قوله تعالى : « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا »؟

خلاصة القول ان الكتاب العزيز جاء في صورة ءاخر انذار تقدمه السماء الى الارض اعلاما بأن هذه الحياة يوشك أن تتبدل وضعيتها تبديلا كليا يلوح الى ذلك قوله تعالى على لسان الجن لما سمعوا القرءان: « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » معناه كنا نقترب من السماء ونسترق بعض ما يقال فيها ولكن مع بعثة خاتم النبيئين والكتاب الذى نزل عليه نرى الحالة تغيرت ودخلت في طور جديد نصبت فيه حراسة ورقابة على اشد ما تكون الرقابة لم تترك مطمعا للدنو من السماء ، الحالة على حد تعبير الوقت ، اشبه شيء بحالة الطوارىء لا ندري ما وراء الاكمة وماذا يقذفه الغيب ، « وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا ».

* * *

دستور جمع من المبادىء والاحكام لصالح العباد في حالة السلم ما كان ليهملهم في حالة الحرب فرسم لهم الخطة التي يسلكونها اذا ما لاحت البوادر ولقن ما لقن من اساليب خوض غمار الحروب فسن الجهاد مع التصريح بأن اصل مشروعيته الدفاع « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ــ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا »، بل احترموا ما يجب احترامه في الحروب ــ واخرجوهم من حيث اخرجوكم ثم وعد الله سبحانه حزبه بالنصر ان هم مشوا على التخطيط الذى رسمه لهم الاساس الرئيسي لهذا التخطيط الشجاعة الى حد الجود بالنفس تصديقا لقوله سبحانه : « أن الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » اشترى منهم انفسا هو خلقها واموالا هو رزقها . « ومن يقاتل في سبيل فيقتل او يغلب فسوف نوتيه اجرا عظيما» «ياايها الذين ءامنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيز الى فئة فقد باء بغضب من الله » « فلا تهنوا وتدعو الى السلم وانتم الاعلون والله معكم .

والشجاعة المطلوبة هي التى تصل بصاحبها الى النهاية وبعبارة اخرى هي اعطاء البرهان على الثقة بالله على الوجه الاكمل ، فاذا قام البرهان على أن الثقة بالله بلغت حدها الذى يرضاه الله عند ذلك يكون التحكيم الى الله الا الى الله تصير الامور، واليه يرجع الامر كله ، وحكم الله نلتمسه في امثال هذه الآيات : « **وما النصر الا من عند الله** ــ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ــ ولا تبديل لكلمات الله » . نعم الحرب سجال ولكن العبرة بالنهايات

عرف العلماء التاريخ بانه عمل الرجال الذين يصلون الى النهايات في اداء مسؤوليتهم ، ومن المعلوم انالوصول الى النهايات عماده الشجاعة، واقرب مثال الينا في هذا المعنى نجده في قضية المنعم محمد الخامس خفف الله التراب على جثمانه فانه اعطى الرقم القياسي الاعلى لهذه النهاية في معركته مع طاغوت الاستعمار واي نهاية تتطلب بعد التضحية باعز ما عنده بعرشه وتعريض اسرته الكريمة : الاخوال والاعمام من امراء اجلاء واميرات جليلات نسبا وثقافة الى نوائب الدهر والفطام عن الطيبات.. ماذا كانت العاقبة ؟.. جاء منفاه بالفتح اسوة بجده حيث جاءت هجرته بالفتح في حين ان خصمه هوت الريح بسمعته الى مكان سحيق هذا الخصم (جوان) كنت عرفت به في مقال كتبته في تلك الفترة المظلمة بهذا البيت :

تسمى باسماء الشهور فكفه
جمادى وما ضمت عليه المحرم

بينما جلالة محمد الخامس احرز على دولتين : استعاد عرشه وملكه .

وكان حقا علينا نصر المومنين ، ودولة روحية تمثلت فى سمعة طبعت بطابع الخلود ، وبذلك حق لنا ان نقول : «وجدنا ما وعدنا ربنا حقا» .

الخلاصة ان الحرب التى بيننا وبين صهيون وصل امرها الى المصابرة اعني المغالبة فى الصبر كما امر بذلك كتابنا: «ياايها الذين ءامنوا **اصبروا وصابروا ورابطوا** » ، فما على قادة المسلمين الا ان يصلوا فى المصابرة الى النهاية التى وصفت وهناك يقع التحكيم فى المحكمة الالهية الا الى الله تصير الامور – واليه يرجع الامر كله .. بعد الاعادة الى الذاكرة فان ما جاء فى الكتاب العزيز عن اليهود يوذن بانهم يبوؤون بسوء المنقلب فى النهاية . « ضربت عليهم الذلة والمسكنة اينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس » يدل ان يتعلقوا بحبل موسى كليم الله ، ومن المعلوم أن حبل موسى يتصل بحبل محمد صلوات الله عليه وسلامه بحكم : « واذ اخذ الله ميثاق النبيئين لما ءاتينكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه ، قال ءاقررتم واخذتم على ذلكم اصري ، قالوا اقررنا » . « واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم **الى يوم القيامة** من يسومهم سوء العذاب »

نعم بدلا من التعلق بحبل الله اختاروا التعلق بحبل اميريكا متجاهلين ما هي فيه فى الفيتنام لا تزال تلتمس بشتى الوسائل طريقا للخلاص ، ولعل مخرجها الوحيد هو مخرج قوم عاد لاستواء الفريقين فى العلة التى كانت سببا لهلاك قوم عاد : « فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من **اشد منا قوة** » .. هذا الطغيان وهذا التجبر هو نفسه لسان حال الامريكان من اشد منا قوة .

وفى الختام الحرب بيننا وبينهم ءالت الى حرب مصابرة ، نسبة عدد المسلمين المطوقين لاسرائيل تؤهلهم لمتابعة القتال اربع او خمس سنين بل اكثر وهذا مما لا تستطيعه صهيون ، ويرحم الله العرب على ما خلفوا من الحكم : كانت القبائل فى حروب فيما بينها على عادتهم وكانت قبيلة اشتهرت من بينهم بدوام الانتصار فسال البعض احد كبارها بم نصرتم على اعدائكم ؟ فاجابه : كنا نصبر فوق صبرهم ساعة .

ابو العباس الحاج احمد التيجاني

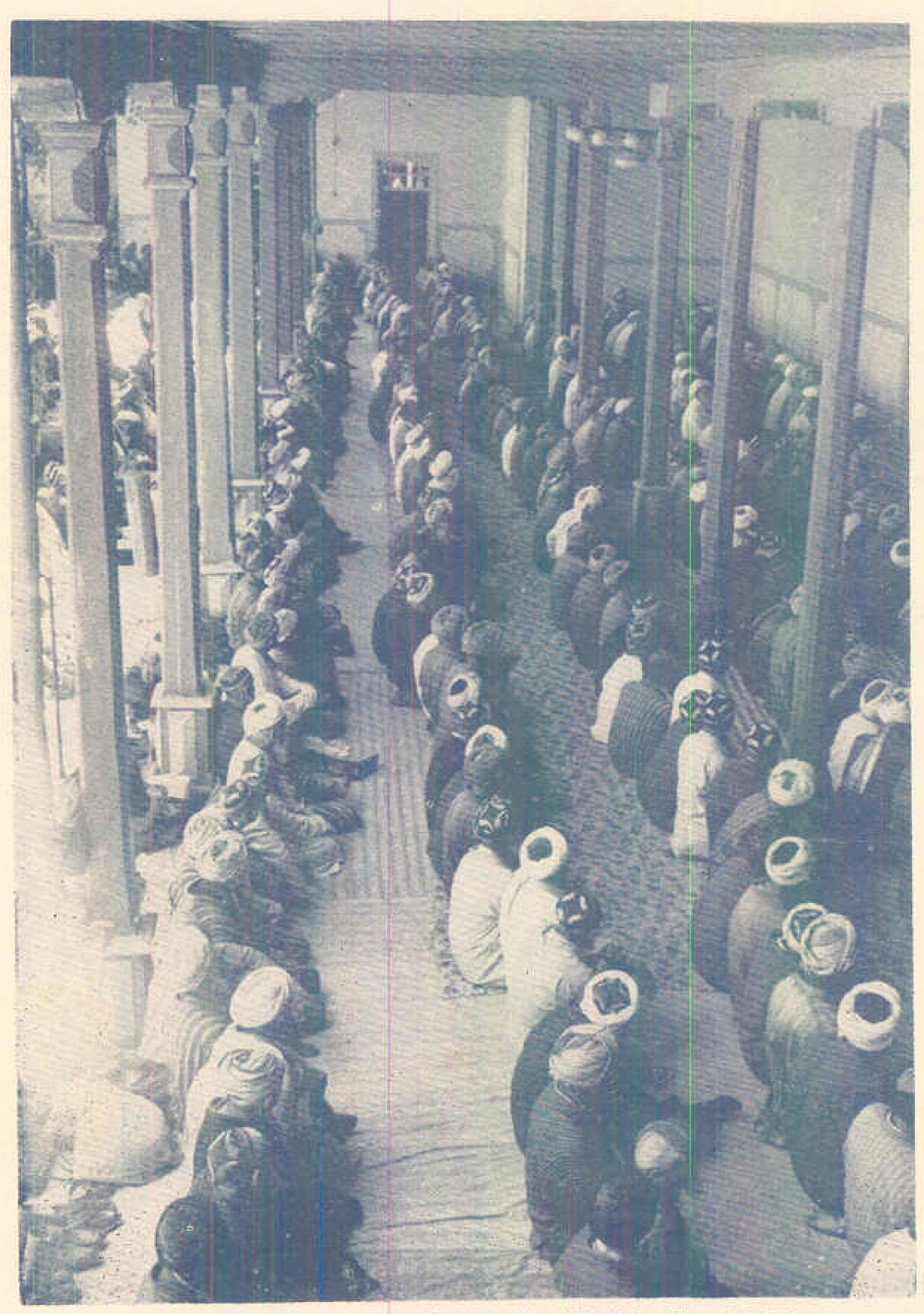
حيو طالع العيد

اتجه الشاعر خليل مطران الى « عيد رأس السنة الهجرية » فجعل منه وحيا لبعض قصائده ، مثل قصيدته الدالية الطويلة التى تبلغ ثمانية وسبعين بيتا ، والتى يقول فى مطلعها :

هل الهلال فحيوا طالع العيد   حيوا البشير بتحقيق المواعيد

وقد عرج فيها على رسالة محمد وايذاء اهله له ، واعتزامه الهجرة ، واختبائه بالغار ، وغزواته فى سبيل دين الله ، التى يقول فيها خليل مطران :

وكم غزاة وكم حرب تجشمها   حتى يعود بتمكين وتاييد
كذا الحياة جهاد ، والجهاد على   قدر الحياة. ومن فادى بها فودى



جماعة المؤمنين بالاتحاد السوفياتي في مسجد جامع بمدينة دوشمبي عاصمة طاجيكستان



الفقه لغة الفهم والعلم بالشيء بدقة ووضوح . يقال فقه اذا فهم .. وفقه اذا صار فقيها : والفقه له سجية وملكة يستطيع بها الادراك الكامل . ويقال فقه اذا سبق غيره الى الفهم .

ـ وفى الاصطلاح هو العلم بالحكم الشرعي العملي الذى استنبط من الدليل التفصيلي . فالمعنى اللغوي اعم .. والفقه هو التعمق فى الفهم والتطبيق العملي للعلم .. كما ترى فقهاء القانون مثلا ترجع اليهم فى فهم نصوص القانون لتحقيق العدالة . وقد وردت كلمة الفقه فى القرءان بمعنى الفهم العام فى اي موضوع هام .. كما سترى ان شاء الله ..

ـ **قدرة الله ورحمته** . من سورة الانعام (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) اى هو قادر ولكنه يرحم ..

ـ **الاسباب الصحيحة** : كان اليهود يوقعون بين الاوس والخزرج فى الجاهلية فتقوم بينهما الحروب ويشترون الاسلحة والتموين من اليهود فتروج تجارتهم ولما هاجر الرسول الى المدينة الف الله بين الاوس والخزرج فكسدت تجارة اليهود فقالوا ان محمدا شؤم علينا .. فنزل قول الله تعالى .. من سورة النساء : (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)

الفقيه يتعلم ويعمل ويعلم فينفع نفسه وينفع الناس :

1) الفقه بالتفقه ، والعلم بالتعلم .. كما ان الحلم بالتحلم ، والخير بالتعود ، والصبر بالتصبر ، والعفة بالتعفف ، والغنى بالاستغناء والمحاولة ..

ـ روى الطبراني عن واثلة بن الاسقع قال : امرنا رسول الله (ص) ان نتفقه فى الدين (ج 1 مجمع الزوائد ص 121) وروى عن معاوية انه قال : انما العلم بالتعلم ، والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين (انما يخشى الله من عباده العلماء)

2) الفقه فى ممارسة التجارة عمليا :

روى الترمذي عن عمر بن الخطاب انه قال : لا يبع فى سوقنا هذا الا من تفقه فى الدين . (ج 1 كتاب تيسير الوصول ص 54) ـ فان عمر يرى أن ممارسة التجارة فن يحتاج الى فهم ووعي لمطالب الناس ومعاملاتهم ومستقبل السلعة وحاجات الناس .

3) **الفقيه الواعظ** : الوعظ فن عملي يحتاج الى مران ومهارة ومعرفة نفسيات الناس : ـ قال علي ابن ابي طالب : الا انبئكم بالفقيه حق الفقيه ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله . ولم يرخص لهم فى معاصي الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ، ولم يترك القرءان رغبة عنه الى غيره ، ولا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ، ولا خير فى فقه ليس فيه تفهم ، ولا خير فى قراءة ليس فيها تدبر .

(كتاب جامع العلم لابن عبد البر ج 2 ص 144)

4) الفقيه القاريء وسلوكه العملي مع نفسه ومع الناس :

قال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرءان ان يعرف بليله اذا الناس نائمون ، وبنهاره اذا الناس يفطرون ،

وبحزنه اذا الناس يفرحون ، وببكائه اذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا الناس يخلطون ، وبخشوعه اذا الناس يختالون .

ولا ينبغي لحامل القرءان ان يكون جافيا ولا غافلا ولا صخابا ولا صياحا ولا متسرعا اذا استطعت ان تكون انت المحدث (المقصود) بالآية (يا ايها الذين ءامنوا ..) فارعها سمعك فانه خير يامر به . او شر ينهى عنه (ج 1 حلية الاولياء ص 130)

5) الفقيه المربي للشعب (المدرس الفني التربوي) الرباني

من سورة ءال عمران (ما كان لبشر ان يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوءة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) . فالرباني من التربية هو الذي يعلم مسائل العلم الصغيرة قبل كبارها فهو يتدرج بالمعلومات على حسب عقول السامعين . وهذا هو فن التربية الحديثة . وفي وضع المناهج لصفوف التلاميذ .. فيتدرج بهم من المعلوم الى المجهول . وهذا هو الفقه وهو الحكمة بوضع الشيء في موضعه ..

روى البخاري عن ابن عباس قال في معنى الآية (كونوا ربانيين ..) اي حكماء فقهاء . فالفقه والحكمة متلازمان . وبعد ذلك ففي الآية من شرف النسبة الى الرب شيء كثير .. (ج 1 كتاب تيسير الوصول ص 107)

6) جهاد الفقيه ضد الشياطين

روى الترمذي عن ابن عباس ان النبي ص قال : فقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد . (ج 3 تيسير الوصول ص 51)

ـ ان الفقيه يكيد الشياطين بالفهم واليقين والثبات ، ويصرع الشر بالكفاح والجهاد ، ففقيه عابد خير من الف عابد بلا فقه .. رجل خير من الف رجل .. بماذا ؟ بقوة اليقين وحسن الفهم لا يتزعزع ولا يزيغ قلبه فهو ثابت مع الحق .. وبهذا نفهم قول الرسول ص فيما رواه الطبراني عن ابن عمر : افضل العبادة الفقه وافضل الدين الورع . (ج 1 مجمع الزوائد ص 120)

ـ فالفقيه يحول الحكمة الى عمل .. فلا يقف بالحكمة عند الكلام والجدال والحفظ بل يحول الطاقة الى حركة نافعة .. بل ان الحكمة .. كما قال الاستاذ المرحوم احمد امين هي التطبيق العملي لفقه القرءان والسنة . ولذلك تجد في القرءان كثيرا اقتران (الكتاب والحكمة) من سورة البقرة (ويعلمهم الكتاب والحكمة) (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ..) من سورة النساء .

وفي الحديث: لا حكيم الا ذو تجربة ـ وقد نهض الصحابة رضوان الله عليهم بالقرءان والسنة تطبيقا عمليا .. يقولون قليلا ويعملون كثيرا حتى سعدوا واسعدوا العالم وصاروا يملون على التاريخ امجادهم بتطبيق الحكمة عمليا .

7) الفقيه يتعلم ويعمل ويعلم.

روى الشيخان عن ابي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا : فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير ـ وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ـ واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به **فعلم وعلم.** ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به .

ـ الا ترى معي ان الارض التي امسكت الماء ولم تنتفع به للانبات .. وانما انتفع الناس به فشربوا .. هي والقيعان التي لم تمسك الماء سواء. وصفان لمن لم يقبل هدى الله ؟

ـ الا ترى معي ان وصف الارض التي انتفعت ونفعت هو احسن ما يتناسب مع وصف الفقيه العالم العامل الذي ينفع نفسه وينفع الناس ويعلمهم ؟

ـ ان عقل الفقيه كبير: وعلمه غزير: ونفعه كثير: فعقله يتناسب مع علمه ومع عمله وهذا التناسب هو ما نبحث عنه . انه الوصف الذي قصده الرسول (ص) في قوله : خصلتان لا تجتمعان في منافق : حسن سمت وفقه في الدين : رواه الترمذي في جامعه وحسن السمت كما قال الامام ابن العربي عبارة عن شخص متناسب عقله وقوله وعمله.

8) الفقيه صابر شاكر شجاع في الحرب :

من كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني ج 1 ص 247 روى بسنده عن علقمة بن يزيد بن سويد الازدي عن ابيه عن جده قال : وفدت سابع سبعة من

قومي على رسول الله (ص) فلما دخلنا عليه وكلمناه اعجبه ما رأى من سمتنا وزيتنا فقال ما انتم ؟ قلنا مؤمنون . فتبسم وقال : ان لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم وايمانكم ؟ قلنا خمس امرتنا رسلك ان نؤمن بها: الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وخمس امرتنا رسلك ان نعمل بها: شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت .

وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها الا ان تكره منها شيئا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالاعداء . فقال (ص) : حكماء علماء كادوا من تفقههم ان يكونوا انبياء .. الى آخر الحديث .

ـ وفى موقعة اليمامة فى حرب المرتدين انكشف المسلمون وتقدم زيد بن الخطاب فقتل وسقط اللواء فحمله سالم مولى ابي حذيفة . فقال له المسلمون انا نخاف ان نؤتى من قبلك . فقال بئس حامل القرآن انا ان اتيتم من قبلي ـ واستمات فى القتال حتى قطعت يمينه ، فاخذ الراية بيساره فقطعت يساره . فاعتنق اللواء وهو يقول : (وكأي من نبيء قاتل معه ربيون كثير .. الآية حتى سقط صريعا .. ثم انتصر المسلمون . هذا هو سالم الذى قال فيه الرسول : الحمد لله الذى جعل فى امتي مثلك .

ـ وقال عمر بن الخطاب عند موته : لو كان سالم حيا ما جعلتها شورى .

9) الفقيه يعمل لمعاشه ويستغنى عن الناس :

اخرج رزين عن علي بن ابي طالب قال نعم الرجل الفقيه فى الدين ان احتيج اليه نفع . وان استغني عنه اغنى نفسه . (جـ 3 تيسير الوصول ص 51)

الفقيه يطبق الشريعة عملا حتى فى معاشه لا يسرف ولا يقتر :

روى الامام احمد بن ابي الدرداء ان النبي ص قال : من فقه الرجل رفقه فى معيشته . (الهيثمي جـ 1 ص 120)

الفقيه الامام فى الصلاة .. والصلاة نظام القيادة

روى الامام مسلم عن عمار بن ياسر ان النبي (ص) قال ان طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه . ـ مئنة علامة مؤكدة من ان التى للتوكيد ..

10 الفقه فى فن الحرب عمليا : وهذا هو بيت القصيد من موضوعي هذا :

من سورة التوبة (وما كان المومنون لينفروا كافة. فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون؟)

استعرض الامام ابن جرير الطبري الاقوال الكثيرة جـ 11 ص 51 ثم اختار ان تكون الطائفة النافرة هي المتفقهة فى الدين بما تعلمه من فنون الحرب وممارسته القتال .. ثم يعودون فيصفون ويعلمون ويحذرون قومهم .. وقال : هذا اولى الاقوال بالصواب ولان مرجع الضمائر فى الآية يتناسب مع هذا وضوحا بلا تكلف ..

ويتناسب مع الواقع فى معاني الفقه العملية التطبيقية .. كما ذكرنا سابقا .

11) الحسب والنسب يزيدان بالفقه شرفا : ـ

روى الشيخان عن ابي هريرة قال : قيل يا رسول الله من اكرم الناس ؟ قال أتقاهم . فقالوا ليس عن هذا نسألك. قال فيوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال فعن معادن العرب تسألوني ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا .

12) الفقيه يقف عند علمه .. ويقول لا ادري : ـ

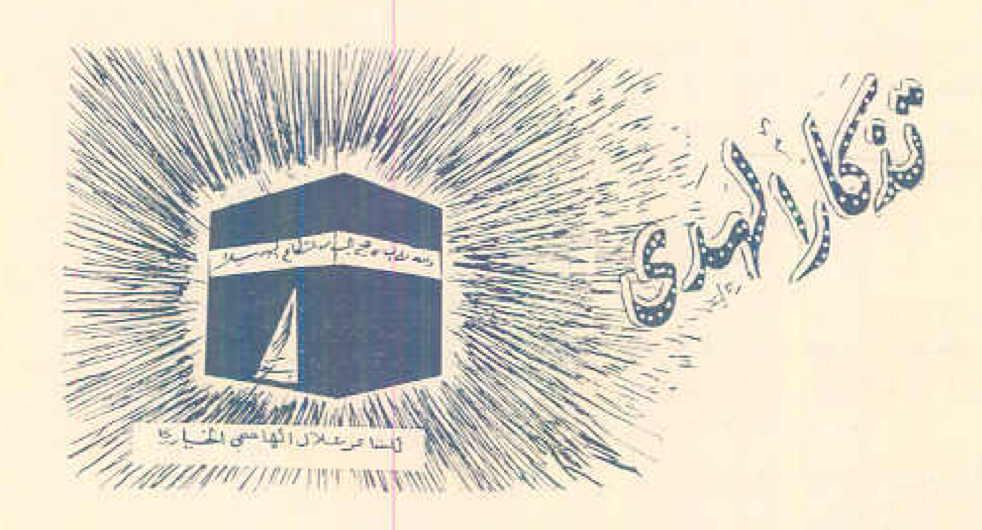
روى ابن سعد بسنده قال : مر جبير بن مطعم على ماء فسألوه عن فريضة فقال لا علم لي ولكن ارسلوا معي حتى اسأل لكم عنها .. فأتى عمر بن الخطاب فسأله .. فقال عمر : من سره ان يكون فقيها عالما فليفعل كما فعل جبير بن مطعم سئل عما لا يعلم فقال الله اعلم .. (جـ 3 حياة الصحابة 217)

13) من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ـ رواه الشيخان

وروى البزار برجال ثقات (جـ 1 الهيثمي ص 120) عن ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا اراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين والهمه رشده .

ـ اللهم فقهنا فى الدين علما وعملا والهمنا الرشد يا رب العالمين .

الرباط ـ احمد عبد الرحيم عبد البر



هذا نبيك ... يا حياة فجـــددي فكر الوجــــود ، وسيرة الانســــان
لا عذر بعد اليـــوم في أن تجهلـــي طرق الخـــلاص ، وثورة الايمـــان
الله اكبـــر ... واحد في ملكـــه هـــذا شعـــار الخيــر والاحســان
هذ شعـــار الثائرين على الخنـــا والهادميـــن معـــاقـــل الطغيــان

* * *

هذا نبيـــك ... عانقـــي اضـــواءه ربانــة ... مـــزهـــوة الالـــوان
كالحب ، كالفجر الندي ، وكالمنـــى آياتـــه في عالـــم حيـــران ...
فتنسمي عطري الهدى .. وتحرري وتفجـــري في ثـــورة البركـــان
هيهات ... وضعك يائس متـــازم قد شاعـــت البلـــوى بكـــل مكـــان
قص جناحك ـ ياحياة ـ جهالـــة فقعـــدت عاجـــزة عـــن الطيـــران
معصوبة العينين سرت بلا هـــدى ووثبت في قفص من البهتـــان ...
مجـــذاف زورقك الملـــون بالهـــوى تلويـــه ريـــح الشرك والعصيـــان
لعبت به الاهواء ... تسلم امـــره ليديـــن في الامـــواج ترتجفـــان
ماكان مـــن قبـــس ينيـــر سبيلـــه سترتـــه اشبـــاح من الغثيـــان
واليوم ... جاء الحق يفضح زيفـــه كـــي تبلـــغ شط المنـــى بامـــان

* * *

يا مولـــد الانـــوار ، يا يوم المنـــى ذكـــراك تلهم خاطـــري وجنانـــي
للـــه انت .. ! اتيتنـــا بحبيبنـــا في راحتيـــه بشائـــر وامان ..!

في مهرجان ... تاهت الفصحى به — واذا العروبة نشوة واغان
رمل الصحارى راقص .. يزهو على — شدو النخيل باروع الالحان

* * *

لو استطيع نصبت تذكار الهدى — لصباحك الزاهي على الازمان
انسان هذا العصر لو نبذ الهوى — جعلوك رمز حضارة الانسان

* * *

يا ايها الانسان غرك بارق — من ظنك المحموم بالهذيان
فاقمت من اهواء نفسك شرعة — وحييت في قلق وفي حرمان
لم تدر ما الانسان ، ما رغباته ، — ما الحسن في الافراح والاحزان ..؟
انكرت وحي الله ... يبني عالما — متوحد الاحساس والوجدان ..!
ويقص اجنحة الضلال ... ويبتني — للحق صرحا عالي الاركان ..!
مستسلما لله ... تجمع بينه — ثقة ، وحب ، وابتناء كيان
مهما ابتعدت عن الاله .. سقطت في — عمق الردى ، ومنيت بالخسران
ورسمت خط السير .. بين مذاهب — وشرائع في الشر تلتقيان ...
قيم واخلاق ... احطت اطارها — بهوى ، يثير غريزة الحيوان
سخرت فكرك باحثا مستكشفا — في ظاهر الاشياء والاكوان ..
فبلغت تفجير القوى ... وجهلت ما — في الروح من شوق ومن تحنان
الله اكبر .. واحد في ملكه — بيض وسود — عنده — سيان
والمرء يشرف بالضمير اذا سما — وبما لديه من سمو معان ...
تلك المذاهب شرها مستفحل — جلبت على الانسان كل هوان ...
حسبته آلة معمل ... واستحدثت — شرعا ... يميت خصائص الانسان

* * *

آمنت بالانسان ... سوف يعيده — للحق ما في القلب من خفقان ..
عرس الضلالة سوف يطفأ نوره — ويشع فجر الحق في الاجفان..
واذا الحياة محبة واخوة — في الله ، في الاسلام ، في الايمان

الرباط — علال الهاشمي الخياري



القومية العربية أم الجامعة الإسلامية

للأستاذ إبراهيم حركات

اذا تواضعنا على ان نشرح القومية العربية بانها مجموع القوميات التى تجعل من الوطن العربي ترابا واحدا ومن الجنس العربي امة واحدة بقطع النظر عن الفروق الدينية ، فان القومية بهذا المعنى كانت موجودة لدى العرب منذ زمن طويل ، وقد تجسمت لوقت ما في عهد بني امية كما تجسمت فكرة الشعوبية فى ذات الوقت لدى الطرف الآخر ، اما كمذهب مدروس مخطط فقد بدات القومية العربية تاخذ طريقها الى الوطن العربي قبل نهاية القرن الحالي يشجعها ويغذيها ساسة بريطانيا حتى تكون كرد فعل للنفوذ العثماني الذى انبسط على مجموع الدول العربية تقريبا خلال العصور الحديثة حتى الحرب العظمى التى غيرت بحق اوضاع السياسة العالمية راسا على عقب .

وبقطع النظر عن كل جدل يتعلق بالاصول الاجتماعية فى الوطن العربي بما فى ذلك افريقيا الشمالية ، فان مجموع الشعوب العربية (لان العرب كامة ، يتكونون من شعوب) تنتمي فى معظمها الى ديانة واحدة هي الاسلام ، وهناك بالطبع ديانات اخرى كالمسيحية واليهودية ، واذا ، فمجموع العرب تجمعهم وحدة جنسية ، الى جانب وحدة دينية ، او على الاقل الى جانب اغلبية دينية .

اما فكرة الجامعة الاسلامية فقد انبثقت اساسا بظهور الرسالة المحمدية التى تولى كبرها رجل عربي وشعب عربي موطنه شبه جزيرة العرب ، وكان يمكن ان يكون الرسول الذى جاء بالقرآن من ايران او من اي بلد آخر من العالم ، غير ان العالم كان يتشكل من فئتين احداهما متحضرة الى درجة ان النزاع العقائدي فيها كان ينبني على افكار فلسفية متضاربة كما فى ايران نفسها او بعيدة جدا عن الحضارة كما عند بعض الشعوب البدائية فى افريقيا ، وبين الفئتين معا يقف العرب وهم ارقى شعب سام من حيث اللغة ونقاوة الاصل وفى الجاهلية لم تكن لديهم افكار فلسفية ، كما لم يكن لاغلبيتهم الساحقة ايمان بديانة سماوية، وبما انهم يشكلون من حيث العدد اكبر مجموعة سامية ، وان جميع الانبياء من الجنس السامي ، فقد اقتضت الحكمة الالهية ان يبعث آخر نبي من بينهم ، ولما كانوا على الفطرة وكانت لغتهم معاصرة من حيث التعبير والفصاحة ، فقد كان لها شرف اتخاذها وسيلة لتبليغ الرسالة المحمدية فى بلاد العرب ، ثم بين سائر المجموعات السامية وباقي دول العالم ، ومن ثم كان محمد عليه السلام رسول العرب والمسلمين على السواء ، لانه بعث فى الاولين ، ونشر دينه فى الآخرين ، بقطع النظر عن اجناسهم واصولهم، ولذلك كان محمد (ص) اول رئيس جامعة اسلامية فى العالم ، ولكن هل نجحت فكرة القومية العربية قط لا.

لو رجعنا الى التاريخ لامكن ان نجد اجوبة مقنعة :

1) لا جدال فى ان القومية لم تكن قبل الاسلام عقيدة مركزة اساسها الايمان بوجوب وحدة سياسية تجمع شمل العرب قاطبة ، وان كانت هناك جهود محدودة المدى فى الميدان العسكري مردها الى طموح شخصي لدى بعض ملوك العرب الاقدمين من حمير والانباط وتدمر ، اما على الصعيد الشعبي فلا شيء ، مع ان العرب كانت لديهم اداة فعالة لتحقيق وحدتهم السياسية وهي اللغة الفصحى التى كان يعرفها سائر العرب الى جانب اللهجات المحلية ، وقد قيل ، ويمكن ان نقول فى ميدان الوحدة اللغوية الشيء الكثير ، اما الفكرة العربية التى جاء بها بنو امية ،

فهي تتبنى اساسا لا على وجوب الايمان والعمل على تحقيق قومية عربية ، ولكن على ان العرب يجب ان يسودوا غيرهم وان كل من ليس بعربي فشعوبي غير جدير بأن يوضع في صف العرب، وهذا هو بالضبط ، السبب الذى جعل القومية بهذا الاعتبار الاموي على الاقل ، لا تنجح بتاتا ، بل وتجد نفسها امام حرب شعواء شنتها على بني امية معظم الشعوب التى اعتنقت الاسلام ، وهي ليست عربية ، ولكن الفكرة الاموية على كل حال تحمل فى طيها ايمانا غير مباشر بالقومية العربية .

2) ان بوادر الدفاع عن فكرة القومية العربية تجلت مرة اخرى بعد طغيان العناصر غير العربية فى ميدان الحكم والادارة ايام العباسيين ، ولكن هذه البوادر كانت نتائجها سلبية لانه لم تتشكل احزاب تتبنى فكرة القومية العربية .

3) ان فكرة القومية العربية التى بدات بعد امتداد النفوذ البريطاني الى الشرق الاوسط نجحت حقيقة من حيث تخلص العرب من النفوذ العثماني وتخولهم استقلالا ضعيفا ادى بهم الى محاربة النفوذ البريطاني وتظيره الفرنسي .. ثم نجحت فكرة الجامعة العربية فعلا ، فى مساعدة عدة دول عربية على استرداد استقلالها بما فى ذلك دول المغرب العربي ولكن لا يستغرب ابدا ان لا تنجح هذه الجامعة فى اقرار وحدة عربية تشمل مجموع الميادين الحساسة : الاقتصاد والسياسة والدفاع ، ولنضف كذلك السياسة الخارجية ، وكان المفروض انه بعد استقلال هذه الدول التى لم تقو احدها على مقاومة دويلة كاسرئيل ، ان تخلق فكرة القومية على الصعيد السياسي قبل كل شيء ، لان العرب كشعوب يؤمنون جميعا بالوحدة العربية ، ولكن ما لم تزك هذه الوحدة وتتبناها عمليا حكومات الدول العربية ، وبالتالي هيئة قوية تخلف الجامعة العربية ، فانه لا ينتظر نجاح لفكرة مجالها الكتب والنشرات والخطب دون العمل الايجابي .

ولم فشلت فكرة القومية العربية فى جمع شمل العرب ؟.

نستطيع ان نلخص الاجوبة فيما يلي :

اولا ، لان العرب امة عاطفية روحية ، ولا يمكن ابدا ان ينجحوا فى وحدة لا يكون الدين اساسها ، والدين وحده يجد فيه العربي غذاءه الروحي كاملا ، وعندما يتجه القرآن بأوامره ونصائحه فهو يتجه الى المسلمين ولا يهمه من امر العرب كجنس شيء لانهم قلة بالنسبة الى المجموعة الضخمة التى آمنت بالكتاب والسنة المحمدية .

ثانيا : القومية العربية لا تستمد جذورها من التاريخ بالمعنى الصحيح الذى تسجله فكرة القومية العربية .

ثالثا : لايوجد العرب وحدهم فى الدول العربية، فهناك مجموعات اخرى ترتبط بالعرب من قريب او بعيد وقد تخلفت عنهم من حيث وجهات النظر وحتى من حيث الاتزان الفكري .

رابعا : لان العرب حتى مع وحدتهم الكاملة قد يبقون ضعافا من عدة وجوه اذ قيسوا بدول اخرى، فمجموعهم اقل من سكان الباكستان ، وقوتهم العسكرية جميعا تعادل قوة دولة عسكرية من اوروبا الغربية ، ونفوذهم العالمي لا يؤثر فى كثير على سير الاحداث فى راي بلد كما قد يؤثر نفوذ اضعف دولة اوروبية قد تتدخل فى بلد افريقي مثلا ، ومرد هذا الضعف غلبة الاتجاه العاطفي الذى يجعل من العربي فى كثير من الاحيان يسخر من كل ما لا يمت اليه بصلة ، ثم عجز العرب عن احكام وحدتهم السياسية والاقتصادية بشكل يجعلهم قوة عالمية تؤثر فى سير الاحداث العالمية والاقتصاد الدولي .

وبالطبع ، لا يدل شيء من هذا على استحالة اقرار وحدة عربية فعالة ، ولكن دون ذلك كثير من قوة العزيمة وقابلية التنظيم وترك التفكير العاطفي لمناسباته الخاصة واستبعاد روح السيطرة الفردية من نفوس قادة المجموعة العربية .

اما مبدا الجامعة الاسلامية فيمثل العودة الى الروح التى جاء بها رسول الاسلام (ص) وهل نجحت فكرة الجامعة الاسلامية قط ؟ .

نعم ، لقد نجحت فى ثلاثة ادوار عظيمة من التاريخ :

1) فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين حيث انضمت عدة اقطار الى حظيرة الرسالة المحمدية.

2) فى عهد العباسيين على طوله ، وان كان هذا لا يعني ان الامويين قبلهم ، نبذوا كل فكرة اسلامية فقد اعادوا تنظيم الادارة على اسس اسلامية وفرضوا هيبة الاسلام فى كل بلد حلوا به ، غير ان العباسيين ادخلوا فى الادارة واشركوا فى العمل السياسي

الرسمي عناصر من مختلف الاجناس كما لا يحتاج ذلك الى تفصيل في هذا المقام .

3) في عهد العثمانيين الذي امتد الى الحرب العظمى وان كان عهدا انحط فيه المغرب الى درجة مؤسفة من حيث النفوذ السياسي داخل بلادهم ومع ذلك فقد حقق العثمانيون بفضل سيادتهم على كل الدول الاسلامية تقريبا نفوذا عسكريا وسياسيا واقتصاديا كان له اثره في سير احداث العالم نفسها .

وبالطبع فبعض الدول العربية لا تومن بفكرة الجامعة الاسلامية ، بينما تومن معظم الدول الاسلامية بفكرة الجامعة الاسلامية لانها :

1) تتشكل من اغلبية مسلمة .

2) تجد من القوة في التآزر والتعاضد ما لا تجده مجموعة صغيرة كالمجموعة العربية

3) تستند على مبدا قديم جدا واساسي في خلق الجامعة الاسلامية وضمان استقرارها وفعاليتها لامد طويل على الاقل ، وهذا المبدا هو دين الاسلام الذي يجمع المسلمين على صعيد واحد ، مومنين بالله واحد ومستقبلين نفس القبلة ، ومجتمعين على نفس الكتاب السماوي الذي لا يختلف مضمونه جيلا عن جيل ولا زمنا عن زمن كما حدث لكل الاديان الاخرى التي حرفت كتبها او جمعت بعد عهد طويل مر على الانبياء الذين جاءوا بها .

ففكرة الوحدة عميقة في روح الديانة الاسلامية، وهي التي استطاعت ان تجمع شمل عشرات الاقطار الاسلامية خلال فترات التاريخ المذكورة .

ولا ريب ان في تحقيق الوحدة الاسلامية صعوبات يحتج بها المعترضون :

1) ان المسلمين يتكونون من اجناس عديدة ، ولا معنى لخلق عنصرية دينية داخل كل بلد ، وهذه وجهة نظر معقولة .

2) ان الدول الاسلامية تبدا من المغرب الاقصى وتنتهي الى اندونيسيا كما تشكل المجموعات الاسلامية اقليات ضخمة العدد في روسيا والهند والصين ، ولذلك يصعب اتفاق دول المجموعة العربية مثلا .

غير انه يمكن الرد على الاعتراض الاول بان فكرة الجامعة الاسلامية لم تكن ويجب ان لا تكون قط ، لمحاربة اي دين ، وبهذا الصدد نقول ان خلافا دينيا قد ينشب في بلد اسلامي بين اهل ملتين ، اهون من خلاف ينشا في بلد عربي بين مجموعتين تنتميان الى جنسين مختلفين : ففي الاول يبقى الوطن واحدا في معظم الاحيان ، وفي الثاني ينشق الوطن على نفسه في معظم الاحيان .

اما الاعتراض الثاني فيجب ان يكون العربي منصفا ليحكم بان النضج السياسي والتفكير المنطقي لمعظم دول الجامعة الاسلامية ، كفيل بأن يخلق التوازن في صف جامعة توجد بها اقلية من الدول التي ترتبط بالعاطفة طبعا وخلقا .

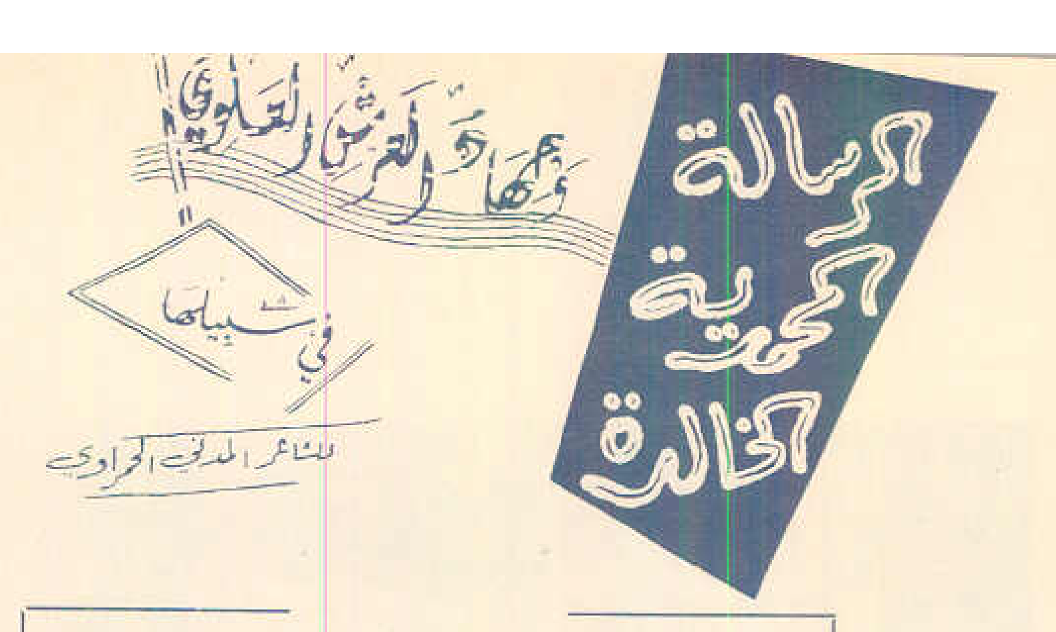
ولحسن الحظ ، فان المغرب كدولة وشعب يومن بفكرة الوحدة الاسلامية ، وان لم يتنكر قط للعروبة التي ناصرها وآمن بها في الداخل والخارج على السواء ، غير ان الاتزان الذي يمتاز به المغاربة، والروح الدينية التي سادت مظاهر حياتهم كلها منذ دخولهم في حظيرة الاسلام تجعلهم بحق اقرب الى الايمان بالجامعة الاسلامية منهم الى أي نوع آخر من الوحدة السياسية .

ومع ذلك ، فنحن جديرون ان نبحث عن نوع ثالث من الوحدة يخلق توازنا بين مجموعتين كلتاهما يمكن ان تلعب دورا مشتركا مع الطرف الآخر ، الا وهو وحدة عربية اسلامية معا : عربية تجمع كل الدول العربية طبق ميثاق جديد ، يخول مجموع الدول العربية حق الدخول في ارتباط اسلامي لا يمس الملل المختلفة في شيء بل يحفظ لها حقوقها في مجموع الدول الاسلامية ، واسلامية لانها ستجمع كل دول الاسلام على صعيد واحد محتفظة باستقلالها العادي ومنسقة جهودها العسكرية والاقتصادية والثقافية وروابطها الخارجية، حتى تضمن احسن انتاج ممكن لشعوبها ، واقوى مستوى عسكري مطلوب للدفاع عن حوزتها مجموعة ومنفردة وانشط حركة فكرية تغزو العالم بتراثها ونشاطها الفكري، ويجب القول بأن الاهواء الشخصية لا يمكن ان تسمح بخلق مثل هذا الترابط ، ولذلك لا غنى عن العودة الى الاصل طالما ان اتحاد خمسمائة مليون يشكل قوة ضخمة قد يكتب لها من النجاح ما لم يكتب لقوة تتالف من مائة مليون لم تستطع وحدة الدم قط أن تفرضهم على العالم خارج الجامعة الاسلامية :

فاس — ابراهيم حركات



اكبر مصحف فى العالم .. قارنه بقامة الرجلين الواقفين الى جانبه



مرفوعة فى هذه المناسبة الباهرة الى سلالة المصطفى وحفيد الخلفاء الحسنيين الصالحين المجاهدين وحامل راية العروبة والاسلام مولانا امير المومنين صاحب الجلالة الحسن الثاني أمده الله بروح منه وحفظه ذخرا للاسلام والمسلمين وأقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي المحبوب الامير سيدي محمد وسائر اخوته والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على نعمته الجلى علينا المتجلية فى هذه الاسرة الشريفة الكريمة الميمونة .

بالنور يشع فى الكون يا لـه … عمر الكون بهجة وجلالـه !
ودهى فى السماء كل ملاك … وكسا الارض من سناه غلالـه
عجبا للحياة ماذا عراها ؟ … هكذا ردد الوجود سؤالـه
حدث حرك الحياة فهبت … من رقاد تود فيه اطالـه
انه الحادث الذى ابهج الكو … ن وافنى ظلامه وضلالـه
انها دورة الزمان استدارت … بعدما طال ليله فى جهالـه
انها ثورة المعاني على الحـ … ـس وقد جر فوقها اثقالـه
انها نفحة الخلود أمدت … كل روح بطاقة سيالـه
انه الحادث الذى بشر الار … ض باسمى نبوءة ورسالـه
اي نور واي يمن وبشرى … وهب الله فى رسول العدالـه !ـ
فتح الله فى السماوات بابا … تم القى على العباد نوالـه
يا لفجر اتى يزف الاماني … ناشرا من سروره اذيالـه
اشرق الموكب الالهي فيه … ينسج النور حوله الف هالـه
ثم نادى جبريل هذا رسول … حقق الله بالهدى ارسالـه
يملأ الارض رحمة وسلاما … ويحب الانام فيه اعتدالـه

ويسوس الحياة بالعدل حتى   تكبر الارض كلها اعماله

رفع الله في العوالم مقدا   ر مقاماته واسنى كماله

واراه الجمال صرفا وسوى   ذاته من طهارة وفعاله

وسقى روحه من الحكمة العلـ   ـيا فاجرى على الصواب مقاله

هو في الارض والسموات محمـ   ـود وفي النشأتين نال الأصاله

وضع الله في رسالته السـ   ـر فكانت لغيرها شماله

هي في الحكم مبدأ ازلي   اظهر الله منتهاه دلاله

من رأى الحق بالبصيرة يدري   انها منبع لكل رساله

ختم الله دورة الرسل الفـ   ـر بها حين بث فيها كماله

فغدت نقطة النهاية والبد   ء تعم الورى بحكم الاداله

وغدا البدء والختام لفرد   جامع لم ينل سواه مناله

احمد المصطفى الذي عرف اللـ   ـه فافنى انفاسه في ابتهاله

هو عبد في كل حال ومحبو   ب له من الاهه ما حلا له

عاش بالجسم في الحياة ، وبالقلـ   ـب الى الله قد ادام ارتحاله

هام بالله فهو فيه غريق   يتملى على الدوام جماله

جاء بالدين فيه كل رشاد   قرن الله بالسلام هلاله

سن للارض سيرة تضمن الحـ   ـق وتضفي على الانام ظلاله

وبنى للاخاء صرحا فارسى   بالمساواة ركنه وأطاله

حرر العقل فانبرى يبدع الآ   يات وقد وسع الكتاب مجاله

ومضى في طريقه مستقلا   بعدما عاقه الجمود وغاله

يا لدين حمى العقول وابدى   من علوم الحياة سرا بدا له

ليس في شرعه عبادة فان   او جماد ؛ ولا فروق السلاله

فجميع الانام فيه سواء   عمم الله فيهمو احواله

جاء بالاوسط اليسير ؛ ولم يحمـ   ـل على الناس ما يجر الملاله

جاء بالعدل والمساواة والاخـ   ـلاق والفضل والهدى والكفاله

يتحرى سعادة ليس فيها   جائع او رفاهة قتاله

يتحرى للارض اصلح حال   فنفى كل منكر وازاله

عصم الجسم بالتدين لما   كان داعي الهوى يحل عقاله

جمع الله فيه كل فلاح   يسعد الناس ان اداموا وصاله

ووعاه « الذكر الحكيم » نظاما   ادهش العقل سره فانحنى له

بالكتاب العظيم هذا اتانا ... سيد الخلق معجزا عداله
اودع الله حكمة فى ثنايا ... ه وابدى حرامه وحلاله
تتوالى مع الزمان وتبدو ... معجزات مما ترأى خلاله
ضمن الله ان يكون مصونا ... وحباه البقاء وصفا فناله
هو للناس رحمة ومنار ... وشفاء لمن يذوق زلاله
ايها المبدعون قانون راي ... اننا لم نجده الا حثاله
ان هذا الكتاب والله اسمى ... من هراء تلفقون رذاله
انصفوا الحق واتركوا ما زعمتم ... حكموا الله صدقوا اقواله
شرع الله للانام نظاما ... من يحد عن هداه يلق نكاله
هو والله عصمة وامان ... ووقاء ، وما عداه ضلاله
هو ذا عالم الحضارة هذا ... قد راينا شقاءه وانحلاله
لم تزده العلوم الا هموما ... حين صار الهوى يدبر حاله
عاث فيه الفجور واللهو حتى ... غاص فى حماة الخنى والرذاله
وتهاوت اخلاقه فتمادى ... فى طريق الخراب يبغي مآله
يعبد الجسم والحديد ويبني ... كل يوم معابدا للآله
هذه الحال افزعت كل حر ... بات يخشى على الزمان اختلاله
ايها الناس ان شكوتم شقاء ... فلتلوموا حضارة محتاله
تضع الشك فى اليقين وتغري ... كل غر بما تجيد افتعاله
وترى فى شريعة الله رايا ... نسج الافك والخداع خياله
زعمت فى مذاهب المال سرا ... « واشتراكية » تبيد البطاله
انها خدعة السراب اذا ما ... جئت تسقي ادنى اليك رماله
انه القشر ليس فيه لباب ... كل ما فيه فتنة وعلاله
كل ما شرعته للخير يأتي ... بشرور ، فالخير فيه ثماله

* * *

ايها الملحدون ! هذا سبيل ... خطه الله للورى ودعا له
هو سر النجاح وحده ، من سا ... ر على نهجه اصاب كماله
ستظلون واقفين حيارى ... ما ركبتم رؤوسكم لا محاله
فاطلبوا الحق ، انه خير ذخر ... انما هذه الحياة عجاله
لا تقولوا ندبر الامر حتى ... ينجز العقل ما نريد مناله
دبر الله كل شيء وامضى ... حكمه كيف شاء فى كل حاله

جربوا شرعة الاله ففيها — بلسم ما درى طبيب مثاله

* * *

ايها المسلمون ! هلا اعدتم — عهد مجد فى الدين حط رحاله

اشرقت بالهدى عصوره حتى — بارك الله حاله ومقاله

وتدلت عليه اغصان يمن — وامان ، وتوجته الجلاله

عطر الارض بالفضيلة والفضـ — ـل وبالعلم والهدى والعداله

هكذا فلتكن حضارة قوم — جعلوها تسلطا وسفاله

ضاعت الروح والحقيقة فيها — فاستحالت ميوعة وغالة

وحمى باطل غشوم حماها — واعدت فى كل ركن حباله

فتن المسلمون فيها فضلوا — ثم ضاعوا ولات حين اقاله

* * *

يا رسول الهدى واخلص داع — مدح الله فى الكتاب خصاله

يا بشيرا اتى باعظم بشرى — اودع الله فى سناها جماله

انت فجرت فى الحياة بحارا — من معان مخلدات الدلاله

انت اعلنت قبل غيرك عهدا — لحقوق الورى بغير استطاله

انت ـ حقا ـ معين كل سمو — عرف الناس عينه او خياله

انت يا برزخ الحقائق اغلى — مهجة فى الوجود فيها اصاله

اظهر الله فيك كل كمال ، — كل فضل على كمالك عاله

انت من روحك العظيمة خلد — ت على الارض ملة مفضاله

ومنحت الانام اصلح دستو — ر ابى الله للبلى ان يناله

كلما طالع العقول سناها — واراها خلوده واشتماله

فتحار العقول فى سره البا — قى وتنحاز ذلة وضلاله

يا رسول الاله بلغت حقا — شرعة الله ما عرتك كلاله

كنت فيها مبلغا واماما — حقق الله وحده آماله

واقمت الاسلام دينا وحكما — وتوليت مخلصا ايصاله

فمضى فى طريقه ينشر النو — ر على الارض طاويا امياله

انت علمت كل حر كريم — كيف يعتاد صبره واحتماله

انت لقنت المسلمين سلوكا — عجز الدهر أن يرى اشكاله

عصم المسلمين فى كل عصر — من صروف الردى وكل استحاله

فجزاك الاله ما انت اهـ — ـل له يا رائد الهدى والنباله

وصلاة عليك تستغرق الدهـ — ـر ويطوي اريجها آجاله
وسلام مع الصلاة يوالي — نشره ، والثناء يسري حياله
وانصر المسلمين في كل صقع — وتدارك من شملهم أرساله

* * *

رب بالمصطفى أعد صولة الديـ — ـن وثبت على سراطه آله
وعلى آلك الذين استقلوا — ذروة الفضل واستجبوا خصاله
واغث يا مغيث بالنصر قوما — جرد البغي في حماهم نصاله
في « فلسطين » قد ابيد فريق — وفريق جلا وشد رحاله
وربى « القدس » باكيات ثكالى — منذ حل القرود تلك الايالة
نجسوا المسجد المقدس بغيا — وبنوا حوله بيوت النذالة
غير ان الجهاد اصبح يفدي — بقعة الطهر من رواد الضلالة
فلتثبت الهنا ولتؤيد — عصبة جاهدت بكل بسالة

* * *

ولتصن دولة الخلافة فينا — لتصون الهدى ودين الرسالة
فلقد جاهدت حديثا وقدما — ورعت ديننا ومدت ظلاله
وبعرش لها قد اعتصم الديـ — ـن وفي حرزه استحب مآله
علوي ؛ ملوكه اولياء — وهداة بنوا منار العدالة
واتى بعد من مضوا خير فرع — حسني من طهر تلك السلالة
حسن ، لم يزل يجرد عزما — ما له في الجهاد اي ملالة
وجد الدين فيه حرزا حريزا — والكتاب العظيم نال اهتباله
فالكتاتيب والمساجد اسوا — ق بها ثمر الهدى أمواله
وبدار الحديث للدين حصن — فيه القى العصا وفرغ باله
ودروس بمجلس تتوالى — يطلع المجد في سماها هلاله
ومساع له تجل عن الحصـ — ـر ولم تدر ما الونى والكلالة
نحن نفديك يا جليل المزايا — ونحييك يا عظيم الجلالة
يا حفيد الرسول يا خير منصـ — ـور رعى الله بالهدى اعماله
يا اماما موفقا حسن اللـ — ـه واسمى نعوته وفعاله
ومليكا قد شرف الملك حتى — اظهر الملك تيهه ودلاله
آية الله فيك لاح سناها — فبهرت العقول منذ الطفالة
انت برزت في جميع المعالي — وقرعت الفدى ورشت نباله

انت في زمرة الائمة فرد نال بالارث والجهاد اكتماله
قد سمعت الانام حين دهاهم منك ما شاق كل فكر وهاله
يتناجون في مداك فقالوا : ان هذا المليك قد فاق آله
انه نكتة الزمان ذكاء انه بحر حكمة لا مدى له
واذا ابصر الانام سناه كبروا الله واستطابوا نواله
وتمنوا ان لا يفارق صبحا ومساء عيونهم كي تناله
ايها العاهل العظيم المفدى لك شعب اجاد فيك ارتجاله
فتغنى بمجدك الفذ حتى اطرب القطر سهله وجباله
وتنادى الى لقائك حتى لم اميز نساءه ورجاله
انما تلك ابحر الخلق هاجت ثم ماجت على بسيط الجداله
ودوي الهتاف رعد تولى عاصف الزغردات بعد سجاله
كيف لا يحتفي بخير امام فرض الله بالهدى اجلاله
طاعة الله ان يطاع امام وصل الله بالعباد حباله
ما لمن عقه فلاح ولكن يظهر الله قبحه وخباله
ان هذا الهمام والله فرد اكبر الدهر سعيه ونضاله
انه رائد السيادة حقا له في حومة الكفاح صياله
صافحت راية الكفاح بصدق وحماس يمينه وشماله
سن في ساحة الفداء سبيلا راع من يدعي الفداء وهاله
يوم قال المليك هذا المفدى لابيه العظيم خير مقاله :
يا ابي هذه يدي وعهودي اطلب العز لا اخاف اقاله
نحن للشعب منذ كنا حماة سوف يبدي ولاءه ونزاله
هذه فرصة له قد وعاها سوف يسعى فيدرك استقلاله
لا تلن للعدو ان جاء يملي امره او اتى بدس ختاله
عرشنا للعلاء كان وما زا ل ، وللدين كان خير وكاله
هو للشعب مبدأ قدسي ليس يرضى من غاصب اذلاله
ليس للشعب في سوانا رجاء فلتحسن ظنونه واتكاله
يا ابي قم بنا الى الجد ، انا قد سئمنا من العدو احتلاله
اننا اسرة من الشعب تلقى ـ مثله ـ كل شدة وأماله
نحن نفديه من مصير مهين حسبنا الله ان عرتنا احاله
انني في ركابك ـ الدهر ـ امشي انما سرت لا اهاب مقاله

ان حرمنا من المقام فاننا ... سوف نحيي لعزنا ءاماله
سوف نبني لعرشنا خير مجد ... لم يخلد متوج امثاله
ثم كان الذى توقعه الشبـ ... ـل وفاقا لما رآه وقاله
بارك الله همة الحسن الثا ... ني فكانت لخير فتح اناله
فهو السابق الوحيد الى ما ... احرز الشعب من علاء وناله
عزمه فى الكفاح عزم ابيه ... اوقدا ناره وذاقا نصاله
فهما جابها بعزم عدوا ... وهما انكرا وعافا محاله
وهما قررا لشعب مصيرا ... وهما حطما معا اغلاله
وهما ضحيا بعرش وعيش ... ناعم لا تطاق عنه انتقاله
وهما ابعدا الى ابعد القفـ ... ـر الى كل مكره وملاله
وهما ابديا ثباتا وصبرا ... وهما اظهرا اتم البساله
وهما ابدعا مواقف عز ... بهرت كل امة وابالة
وهما ايقظا شعوبا فهبت ... تتحدى العدو تذكي قتاله
وهما فى الفداء فاتا حدودا ... ادركا فضله ونالا كماله
وهما صمما على نيل عز ... فاتى مدعنا والفى مطاله
وهما فى الهدى اماما صلاح ... وهما فى الحمى مليكا عداله
فتحا فى النضال فتحا جديدا ... خلدا فى الجهاد اعطر قاله
هكذا تحرز المعالي انتزاعا ... هكذا ينتقي الفخار رجاله
هكذا يقدم الكماة اذا ما ... ادبر النكس واطنا اذياله

❊ ❊ ❊

عرشنا قبلة الشعوب اذا ما ... حدثت عنه اكبرت اقباله
عرشنا شامخ صمود عريق ... له كالشمس رفعة مختاله
عرشنا فكرة ودين وشورى ... نعن الحق ما راينا انخذاله
عرشنا معقل العروبة ما زا ... ل عليها مربيا اجياله
عرشنا فى العروش حر يصافي ... كل حر الى الاخاء استماله
عرشنا تاريخ يعطره المجـ ... ـد ويغلى فى سوقه مثقاله
نحن شعب لنا كيان ومجد ... قد حرسناه لا نبيح ابتذاله
ولنا فى العلى تراث اصيل ... لم يكن مقرفا ولا كان عاله
نحن شعب عقوله نيرات ... لم تخامر غباوة عقاله
لا نرى ان نكون ذيلا لزيد ... او لعمر ، ولا نحب الفضاله

عزنا في الزمان عز اصيل … قد صنعناه ما عرفنا انتحاله
نحن شعب قد فجر العز في الار … ض واجرى معينه واساله
ونشرنا على البسيطة نورا … لم يزل فخره يباري الغزاله
وبدين الهدى الحنيف اخذنا … والتزمنا سراطه وامثاله
والتصرنا بسره وبلغنا … كل قصد ، فلا نرى اهماله
هو والله اصل كل فلاح … والى العز كان اصلح آله
عصم المغرب القديم واولى … مغرب اليوم – بعده استقلاله
هو كان السلاح في يد شعب … تتحداه قوة مغتاله
فانجلى الكرب عن ضعيف قوي … وقوي قد صار يشكو هزاله
ثبت الدين امة ومليكا … في صراع ، من كان يدري مآله ؟
فأزالا به عدوا قويا … كالبعيد المحال تلك الازاله

* * *

بطل الامة المفدى تقبل … من قريضي ثناءه واحتفاله
وتقبل تهانئا من فؤادي … يوم ذكرى انتصار هذي الرساله
انت حامي ذمارها بيقين … وبعزم ينيلها اقباله
عود الله عرشك الفوز حتى … حقق الله في العلى آماله
يا حفيد الرسول ! بشرى لشعب … انت ترعى بحكمة احواله
انت اغلى من كل غال واسنى … من عرفنا في المكرمات خلاله
انت اعلى المتوجين اذا ما … فاضل المرء بينهم بالجزاله
انت احرزت في يسير علاء … ثم اوثقت بالصمود عقاله
قد سلكت البلاد في خير نهج … قرر الشعب بالرضى استقباله
واقمت النظام حرا متينا … حسم الشر كله وازاله
بك والله قد رحمنا فلولا … ك بتنا بآفة اكاله
لك فضل على البلاد عظيم … امره يدهش العقول دلاله
عجز الشعر ان يوفيك المد … ح ولكنه ابى اغفاله
انما المدح ما صنعت لشعب … قد توليت في العلى احلاله
فلتعش للبلاد حصنا منيعا … وزعيما يقودها ببساله
وليعش طلعة السنا والاماني … ولي العهد بالغنا اقباله
انه الفرقد المنير المرجى … حرس الله عمره واطاله
انه سرك النفيس الذي سمـ … ـيته اشرف الاسامي مثاله

فليعش للعلى محمد الشبـ ـل الذى حسن المهيمن فاله

انه بضعة من الحسن الثا ني سيسمو سموه لا محاله

انه نعمة بها انعم اللـ ـه علينا مضاعفا افضاله

انه فرع دوحة وهب اللـ ـه لنا فى ظلالها انفاله

دوحة المصطفى التى يدفع اللـ ـه بها عن عباده اهواله

دوحة الطهر والكرامة واليمـ ـن فطوبى لمن حباها وصاله

انت منها فانت حقا امام فرض الله حبه وامتثاله

فلك النصر والمنى والتهاني ولك المجد حلية وحماله

ولك اللطف والوقاية جند من اله يقيك فى كل حاله

الرباط ــ المدني الحمراوي





للأستاذ الراجي التهامي الهاشمي

لا كهانة بعد النبوة :

هذه هي الحقيقة التي كان على المسلمين الاولين ، وعلى راسهم الرسول الاكرم ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ان يصدع بها . ليظهر الحق ويزهق الباطل . ليميز الناس الصادق الامين ، الذي لا ينطق عن الهوى من الزائف الذي يفتري على الله الكذب . وضروري قبل التعرض لذلك من توضيح الكهانة وما حام حولها قبل البعثة النبوية الشريفة وبعدها .

ولابد قبل الشروع في كل ذلك من التعرف على كلمة الكهانة . وسيطول بنا البحث ان اردنا ان نعثر على تعريف شاف لهذه الكلمة في الكتب العربية المصنفة في العصور الاولى . لكن التاثير الهيليني في الفكر العربي جعل العرب يميلون الى التدقيق في الامور التي كانوا يمرون عليها مر الكرام وشرعوا يهتمون بتفريع العلوم وتصنيفها .

وعندي ان اول من تعرض لدراسة الكهانة هو المسعودي وتبعه في ذلك ابن خلدون والقزويني وابن سينا والغزالي وابن رشد وميمون القرطبي وتوج كل ذلك العلامة حاجي خليفة .

واعتقد ان من أجاد تفريع علم الكهانة عند العرب هو حاجي خليفة (1) جزاه الى ثلاثة اجزاء ثم قسم كل جزء الى فروع على الشكل الآتي (2) :

1 ـ **الفراسة** : وقد فرعها الى :

ا ـ علم الشامات والخلان
ب ـ علم الاسارير
ج ـ علم الاكتاف
د ـ علم عيافة الاثر
هـ ـ علم قيافة البشر
و ـ علم الاهتداء في البراري والقفار
ز ـ علم الريافة
ح ـ علم استنباط المعادن
ط ـ علم نزول الغيث
ي ـ علم العرافة
ك ـ علم الاختلاج

2 ـ **السحر** : وقد فرعها الى :

ا ـ علم الكهانة
ب ـ علم النرنجيات
ج ـ علم الخواص
د ـ علم الرقى
هـ ـ علم العزائم
و ـ علم الاستحضار
ز ـ علم دعوة الكواكب
ح ـ علم الفلقطرات
ط ـ علم الخفاء

---

(1) كشف الظنون الجزء الاول ابتداء من صفحة 34

(2) جمع هذا التصنيف الاستاذ توفيق فهد في كتابه :
« La Divination Arabe » : Etudes religieuses, sociologiques et folkloriques sur le milieu natif de l'Islam.
وهو المرجع الرئيسي في هذا البحث وقد اعتمدته كثيرا لاشتماله على موضوعنا برمته

ي ـ علم الحيل السسانية
ك ـ علم كشف الدك
ل ـ علم الشعبدة
م ـ علم تعلق القلب
ن ـ علم الاستعانة بخواص الادوية

3 ـ **الفلك** : وهو يتفرع الى :

ا ـ علم الاختيارات
ب ـ علم الرمل
ج ـ علم الفال
د ـ علم القرعة
هـ ـ علم الطيرة

ويصعب ، مع ذلك ، ان تضع حدا فاصلا بين الاجزاء الثلاثة اعلاه لانها كلها من اصل واحد ما دامت جميعها تدعى انها تناسب الارواح البشرية مع الارواح المجردة .

ولهذا فقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم صعوبة عظيمة فى اقناع قومه انه ليس بكاهن. وقد اخبرهم الحق سبحانه وتعالى انه رسول كريم ، وانه ليس بشاعر ولا كاهن قال لهم (3) : « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » وكقوله (4) ايضا : « انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم امين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم » .

ولقد اتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قبل اعتناقه الاسلام ، محمدا صلى الله عليه وسلم بانه كاهن وبانه شاعر .

اخبرنا ابن سعد ان النبي عليه الصلاة والسلام قال ذات يوم لخديجة ما مؤداه (5) : « لا اكره شيئا اكثر من كرهي للاصنام والكهان ، ولكني اخاف ان اكون كاهنا » مما يدل على ان وظيفة الكاهن كانت غير معروفة المعالم بالضبط ، ولهذا لم يفتا الحق سبحانه وتعالى يذكر نبيه بذلك ، طالبا منه ان « يثبت على تذكير الناس وموعظتهم والا يتنبه عن ذلك قولهم بانه كاهن او مجنون (6) » ويزيد صاحب الكشاف مبينا الفرق الموجود بين الكاهن والنبي وبين المجنون والرسول فيقول : « لان الكاهن يحتاج فى كهانته الى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله ، وما انت بحمد الله وانعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل احد هذين » . اقول مافتيء سبحانه وتعالى يذكر نبيه قائلا له (7) : « فذكر فما انت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ، ام تامرهم احلامهم بهذا ام هم قوم طاغون ، ام يقولون تقوله ، بل لا يومنون ، فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » .

ما ابلغ هذه الايات لدحض اقوال المشركين الذين يتهمون الرسول بانه كاهن او مجنون ، ولقد اختار للرد عليهم كلمات حملت معان سامية يكفي تفسيرها توضيحا للامر .

فالحلم الذى يامر المشركين غير الرؤيا التى يراها رسول الله (صلع) وهي مرتبة من مراتب الوحي السبع التى كانت لمحمد بن عبد الله والتي تحدثنا عنها عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها . جاء فى صحيح البخاري عن عائشة ام المؤمنين انها قالت : « اول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . هذا وان لفظة الحلم الموجودة فى سائر اللغات السامية (8) لتدل على الرشد المادي وان الاعضاء التناسلية بلغت اقصى نضجها (9) وان الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان (10)» عند الامم البخاري، وان كان اللغويون

---

(3) سورة الحاقة الايات : 40 ـ 43
(4) سورة التكوير الايات : 16 ـ 24
(5) ابن سعد ، كتاب الطبقات الجزء الاول صفحة 129
(6) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للعلامة الزمخشري الجزء الرابع ص 35 ، طبعة مصرية 1354
(7) سورة الطور الايات : 29 ـ 34
(8) Oppenheim صفحة 225
(9) توفيق فهد « La Divination Arabe » صفحة 270
(10) البخاري عند تحدثه عن الخلق وعن الرؤيا

يرون ان اللفظتين مترادفتان (11) كما ذكر ذلك صاحب تاج العروس حين قال (12) : « الحلم الرؤيا .. فهما مترادفتان وعليه مشى اكثر اهل اللغة وفرق بينهما الشارع فخص الرؤيا بالخير وخص الحلم بضده » .

وجدير بالذكر ان نشير هنا الى ان لفظة كاهن كلمة مشتركة بين اللهجات الكنعانية والارامية والعربية نظرا لان الالفاظ الدينية كانت تنتقل من لهجة الى اخرى داخل اللغات السامية دون تغيير كبير (13) وان العرب قد تبنوا ، في رحلاتهم الكثيرة عددا لا يستهان به من الالفاظ والطقوس الدينية (14) ومن بينها لفظة كاهن .

وكان هؤلاء الكهان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يصولون ويجولون ويظلمون الناس ، لان الرئاسة كانت في ايديهم « لصحة رايهم » (15) ولا ادل على ذلك من شهادة ابن حاتم السجستاني الذي يقول في زهير بن جناب الكلبي (16) « كان سيدا مطاعا شريفا في قومه ، ويقال كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من اهل زمانه : كان سيد قومه، وخطيبهم، وشاعرهم، واوفدهم الى الملوك، وطبيبهم، والطب في ذلك الزمن شرف ، وحازي قومه ، والحزاة الكهان ، وكان فارس قومه وله البيت والعدد منهم .

بل كانت هذه الرئاسة تنتقل من الاب الى الابن الذي يصير بطبيعة الحال كاهنا مثل آبائه واجداده . روى ابو الفرج الاصبهاني قال (17) : « كان كاهنا (18) .. ولم يزل ذلك في ولده ، ومنهم الرباب بن البراء كان يتكهن ثم طلب خلاف الجاهلية، فصار على دين المسيح .

وكان الكهان ، كما لا يخفى يعتمدون على اصنام متعددة لنصرة كلمتهم واعلاء شانهم . يحدثنا الطبري فيقول : « فكان جذيمة (19) تنبأ وتكهن واتخذ صنمين يقال لهما الضيزنان . قال ومكان الضيزنان بالحيرة معروف . وكان يستسقي بها ويستنصر بهما على العدو » .

قلت كان الكهان قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يصولون ويجولون ويظلمون الناس لما أوتوا من قوة لصحة رايهم، فلما ارسل الله نبيه بالهدى ودين الحق سكتت اصوات الكهنة وابطل الله ترهاتهم وانكب من اخذ الله بيده منهم يحطم اصنامه ليعتنق دين الاسلام . كما فعل عمرو بن مرة الجهيني حين بلغه نبأ ظهور آخر الانبياء صلوات الله وسلامه عليه . يحدثنا ابن سعد فيقول : « قال عمرو بن مرة الجهيني كان لنا صنم وكنا نعظمه وكنت سادنه فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى اقدم المدينة على النبي فاسلمت . »

ولابد ان يبطل الله اعمالهم ، ومن بين اعمالهم التي لا يمكن قبولها عقلا ونقلا علمهم الغيب ، واطلاعهم على اسرار الناس . قال زكريا بن محمد القزويني (20) : « ونفوس اصحاب العرافة تستدل ببعض الحوادث على البعض بمناسبة بينهما او بمشابهة خفية » ومعلوم ان العراف يعد كاهنا ايضا . والحجة على ذلك ما جاء في امهات اللغة العربية ومنها لسان العرب الذي جاء فيه (21) : « ويقال

---

(11) وهذا يتفق وما نلاحظه في سائر اللغات السامية (لا في اللغة العربية فقط) من كون مادة حلم تدل على ما تدل عليه مادة رأى . انظر تفصيل ذلك عند توفيق فهد صفحة 271 من المرجع المذكور سابقا .

(12) الزبيدي : تاج العروس الجزء الثامن صفحة 355 طبعة القاهرة 1286

(13) Wellhaussen في مؤلفه « البقايا » صفحة 141 من الطبعة الثانية

(14) Noldeke وتوفيق فهد الاول صفحة 36 والثاني 92

(15) كما يصف صاحب الاغاني (الجزء الرابع صفحة99) الكاهن زهير ابن جناب الكلبي .

(16) كتاب المعمرين الجزء الثاني صفحة 25 من طبعة Goldziher

(17) الاغاني الجزء 15 صفحة 76

(18) المقصود هنا هو عمر بن الجعيد .

(19) اول ملك قضاعي

(20) عجائب المخلوقات وآثار البلاد صفحة 451

(21) لسان العرب لابن منظور الجزء الحادي عشر صفحة 142

الحازي عراف والقشاقن عراف لمعرفة كل منهم بعمله والعراف الكاهن » وكما جاء ايضا في الصحاح قال صاحبه فيه (22) : « والعراف الكاهن والطبيب قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامـة داوني
فانـك ان ابراتنـي لطبيـب

ولقد حاول الكهان ومن لف لفهم الصمود امام الدين الجديد بكل ما اوتوا من قوة .

وبما ان المعجزة الاولى التى اتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذا القرآن المبين . وبما ان اخبار الكهان واقاويلهم كانت فى معظمهـا سجعـا لاعتقادهم ان هذا النوع من الكلام يؤثر في النـاس تاثيرا بليغا ، فقد اعتمدوه في تنبؤاتهـم واوامرهـم وطقوسهم الى درجة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سجع الكهان قائلا : « اياكم وسجـع الكهان (23) » كسجع سطيح الموجود عند ابن هشـام والذى يقول فيه : « والشفق والغسق والفلق » وهذا شبيه بما جاء في القرءان الكريم (24) . وكالسجع الذى رواه لنا الطبري والذى فاه به مسيلمة في شان الحوار الذى وقع بين الذئب والضفدع . قال مسيلمة « الليل الاطحم والذئب الادم والجذع الازلم » ثـم قال في مكان آخر « يا ضفدع ابنة ضفـدع نقـي ما تنقين اعلاك في الماء واسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين » .

ويرى العلامة السيد توفيق فهد ان اقدم تنبؤ مسجوع وصلنا هو تنبؤ عمرو بن لحي (25) الذى رواه ابن الكلبي وقد جاء فيه (26) : « عجـل بالمسيـر والظعن من تهامة بالسعد والسلامة قال : جيـر ولا اقامة . قال : ايت ضف جده تجد فيها اصناما معدة ، فاوردها تهامة ولا تهاب ، ثم ادع العرب الى عبادتها تجـاب » .

ويظهر ان التنبؤ الذى تنبات به الكاهنة في شان وفاة الزباء يعد هو ايضا من اقدم ما خلفه لنا التاريخ فيما يخص ترهات الكهان . جاء عند الطبري قولـه : « ارى هلاكك بسبب غلام امين وهو عمرو ابن عدي ولن تموتي بيده ولكن حتفك بيدك ومن قبله ما يكون ذلـك » .

اكادير ـ الراجي التهامي الهاشمي

---

(22) اسماعيل بن حماد الجوهري في الصحاح الجزء الرابع صفحة 1402 من المصرية 1956 .

(23) اقر انني لا اعرف مدى صحة الحديث الموجود في تاج العروس صفحة 370 والذى علق عليه الازهري بقوله : « انما كره السجـع في الكلام والدعاء لمشاكلة كلام الكهنة وسجعهـم فيمـا يتكهنـون »

(24) سورة العصر الآية 1 والطور الآية 2 والتيـن الآية 1 وغيرها كثير .

(25) « La Divination Arabe » : Etudes religieuses, sociologiques et folkloriques sur le milieu natif de l'Islam. صفحة 162

(26) كتاب الاصنام طبعة القاهرة 1914 صفحة 33



هذا كتاب الفه شيخ الحديث والتصوف والتاريخ فى المغرب الاستاذ الامام محمد ابن جعفر الكتاني قبيل وفاته بسنين معدودة بعد ان تبحر فى علمي الحديث والتصوف ، واصبح علما فى المشرق والمغرب فيهما ، وغدا حجة الباحثين والعلماء وكعبة يحج اليها المسلمون من كل صوب ، ومرجعا ثبتا لكل الموافقين له والمخالفين على حد سواء .

ولا ازعم انى مستطيع تقديمه للقراء الكرام على الصورة التى قدمها هو لهم فى كتابه ، اذ انه بالطريقة التى جلاها لهم باسلوبه وبجمعه لاطراف الموضوع الذى الف له كتابه يعتبر موسوعة وحيدة بشواهدها وادلتها واعلامها وطرائفها لم يسبق اليه من قبل .

وما من شك فى ان كثيرا ممن لا يذهب مذهب هذا الامام سوف يقف من موضوع هذا الكتاب موقفا سلبيا ، او يقف منه موقفا فيه كثير من التساؤل او الاعتراض ، ولكن الموافقين والمخالفين جميعا لن يملكوا انفسهم اعجابا وزهدا بطريقته واسلوبه ومنهجه ، وبسعة اطلاعه ومعارفه الكثيرة وما اشتمل عليه كتابه هذا من نصوص فريدة وغريبة ونادرة حققها وغربلها وابطل الزيف عنها او اسقطها من الاعتبار العلمي والحجة العلمية .

وكان هو رحمه الله معجبا بكتابه هذا شديد الاعتداد به كثير المدح له على تواضعه المعروف وبعده ممن يمدحه ويطريه ومات وهو لا يذكر شيئا من مؤلفاته الكثيرة حتى ولا «سلوة الانفاس» على انه تراث علمي يبقى على الدهر الا كتابه هذا « العلم المحمدي » وكان اذا وفد عليه وافد من الهند او من مصر او من الحجاز او اليمن او اي بلد آخر اسلامي وآنس منه ميله الى الآخرة وحبه للعلم دعا بكتابه هذا من مكتبته الكبيرة واخذ فى تصفح بعض اوراقه ثم املى عليه منه الى ان يحس بارتواء ضيفه من معين كتابه فيمسك دون ان يعرج على شيء من كتبه الاخرى وقد تجاوزت السبعين عدا .

ومرض وهو فى المدينة المنورة صلى الله على ساكنها وسلم بحمى التيفوس وكان ما يزال لم يفرغ من تأليفه وتناسق الجمع بين فصوله فربما غاب عن وعيه من شدة الحمى فاذا عاد الى حسه كان دعاؤه فى اول ما يدعو ربه ان يمسك عليه بقية حياته حتى يتم هذا الكتاب .

واستجاب الله له فاتمه فى دمشق فى مجلدين ضخمين بخط يمينه الدقيق وعاد الى المغرب بعد ذلك ومعه كتابه هذا يحوطه ويرعاه الى ان اجاب داعي الله فى اليوم الخامس عشر من رمضان من عام 1345 بفاس وصدره بكلمة رقيقة متعثرة مستحيية اهداه بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم افتتحه بالمقدمة التى نوجز عرض بعض ما جاء فيها على القراء الكرام اذ انه اودعها موضوع كتابه كله :

« حمدا لمن اوجد آدم الخليقة صلى الله عليه وسلم من نور ذاته العلية وسواه وابرزه على صورته البهية وحلى صفاته حلاه ، وسماه باسمائه السمية وقدمه في الخلق والشرف والجاه على كل مخلوق تقديما خلق الانسان (اي محمدا صلى الله عليه وسلم) علم البيان واظهره بالاسماء العالية والبرهان وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما وامد به المكونات وجميع العالم واناله به خيرا كبيرا وفضلا جسيما ، وتجلى له كل شيء فعرفه بالتشخيص والتعيين وما قبضه الله اليه حتى اطلعه على كل ما اخفاه منه منة عليه وتكريما فوض اليه امر خليقته وصرفه فيها بمجاز الامر وحقيقته وحكمه في جميعها مما الهمه اياه تحكيما اللهم صل وسلم عليه وعلى نوره الاحمدي الذى فاض منه الوجود على كل موجود واستمد وصار شيئا بعد ان كان عديما

اما بعد فانه جرت المشيئة الالهية الازلية بايجاد الانسان الكامل اولا وبالذات من الذات الاحدية وجعله اصلا ومنبعا لجميع العوالم الخلقية ومادة ممدة لكل ذرة من ذرات البرية فكان منه الامر والخلق وكل جمع وفرق ومنه المبدا واليه المنتهى والمفاض عليه سر الذات والمحلى بحلى الصفات والمسمى بالاسماء العلية والمخلوق على الصورة الجليلة البهية والمعنى دون غيره حقيقة بالخطاب والمنزل عليه اصالة كل ما انزل من كتاب فهو رسول الرسل ونبي الانبياء والمبعوث الى كل من تقدم او تاخر من الامم ادار الله به رحى مخلوقاته وجعله قطب فلك جميع مصنوعاته فكان لهذا العالم الكوني القطب الاصلي والاب الحقيقي لكل موجود منه فرعي او اصلي والكل في قبضته وتحت ولايته المتدة والسارية ولما كان هذا كالامر الضروري المعلوم لدى الكثير من ارباب القلوب ومن حذاهم من جلة اهل الرسوم وكان قد وقع بين جماعة من اهل الظاهر نزاع في احاطة العلم النبوي الباهر بالمكونات التى هي منه واليه ومعولها بدءا ووسطا وانتهاء عليه وفى ان له عليه الصلاة والسلام من ربه تعالى التفويض في مملكته والتحكيم فيما يرجع لدوائر سلطته اخذتني الغيرة وازاحت عني من هذا الامر داء الحيرة فكتبت هذه الرسالة الكفيلة ببيان ما في المسالتين من النصوص الحفيلة حتى يتبين لكل ذي بصيرة وبصر انه الجناب الذى ما مثله خلق ولا بشر وانه المخلوق الذى احاط علمه بالمخلوقات وعلم كل ما مضى وما حضر وما هو آت وانه الوكيل المطلق المفوض اليه والمجهول امر المملكة الربانية كلها بيديه .

ورتبت هذه الرسالة على مقدمة ومقصدين وخاتمة ، اما المقدمة ففي بيان جملة العلوم وانها بالاعتبار ثلاثة واما المقصد الاول ففى بيان احاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية وبيان ان لها من علوم الذات الالهية والصفات ما ليس عند غيرها من جميع المخلوقات ، فاما المقصد الثاني ففى بيان انه عيله الصلاة والسلام خليفة الله الاكبر وصدر المملكة الربانية الاظهر المصرف فيها بالحل والربط والتقييد والاطلاق شخصا ونوعا وبطريق العموم والاستغراق، واما الخاتمة ففى بيان ان العوالم كلها مستمدة منه وواقفة لديه وانه لا وصول الى الله تعالى الا من بابه ولا معول للخليقة في الدنيا والآخرة الا عليه وقد اعتمدت فيها على النصوص الشرعية والاقاويل الصحيحة وعلى كلام اهل العرفان الذين هم ابصر واعرف بهذا الشان .

وابتدا الشيخ رحمه الله بالشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي بوصفه الناطق باسم القوم فترجمه ترجمة وافية مستفيضة وبين صلة هذا العلم به وارتباط الشيخ به ثم لما انتهى من ترجمته الواسعة قسم العلوم الى ثلاثة انواع :

علم الشريعة الظاهرة، وهو قسمان : علم الحلال والحرام والامر والنهي والوعد والوعيد ونحوهما ، والثاني : علم كيفية الرجوع الى الله تعالى والى طريقه ومعرفة الآفات الطارئة على سائر هذا الطريق من دسائس النفوس وغوائلها وشهواتها وانحرافاتها وما يستبدل به محمودها بمذمومها والوصول الى مقاماتها من التوبة والزهد والمحاسبة والمراقبة والتوكل والرضى والتسليم والخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة وغير ذلك مما له تعلق وارتباط بالسير النفساني والروحاني المتعلق بالقلوب وهذا هو علم الظاهر المنقول الذي هو علم الحكمة والعبودية ويسمى ايضا بعلم الكتب والاوراق ومنه العلم الثاني وهو المسمى عند القوم بعلم الطريقة الذى هو العلم المتعلق بكيفية تعديل الهيئات النفسانية والروحانية وهو وان كان متعلقا بالقلوب والقلوب باطنة لكنه يؤدي بالعبارة والعبارة تظهره وتوضحه فصار من قبيل علم الظاهر وهو تصوف اهل الظاهر وقد احتوت عليه كتب كثيرة قديمة كالرسالة القشيرية والقوت والاحياء وبمادته يحصل السلوك في طريق القوم لتصحيحها للعبيد وبيانها الطريق التى قد تكون سببا في قطعه وهو ايضا باطن علم الشريعة المتعلق بالاعمال البدنية ولبه علم الشريعة

المذكور ظاهره وقشره لانه الذي يصونه ، كما ان علم الطريقة قشر لعلم الحقيقة لانه هو الذي يصونهـــا فان من رام الوصول الى علم الحقيقة ولم يغرف من علم الطريقة فسد حاله فصارت حقيقته زندقة وكذا صاحب الطريقة اذا لم يوف الشريعة حقهـا فسـد حاله وصارت طريقته هوسا ووسوسة .

العلم الثاني من انواع العلوم الثلاثة : علم الحقيقة الباطنة الذي هو علم التوحيـد الخـاص واسرار الشريعة وحكمها وما ينشأ مـن العمـل بها مـن الكشوفات والاذواق والمعارف والاسرار ونحو ذلك وهو علم الباطن الموهوب الذي هـو علـم القـدرة والربوبية ويسمى ايضا بعلم الاذواق وهو علم وهبي ذوقي لا ينال بتعلم وانما يهبه الله لمن يشـاء مـن خلقه ولا يؤديه من وصل اليه بالعبارة وانما يرمز له بالاشارة وهو تصوف اهل الباطن .

ومثال علم الظاهر معه كجسم فيه روح كامـن فالجسد لا يقوم بغير روح والروح لا تظهر من غير جسـد ، واذ خلا الجسـد من الروح كان ميتا ولا عبرة به ولذلك كانت الشريعة بدون الحقيقة باطلـة واذا خلت الروح من الجسـد بطنت ولم يظهر لها وجـود ولذا كانت الحقيقة بدون شريعة باطلة ولذلـك قال مالك الامام: من تصوف ولم يتفق فقد تزندق أي لان حقيقته تصير عارية بدون كسوة فيقتل عليها فان كان هفا وغلبه السكر كان شهيدا وان كان مدعيا مبطلا كان بعيدا وعن الحضرة طريدا ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق أي لان اعماله اشباح بلا ارواح ، ومـن جمع بينهما فقد تحقق ، والعالم بهذا العلم الثاني هو المسمى عارفا ومن لم يصل اليه وكان من اهل العلم الاول سمي عالما ، والفرق بينهما ان العالم دون مـا يقـــول والعارف فوق ما يقول ، والعـالم يصـف الطريق بالنعت والعارف يصفها بالعين لانه ســار معها وسر منها ، والعالم يتكلـم من وراء حجـاب والعارف يتكلم من داخل الحجاب ، والعالم يدلك على العمل والعارف يخرجك عن شهود العمل ، والعالم يعرفك باحكام الله والعـارف يعرفك بـذات اللـه ومن لم يسعده الله تعالى بملاقـاة عـارف فهو فى مساويء نفسه وبحياته تالف ولذلك قال ابو الحسن الشاذلي : من لم يتغلغل فى علمنا هذا يعني علـم القلوب مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعـر ، وقال ابو علي الثقفي : لو ان رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لم يبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضـة من شيخ او امام او مؤدب ناصح ، ولذلك قال صاحب نظر بداية السلوك :

ان لم تلاق عارفا فى مدتك لا عاش عمر عيشة كعيشتك ومن هنا كان الصحيح المختار عند العلماء ان العارفين بالله افضل بكثير واعلا من العلمـــاء باحكام الله ولهذا قال عز الدين بن عبـد الســلام وابن دقيق العيد بعد ان ذكر بعض الاوليـاء ممـن رآه هو عندي خير من مائة فقيه ، ولهذين العالمين يشيد ابو القاسم الجنيد بقوله العلم علمـان : علـم العبودية وعلم الربوبية والبواقي هوس النفس .

الثالث من العلوم : علم الغيب وهو كل ما غاب عن الخلق ولم تنصب عليه علامة ولا دليل ولم تمكن معرفته الا باعلام الله وهو الغيب الحقيقـي وهـو المشار اليه بقوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » فالاول وهو علم الشريعة للخاص والعام والثاني وهو علم الحقيقة لخواص الاولياء والصالحين والثالث وهو علم الغيب للانبياء والمرسلين ومن كان على قدمهم وهم متفاوتون فى هذه العلوم بحسب اذواقهم ومشاربهم وقابليتهم واستعدادهم وربما اختص بعضهم بشيء منها دون الآخر كما اختص رسول الله صلى الله عليه وسلـم باشياء منها لا تليق الا به وبكونه المدد بهـا كلهـا والقاسم لاعطياتها والمانح لكل ذي قسـط قسطه ، وبتعبير آخر فالعلوم ثلاثة : ضروري وهو ما يدركه العقل بالبداهـة اي بمجرد الالتفات اليه من غيـر احتياج الى تامل ولا الى اعمال فكر ولا الى استدلال، ونظري او تقول كسبي وهو ما يحتـاج العقـل فـى ادراكه الى تعلم واكتساب ونظر واستدلال وهو المشار اليه بحديث انما العلم بالتعلم اخرجه ابن ابي حاتـم والطبراني من حديث معاوية قال الحافظ فى الفتح واسناده حسن وعلم وهبي وهو ما يهيج على القلب وينقبض على الصدر لا بالدراسة والتعلم ولا بالنظـر فى الكتب بل بالاستقامة على قدم المصطفى والتخلق باخلاقه الكريمة وحسـن الاقتفاء والزهد فى الدنيـا والتبريء من علائقها وتفريغ القلب عـن شواغلـهـا والاقبال بكنه الهمة على الله ، واليه الاشارة بقول الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وقوله : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقوله : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » اي هدايـة فى قلوبكـم تفرقون بها بين الحق والباطل وتخرجـون بهـا مـن الشبهات وقوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجـا ويرزقه من حيث لا يحتسب » قيل فى تأويله يجعـل

له مخرجا من الاشكالات ويعلمه علما من غير تعلم وقوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » ومن احبه الله فتح له الباب وادخله حضرة الاقتراب وكشف له الحجاب واجلسه مع الاحباب فراى الغيب شهادة وصار له من الله الكشف عادة وافيضت على قلبه مياه الحقائق وانكشفت له البراقع عن وجوه الدقائق وعلمه الله من لدنه علما وعرفه بنفسه وادرك السر الاسمى .

وسرد الشيخ رحمه الله على سبيل المثال بعض اعلام الصحابة الذين خصهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض هذا العلم فذكر ابا بكر وعمر وعثمان وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن عباس وابا هريرة ونقل عن علي قوله :

ان بين جنبي علما لو قلته لخضبتم هذه من هذه وانشد له :

اني لأعلم علما لو ابوح به
لقيل لي انت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي
يرون اقبح ما ياتونه حسنا

قال الشيخ رحمه الله وقد نسب البيتين لزين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب غير واحد من المؤرخين والشائع نسبتهما اليه لا الى علي رضي الله عنهم

قال الغزالي : والمراد بهذا العلم الذي يستحلون به دمه هو العلم اللدني الذي هو علم الاسرار .

وقد تواترت الاخبار واتفقت معانيها على اطلاعه عليه السلام على الغيب واجمع العلماء على انه اوتي من علم المغيبات ما لم يؤته غيره . وذكر ارباب القلوب ان علمه صلى الله عليه وسلم اتسع اتساعا عظيما خارقا للعادة خارجا عن دائرة العقول وان الله تعالى اطلعه على كل ذرة من ذرات العالم الكوني وعلى حقيقتها وما هي عليه في نفسها وعلى اسمائها ومفهوماتها وما يجري عليها من ابتداء خلقها الى انتهائه وعلى جميع لغات الحيوانات كلها والجمادات باسرها والمخلوقات باجمعها اصولها وفروعها وانه علم من العلوم والاسرار والمعارف ما علم آدم عليه السلام وغيره من الانبياء والملائكة وسائر الخلق من الاولين والآخرين وزاد عليهم بعلوم اخر لا تحصى ولا تحصر انفرد بها عنهم واختص بها دونهم لم يبثها لجبريل ولا لميكائيل ولا لغيرهما لانها لا تطيقها الا ذاته الكريمة ولا يقدر على حملها سواه صلى الله عليه وسلم .

الرباط ـ محمد الناصر الكتاني



اثناء الصلاة. جامع لينينغراد.

دور المرابطين

في توحيد المغرب وإقرار العقيدة السلفية

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

منذ دخل الاسلام الى المغرب والمغاربة حريصون على استمرار هذا الدين وعلى العمل من اجل نشره واتساع رقعة المؤمنين به وقد بلغ تآزر تام بين مختلف السكان لتحقيق هذه الغاية من غير ان يشعروا بفرق جنسي او عنصري فتآلفت القلوب واتحدت لا فرق بين العربي والبربري وغيرهما ممن اتخذ الاسلام دينا .

وكان لهذه الوحدة الروحية اثر في توحيد الجيوش وتوحيد الاهداف واصبحنا نرى في كتب التاريخ ما قام به المغاربة من مغامرات ومخاطرات من اجل اذاعة هذا الدين ونشره في مختلف الاصقاع.

وهب المغاربة ينهالون من تعاليمه ويدرسونه دراسة عميقة فهم لم يقتصروا على الايمان فقط بل صاروا يبحثون عمن يشرح لهم اركانه ويحلل لهم اصوله ويبين لهم اهدافه وكانوا يجدون في الشرق ملجأ وملاذا يتجهون اليه ويدرسون هناك كتب التفسير والحديث واصول الفقه وتعليل الاحكام ويرجعون الى المغرب مزودين بثقافتهم وتعاليمهم فيعملون على اذاعتها من جديد .

ولقد كانت هذه الرحلات في اغلبها تحقيقا لركن ديني واستجابة لامر الاهي فيتوجه المغاربة بسببها الى الحجاز يؤدون شعائر الحج ويتبركون بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ويستمدون من ايحائه قوة الايمان وصفاء النفس وروح الاخلاص وطهارة القلب .

وتعد هذه الرحلات الحجازية بالنسبة الى المغرب دروسا عملية تفتح الاعين على حضارات مختلفة وعلى نظم ونظريات قد تكون متناقضة احيانا، فتدفع الى البحث والمقايسة والنقد والموازنة بين المذاهب المختلفة والمناهج المتناقضة فيختار من بينها ما يصلح له ولدولته .

وكم لعبت هذه الرحلات من ادوار تاريخية ادت الى انقلابات شتى والى تغيير جذري للواقع المغربي ويتجلى ذلك واضحا في اوائل القرن الخامس الهجري حينما سافر من الصحراء المغربية الى الحجاز رئيس من رؤساء صنهاجة هو ابو زكرياء يحيى بن ابراهيم الكدالي. لقد توجه الى الشرق سنة 427 هـ راغبا في الحج ومتشوقا الى زيارة البقاع المقدسة وجادا في البحث الديني وفي التزود من الثقافة الاسلامية وباحثا في الوقت نفسه عن طريق الخلاص لقبيلته وامته .

كان يحيى بن ابراهيم هذا يجمع بين الذكاء وقوة الايمان ورجاحة العقل وكان بعيد النظر قوي الارادة متاملا في الاوضاع المغربية آنذاك فلاحظ انها في حاجة الى منقذ ديني يشرح لكثير من الناس حقيقة الايمان ويبين لهم فضل الاسلام . راى ان العقيدة الدينية تلعب دورا عظيما في الهام النفوس الى الخير ودفعها الى الاستماتة من اجل الصلاح لذلك كان لا يفتر في رحلته عن مشاهدة المجالس العلمية

ومجالس الصالحين يسمع اقوالهم ويستفتيهم ويسترشد بتوجيهاتهم .

ولما كان راجعا من رحلته مر بالقيروان فاتصل هناك بابي عمران الفاسي الفقجومي العالم بالحديث والفقه الزاهد في ملذات الدنيا الآمر بالمعروف الذى لا يالو جهدا في النصيحة الناهي عن المنكر الذى لا يخاف عقبى عمله .

وكان ابو عمران مطلعا على الاحوال المغربية عالما بالفتن التى كانت بين مغراوة وبني يفرن (1) ذاكرا انه قد نفي من المغرب من اجل آرائه وافكاره فاستغل مقامه بالقيروان وصار يبحث عن المغاربة الوافدين على افريقية فيحضهم على الخير ويامرهم بعدم الانسياق مع الاهواء السياسية .

وبمجرد التقاء ابي زكرياء الكدالي بابي عمران الفاسي حصل الانسجام بينهما وتواعدا على الخير واتفقا على خطة سديدة صالحة لنشر الدين وتطهيره مما شابه من الضلالات . انها خطة التلقين والتعليم واستغلال الامكانيات الموجودة داخل المغرب فقد كان يعلم ابو عمران انه رغم ابعاده عن المغرب فانه يملك سلطة معنوية في بعض اجزائه وان رسالته التى يقوم بها في تكوين جيل واع عارف بمسؤولياته لم تضع . ذلك ان تلميذه وجاج اللمطي مرابط بواد نفيس من ارض المصامدة يعلم ويرشد ويامر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحفظ القرآن ويشرح الحديث ويذيع الفقه المالكي برباطه .

فرصة يجب ان لا تضيع ذاك ما كان يدور بخلد ابي عمران وهب مسرعا الى كتابة رسالة مكن منها يحيى بن ابراهيم الكدالي يرجو في الرسالة من وجاج ان يساعد ابا زكرياء وان يرسل معه داعية الى صنهاجة يجمع بين قوة الايمان واتساع المعرفة ورباطة الجاش .

وفعلا فقد وصل ابو زكرياء الى بلاد المصامدة سنة 430 هـ فدله وجاج على تلميذ من اشد تلامذته اخلاصا وذكاء وعلما انه عبد الله بن ياسين الجزولي .

مهمة شاقة سيتحملها هذا الداعية المرشح انها اصلاح وضع وتغيير عوائد وتهذيب نفوس وتمهيد لوحدة روحية متآزرة تهدف الى الخير والاصلاح وتهدف فيما بعد الى توحيد اجزاء المغرب والى الربط بين انحائه .

لم يكن الهدف البعيد واضحا في الدعوة اول الامر ولكن سياق الاحداث ربما لا ينفي وجود علاقة بين الاصلاح الديني والاصلاح السياسي فالمغرب كان يعيش متقطع الاوصال منهوك القوى من جراء ما قاساه من حروب واضطرابات وفتن في القرن الرابع الهجري بسبب التنافس الذى كان قائما بين الامويين بالاندلس والعبيديين بتونس وسجلماسة .

ان هذا التنافس افسد على الدولة الادريسية استقرارها وامنها وجعل بعض ملوكها عرضة للانتقام من الامويين حينا ومن العبيديين حينا آخر .

ومن المعلوم ان دولة مغراوة حاولت ما امكنها ان تنقذ الموقف ولكنها رغم ذلك وجدت نفسها ازاء القوة الاندلسية لا تستطيع الاستمرار في المعارضة فقلب بعض ملوكها واستسلم للامر الواقع آخرون . فهذا زيري بن عطية المغراوي كاد يعلنها ثورة ضد الامويين ولكن المنصور بن ابي عامر استطاع ان يتغلب عليه وان يقضي على وجوده فاضطر اخيرا الى الفرار قاصدا بلاد الصحراء ثم رجع الى تلمسان فحكمها ولكنه توفي رحمه الله سنة 391 هـ ورضي ابنه المعز بعد ذلك بقبول شروط الامويين في الخضوع والاستسلام .

ان هذه الفتن الداخلية ببلاد المغرب اضعفت وحدته والهت المغاربة عن العمل الجدي البناء فصاروا يعيشون في خوف وهلع كلما انتهت حرب داستهم حرب اخرى وكاد الاسلام الذى وحد بينهم ان يصبح غريبا في بعض الاجزاء وانتشرت فرق ضالة منحرفة وتعددت مراكز الحكم بتعدد الاغراض والنزعات . فهذه سجلماسة قد استولى عليها خزرون المغراوي بعد القضاء على مملكة بني مدرار وهؤلاء بنو يفرن يملكون تادلا وسلا وما جاورها وهذه فاس في قبضة المغراويين وهذه الجهة الشرقية في يد بلكين الصنهاجي وهذه سبتة في يد اتباع الحموديين يملكها سكوت البرغواطي .

---

(1) دولتان مغربيتان تنتميان الى قبيلة زناتة تنافستا على حكم بلاد المغرب في القرن الرابع الهجري وفي القرن الخامس قبل تغلب المرابطين .

ارض ممزقة الاوصال اضعفتها شوكة الفاطميين والامويين ثم ذهب الزمان بالامويين انفسهم فى بلاد الاندلس واصبحت مدنها تحت قبضة بعض القادة والملوك .

انه اضطراب عام يدعو كل مسلم صادق الايمان الى البحث عن طريق الانقاذ .

الانقاذ لا يكون الا بخلق شعور جديد بالايمان وباحياء عنصر الدين الاسلامي الذى تداعى بسبب هذه الحروب المتوالية .

ان مدرسة عبد الله بن ياسين فى الصحراء ارادت ان تقوم بهذه المهمة ولقد حاولت اول الامر ان تصحح اوضاع العقيدة فى قبيلة صنهاجة وان وان تزيل كثيرا مما علق بها من الضلالات .

وكان عبد الله بن ياسين لايلين فى تطبيق الشريعة الاسلامية وفى شرح قواعدها يتميز غيظا كلما احس بضياعها بين افراد القبيلة التى استدعته لارشادها وتعليمها .

هؤلاء الصنهاجيون الذين يتلقون منه دروسه وارشاداته كانوا اقوياء الاجسام يتعشقون النسل الكثير ليحققوا به النصر فى حروبهم وكان اقبالهم على تعدد الزوجات هو السبيل الى اطفاء شهواتهم وتكثير نسلهم ولو ادى ذلك الى تجاوز العدد المباح شرعا .

اراد ابن ياسين ان يمنعهم من هاته العادة وان يظهر لهم انها مخالفة للدين فلم يتمكن من اقناعهم فرفضوا تعاليمه واحس بغربة فى هذا المجتمع الضال ولكن ابا زكرياء يحيى بن ابراهيم واساه وآزره واحبه حبا عظيما وآمن به وبآرائه وبصرامته فى الحق وقررا معا انعزال هذا المجتمع المنحل والالتجاء الى رباط بعيد عنهم ولم تمر الا ايام حتى اصبح اعيان لمتونة وكدالة وباقي بطون صنهاجة يفدون على ابن ياسين وعلى ابي زكرياء يطلبون التوبة فلم يرض ابن ياسين بذلك الا بعد التكفير والتطهير بمائة سوط لكل راغب فى التوبة ولكل من يطلب الالتجاء الى رباطه

وقبل التائبون ذلك فصار يظهرهم بشدة ليختبر مقدار تحملهم ومدى صدقهم

ولم تمر الا ايام حتى قوي اتباعه وعرفوا بالمرابطين نسبة الى رباطه ودعاهم الى العمل من اجل نصرة الاسلام ومحاربة الفرق الضالة واصبح عبد الله بن ياسين لا يألو جهدا فى شراء الاسلحة وتقوية المعنويات ، وجعل القيادة الحربية لابي زكرياء يحيى بن ابراهيم وترك لنفسه القيادة الدينية والتوجيهية .

ولما مات يحيى بن زكرياء اختار عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر اللمتوني خلفا له وظل فى الرئاسة الى ان توفى سنة 447 هـ فخلفه ابو بكر بن عمر فى اوائل محرم سنة 448 هـ .

وهنا بدات المرحلة العنيفة فى تحقيق الاهداف البعيدة من مدرسة ابن ياسين ففتح المرابطون مدينة تارودانت ثم ذهبوا الى اغمات ففتحوها وقتلوا رئيسها لقوط بن يوسف المغراوي .

وتوجه جيش المرابطين لمحاربة الفرقة الضالة فرقة البرغواطيين (1) فى بلاد تامسنا اي الشاوية وهناك استشهد عبد الله بن ياسين سنة 451 هـ

وفى سنة 453 هـ قامت فتنة بالصحراء فاراد ابوبكر بن عمر قمعها والذهاب الى مكان الفتنة للقضاء عليها فجعل ابن عمه يوسف بن تاشفين خلفا له ببلاد المغرب .

يوسف بن تاشفين نقطة تحول فى تاريخ المرابطين بل وفى تاريخ المغرب عامة

انه حقق للمغرب تلك الوحدة المنتظرة التى طالما كان المغرب ينشدها ايام الادريسيين وايام مغراوة وبني يفرن فلم يستطع البلوغ اليها نظرا لقوة الدول المجاورة اما الآن فالاندلس قد تلاشى وجودها واصبحت طوائف لا يخاف بطشها ولا يخشى

---

(1) يرجع اصل هذه الفرقة لصالح بن طريف البرغواطي الاندلسي الذى ادعى النبوة ببلاد تامسنا فى ايام هشام بن عبد الملك بن مروان وقد شرع لاتباعه قواعد دينية خالف فى اكثرها دين الاسلام بحيث جعلهم يصومون رجب عوض رمضان واباح لهم التزوج بما شاؤوا من النساء من غير حصر واوجب عليهم الاضاحي فى الحادي والعشرين من محرم الى غير ذلك من التشريعات التى دون اكثرها ابن ابي زرع فى كتاب القرطاس .

هجومها واما العبيديون فقد توجهوا الى الشرق يريدون التحكم فيه

يوسف بن تاشفين فكر تفكيرا جديا فى هذا الامر الخطير فعمل على توحيد اجزاء البلاد وربط المغرب الشمالي بالصحراء وبالمغرب الشرقي وكون دولة اصبح وجودها خطرا على اعدائها واضمحلت دول الانتهازيين والمتغلبين واستطاع بما وهبه الله من قوة وبطش ان يمحو اثر التفرقة فى صفوف البلاد وان يحقق املا طالما رغب فيه المخلصون من المسلمين .

ان يوسف بن تاشفين حرر المغرب من الاضطراب وابعد عنه الفوضى وهيأ مراكز دينية عامة للتثقيف والتعليم وامر الناس ببناء المساجد فى مختلف الاحياء وبالاكثار منها اشعارا بالوجود الاسلامي .

ولما ذاع صيته وظهر للناس اخلاصه ورآوه متقشفا عابدا زاهدا هادفا الى الخير والاصلاح قويا فى الدفاع عن الدين التمسوا فيه المنقذ الحقيقي لما اصاب الاندلس من اخطار بسبب اختلاف رؤسائها وتوالي الهجومات من طرف ملوك قشتالة واحلافهم من المسيحيين .

ان الاندلس المسلمة اصبحت بعد سقوط الدولة الاموية مهددة بالاحتلال الاسباني وبالقضاء على مخلفات الاسلام بها ولم تجد فى ملوكها الحاكمين من يقدر على الدفاع نظرا لافتراق كلمتهم وتنازعهم على الحكم وتسرب الخيانات الى اجهزتهم الادارية والسياسية .

ولما سمع المسلمون فى الاندلس بحزم يوسف ابن تاشفين وصرامته وتحديه لكل من يريد بالاسلام شرا كتبوا اليه مستنجدين وكان من بين الراغبين فى الاستعانة ملك اشبيلية وقرطبة المعتمد بن عباد ولكن يوسف ابى ان يذهب الا اذا تمكن من مركز حربي يتولى فيه تدبير شؤونه وتنظيم عساكره ليكون حلقة الوصل بين المغرب والاندلس فمكنه المعتمد من الجزيرة الخضراء .

تلك اول ارض وطئها يوسف بن تاشفين فى الاندلس ومنها كان مركز الانطلاق لتحريرها من ضربات الاسبانيين .

وسمع ملك قشتالة بزحف يوسف فكتب اليه يهدده ولكن يوسف الحازم ما كان ليؤثر فيه تهديد او وعيد وما كان منه الا ان اجاب عن رسالة ملك الاسبانيين بقوله : « الجواب ما تراه لا ما تسمعه » ثم اردف قائلا :

ولا كتب الا المشرفية والقنا
ولا رسل الا الخميس العرمرم

بل انه ارسل الى الملك الاسباني يدعوه الى الاسلام او الجزية او الحرب واعاد يوسف بذلك للجهاد صولته وللاسلام عزته .

واستقر راي الاسبانيين وحلفائهم على الحرب والتقى الجمعان بمكان قرب بطليوس يعرف بالزلاقة يوم الجمعة الحادي عشر من شهر رجب سنة 479 هـ وقد ابلى الاندلسيون والمغاربة فى هذه الحرب البلاء الحسن وصمدوا صمود الابطال وانتهت المعركة بانتصارهم وظفرهم .

ولما عاد يوسف الى المغرب بعد انتصاره عاد ملك قشتالة الى مناوشة بعض الاجزاء من اسبانيا ولم يجد ملوك الطوائف من يستطيع مجابهته بل كان اغلبهم لاهيا عابثا غافلا عن واجبه .

وهنا فكر يوسف تفكيرا جديا وراى ان الانتصار الحقيقي لا يتاتى بالقضاء على العدو فى وقعة واحدة مع ترك اسباب الضعف فى الجانب الاسلامي .

ان الانتصار الحقيقي هو فى تغيير وضع الاندلس وفى ضمها الى قيادته وفى القضاء على هؤلاء الملوك المتخاذلين الذين لا يستطيعون مجابهة الامر الواقع والذين تستغلهم اسبانيا احيانا فى مصالحها .

وآنذاك اعطى الامر لقائده سير بن ابي بكر اللمتوني بتنفيذ هذه الخطة وباخبار ملوك الطوائف بحقيقتها وانهم مطالبون بتسليم انفسهم وبالانتقال الى مراكش من بلاد المغرب .

وكان لهذا القرار وقع سيىء فى نفوس ملوك الطوائف ووجدوها فرصة للتآمر من جديد والاستعانة بالملك الاسباني ولكن قوة يوسف كانت اقوى من خيانتهم ودهاءه كان اقوى من دهائهم فتغلب على اكثرهم وقتل المتمردين منهم وعفا عمن كانت له سابقة فى الجهاد .

حركة مباركة اخرى تضاف الى مجهود يوسف ابن تاشفين فهو لم يوحد بين اجزاء المغرب فقط بل وحد بلاد الاندلس ايضا وازال اثر التفرقة المشتتة للشمل المهلكة للبلاد والعباد .

وكانت هذه الحركة الاتحادية التى الفت بين المغرب والاندلس سببا فى ازدهار ادبي وعلمي فى بلادنا ، فقد اصبح المجال مهيئا لكل وافد من بلاد الاندلس الى المغرب وصار يوسف يستدعي عددا كبيرا من العلماء لينشروا ثقافتهم وليزودوا المواطنين من معارفهم .

وكان للفقهاء فى هذه الحقبة نفوذ لانهم كانوا يمثلون الاتجاه العام الذى تأسست الدولة من اجله.

فمدرسة عبد الله بن ياسين رحمه الله انشأت جيلا من الفقهاء وعلماء الدين الذين تولوا شؤون الامة وكلفوا بتدبيرها وتسييرها .

وظلت النهضة الثقافية والدينية مزدهرة فى ايام يوسف بن تاشفين وزادت ازدهارا فى ايام خلفه من بعده علي بن يوسف المتربع على كرسي الامارة بعد موت والده سنة 500 هـ .

كانت لعلي عناية كبرى بشؤون الدين ببلاد المغرب ولقد ورث عن والده خطة فى تسيير دواليب الحكم ، انها الاعتماد على الفقهاء فى اصدار احكامه واستشاراتهم فى حل شؤون البلاد .

ان هذه الظاهرة تبدو واضحة فى حياة المرابطين عامة وهم رغم تنفيذهم لرأي الاغلبية لا يضيقون الخناق على الاقلية بل يتركون مجال حرية الفكر لمن يريد معارضتهم ومخالفتهم .

واكبر دليل على ذلك المشكلة الكبرى التى يعتبرها عدد من المؤرخين وصمة فى حياة الفكر وفى حرية الرأي انها مشكلة احراق كتاب احياء علوم الدين للغزالي .

اننا حين نبحث عن اسبابها نجد انفسنا مضطربين فى الحكم بين ارجاع الامر الى سبب سياسي او الى سبب ديني او الى سبب انتفاعي شخصي من قبل بعض الفقهاء الجامدين .

لقد كان الغزالي وهو فى الشرق يبارك حركة يوسف بن تاشفين رغم بعد المسافة واختلاف المذهب الفقهي . انه بارك فيه قوة الايمان وصدق العقيدة ومحاربة العوائد الضالة والقضاء على الانحراف والتغلب على بعض الفرق الشيعية المتطرفة التى كانت تقوم بتارودانت وسجلماسة . لقد كان يود زيارة المغرب للاعراب عن تقديره لاعمال يوسف ولكنه لم يتمكن من ذلك نظرا لموت امير المسلمين .

ثم ماذا وقع فى عهد علي او على الاقل فى السنوات الخمس الاولى من حكمه .

لقد كانت هذه الفترة هي الفترة التى وقع فيها الحكم باحراق الكتاب .

ومن المعلوم ان هذا الكتاب يعتني بدراسة الفقه والتوحيد والتصوف والاخلاق . وقد الف فى مرحلة من مراحل التطور الفكري الذى طرا على الغزالي . انه الفه بعد سنة 488 هـ وبعد انصرافه عن التدريس بالمدرسة النظامية وبعد كتاب تهافت الفلاسفة الذى استقر فيه رايه على هدم الفلسفة اليونانية ولم يقر من بين علوم اليونان الا المنطق لانه يعين على تحقيق العلوم وتصحيح الآراء .

ولهذا يعتبر الغزالي من اقوى الاعمدة الاسلامية فى تصحيح الاوضاع الفكرية التى تيسر للفقهاء وغيرهم الايمان بالمنطق كوسيلة من وسائل الاقناع وذلك لا يظهر اثره الا فى المحسوسات والمجردات العلمية اما بالنسبة الى العقيدة فلا يتيسر الايمان الا عن طريق الشرع او المكاشفة .

وقد جاء كتاب الاحياء شارحا لبعض نظريات الغزالي فى مفهوم الاخلاق وفى ارتباطها بالعمل ولكنه فى عرضه العام كان يأتي احيانا ببعض النماذج والآراء التى لا تصلح لتسيير دولة مؤمنة بالعمل الدنيوي وبالعمل الاخروي فى آن واحد ففيه بعض الخطرات الصوفية التى قد تعطل العمل الجدي بالنسبة الى عوام الناس اذا اخذوها على ظاهرها ولم يربطوها بغيرها خصوصا فيما يتعلق بالتوكل ان هناك خطرات تجعل الانسان غير مسؤول احيانا عن البحث عن رزقه وهذا امر قد يكون مضرا بدولة تريد من الفرد ان لا يتساق مع اعتقاده الى درجة التعطيل بل ان هذه الخطرات نفسها ربما لا يفهم منها عند التعمق ما يمكن ان يفهمه مطلق الناس لذلك راى الفقهاء ان من المصلحة مصادرة هذا الكتاب . ومن هذه الخطرات مثلا حوار وقع بين شقيق البلخي وتلميذه حاتم الاصم (1) قال حاتم الاصم ما تعلمت من

---

(1) يوجد الحوار بكتاب احياء علوم الدين ، الجزء الاول ، صفحة 65

استاذي مدة ثلاث وثلاثين سنة الا ثماني مسائل ، من هذه المسائل قوله فى المسالة السابعة : « نظرت الى الخلق فرايتهم كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت الى قوله تعالى « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت ما لي عنده »

ربما يكون الخوف من التوكل الذى لا يكون معه عمل سببا من الاسباب الدافعة الى اصدار حكمهم رغم ان هذه الظاهرة لا تمثل حقيقة الغزالي فى تصوفه .

وقد يكون السبب راجعا الى مفهوم ديني ءاخر متصلا بمهمة الفقيه فى المجتمع المرابطي .

ان الفقهاء فى عصر المرابطين كانوا يحملون لواء العقيدة ويهتمون بشؤون الدين والدنيا فى آن واحد فلما جاء الغزالي حاول تحديد مهمتهم بالعمل الدنيوي وقال عنهم انهم رجال دنيا لا رجال دين .

ورغم انه ذكر فى اول الكتاب ان شؤون الدين لا تصلح الا بصلاح امور الدنيا فانه ذكر فى مكان ءاخر حين تحدث عن فروض العين وفروض الكفاية ان الاهتمام بالفقه عند اكثر معاصريه ناتج عن رغباتهم المادية وانهم لو لم يتوصلوا به الى الربح ما فضلوه على علوم اخرى اكثر منه نفعا ولكنها اقل انتفاعا .

ومن عجيب ما ذكر فى ذلك انهم يهملون الطب لانه اقل ربحا من الفقه فى عصره !

قال الغزالي بعد حديثه عن الصفات الخلقية التى يجب على الانسان ان يتحلى بها او يتخلى عنها (1) . . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الاخلاص مثلا او عن التوكل او عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع انه فرض عينه الذى فى اهماله هلاكه فى الآخرة ولو سالته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضي الدهور ولا يحتاج الى شيء منها وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا او نهارا فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت به لانه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه .

والفطن يعلم انه لو كان غرضه اداء حق الامر فى فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فرض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب الا من اهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالاطباء من احكام الفقه ثم لا نرى احدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه ولاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب الا ان الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولي الاوقاف والوصايا وحيازة مال اليتامى وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء ، هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء » .

كيف يستطيع الفقهاء فى الدولة المرابطية ان يروا مثل هذا النص التجريحي للفقهاء فى كتاب ثم يسمحون له بالذيوع . انهم يخافون ان يثير الفوضى فى المجتمع وان يستغله الدعاة ضد المرابطين لتحطيم سمعة الفقهاء وفى تحطيمهم تحطيم للدولة التى تساعدهم .

ان مفهوم الفقيه فى الدولة المرابطية مفهوم ديني مقدس لم يكن فيما يظهر صورة للفقهاء الذين تحدث عنهم الغزالي فى مقدمة كتابه ولكن الفقهاء رغم ذلك خشوا من الاشتراك اللفظي الذى جمع بين علماء السوء وعلماء الصلاح .

ان المرابطين آمنوا بالفقهاء لما لهم من اطلاع ديني ومعرفة بالاصول الاسلامية واطمانوا الى مذهب مالك لانه اقرب المذاهب الى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وبعدها عن وجوه الخلافات التى راى المرابطون وجوب ابعادها عن الناس .

مفهوم الفقيه كما قلنا فى الدولة المرابطية مفهوم ديني مقدس لانه مرتبط ارتباطا وثيقا بالقرآن والحديث .

ومن المعلوم ان استنباط الاحكام وتعليلها داخل المذهب يحتاج الى علم الاصول الذى لا يتصور الالمام به دون تصور الاهتمام بالكتاب والسنة .

(1) الاحياء ايضا ، صفحة 21 من الجزء الاول .

ومن هنا نجد انفسنا مضطرين الى القول بان الفقهاء فى عصر المرابطين لم يكونوا جامدين ولا منقطعين عن الدراسات الدينية او الفكرية .

ولهذا ينبغي ان نفكر جديا فى قول عبد الواحد المراكشي حين حديثه عن عصر المرابطين : « ونسي النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن احد من مشاهير اهل ذلك الزمان يعني بهما كل الاعتناء » .

ان هذا النسيان يجب ان نبحث عن شرح له يتلاءم مع الواقع الذى كان يحياه الفقهاء فأي معنى لان ينسى القرءان والحديث وهما اصلان من اصول الفقه المالكي ولا يتصور قطعا الماء الفقهاء باحكامهم مع نسيان هذين الاصلين خصوصا وان الدولة المرابطية نشأت اول ما نشأت لتحقيق الوجود الديني وتعليم القرءان والحديث وتوحيد الراي العام على العقيدة النزيهة الخالصة .

ان الفقهاء فى دولة المرابطين كانوا يملكون السلطة المطلقة وكانت لهم دالة على تسيير القضاء وفق الحق والعدل وكانوا يراقبون الاحكام الصادرة عن السلطة القضائية بل انهم كانوا يستشارون فى هذه الاحكام فقد اثبت التاريخ ان القضاة فى عصر المرابطين كانوا لا يحكمون الا اذا كان بجانبهم اربعة فقهاء يستشيرونهم ويستفتونهم فيما عمي عليهم من القوانين .

وهذه ظاهرة تدل على مدى الاهتمام الشرعي فى الاحكام فالقاضي رغم علمه ومعرفته يجلس بجانبه مستشارون فقهاء يبحثون عن النازلة ويفتون للقاضي اذا استعصى عليه الامر .

ان هؤلاء الفقهاء بطبيعة الحال قد يجدون من الطبقات التى لم تجد تقديرا فى الدولة معارضات شتى وخصوصا بين طبقة الشعراء والادباء الاندلسيين الذين لم يحفلوا فى عصر المرابطين بما كانوا يحفلون به فى عصر ملوك الطوائف من اللهو والعبث .

ولهذا امكننا ان نجد من بين هؤلاء الشعراء من يهجو الفقهاء ويرميهم بالاحتيال والرياء والارتزاق ، ومن ذلك قول ابي جعفر احمد بن محمد الجياني :

اهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب ادلج فى الظلام القاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الاموال بابن القاسم

وركبتم شهب الدواب بأشهب
وباصبغ صبغت لكم فى العالم

ومن الطبيعي ان هؤلاء المعارضين للفقهاء وجدوا فى كتاب احياء علوم الدنيا حينما قراوا ذلك النص وثيقة قوية تضعف صورة الفقهاء امام الرأي العام .

وهناك اسباب اخرى يذكرها بعض المؤرخين راجعة الى ابهام بعض صور العقيدة التى كان المرابطون يريدونها صافية لا تعقيد فيها ولا ابهام ولا جدل ولا التواء .

كل ما تقدم يمكن ان يكون من الاسباب الداعية الى احراق الكتاب وقد يكون موقف الفقهاء نزيها وقد يكون موقف بعضهم انتفاعيا . كل ما فى الامر ان الخليفة بلغ اليه من طرف الفقهاء ان هذا الكتاب يفتن الناس فى عقيدتهم ويفسد على الدولة خطتها فى تسيير امور الدولة فكان الحكم بالاحراق .

ولكن رغم هذا الحكم ورغم البحث عن الكتاب فى مختلف المدن ورغم استحلاف الناس على انهم لا يملكون منه اية نسخة فان الخليفة لم يعاقب من تصدى لهذه الفتوى فهذا أبو الفضل يوسف بن محمد النحوي المتوفى سنة 513 هـ ينتصر للغزالي ويكتب لامير المسلمين فى ذلك بل انه افتى فى فاس بادانة من يحرق الكتاب وقد ورد عن ابن حرزهم انه سأل أبا الفضل عن الايمان التى يلتزم بها الناس فقال انها لا تلزم وكانت الى جانبه اسفار فقال لي : « هذه الاسفار من كتاب الاحياء وددت اني لم انظر فى عمري سواها (1) »

والغالب ان الفقهاء عللوا حكمهم على كتاب الاحياء لان امير المسلمين كان لا يقبل منهم اي حكم غير معلل والدليل على ذلك عجزهم عن اعطاء حكم ديني معلل فيما يتعلق بمناظرة المهدي بن تومرت فيما بعديتعلق بمناظرة المهدي بن تومرت فيما بعد فأبطل الخليفة رايهم فقد بلغ علينا ان رجلا من المصامدة

(1) الاستقصاء صفحة 129 وقد نقل المؤلف هذا النص من كتاب التشوف لابن الزيات .

يطوف باسواق مدينة مراكش ينكر على النـاس استهتارهم ببعض التعاليم الدينية ويسخر من بعض عقائدهم ويغلظ لهم فى القول .

ان هذا الرجل سيكون له شان فى المستقبل انه المهدي بن تومرت مؤسس الدولـة الموحديـة والعامل على تقويض دولة المرابطين .

لم يكن حين دعوته يبدي اي مطمـع سيـاسي ولكنه كان يعتمد على الجانب الديني فى اظهـار دعوته فيامر بالمعروف وينهى عن المنكـر ويدعـو الى تاويل الآيات المتصلة بذات الله والمشعـرة بتجسيمـه وكان المرابطون يسيرون على نسق السلف الصالح لا يرون خيرا فى الاهتمام بعلم الكـلام لان العقيـدة الصافية انما تاتي عن طريق الايمان الصادق الذي لا يحتاج الى دليل او برهان .

وبلغ خبره الى امير المسلميـن فاحضره فى مجلس من مجالسـه وهيأ له من الفقهاء من يناقشه آراءه ولكن المهدي كان شديد اللهجة قـوي البيـان يعتمد على المنطق فى جدله واستغل بعض الاحداث التى رءاها عمليا ليظهر اثر الانحلال فى تطبيق قواعد الاســـلام .

واحس الفقهاء بضعفهم امام قوته واتساع علمه واحس مالك بن وهيب احد وزراء الملك وكان ذا ذكاء وعلم بالفقه والفلسـفة بخطر هذا الرجل فقال للملك من الحزم اعدام هذا الرجل الخطير او القاء القبض عليه لينفصل عن الناس انهم ان سمعوا كلامه اطمانـوا اليه وساروا معه وغيروا الاوضاع .

ولكن عليا لم يجد من الفقهاء نصحا صريـحا يعللون به حكمهم او يبررون به موقفهم فقال لمالك بن وهيب اني لا استطيع ان اقتل شخصا يقول ربي الله فلأخرجه من بلدي وليذهب حيث شاء .

وكان قضاء الله فى هذه اللحظة يوجه التاريخ ويغير الاوضاع ويهيىء اتجاها جديدا فى بلاد المغرب .

انها لحظة من لحظات التاريخ تدل على ان تسامح علي بن يوسف بن تاشفين كان سببـا مـن اسبـاب القضاء على المرابطين .

كيـف يمكـن ان نسم دولـة بالتضييـق على الحريات وهي تسـمح لبعض الافراد باظهـار آرائهـم بكل صراحة وتقيم لهم مناظرات للدفاع عن انفسهم .

واغلب الظن ان هذه الظاهرة ورثها علي عن والده رحمه الله فقد ورد ان يوسف بن تاشفين طلب من قاضي المرية ابي عبد الله محمد بن يحيـى بـن البراء ارسـال معونة للجهاد فرضها يوسف على جميع عمالاته فابى القاضي وقال انها طلب غير شرعي فلما كتب اليه يوسف يخبره بان الفقهاء قد افتوا بجوازها وان عمر بن الخطاب قد اقتضاها من النـاس اجابـه القاضي بالرسالة الآتية (1) :

« الحمد لله الذى اليه مآبنا وعليه حسابنا وبعد فلقد بلغني ما ذكره امير المسلمين من اقتضاء المعونة وتاخري عن ذلك وان ابا الوليـد البـاجي وجميـع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس افتـوه بأن عمـر ابن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها. فالقضاة والفقهاء الى النار دون زبانية فان كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيـره وضجيعه فى قبره لا يشك فى عدله وليس اميـر المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بوزيره ولا بضجيعه فى قبره ولا ممـن لا يشك فى عدله فان كان القضاة والفقهاء انزلوك منزلتـه فـى العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسـجـد رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم وحلف ان ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهـم فليدخـل اميـر المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من اهل العلم وليحلف ان ليس عنده فى بيت مال المسلميـن درهم ينفقه عليهم وحينئذ تجب معونتـه . واللـه تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته» . فلما بلغ كتابه الى امير المسلمين وعظ الله بقوله ولم يعد عليه فى ذلك .

نحن لا نؤيد من الناحية الفقهيـة جانبـا دون جانب ولكنا نلاحظ هذه الظاهرة العجيبة فى حيـاة المرابطين حيث نجدهم يتركون الحرية للافـراد فى التعبير عن آرائهم ولو بلهجة شديدة مثـل هـذه . وان لم تكن العادة قد جرت بهذه الحرية ما تجـرا ابو الفضل النحوي ولا المهدي بن تومرت ولا ابن البراء على ابداء نظرياتهم بكل صراحة .

ان الشدة فى معاملة الرعية عند المرابطين غالبا ما كانت فى حالة الحرب والتمرد فاذا كانوا يطمئنون

(1) الاستقصاء للناصري، الجزء الاول، صفحة 132

الى نوايا المعارض ويرون صدقه واخلاصه لم يعاقبوه ولم يزجـروه .

من العجيب ان نرى كثيـرا من المؤرخيـن اذا تحدثوا عن المرابطين وصموهم بالتضيق الفكـري وبالتحجير على الحريات وباهمال الكتاب والسنـة وبالاقتصار على كتب الفروع وبالخشونة فى معاملة المعارضين مع ان المرابطين لهم الفضل الكبير فى خلق حياة فكرية وعلمية ببلاد المغرب لانهم بتوحيدهـم اجزاء البلاد وبربطهم لبلاد الاندلس بالبلاد المغربيـة هيؤوا المجال لنشـر الثقافـة الاسلاميـة ولتعميـم اللغة العربية فكانت حركتهم تمهيدا للحضارة المغربية التى ازدهرت فى عصر الموحدين .

حقيقة قد توجد بعـض الفـروق فى مفهـوم الاحكام وفى استنباطها وفى تحليل العقيـده وفـى فلسفتها عند كل المرابطين والموحدين .

وقد تكون هذه الفروق تستند على مبـررات جوهرية وقد تكون الدوافع اليها سياسية محضـة وسواء كانت المبررات جوهرية بالنسبة الى العقيـدة او كانت سياسية فاننا لا نستطيع انكار الفرق الزمني بين عصر المرابطين وعصر الموحدين .

ان المرابطين كانوا يمثلون مرحلة التمهيد للدور الذى سيقوم به الموحـدون فيما بعد انهم جاؤوا الى المغرب بعدمـا كـانت اجـزاؤه مشتتـة واهـواؤه السياسية مختلفة وحركته العلمية ضعيفة فاستطاعوا بحزمهم ان يوحدوا بين اجزائه وان يسـروا للعلـم وجودا ويرفعوا له منارا .

كان المغاربة فى حاجة الى من يوحدهم روحيـا وعقائديا وقانونيا فراى المرابطـون ان السيـر مـع العقيدة السلفية النزيهة ومع الاحكام الفقهية المالكية اولى للتوحيد فقد سئم المغرب من التفرقة العقائدية والسياسية فهؤلاء الرافضة الشيعيون فى سجلماسة وهؤلاء البرغواطيون فى تامسـنا وهؤلاء الخوارج فى اجزاء اخرى من البلاد وهذه نظريات كثيرة تفد على المغرب من المشرق قد تجر الوبال على المسلمين .

لذا كان من الواجب الرجوع الى عقيده السلف تلك العقيدة التى حققت للاسلام اول الامـر مجـدا والتى كانت سببا من الاسباب فى توحيد المسلميـن فى ايامهم الاولى .

ولكنهم فى الوقت نفسه لم يضيقوا الخناق على الدراسات الفردية فهذا مالك ابن وهيب احد وزرائهم كما تقدم كان ذا خبرة فلسفية ودراسة بالجـدل والمنطق قال عبد الواحـد المراكشي فى كتـاب المعجب : « ورايت بخطه كتاب الثمرة لبطليمـوس وكتاب المجسطي فى علم الهيئة وعليه حواش بتقييده ايام قراءته اياه على رجل من اهل قرطبة اسمه احمد الذهبـي » .

وهذا ابن باجة رائد الفلسفة العقلية فى عصرهم ولم يجد منهم نفورا .

كان المرابطون اذن يتركون للناس حرية الدراسة ولكنهم لم يعتنوا الا بالجـانب الـذى راوه صالحـا لتوحيد البلاد وتحقيق الامن ومن المعلوم ان الاهتمام الثقافي فى بلد من البلدان يسير دائما وفق المنهـاج الذى ترتئيه الدولة فاذا قربت الدولة الفقهـاء كانت الدراسة الفقهية منتشرة واذا عنـت بالفلاسـفة كانت لدراسة الفلسـفية سائدة واذا احتفلت بالادب كثر آنذاك الشعراء والكتاب .

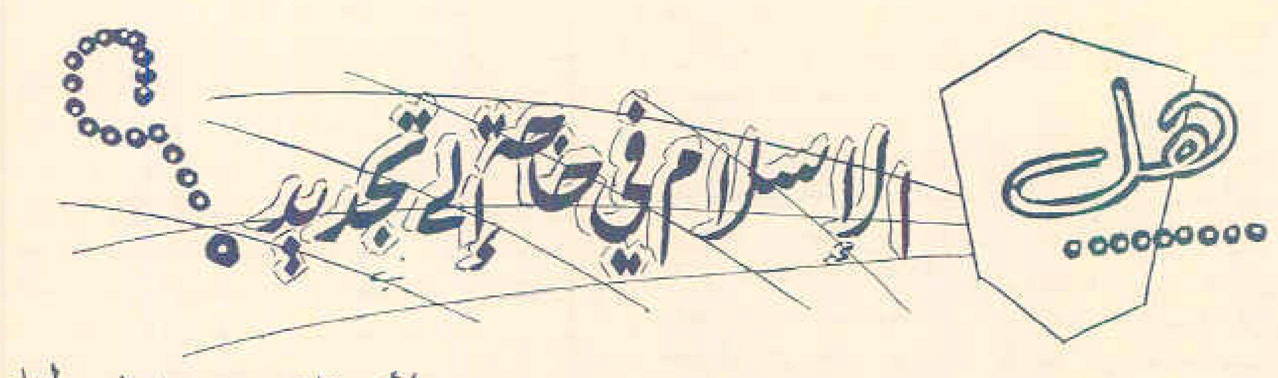
ولما كانت مصلحة الدولة المرابطية فى توحيـد العقيدة الاسلامية وازالة الخلافات الحكميـة ولمـا رات ان الاهتمام بالعقيدة السلفية وبالمذهب المالكـي اولى اعتنى الفقهاء بذلك وتهافتـوا على الدراسـات الدينية وانكبوا على العقيدة السلفية لا يحتاجون فى تأييدها الى منطق او دليل .

والفرق واضح بين تهافت الناس على تأييـد خطة ترتئيها الدولة وبين التضييق عليهم اذا وجهوا انفسـهم وجهة اخرى .

ان السماح للناس بالحرية فيما يريـدون ان يدرسوه كان لبنة اولى فى تحقيق النهضة العلميـة والفلسفية التى بدا ظهورها فى اواخر عصر المرابطين واوائل عصر الموحدين .

وليس من المعقول ابدا ان ننكر هذه الحقيقة ما دام التاريخ يثبت ان احد وزراء المرابطين كانت لـه خبرة بالفلسفـة وعلـوم الهيئـة وما دام يثبـت ان المرابطين لم يتنكروا لشـيء الا اذا اثبـت الدليـل الشرعي عدم صلاحيته .

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ



للأستاذ : محمد بن ادريس العلمي

قبل ان ادخل فى صلب هذا الموضوع المهم جدا، ولاسيما فى هاته الظروف التى يوجد فيها المسلمون بين تيارات مادية جارفة ، يجدر بي ان احلل معنى التجديد ، والى اي مدى يمكن ان يصل ؛ حتى نعرف هل من الاليق ان نصف به الاسلام ؟ وهو الدين الرباني الخالد الذى ارتضاه الله رب العالمين للبشرية باجمعها ، وجمع فيه ما تفرق فى غيره من شرائع وقوانين وقواعد اخلاقية واجتماعية وعقائد سامية ، تصل بكل انسان الى سعادته الابدية وغناه الروحي ورفاهيته الحقة التى لا تجعل منه مطلق عبد الدينار والدرهم ومجمع شهوات وملاذ فانية ، تنقضي بأوقاتها ولا يستفيد منها للمعنى الذى خلق من اجله « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (صدق الله العظيم) .

ان التجديد اضفاء الروح عل كل ميت واعادة بناء ما انهدم واندثر وصقل ما اغبر وتلاشى رونقه وبهاؤه ، والاسلام ليس شيئا مما ذكر ، فهو دين جديد فى كل وقت وحين ، خالد الى ما شاء الله تعالى ، ولا يمكن ان يلحقه تغيير ولا تزوير « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » . وقد حفظه الله تعالى ، وحفظ تعاليمه وشرائعه بحفظه للكتاب الذى يتضمن معانيه كلها « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ولطالما حدثنا التاريخ منذ اربعة عشر قرنا بأن كل الذين يحاولون تحريف شيء من قواعده وعقائده لا يظفرون بشيء ، ويكون مآلهم الفشل الذريع والخزي المغلب والدمار المحقق .

ان اليهودية استطاعت ان تعيش دينا وشريعة لفترة معينة ثم اقتضت حكمة الله تعالى بعد ان اصبحت غير صالحة نظرا لتقادم عهدها وعدم استطاعة اهلها ان يطبقوها ــ كما نزلت ــ ان يبدلها بدين آخر يجددها ، ويبعث شبابها ، ويحيي مواتها ، ويوافق روح العصر الجديد ، وهو الدين الذى جاء به عيسى ابن مريم ، كما ورد فى الذكر الحكيم « واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل ، اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدي اسمه احمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » .

ولكن الاسلام لم يجعله الله دين فئة من البشر فحسب ، ولا شريعة محدودة بزمن تنقضي بانقضائه ولا تستجيب الا لرغائب معينة وانما جعله الله تعالى ــ وهو الحكيم الخبير بجميع شؤون عباده ــ دين البشرية من اولها وآخرها، يجاري الزمان ويقاوم جميع اعاصير الحياة ويضمن للخلق كلهم سعادة ابدية وعيشا رغدا فى الدين والدنيا « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

اننا لا نستطيع ان نأتي فى حديث قصير كهذا ، ولو بجزء يسير لما يمكن ان يقال فى موضوع حيوية الاسلام وعبقرية الاسلام وعالميته فى الحاضر والماضي والمستقبل ولكننا نود ان نسرد ولو بعض النقط حتى نؤدي بعض ما يجب علينا فى هذا الوقت بالذات ، الذى اصبح فيه تحليل الموضوعات التى تتعلق بالدراسات الاسلامية من آكد الواجبات ، لان الحضارة العالمية اكتسبت حللا جديدة اخرى ، والفلسفات العقائدية والاجتماعية والاقتصادية نشطت كلها الى حد بعيد « وكل حزب بما لديهم فرحون » واذا لم تسلح ناشئتنا بسلاح جديد قوي من اخلاق الاسلام وتعاليمه الحية استطاعت تلك الفلسفات ان تخلق بينها بلبلة ، وان تموه عليها بتمويهات تستوردها من طقوس وعادات تبعد عنها بعد السماوات عن الارض ، واكثر من ذلك .

يخطأ الذين يحاولون ان ينزلوا بالاسلام الى حضيض من المباديء الناقصة التى لا تستطيع العيش الا فترة معينة من الزمان ، والتى ابتكرها او يبتكرها اناس مهما بلغوا من العلم والدراية والنبل وسمو الاخلاق ، فانهم لا يرتفعون الى درجة الاله الحكيم الخبير الذى يحيط علما بكل شيء ، ويجعل لكل شيء قدرا، وينزل الاشياء منازلها ، ويظهر الامور فى اوقاتها الصالحة « وان من شيء الا عندنا خزائنه، وما ننزله الا بقدر معلوم » .

اني لاعجب شديد العجب لبعض الذين اوتوا نصيبا من العلم ، ويحاولون اخضاع الاسلام لمذاهب ناقصة وقواعد تقتضيها ظروف وظروف ، حيث يقارنون بين الاسلام واشتراكية اوربا او آسيا ، او يقرنون بينه وبين ديمقراطية الغرب او الشرق ، مع انه روح الاشتراكية الحقة ، وعنوان الديمقراطية الصادقة ، التى تنطبق الفاظها على معانيها ، ولا تكون جوفاء مموهة دخيلة .

ان الاشتراكية لم تعد ان تكون فى معناها الحقيقي ضمانة للعدالة الاجتماعية بين البشر حتى يعيشوا اخوانا متحابين متضامنين ، وان الديمقراطية فى مضمونها كله لا تتعدى دائرة المساواة بين جميع اصناف البشر وانواعهم فى الحكم والاخذ والعطاء، وان كل ما ظهر او يمكن ان يظهر من مباديء سامية بين البشر لا يمكن ان يجاوز تحقيق الرفاهية والازدهار والامن والطمأنينة بين الناس ، وان كل ذلك من صلب ما جاء به الاسلام ومن تعاليمه الغضة اليانعة فى كل عصر وزمان. والحقيقة ان المسلمين هم الذين فى حاجة الى تطهير افكارهم مما علق بها من حشو وزوائد ، وفى حاجة ايضا الى النظر الى قواعد دينهم على انها مرنة مطاطة ، تستطيع ان تستوعب جميع شؤون الحياة ما دامت هاته الشؤون لا تخرج عن الجادة ، ولا تتعدى دائرة الحياة البشرية التى يرتضيها الله لعباده .

لقد استطاع المسلمون الاولون ان يعيشوا مع العرب وغير العرب ، واستطاعوا ان يطعموا حضاراتهم بكل حسن وجميل من حضارات غيرهم من الامم التى دانت بالاسلام ، او خالطوها من روم وفرس واحباش وهنود وترك وصقالبة وغيرهم ، دون ان يروا فى مجاراتهم أي نقص يمكن ان يلحقهم فى معتقداتهم او اعمالهم كمسلمين ، بل على العكس كانوا يعتقدون ان الحياة هي الاخذ والعطاء، وان السعادة كل السعادة فى التقدم الاجتماعي والنهوض الفكري والسير الى معارج الكمال .

فقد ثبت ان عمر بن الخطاب ، وهو من هو دينا وعلما ومروءة وتمسكا بالفضيلة احدث اشياء كثيرة فى شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة لم يسبق اليها ، ولم ير فى ذلك آية غضاضة ولا نقصا يمكن ان يلحقه فى دينه ودنياه ، وقد ثبت انه حكم فى نازلة واحدة بحكمين مختلفين فقيل له فى ذلك ، فعلل بتغير الزمان والمكان . ويذكر المؤرخون ان الائمة الفقهاء كانت لهم اقوال متعددة فى الاحداث والوقائع بحسب الازمنة والامكنة ، وهكذا كنا نسمع ونحن ندرس ان هذا الراي كان للشافعي وهو فى العراق مثلا ثم تغير عنده الامر وهو فى مصر ؛ ومثل ذلك قيل عن مالك وابي حنيفة وغيرهما من الائمة الاعلام، لانهم كانوا يرون ان العقائد واحدة فى كل زمان ومكان لا تتغير ولا تتبدل ، وان ما عداها من تشريعات واحكام تخضع بالطبع لمراعاة احوال الزمان والمكان والطقوس العادية ، مادام فى ذلك صلاح المجتمع واحوال الناس، وقد ورد فى الحديث القدسي ان الله تعالى قال : « انما خلقت الخلق ليربحوا علي لا لاربح عليهم » لانه غني عن العالمين ، وكل ما سواه مفتقر اليه فى كل وقت وحين « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد »

والذى ينصت الى ما يتلى من الآيات ، ويحللها وينظر فيها بامعان وتدبر وحسن تبصر يدرك الى اي مدى وصل الاسلام ويصل ، والى اي حد يمكن

لمعتنقيه ان يبلغوا من رفاهية وطمأنينة وهناء وسعادة ابدية لايعكر صفوها شيء قال الله تعالى «آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ورحمتي وسعت كل شي فسأكتبها للذين يتقون ويوتون الزكاة والذين هم بآياتنا يومنون الذين يتبعون الرسول النبيء الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم ، والاغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه اولئك هم المفلحون، قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت »

لا شك ان هذه الآيات قد تضمنت من العقائد والمذاهب والتعاليم الاصلاحية ما لا تستطيع اية مذاهب او آراء ان تبلغها مهما علا كعبها ، وارتفع شأنها ، وتضلع ناظموها في باب العلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة وحسن التدبير .

فلماذا اذن يحاول بعض المسلمين ان يلتمسوا الرفاهية والتقدم والازدهار من مبادىء اخرى خارجة عن تقاليدهم وعقائدهم وطقوسهم وعندهم ما يكفيهم ويكفي البشرية كلها فى باب المدنية والتقدم والازدهار والعيش المريء ؟

ان الجواب عن هذا السؤال سهل ومعروف عند الكثير والكثير ، لقد ضعفت ثقتنا بديننا وتعاليمنا وباعدت بعض الثقافات المستوردة بيننا وبينها الى حد جعل البعض منا يشك في قيمة الاسلام وفعاليته في العصر الحديث، مع انه لو فتح عينيه بعض الشيء، والفى الآراء المدسوسة عن الاسلام التى تلقاها لتحقق انه يزهد في كنز عظيم اخذه غيره ممن يخالفه دينا وعقيدة وشريعة ، وصار ينفق منه بحسب الظروف والاوقات ويتظاهر عليه بالعلم والتقدم والنهوض الفكري الذى يحتوي عليه هذا الكنز .

اننا فى حاجة الى اعادة النظر فى الاسلوب الذى نلقى به تعاليم الاسلام ، وفى حاجة الى خلق جو من التحرر الفكري يعتمد المنطق الصحيح والحق الصراح وينبذ الجمود والتزمت والانحلال ، وبذلك يمكن ان نقوم بواجبنا ونساهم من جديد في حضارة العالم على قدم المساواة، كما كنا فى الماضي ، بل ونعطي لغيرنا اروع الامثلة على اننا احياء دائما وسعداء دائما واقوياء دائما، وان العزة والقوة لله تعالى وللمومنين اجمعين .

البيضاء ــ محمد بن ادريس العلمي





الاسلام دين مرن مشرق يقبل بصدر رحب كل نافع ، ولكن الرجعية والتزمت على نقيض ما يتهمه به بعض المتحذلقين من انصاف المثقفين ، وليس ثمة شك فى ان العقيدة التى دعا اليها لا تتسم مطلقا بالتعقيدات الزائفة ، والعوائق التى تعوق الانسانية عن التقدم فى مسيرتها المباركة .

فالله فى الاسلام خالق الكون ، ومصدر كل شيء ، واليه الملك ، لا واسطة بينه وبين عبده ، دينه مشاع لدى الجميع يلتجيء برحابه من شاء من مخلوقاته البشرية حسب مؤهلات كل شخص الفكرية والروحية ، والاثير لديه من اضطلع بالعمل خير اضطلاع ، وقام بتنفيذ منهجه الشامل للفرد والجماعة من غير تفرقة بين العالم او الصانع او الحاكم والمحكوم. الكل سواسية كاسنان المشط .

واذا رحنا ننقب عن الحافز الذى جعل الاسلام يسود فى احقاب زمنية ماضية ، وجدنا انه يمتلك قيما عليا انسانية النزعة ، مستمدة من الله ، عليها قامت المقومات الحضارية ، واهم هذه المقومات الدعوة الى التحرر من الخرافات ، والانعتاق من الرق الذى اختلقه بسطاء العقول ، والانفلات من ربقة العبودية ، وتفهم الحياة على حقيقتها فى صورة بديعة لا تقوم على التناقض بين العقل والدين او العلم والدين ، والسعي الى ايجاد التوازن الحق على قدر ما تتحمله الطاقات البشرية ، والانسجام بين القوى المادية والقوى الروحية ، والتوافق بين الملابسات الاقتصادية والعوامل الانسانية ــ فهو ــ اي الاسلام ــ لا يعترف البتة ــ كما عند الشيوعيين ــ بأن العوامل الاقتصادية هي المهيمنة المسيطرة على الانسان ولا يقول مطلقا ــ حسب ادعاء الروحيين ــ بان الطاقات الروحية فى مكنتها ان تنظم الحياة ، هذه الآراء كلها يتبناها هذا الدين فيرتبها ترتيبه الخاص مكترثا بادىء الامر بالواقع الواسع الرحب للطبيعة البشرية بكل ما يمور فى داخلها من استعدادات متنوعة .

ومهما لهج اصحاب الشعارات المزورة من انصار الشيوعية او الراسمالية او غيرهما من المذاهب الحديثة بأفكارهم المتعددة ، فان للاسلام نظاما ءاخر يحتل المكانة الوسطية ، ولذلك فالطفرة العملاقة التى طفرها فانتشل اثناءها الانسان من الوهدة التى تردى فى اعماقها لم تكن طفرة عادية ، بل كانت معجزة كبرى انفرد بها ، وتنبيء عما يمكن فى تصوراته من ايجابية بناءة ، مما دفع جحافل الخير تبني بعد صحوة من اغفاءة طويلة ، وتضع الحياة الفاضلة الناعمة تمتعت بها البشرية على مدار التاريخ .

ومن اجل هذا كان الاسلام ــ ولا يزال ــ دينا عالميا تضمن اسسا جد مهمة تشكل اعصاب الحياة الحضارية فى كل زمان ومكان ، وهذه الاسس سنلم باثنين منها :

ا ــ الحرية الفكرية

ب ــ الحرية العقدية

الحرية الفكرية :

لقد احدث الاسلام هزة عنيفة ، ورجة قوية في العقل الانساني بعد ان كان قد قيد قرونا متعددة ظل خلالها يقتات على الظلام ، ويعيش حبيس الاساطير فحرره ، ووجهه وجهة اخرى ، وبسط امامه ءافاقا جديدة ، فاعلن ولادته من جديد ، وقرر ان هذا الكون الرحب الفسيح يجدر ان تكنه اسراره، ويدرس دراسة منطقية بعيدة عن التقليد الاعمى ، خاضعة للقوالب الفكرية ، فاقرا قوله تعالى : « الم تر ان الله سخر لكم ما فى الارض ، والفلك تجري فى البحر بامره ، ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه (1) » وقوله تعالى : « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت (2) ».

فالقرءان يوقظ الحس الدفين فى الانسان ليتامل ملكوت الله ، ويتدبر عالم نفسه حتى يعيش شاعرا بعظمته القادرة مطمئنا الى الابداع الالهي فى الطبيعة ، مفتحا بصيرته على الآيات العجيبات ، ذلك انه بنى دلالته على النظر ، واعمال العقل لادراك الحقائق ، وهو يحفل بكثير من الآيات يعطي فيها للعقل السلطان الاقوى ، ويستمع العقول المتحجرة المنكمشة فى قوقعتها ، واحكم ءاية واهجاها قوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (3) » وقوله جل وعلا : « ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا» (4).

وبرغم من ان القرءان يزخر بالحديث عن العلوم والفنون فلا يسوغ لنا ان نعده معلمة علمية صرفة ترصد القوانين والنظريات ، وانما ما فيه من الاشارات الى ذلك ما هو الا حفز للعقول الى التامل، والتدليل على النظام الكوني المحكم للوصول الى البرهنة على وجود الخالق الكريم .

وقد دعا القرءان الكريم الى العلم بشتى فروعه — ليس علم الشريعة وحدها كما قد يتبادر الى ذهن بعض الناس — ومن يتصفح كتاب الله وحديث رسوله يعثر على ما يقطع دابر كل شك فى هذه القضية فاستمع الى قوله تعالى مبينا ان العلم لا يقصد به الشريعة فقط وانما يشمل جميع اجناس العلوم الاخرى من نبات ومطر وحيوان وطبقات الارض « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء » (5)

ويقول تعالى مشيرا الى علم الحياة (البيولوجيا) ومتحدثا عن تكون الانسان فى الرحم والاطوار التى يمر بها : «فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب»(6)

ويحدثنا القرءان الكريم عن بدء الحياة على الارض يصف الحيوانات الاولى المختلفة من زاحفات وغيرها فيقول : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على اربع ، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير » (7).

وفى العلم يقول تعالى :

— قل رب زدني علما (8)

— قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، انما يتذكر اولو الالباب (9)

— يرفع الله الذين ءامنوا منكم ، والذين اوتوا العلم درجات (10)

---

(1) الحج : 65
(2) الفاشية : 17 — 20
(3) الانفال : 22
(4) الفرقان : 44
(5) فاطر : 27 ، 28
(6) الطارق : 5 ، 7
(7) النور : 45
(8) طه : 114
(9) الزمر : 9
(10) المجادلة : 11

– شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولـــو العلم قائما بالقسط (11)

– وفوق كل ذي علم عليم (12) .

وفي حديث رسول الله عليه السلام ذكر للعلم وحث على تعلمه يعتبر ذخيرة نفيسة في الموضـــوع ولذلك نثبت بعضا منها فيما يلي :

قال عليه الصلاة والسلام :

– من غادر اهله في طلب العلم فهو سائر في سبيل الله .

– طالب العلم فريضة على كل مسلم
– من عظم العالم فقد عظمني
– يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء
– اطلب العلم من المهد الى اللحد

وعلى هدي الاسلام الحكيم ووصاياه الغر تمكن للمسلمين دعاة الخير ان يسيروا الى الامام لتحقيـــق الذات في حركة ايجابية بناءة منافية للسلبيــــة ، ومتوافقة وهدفية الوجود الانساني، والمنهج الــذي رسمه الله في استخلاف الانسان على الارض والقيام بالامانة التي طوق بها عنقه والتي ليست هي العبادة المنصوص عليها فقط ، ولكنها تشمل المفهوم الواســـع الجامع المانع لكل الاعمال التي ياتيها بنـو البـشر ، ولذلك اســـوا حضارة اسلامية خالدة بعد ان خاضوا كل حلبة من حلائب العلم والثقافــة ، فاكتشفـــوا نظريات ، واخترعوا ما اذهل العقل الانساني حينذاك، ومن ثم استرفدتهم اوروبا فاعانوهم اعانة حاتمية ، واستقت من روافدهم المعارف من فلك وجبر وهندسة وكيمياء وطب وفلسفة وزراعة وصيدلة ، ولا تــزال الفاظ حضارية عربية كثيرة مستعملة في اللغــات الاوروبية منها الاسبانية يقول الاستاذ كـرلوس م. كروبيرا Carlos M. Granpera في الفصل السابـع تحت عنوان الالفاظ الاسبانية المشتقــة من الاصــل العـربي من كتـابه « التأثيـر العربـي في الثقافــة الاسبانية » (13) مـا ترجمتـه :

« وقد عد اكثر من 2 في المائــة في القامـوس الاسباني من الالفاظ المشتقة المأخوذة من العربية ، ويعني هذا ان 4000 كلمة عربية تقريبـا دخلــت الاسبانية ، واغلب هذه الكلمات اسماء بعضها نعوت، وقليل منها افعال ، وهذه الكلمات تتناول انواعا من المواد كالنبـات والفواكـــه والخضــــر والمكايـــل والمقاييس والعملة النقدية ، والاثواب والمواد الجلدية والجواهر والعطورات والخزف والبناء واثاث البيت، والقناطر ، والفاظ تتعلـــق بالشرطـة والحكومـة والقوانين والالعاب والمسليات والادوات الموسيقيـــة والمواد الغذائية والملابــس والرياضيــات والفلــك والكيمياء واسماء الاماكن الجغرافية »

وليس من ريب في ان المبـاديء الحضاريـــة الاسلامية كان لها اثر واي اثر في الحركات الاصلاحية التي قامت في اوروبا في القرن السـابع الى ان جاء عصر النهضة ، وذلك انه فتح الاذهان المغلقة وحررها من الاساطير الكنسية ، وليس ادل على ذلك من ان في القرن المذكور كان هناك من ثار على تقديس الصور وانكار الواسطة بين الله والعبد ، والسلطة الاستبدادية التي يفرضها رجال الدين

وبدعوة الاسلام الى العلم والتثقيف والحضارة، والتسابق الى الابداع الحضاري تألقت سماء وملأت الآفاق لا تزال تحتل مكانة مرموقة في الاذهان ، امثال الخوارزمي وابن الهيثم والكندي والفـارابي وابــن سينا والبيروني والبتاني والرازي والزهراوي وجابر والجاحظ وابن النفيس وغيرهم من الذين طلعوا على العالم بنتاج علمي هائل بفخر واعتزاز ، وطاطـا لــه المنصفون من مفكري العالم رؤوسهم .

وعلى سبيل التدليل والبرهنــة على ما كــان للامة الاسلامية من صولة ومجد اذكر ان بعثات علمية اوروبية كانت تفد على الاندلـس ايـام استبحـــار حضارتها وذيوع تقدمها ، منها البعثة التي ارسلهـــا ملك انجلترا جورج الثاني ترأستها ابنة اخيه الاميرة (دوبانت) مصحوبة برئيس موظفي القصر (سفليك) وكان يحمل هذا معه رسالة الى الخليفة هشام الثالث وقد ورد فيها ما يلي :

---

(11) ءال عمـــران : 18
(12) يـوســـف : 76
(13) انظر Carlos M. Granpera, influencia arabe en la cultura española, p. 19 - Publicaciones españolas - Madrid. 1968.

« من جورج الثاني ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج الى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الاندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة . فاردنا لابنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء اثركم لنشر انوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من اركانها الاربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الاميرة (دوبانت) على راس بعثة من بنات اشراف الانجليز لتتشرف بلثم اهداب العرش ، والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من الدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن ، وقد ارفقت الاميرة الصغيرة بهدية لمقامكم الجليل ارجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص ـ من خادمكم المطيع جورج ».

وبجانب هذه الرسالة صحبت معها البعثة هدية الملك وهي تحتوي على شمعدانين من الذهب وأوان ذهبية .

وكان رد الخليفة هشام على الرسالة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد : الى ملك انجلترا وايكوسيا واسكندنابيا الاجل . لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الامر على طلبكم . وعليه فاننا نعلمكم بانه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي . اما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد . وبالمقابلة فاني ابعث اليكم بغالي الطنافس الاندلسية ، وهي من صنع ابنائنا هدية لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام ـ خليفة رسول الله على ديار الاندلس هشام .

وبالمقارنة بين الرسالتين يتجلى للعيان مدى ما وصل اليه عز الاسلام وسؤدده ، وسلطانه وقوته ، وان فى العين لعبرة ، وفى القلب لحسرة على ما ضاع من هذا العز الشامخ الذى تفيات ظلالهـا الانسانية قرونا متعددة ولكن :

اتبكي على ليلى وانت تركتها
فانت لات حتفه وهو طائع

الحرية العقدية :

ان حضارتنا الاسلامية ذات نوازع انسانية شفيقة من بينها حرية العقيدة ، والاسلام بنى مبدا التسامح الديني على اساس ان الاديان السماوية بقضها وقضيضها تنهل من منهل واحد كما فى قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (15) .

وبناء كذلك على ان انبياءه العظام صلوات الله عليهم اشقاء متحابون فاوجب على المسلمين الايمان بهم « قولوا ءامنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيئون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » (16) ، واحترام شخصيتهم ، وان يتعاملوا مع اتباعهم بالمعاملة الحسنة ، كما اوجب على الدولة الحاكمة ان ترعى اماكن عبادتهم وحقوقهم وكرامتهم ، وان تعمل على صيانة مستقبلهم ، وتكفل الحياة الهانئة الرغيدة لهم لا يشوبها اضطراب وقلق .

وقد ترك الاسلام الاختيار للانسان ان يصطفي من الاديان السماوية ما يروقه بعد ان وضحت معالمه فقال تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي» (17) وقال عز وجل : «لكم دينكم ولي دين»(18)

وعلى هذه الرحمة الالهية سار نبينا عليه السلام وخلفاؤه من بعده، والتاريخ . يروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر الى المدينة وجد فيها من اليهود العدد الكبير ، فكان اول امر قام به ان عقد بينه وبينهم ميثاقا دعا فيه الى احترام عقائدهم ، وتقديس شعائرهم ، وتولى الدولة حمايتهم، وان يكونوا هم مع المسلمين قوة ترد الاذى .

---

(15) الشورى : 13
(16) البقرة : 136
(17) البقرة : 256
(18) الكافرون : 6

والرسول عليه السلام له مواقف خالدة يتمثل فيها المثل الاعلى فى المعاملة الرائعة لاهل الكتاب كحضوره جنائزهم ، وزيارتهم واكرامهم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نموذجا حيا فى اتباع هذه النزعة الانسانية العظيمة ، ويظهر ذلك فى كثير من اعماله ، من بينها انه عندما دخل بيت المقدس وكان داخل كنيسة القدس وازف وقت صلاة العصر ، ابى ان يؤدي الفريضة فى ذلك المكان حتى لا يكون هذا سببا لمطالبة المسلمين به وتحويله الى مسجد .

ومن بينها ايضا ان امراة مسيحية اشتكت لسيدنا عمر بان عمرو بن العاص اخذ دارها قسرا ، وادخلها فى المسجد فسأل عمر عن ذلك فكان الجواب بان المسجد لم يعد يتسع لعدد المسلمين ، ولما كانت دار هذه المرأة بجوار المسجد ، وانه عرض عليها ثمنها وبالغت فيه ولم ترض هدم دارها واودع قيمتها فى بيت مال المسلمين ريثما تأخذه منه متى تشاء .

ورغم ان هذا العذر تقبله القوانين الحديثة ، فان عمر امر عامله عمرا باعادة المنزل لصاحبته كما كان من قبل

وفى الفتوحات الاسلامية سار المسلمون ــ هداة البشر ــ على هذا المبدا فى علاقاتهم مع اصحاب الاديان الاخرى ، فكانوا يسمحون لاهل البلدان المفتوحة ان يظلوا على عقيدتهم بشرط اداة الجزية التى هي مقابل لحماية الدولة لهم فى عبادتهم وعقيدتهم واموالهم ، وفى هذا التسامح الديني يقول عمر بن الخطاب فى العهد الذى التزمه على نفسه لاهل القدس :

« اعطاهم الامان لانفسهم واموالهم ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم الخ .. » (19)

والجزية التى الغنا اليها منذ قليل اقرها الاسلام بقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (20) وهي تسقط عمن لا يقدر على تسديدها كالمسكين والعبد وذي العاهة والمقعد ، كما تسقط اذا عجز الفاتحون عن حمايتهم ، وفى هذا الصدد يروي البلاذري (21) قصة طريفة للغاية مفادها ان المسلمين لما فتحوا حمص قبضوا الجزية من اهل الكتاب ممن لم يرد الدخول فى الاسلام، وعندما علم المسلمون ان الروم اعدوا لهم جنودا عديدين قد لا يتسنى لهم ردهم على اعقابهم، اعادوا لهم ما اخذوا منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم فاجاب اهل حمص : ان ولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، وحينذاك سقطت عنهم الجزية .

وهكذا تشرب المسلمون هذا المبدا الانساني العظيم ــ رغم ان دولتهم حاكمة منتصرة ــ فلم تبدر منهم اساءة او اذاية ، وقد تحدث فقهاؤنا الاوائل عن حقوق اهل الذمة ، فقال احدهم وهو الشهاب القرافي فى « الفروق » :

« ان عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا لانهم فى جوارنا وفى خفارتنا وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الاسلام . فمن اعتدى عليكم ولو بكلمة سوء او غيبة فى عرض احدهم او اي نوع من انواع الاذية او اعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة دين الاسلام ».

ومن مظاهر الحرية الدينية فى الاسلام ان محمدا الفاتح حين فتح القسطنطينية ــ مكان البطريركية الارثوذكية ــ اعلن احترام اهلها ، والتامين عليهم فى عقائدهم وارواحهم ، والسماح لهم بمزاولة تشريعاتهم وطقوسهم الدينية من غير ان تتدخل الدولة فى شأنهم ، وبذلك اطمأنت قلوب السكان وارتاحوا الى الفاتحين الرحماء ، فتيقنوا حينذاك بان الاسلام دين رحيم لا يماثله اي دين ، وخاصة وهم قد ذاقوا الامرين من نير البزنطيين وقساوتهم .

ومن هذه المظاهر ايضا أن خلفاء الاسلام لم يكونوا يرون غضاضة فى السماح لغير المسلمين ان يتلقدوا

(19) الطبري تاريخ الامم والملوك ج1 ص 2405
(20) التوبة : 29
(21) فتوح البلدان ص 143

مناصب مهمة فى الدولة ، وقد كان فى عصر الامويين والعباسيين اطباء مسيحيون يشرفون على المدارس الطبية فى دمشق وبغداد ، وقد اتخذ معاوية ابن اثال طبيبا له ، وكان سرجون كاتبه ، وكان جرجس ابن بختيشوع الطبيب ، عظيم الحظوة لدى الخليفة المنصور.

ولم يكن هذا التسامح الديني والتعايش السلمي بين المسلمين واهل الاديان الاخرى مقتصرا على الملوك فقط ، بل تعدى الى الافراد ، ومعروف ان ابراهيم ابن هلال الصابي – وهو من المجوس – وكانت بينه وبين سراة القوم ورواد الادب والفكر ءانذاك وشائج صداقة ، وعند وفاته رثاه الشريف الرضا نقيب الهاشميين باشعار طنانة شجية مليئة بطاقات شعورية صادقة من بينها قصيدته التى افتتحها بقوله :

ارايت من حملوا على الاعواد
ارايت كيف خبا ضياء النادي

ما كنت اعلم قبل حطك فى الثرى
ان الثرى يعلو على الاطواد

وبطبيعة الحال ان هذه الحرية الدينية التى باركها الاسلام دفعت الملوك الى عقد المجالس العلمية لمناقشة قضايا الدين ، يجتمع فيها طوائف مختلفة ، والمشهور عن المامون انه كان يعقد مجلسا علميا كلما صبا الى سماع النقاش والجدال يشارك فيه علماء من مختلف الملل .

ولما راى الاجانب من الغربيين هذه الظاهرة سائدة فى الاسلام مقدسة لدى جميع المسلمين، وانها كانت من الاسباب المباشرة فى سرعة انتشار هذا الدين السمح ، اشاروا بها واعترفوا غير متعصبين (22) ومن بين اولئك « سيرت. و. «ارنولد» الذى الذى يقول فى كتابه الدعوة الى الاسلام :

« ويمكننا ان نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بان القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس الى الاسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية، واخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية كما اتاح لرجال الكنيسة ان ينعموا بحقوقهم ونفوذهم (23) .

ثم يقول بعد ذلك : « ومن هذه الامثلة التى قدمناها ءانفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الاول من الهجرة، واستمر فى الاجيال المتعاقبة ، نستطيع ان نستخلص بحق ان هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام ، انما فعلت ذلك عن اختيار وارادة حرة ، وان العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على ذلك التسامح » (24) .

وصفوة القول ان الاسلام احتضن جميع مظاهر الحرية ، وحرص كل الحرص على تطبيقها فى مختلف المرافق الحياتية لخلق مجتمع اسلامي واع متماسك راق، نظيف، مدرك بصير، انساني النزعة ، رحيم ، يفيض على البشرية بالحب الجميل ، وفى يده منهج الله المتكامل كي يؤدي رسالته المقدسة فى الحياة.

تطوان – محمد المنتصر الريسوني

---

(22) وهناك جماعة همها الوحيد هو تشويه معالم الاسلام .
(23) ص 48
(24) ص 51



المجد الكبير في سراوك
ماليزيا



يحتفل المسلمون بذكرى المولد النبوي في موكب كبير .. ويرى المحتفلون في طريقهم للاستماع الى حديث ديني في احدى الميادين .



لعل قراء الابحاث الادبية ، في مختلف الوانها ، وتباين اضرابها ، يلحظون على الباحثين انكبابهم على دراسة كل واجهات الادب العربي والحاحهم على تعميق الدرس والبحث في شيء غير قليل من التتبع والاستقصاء ، وحظ غير يسير من التعليل والتحليل ، ولعل اولئك القراء ، ايضا ، يلحظون « تهافت » اكثر من باحث على « الواجهة » الواحدة ، وتلك ظاهرة ليست تبهج بقدر ما تؤسف ، فبعض هؤلاء الدارسين « المتهافتين » تقراهم فلا يطالعك فيما تقرا غير اجترار سخيف ـ اذا صح ان يوصف الاجترار بالسخف ـ لما درس ، ويستبد بنفسك شوق جديد تلقيه بين الصفحات ، ويحملك هذا الشوق على المضي في القراءة ، فاذا بك لا تجد فيما انفقت وقتا تقراه الا تكرارا مملا لما عولج ، واذا انت بعد هذا وذاك لا تملك الا ان تردد قول البحتري :

هل ترانا نقول الا معادا
او معارا من لفظنا مكرورا

ولعل قراء الابحاث الادبية ، في مختلف الوانها، ومتباين اضرابها ، حينما يلحظون ذلك ياخذون في الآن عينا على الدارسين ، وعلى « المتهافتين » منهم بوجه اخص انصرافهم عن معالجة واجهة من واجهات الادب العربي بالدرس والبحث ، تلك هي واجهة المديح النبوي في الشعر العربي ، وهي واجهة علاها الغبار وطمس معالمها الاهمال ، ولم تظفر فيما نعلم ويعلم الناس بغير عناية «يتيمة» اولاها اياها الدكتور زكي مبارك ـ يرحمه الله ـ بدراسته الممتعة التي سماها « المدائح النبوية في الادب العربي » ، وقد حق للدكتور زكي مبارك ان يؤخذ بنشوة النصر والظفر وهو يقدم دراسته هذه الى القراء ! فما كنت احسب ان الزمن سينصفني هذا الانصاف فأكون أول من يرسم خصائص المدائح النبوية في الادب العربي ، وهو موضوع كان يجب ان تعين رسومه وحدوده منذ ازمان (1) ».

واذا كان ثمة ما يؤخذ على دراسة د. مبارك زكي مبارك فهو ضربه صفحا على ذكر ما اسهم به الاندلسيون والمغاربة في هذا الغرض ، وذلك يشكل «اهمالا» ليس ما يبرره .

وقد ارتأيت ، بناء على ما تقدم ، قبل الخوض في صميم الموضوع ان نلم ، على عجل ، بالخطوط العامة لنشأة وتطور هذا الفن الشعري في الديوانين : المشرقي والمغربي .

* * *

المديح النبوي ضرب من الشعر الدقين الذي تجيش به العاطفة الصادقة ويصوغه الاحساس المشبوب ، وينبجس عنه الحب العارم ، ومع ذلك يمكن القول بأن قصيدة الاعشى التي مطلعها :

الم تفتمض عيناك ليلة ارمدا
وعادك ما عاد السليم المسهدا

وقصيدة كعب بن زهير التي يفتتحها بقوله :

(1) د. زكي مبارك ، « المدائح النبوية في الادب العربي » ص 9 ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول

تعدان معا الانطلاقة الاولى لهذا الغرض الشعري بصرف النظر عن الباعث الذى حدا بالشاعرين الى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلقد قال الاول قصيدته يرجو التقرب لرسول الله والظفر بالكسب المادي ، وقصة صرف قريش له عن الاتيان الى الرسول معروفة حتى لدى بعض طلبة كلية الآداب ، واما الثاني فقد انشا قصيدته يتلمس بها حماية الرسول له والدفع عنه ، ومن ثم كانت القصيدتان اقرب الى شعر التكسب الذى يحفل بالكذب والنفاق والرياء منهما الى شعر المديح النبوي الذى تمليه العاطفة الصادقة ويصوغه الحب العارم ، واذن فنحن نقر د. زكي مبارك على ان القصيدتين اشبه شيء بما يمدح به الرؤساء المسيطرون ، ذلك انه اذا جاز ان يغني الكذب فى بعض الشعر عن الصدق ، وهو امر قابل المناقشة ، فانه ليس يمكن بحال ان يقوم الكذب مقام الصدق فى شعر المديح النبوي ، ولعل هذا ما عناه المقري حين كتب فى « نفح الطيب » ما نصه : « واذا كان القريض فى بعض الاحيان كذبا صراحا ، والموفق من تركه والحالة هذه رغبة منه وله اطراحا ، فخيره ما كان حقا ، وهو مدح الله ورسوله ، وبذلك يحصل للعبد منتهى سوله » . على اننا ، برغم ذلك جميعه ، لا نذهب مع د . زكي مبارك الى القول بأن القصيدتين ليستا من المدائح النبوية فى شيء ، بل نقول بانهما من هذه المدائح « فى شيء » يتمثل فى اختبارهما « المحاولة » الاولى نستطيع بها ان نتاصل نشأة هذا الغرض فى تاريخ الشعر العربي .

ثم تطالعنا شخصية حسان بن ثابت ، شاعر النبي ، ويرى د. زكي مبارك ان شعر حسان فى مدح الرسول « على قوة روحه لا يكاد يضاف الى المدائح النبوية التى ندرسها فى هذا الكتاب ، فقد كان يمدح الرسول ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية » (2) والحقيقة ان شعر حسان فى مدح الرسول وفى الذياد عن دعوته الطيبة عامر بصدق الايمان بالدين الجديد ، نابض بعمق الحب لرسول هذا الدين ، فماذا ينقص هذا الشعر مما يجب توفره فى المديح النبوي حتى يوصف ، عنيت شعر حسان ، بانه « لا يكاد يضاف الى المدائح النبوية » !؟ .

وبقصيدة الفرزدق فى علي بن الحسين او فى ابنه زين العابدين ، والتى يقول فى اولها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطاته
والبيت يعرفه والحل والحرم

يبدا الجمع بين مدح الرسول عليه السلام ومدح ءال البيت ، ويقول د. زكي مبارك : « وقد يمكن القول بأن مدح الفرزدق للنبي واهله هو بداية الصدق فى المدائح النبوية » (3) ومعنى هذا تجريد مديح حسان من الصدق ، وليس يقصد به هنا الا صدق العاطفة والوجدان ، وهو ادعاء لا يقوم للبحث اطلاقا .

ومن اشهر الشعراء الذين مزجوا بين مدح النبي صلى الله عليه وسلم وبين مدح ءال بيته الاطهار: الكميت الاسدي ودعبل الخزاعي والشريف الرضى ومهيار الديلمي ، ومن راي د. زكي مبارك ان فن المديح النبوي « بلغ اشده عند هؤلاء الشعراء » والحقيقة ان شعر هؤلاء ليس من قبيل المديح النبوي الخالص ، ذلك ان ما كانوا يهدفون اليه بالدرجة الاولى فيما ينشئون من شعر انما هو ابداء التحسر واللوعة واظهار الحزن والالم لما آل اليه جهاد الامام علي من خاتمة مبكية ولما انتهت به حياة ابنه الحسين من مشاهد مفجعة ، كما كان اولئك الشعراء يقصدون، من خلال ما ينظمون من قريض ، الى تبيين حق بني هاشم فى الخلافة والحكم وتاييدهم من وجهة النظر السياسي ، وهكذا يمكن القول بانه ليس يعد من شعر اولئك الشعراء فى المديح النبوي غير الابيات التى عرضوا فيها لمدح الرسول عليه افضل الصلاة والسلام على اثر مدحهم للامام علي واولاده بما يربطهم من صلات القربى الدموية بنبي الاسلام .

واذا تركنا هؤلاء الشعراء الذين مزجوا فى شعرهم بين مدح النبي وبين مدح آل بيته ، كان علينا ان ننتظر مجيء القرن السابع الهجري لنلتقي فيه بشاعر حمله حبه الشديد لرسول الله صلوات الله عليه ، على انشاء شعر ذاعت شهرته ، على توالي الاعصار، فى شرق البلاد الاسلامية وغربها ، اما الشاعر فهو محمد البوصيري (608 ـ 697 هـ) ، واما شعره فنعني به خاصة قصيدته « البردة » التى يقول فى اولها :

---

(2) نفس المصدر ، ص 29 .
(3) نفس المصدر ، ص 55 .

امن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدمي

وتعد هذه القصيدة من اجود الشعر فى المديح النبوي . وقد كلف بها من اتى بعد البوصيري من الشعراء ، فعارضها بعضهم ، وعمد البعض الاخر الى تضمينها او تشطيرها او تخميسها او تسبيعها او تعشيرها . واما القول بان البوصيري « لعله كان اول شاعر يدفعه صدق حبه الشديد للرسول الى مدائحه النبوية » كما يقول د. ما هو حسن فهمي فى كتابه : « شوقي ، شعره الاسلامي » فتاريخ هذا الفن الشعري لا يقره ، على ضوء ما اسلفنا الاشارة اليه وعلى ضوء ما سنشير اليه حين نلم بالخطوط العامة لهذا الفن فى الادبين : الاندلسي والمغربي .

واشتهر من بين الذين عارضوا بردة البوصيري فى القديم ، شاعر اندلسي ضرير هو ابن جابر الاندلسي (توفي 780 هـ) ، وقد ابتكر هذا الشاعر وهو يعارض البردة ، فن البديعيات ، وهو عبارة عن قصائد تنظم فى المديح النبوي ، يتعمد فيها ناظمها ان يضمن كل بيت فيه كلمة او اكثر ، تشير الى جزء من الاجزاء التى يتالف منها « البديع » .

وهكذا غرق فن المديح النبوي فى « لجج » من التكلف والتعمل ، والضعف والضحالة ، وكذلك كان شان الشعر العربي بعامة ، حتى اذا جاء محمود سامي البارودي (1838 — 1904 م) واعاد لهذا الشعر ديباجته وقوته واشراقته ، اقال فن المديح النبوي من عثرة « البديعيات » واذاعه فى الناس : جزيل العبارة ، متين السبك ، رائع المعنى ، ومن اشهر قصائد البارودي فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدته « كشف الغمة فى مدح سيد الامة » ، وقد استعرض فى ثناياها حياة الرسول الكريمة منذ المولد الى الوفاة . ثم جاء احمد شوقي فعارض البوصيري فى قصيدتيه « البردة » و « الهمزية » ، وتعتبر قصيدته « نهج البردة » التى مطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم
احل سفك دمي فى الاشهر الحرم

من الشعر الذى اذاعه الغناء فى العصر الحديث .

* * *

واذا تركنا الشرق ويممنا الوجه شطر الغرب العربي (الاندلس والمغرب) طالعنا رصيد ضخم وتراث عظيم خلفه لنا شعراء هذه المنطقة بما انشاوه فى مدح نبي الاسلام ، وقد يمكن تلمس طلائع هذا المدح فى شعر ابن هانيء وابن شهيد وابن دراج ، فلقد كان الاول يمدح الفاطميين بانتسابهم الى الرسول ، كما كان الآخران يمدحان بني حمود اصحاب قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء بانتسابهم الى رسول الله ايضا ، ولما استولى المرابطون على مقاليد الامور فى الاندلس اصبحت روح التدين مما يدفع الى قرض الشعر (وغدا التوسل الى الرسول وارسال القصائد الى الروضة الشريفة موضوعا واسعا من موضوعات الشعر الاندلسي يميز العصور التالية) (4) .

واننا لنستطيع ان نعمد الى الموسوعتين القيمتين، عنيت « نفح » شهاب الدين المقري و « ازهاره » ، نقر افيهما مرويات المديح النبوي ، لنتمثل الاسهام اكثر الذي اسهم به شعراء الغرب العربي فى هذا الفن الشعري .. ففي مقدمة « نفح الطيب » يلحظ القاريء جانبا من ذلك الاسهام ، متمثلا فيما رواه المقري من المديح النبوي سواء كان من انشائه او انشاء غيره من الشعراء والوشاحين ، وقد اخذت مرويات المديح النبوي من المقدمة حيزا كبيرا ، وهو امر دعا المقري الى القول : (وربما من يقف على سرد هذه المدائح النبوية : الى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة والروية، فانشده فى الجواب قول بعض من ام نهج الصواب :

لاديمن مدح المصطفى
فعل من فى الله قوى طمعه
فعسى انعم فى الدنيا به
وعسى يحشر فى الله معه)

وفى الجزء الرابع من نفح الطيب نجد المقري بعد ان يروي تخميسا فى مدح رسول الله لابن حيان يغتنمها فرصة ، ليستطرد — على طريقة « الشيء بالشيء يذكر » — الى ايراد عدد كبير من المدائح النبوية . وفى « ازهار الرياض » مرويات اخرى فى المديح النبوي ، نقرا من بينها شعرا للسان الدين ابن الخطيب وقصائد لابن زمرك ، كان يلقيها بين يدي بني الاحمر فى الموالد النبوية ، وموشحات له ايضا .

---

(4) د. احسان عباس ، تاريخ الادب الاندلسي — عصر الطوائف والمرابطين — ص 169 دار الثقافة — بيروت .

وفي الادب المغربي ثروة عظيمة من هذا الفن الشعري ، ولعل قصيدة الشاعر ميمون الخطابي المعروف بابن خبازة (توفي عام 637 هـ) في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي يقول في اولها :

حقيق علينا ان نجيب المعاليا
لنفني في مدح الحبيب المعاليا
ونجمع اشتات الاعاريض خبة
ونحشد في ذات الاله القوافيا

نقول : لعل هذه القصيدة من اول الشعر ، الرصين ، المحكم ، الذي بدا به الشعراء المغاربة يعالجون هذا الموضوع ، ومما يلفت النظر في قصيدة ابن خبازة عدم تقيد الشاعر بالنسيب تمهيدا يتلخص منه الى المدح ، وهي ظاهرة تؤلف ما يشبه « التقليد الفني » في هذا الغرض ، ويمكن ملاحظته في جل قصائد المديح النبوي ، بما في ذلك ما سينتجه شعراء مغاربة جاءوا بعد ابن خبازة .

ويعد مالك بن المرحل (604 – 699 هـ) من اكثر الشعراء المغاربة عناية بالمدائح النبوية ، وله اشعار سماها « المعشرات النبوية » كما ان له قصائد في الفعال النبوية واخرى في المولديات ، ومن شعراء سبتة الذين عالجوا هذا الغرض الشاعر ابن رشيد السبتي (657 – 721) .

ولقد كان لانتشار سنة الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب ، وهي سنة كان ءال العزفي اصحاب سبتة اول من سنها للناس في هذه البلاد ، اثر بعيد في ازدهار فن المديح النبوي ، ذلك ان امراء البلاد وسلاطينها احتفوا بهذه السنة شديد الاحتفاء فاقبل عليهم الشعراء يلقون بين ايديهم ، في ليالي المولد ، مدائحهم النبوية ، وقد كانت هذه المدائح في اغلب الاحيان تجمع بين مدح النبي ومدح آل بيته المتمثلين في الامير او السلطان ، كما كانت تعالج ، الى ذلك ، عناصر اخرى ، كفكرة الجهاد مثلا ، على نحو ما نجد عند شعراء المنصور السعدي ، وتعتبر فترة حكم هذا السلطان (986 م – 1012 هـ) من اخصب الفترات في تاريخ فن المديح النبوي ، ولقد صورت لنا كتب التاريخ والادب (5) عناية المنصور الشديدة باحياء ذكرى المولد النبوي وكيف انعكست هذه العناية على شعر شعراء بلاطه من امثال : الشاطبي والشيظمي والفشتالي والهوزالي وغيرهم ، ومن اشهر قصائد هذه الفترة نونية عبد العزيز الفشتالي ، وهي من بين مدائحه النبوية كما يقول استاذنا كنون : (اعظمها سراوة واكثرها سيرورة) (6) ، وهي قصيدة طويلة تقع في احد عشر ومائة بيت ، وقد قرظها شهاب الدين المقري في « نفح الطيب » ، ومطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شاني
وهم حرموا من لذة الغمض اجفاني

وهم اخفروا في مهجتي ذمم الهوى
فلم يثنهم عن سفكها حبي الجاني

ولعل هذه القصيدة وغيرها من روائع المدائح النبوية التي انتجها شعراء مغاربة ، كانت هي التي دفعت بالمقري الى القول بان اهل المغرب « لهم في منازل الامداح النبوية مقيل وتعريس» (7) .

اما في عصر الاشراف العلويين فيمكن ان نتخذ شعر الوزير الكنسوسي (1211 – 1294 هـ) انموذجا لشعر المدائح النبوية في هذا العصر ، ومن اشهر مولديات هذا الشاعر لاميته التي يهنيء فيها السلطان مولاي عبد الرحمان ، وقد « ابان فيها عن قوة عارضته ، وعلو نفسه ، وحسن تصرفه » (8)، يقول في اولها :

عهدي بكم جيرة البطحاء موصول
يا ناسي العهد ان العهد مسئول

وبعد : فتلك هي الخطوط العامة لفن المديح النبوي في الشعر العربي ، مشرقا ومغربا ، اردناها مدخلا نخلص منه الى معالجة هذا الفن في شعرنا المعاصر ، وهو ما سيشكل موضوع الحلقة الثانية من هذا الحديث .

تطوان – حسن الوراكلي

---

(5) انظر : مناهل الصفا للفشتالي والنفح للمقري ونزهة الحادي للافراني والاستقصا للسلاوي
(6) كنون، عبد العزيز الفشتالي ص 52 – دار الكتاب اللبناني – بيروت .
(7) المقري ، نفح الطيب ج 4 – ص 443 .
(8) كنون ، اكنسوس ، ص 21 – دار الكتاب اللبناني – بيروت .



يقترب شهر صفر من نهايته فتترقب العجائز الاربعاء الاخير منه بشيء من التوجس، ولذلك يبدين رغبتهن لازواجهن الطاعنين في السن ، او لاولادهن الشبان بان يحضروا لهن الدقيق والزبد ، **لصنع** عشرات الارغفة وانضاجها على احسن حال ، ثم توزيعها ، ساخنة لذيذة ، صدقة على المساكين ، وعلى صبية الشوارع ، وعلى اطفال الكتاتيب ، اتقاء للنحسات نحس قال القدماء : انها تكون في الاربعاء الاخير من شهر صفر !

لكن سرعان ما تنسى اوهام ذلك اليوم ، اذ تمر ساعاته بسلام ، وتنقلب الحال الى انتظار حافل يملأ القلوب بالفرح والابتهاج ، احتفاء ببزوغ هلال ربيع الاول ، شهر المولد النبوي الكريم . وتصعد النساء ــ عجائز وكهلات وشابات ــ الى السطوح قبل غروب الشمس بوقت قصير ، وتتجه الانظار كلها نحو الغروب وتاخذ تحملق من خلال دفقات الاشعة، او من بين قطع السحاب عساها تكتشف حاجب الهلال الرقيق، وبمجرد ما يلوح ، تتردد اصداء الزغاريد من السطوح في انحاء المدينة القصية والدانية ، كما تهتز الارض من تحت الاقدام الرشيقة من جراء قصفات المدافع الرابضة هناك قرب الابراج ؛ وعندئذ تتمتم بعض **السيدات الوقورات** بعبارات عامرة بالمشاعر السعيدة :

(يابياضي ، يا حبيبي محمد ، يا بياضي بهذا الشهر ، يابياضي يا مخلوق نبينا يا بياضي ..)

اما الصبيان الذين يستجيبون قبل غيرهم لمناسبات الفرح والسرور فيضجون من حول امهاتهم ومن خلال الدروب بصيحات الغبطة والابتهاج .

ومنذ اليوم الاول من شهر ربيع الاول ياخذ القوم في الاستعداد للعيد :

الوجهاء يخرجون جلاليبهم البيضاء الثمينة وبرانسهم الصوفية الهفهافة من الصناديق ويتفحصون حالتها ، ويشترون امتارا من الثوب القطني الشفاف نوع (حياتي) بقصد اعداد اردية (فرجيات) تلبس فوق القفاطين ذات الالوان الزاهية التي تخطف الابصار ، وتخصيص ماتبقى من هذا الثوب للعمائم التي تلف حول طراطير (شواشي) حمراء قانية بكامل العناية ، وعلى يد معلم مختص في هذا الفن ، ولا ينسون في غمرة الاستعداد ان يوصوا المعلم (الخراز) بصنع احذية صفراء فاقعة ، غاية في اللطف والرشاقة ، داخلها مبطن بثوب (الملف) الثمين ، الجميل بالوانه الوردية او الكبريتية او الخرشوفية . وحين يشاهد الاطفال شيئا من هذا الاستعداد يطرحون هم ايضا طلباتهم الملحة في شراء اثواب جديدة واحذية جديدة وطرابيش جديدة كذلك .. لكن النساء العاقلات لا لا يتدخلن لتعقيد الموقف ببسط حاجاتهن ايضا ؛ انما هن على استعداد ليقمن الدنيا ويقعدنها من اجل بناتهن الصغيرات ... ذلك لان اليوم الذى يسبق يوم العيد هو يوم خالد في مدينة سلا ، انه يوم

(دورة الشموع) تخرج فيه كل فتاة ، دون المراهقة ، مرتدية افخم الثياب ، متقلدة اغلى الحلي ، وقد زينت زينة كاملة من مثل الزينة التي تكون عليها النساء في حفل من الحفلات .. ويستطيع العزاب ان يشبهوا البارزات بالمحتجبات عن الانظار في البيوت في هذه الفرصة النادرة ، فعلى هذا ، لابد وان تتحرك بعض المشاعر وتثور الاحلام وتتقوى العزائم الصالحة ...

وهذه العشر الاوائل فرصة عظيمة ايضا باخذ فيها (المادحون) استعدادهم لاحياء الليالي بالانشاد الجماعي والانشاد الفردي ، وبالترنم المتكرر ، العذب على الالسن، اللذيذ في الحناجر، الشارح للصدور ، الذي يؤتي فيه يوميا على المقاطع الاولى والاخيرة من قصيدة الهمزية ، وعلى مثل هذه المقاطع من قصيدة البردة الخالدة ، مع ما يتخلل ذلك من صنائع و (بريولات) وقصائد لرجال التصوف المشهورين المتولهين في محبة الله العظيم والرسول الكريم . وكم هو ممتع وشائق الى ابعد حد ان يجعل هؤلاء الرجال المادحون وهم في بيوتهم مشاركة رقيقة مشجعة من زوجاتهم ، ذوات الاصوات العامرة بالحنان والرقة ، ومن اطفالهم ذوي الاصوات الملائكية. ان الكثيرات من هؤلاء الزوجات يتسامى شعورهن ، وتتعلق ارواحهن بمحبة الرسول ، حبيب الله عليه السلام . وليس الحال هكذا في مدينة سلا فقط ، فالمغاربة جميعهم في الحواضر والبوادي والسهول والجبال والسواحل والصحاري كلهم يتعلقون اروحا بذكرى مولد الرسول الكريم ...

انما سلا تمتاز امتيازا بانها تاخذ استعداداتها ليوم العيد ، ولليوم الذي يسبق يوم العيد ، وهذا اليوم الحادي عشر من الشهر يكون يوم مهرجان كبير ، تشارك فيه جميع طبقات السكان ، من حيث تخرج جموع الرجال والشبان والاطفال ، كما تخرج جموع الفتيات الصغيرات مع جداتهن او خادماتهن ، وذلك من اجل التفرج على (دورة الشموع) .

والشموع عبارة عن هياكل خشبية مستطيلة ، مغلفة بالورق الابيض ، وفي كل ضلع من اضلاع الهياكل الثبت زهور من الشمع الملون ، الاحمر منه والاصفر والازرق والبنفسجي والاسود والمذهب ، وذلك باتباع الخطوط الهندسية التي تمثل دوائر ومثلثات واقواسا واشكالا بيضاوية ... شيء جذاب ياخذ بالانظار ويثير الاعجاب ! وبما ان هذه الشموع ثقيلة بعض الشيء فان رجال البحرية ورجال المدفعية القدماء ـ بملابسهم التقليدية الفخمة ـ هم الذين يتولون حمل الشموع ، ويسيرون بها ، تارة قائمة وتارة ممددة ، قاطعين المسافة بين حومة (البليدة) وزنقة الفشاشين فالحجامين في تثاقل كبير ، وسط جمهور مبتهج تبلغ هتافاته عنان السماء ، ممتزجة بانغام (الغيطات) الصداحة ، ودقات الطبول الرنانة ، وعند فسحة (السوق الكبير) تتقلب المسيرة الى حلقة كبيرة لرقصة الشموع ، فيشد الرجال الاشداء باسافل الشموع ويروحون يهزونها هزا يساير نقرات الطبول ، ونغمات المزامير ، التي لا تخرج قط عن (النوبات الموسيقية الاندلسية) . ويتابع الموكب الحافل الزاهر سيره نحو ضريح (سيدي عبد الله بن حسون) حيث تبقى الشموع معلقة بقية ايام السنة .. ويتفرق الجمع العظيم بعد ذلك في مختلف الشوارع والازقة في حالة من الانشراح لا توصف ويقبل البعض على شراء (حلوى العيد) التي تعد خاصة بمناسبته ، وهي متنوعة ولذيذة وسائغة في افواه الصغار والكبار على السواء .

وينقلب ظلام الليل الى انوار ساطعة ، فكل الجوامع ، وكل الاضرحة ، وكل الصوامع مزينة بالمصابيح الزاهرة والملونة، وفي كل الدروب يفوح دخان المحروقات العطرية ، ويزيد في اناقة المحفل وجماله ـ بحق ـ خروج الاوانس المليحات الرشيقات ، رفقة امهاتهن المتيقظات ، وذلك لزيارة الاضرحة والتبرك ببركات دفنائها ، عليهم الرضوان، ووضع النذور في الصناديق من اجل اغراض في اعماق الصدور لا يعلمها الا الله .. وفي مثل هذا الجو السعيد تعيش مدينة سلا ليلتها السنوية الفريدة بين ليالي السنة ، انها ليلة الابتهاج ، وليلة الانس الشامل، وليلة الفرح بذكرى مولد الرسول الكريم ، وهي اعز الذكريات واغلاها على كل النفوس ...

كل هذا اراده الفرنسيون ان يستمر ، انهم لا يريدون ان تقضي المدينة ليلتها ـ بعد حوادث غشت ـ في حداد وياس وقنوط ، يجب ان يفرح الناس بذكرى مولد الرسول ، ويخرج الشبان والفتيات ، ويجب ان تباع الحلوى ، ويطلق البخور ويفوح العطر ، وتضاء الجوامع والاضرحة والصوامع ... لابد وبالتاكيد ان تمر الشموع عبر الازقة والشوارع ، ، ومهما كلف ذلك من جهد واتعاب ونفقات ..

هذه هي ارادة الحاكم الفرنسي للمدينة ، وهي ارادة مستمدة من ارادة الحكام الاعليين في الاقامة العامة، وارادة خبراء الشؤون الاهلية المغربية الخبراء بالنفسية الخاصة بأهل الحواضر ... المهم ان تنسى حادثة 20 غشت ، وترجع الاحوال الى مجراها الطبيعي ، فليحتفل المسلمون بعيد نبيهم احتفالا عما جرت به العادة ، وليكن ذلك بكيفية تلقائية ، والا ارغموا على الاحتفال ارغاما !

واستدعي الفنان المختص بزخرفة الشموع ، واصدرت اليه اوامر صارمة بان يقوم بزخرفة الشموع كما جرت به العادة ، وخصص للعملية الاموال اللازمة ... واستدعي (الشرفاء الحسنيون) واستقبلوا باحتفاء وطلب منهم ان يحتفلوا بمولد الرسول الكريم، وان يضمنوا لموكب الشموع الاحتفال الكبير وان يسيروا في المقدمة ، ليدخل السرور على القلوب بذلك ، خصوصا وانهم يتمتعون بالتوقير والاحترام عند كافة السكان ، وعلت شفاههم سخرية من الحاكم الفرنسي الذي لا توجد له علاقة بأمور الاسلام والمسلمين ومع ذلك يحض على الاحتفال بمولد النبي محمد عليه السلام ! ان الدسيسة واضحة فلا يمكن ان تخفى عليهم ، وحين نظر شيوخهم في عيون الشبان من حولهم فهموا كل شيء ، ثم انسحبوا بكياسة . واستدعي قوم آخرون هم بمثابة مستشارين، ولكنهم مستشارون دون ان يؤخذ برايهم فهم اقرب الى الجبن والمداراة منهم الى الشجاعة وثبات القلوب ، ولم يخف عنهم الحاكم الفرنسي المقصود من اجتماعه بهم ، ولكن لم يعرف اي شيطان انطق احدهم :

ومن يضمن لك حضور السكان بمختلف طبقاتهم ؟ من يضمن لك مشاركة الشبان والفتيات ؟

قال الحاكم الفرنسي متاكدا مما يقول :

ــ سوف يحضر العسكريون الذين هم تحت امرتنا في البسة مدنية ، وسيكلفون باحضار نسائهم واطفالهم ، وسينادي المنادون في الاحياء الشعبية بالرباط وسلا ليعبئوا الجماهير للحضور في مهرجان (دورة الشموع) واذا لم يرد السلويون من ابناء بلدتكم ان يحضروا فهذا لا يهم ، فان واجبنا نحن الفرنسيين ان نضمن احتفال جميع المسلمين بعيدهم!

وسكت الحاضرون الا واحدا غمغم بصوت لا يكاد يسمع :

ــ ما اظن يا سعادة الحاكم ، ان الناس هنا وهناك متعصبون ولا يريدون ان يقيموا المهرجانات العادية ، يقولون انهم سيقتصرون على الحفلات الدينية داخل المساجد ، اما ما عدا ذلك فسيمر في جو من الحزن والاستياء .. انما نحن من جهتنا سنحضر المهرجان ، وسنلبس البيض من الثياب ، وسنلبس اطفالنا ما يليق بالمناسبة ، كما سترسل خادماتنا صحبة بناتنا في كامل زينتهن ، فنحن على هذا مستعدون كامل الاستعداد .

هنا ابتسم الحاكم الفرنسي ، ثم عاد فعبس . لقد ابتسم لما قيل عن حسن استعداد الحاضرين للمشاركة ، ولكنه عبس لما تذكر ما قيل له ان هناك اناسا متعصبين ، ولا يريدون ان يقيموا الافراح . ولذلك علق :

ــ قلت لكم لابد من الاحتفال بالعيد ، ولابد من مرور موكب الشموع . ان ذهب السلطان محمد بن يوسف فهنا سلطان مومن سيحتفل بالعيد ، فمن الواجب ان يحتفل الشعب معه ، والا كان ذلك عصيانا لجلالته ، ومن الواجب علينا حينئذ ان نحمي جلالته من العصيان ، نعم ذلك من واجبنا ، ان الجنود سيكونون قريبين من المدينة وعلى اتم استعداد ، والويل لمن تعرض لاحد بسوء . اعرف ان الشبان متنطعون ، لقد لمست ذلك في وجوه (الشرفاء الحسونيين) الشبان ، ولكن هم ايضا ساعرف كيف أؤدبهم ، اقول لكم ، ان سعادة حاكم الناحية ، وسعادة المقيم العام ، وكل المسؤولين الكبار .. كلهم يرغبون في الاحتفال بالعيد كما جرت العادة ، ووفق التقاليد المرعية . المال موجود ، اؤكد ان المال موجود، وتحت يد كل من يطلبه وله رغبة في الاحتفال معنا بالعيد وبـ (دورة الشموع) ...

وهنا التفت احد الحاضرين وهمس في اذن جاره :

ــ حتى الفقراء اصبحوا ينفرون من تبرعات ، ان الدعاية المسمومة اخذت تنتشر .

ولاحظ الحاكم ذلك الهمس فعقب :

ــ حتى انتم لكم حظكم من الاعانة بمناسبة العيد ، فما عليكم الا ان تحتفلوا انتم وعائلاتكم صغارا وكبارا .. هيه ، انت يا سيد سلام :

... هل ما زال ولدك وطنيا ، يجب عليه ان يعيد مع المسلمين ، وان يشارك في دورة الشموع ،

واذا لم يفعل فادخله السجن ، وادخلك انت ايضا اذا اقتضى الحال ذلك ...!

ـ الله يهديه ، الله يهديه يا سعادة الحاكم !

وخيم الصمت على الحاضرين . وعندئذ قام هاجس في نفس الحاكم : ان الكلمات التي قالها الحاضرون المتحفظون المتخوفون ظهر منها انها تخفي وراءها شكوكا في ان تكون هناك مقاطعة ، او هيجان او ... مما يجعل سلطة الحاكم وسمعته مهددتين ، ولكن عاد فاطمأن للخاطر الذي ذكره بوجود قوة عسكرية تحت امرته ، على اتم استعداد للتدخل ، وماذا باستطاعة (الضاربين بالاحجار والطوب) ان يفعلوا ؟؟! لا شيء ، لا شيء !

ومع ذلك فكلما تقارب يوم (دورة الشموع) الا وازداد اضطراب الحاكم ، وراح يسال من يثق فيهم ، ومن لا يثق ايضا ، عن الاحوال داخل المدينة .. وقد اعطوه اخبارا طيبة ازالت عبئا ثقيلا عن صدره ، وخففت شيئا غير قليل من همومه ، فالشموع مهياة ومزخرفة على احسن حال ، والطرقات التي سيمر منها الموكب كلها نظيفة ومجيرة الجدران ، والعديد من المصورين والصحفيين والمصورين السينمائيين اخذوا يتجولون في المدينة ، بين الازقة والدروب التي سيمر منها الموكب ، متخيرين المواقع الصالحة لاخذ لقطاتهم التاريخية ، الشاهدة برجوع المياه الى مجاريها في المغرب .. هكذا احس الحاكم العبقري بالاطمئنان والثقة بالنفس ، فاخرج بطائق الاستدعاء الفاخرة ، واجلس كاتبته الخاصة بالقرب منه وراح يملي لها اسماء رجال السلطة البارزين ، من مغاربة وفرنسيين ، واسماء رجال الهيئة الديبلوماسية الاجانب ، وكبار الضباط في القيادة العسكرية ، ولو سمح له مراسيم البروتوكول لاستدعى المقيم العام الجنرال كيوم نفسه ، ليرى في تلك الامسية المشهودة بعينيه الاثنتين ما يشرح صدره ويعزز موقفه .. والى هذا الحد تمنى هو ايضا من يهمس له بعبارات التقدير والاعجاب لنفوذه واعتبار مقامه ، ولكن حتى الكاتبة الحسناء اكتفت في نهاية الجلسة بالعبارة التقليدية (طيب سيدي) !

مرحى ، هذه هي المدينة العتيقة ، المتواضعة لكن في عزة وشموخ ، التي طالما تهيبها الحكام ، وحسبوا لتسيرها مائة حساب ، ترجع بعد تنطع الى طريق الصواب ، وسلوك سبيل الحكمة والرضى بما قدر الله ، وتاخذ في الاستعداد للعيد ، واليوم المشهود الذي يسبق يوم العيد ، سيخرج السكان ـ شيبا وشبانا ـ للمشاركة في افراح المولد ...

وارسل الحاكم اوامره الى كل المساعدين ، لابراز المدينة في حلة زاهية ، بتعليق حاملات الرايات الثلاث ، المغربية في الوسط تحيط بها رايتان فرنسيتان ، كما امرهم أن يضعوا على رأس الدروب اصصا خشبية كبيرة غرست فيها فسائل النخيل ، وان يمدوا الاسلاك الكهربائية في عدة اماكن من المدينة ، اظهارا لمعالم الزينة كاملة ، وابرازا لآثار الاذواق السليمة .

لكن الرجل الحذر جدا، ياتيه البلاء من حيث يظن انه آمن جدا ! وهكذا نسي الحاكم ان يضرب حراسة كافية على الشموع !

ففي غفلة من الجمع التامت طائفة من المواطنين الاحرار ، يتزعمهم تاجر وعامل وفقيه ! وقرروا بكل عزم وحزم الا يمر موكب الشموع ابدا ، ولو كلف ذلك ما كلف .. اعدوا حبالا للتسلق ، وادوات للحفر والكسر، وصفيحة من البنزين ، ثم راحوا يطبقون الاوامر التي اصدروها لبعضهم ، منفذينها بتنافس وحذق وحذر .

وذات ليلة ، وهي الليلة التي تسبق ليلة العيد بليلتين توزعوا فرادى عبر الازقة المؤدية الى حومة (البليدة) حيث تستقر الشموع في احد المنازل باحدى الحجرات ، مزخرفة رائعة ، في انتظار ان تحمل في احتفاء نادر الى الضريح ، كأن شيئا لم يحدث ، وان الدنيا بخير .. توزعوا هنا وهناك مترصدين وعلى اتم استعداد ، فظهور اي شخص مشكوك فيه كان يكفي لتعريضه للهلاك ، فهؤلاء الشبان والكهول انقلبوا الى اسود متحفزة قادرة على الفتك بمن يتعرض لها . الا ان سيادة الحاكم كان واثقا من تعقل السكان المسالمين ، فلم يخطر بباله ان يعبأ الحراس ، او يرسل الجواسيس !

وفي خفة وبسالة تسلق الابطال الجدران وساروا فوق السطوح ، حتى وصلوا الى الدار المقصودة فنزلوا في رحابها ، وفتحوا باب الحجرة على الشموع الراكدة في استسلام ، وتقدم احدهم فسكب عليها ما يكفي من البنزين الخالص ، واخذ يشعل النار في كل واحدة ، فثارت اللهيب الاحمر مريعا، ... ولما تحقق الابطال الثلاثة التاجر والعامل والفقيه من قضاء مهمتهم ، ومن ان الشموع الجميلة لم تعد صالحة لاي شيء ، انسحبوا من باب الدار

بلطف ، واغلقوه من ورائهم . ورجعوا الى قواعدهم سالميـــن .

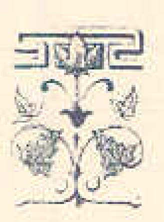
سارع رجال الاطفاء ورجال الشرطة الى عين المكان ووقفوا مبهوتين ... لقد اشتعلت النار بالقدر الذى يكفي لاحراق الشموع ثم انطفأت ، هي ايضا قامت بمهمتها ولم ترد بالبرءاء اضرارا . واستيقظ الحاكم النائم فى اطمئنان على هتاف التليفون يتذره بان الضربة القاصمة وجهت اليه . وان الوطنيين قد قاموا باحراق الشموع ..!

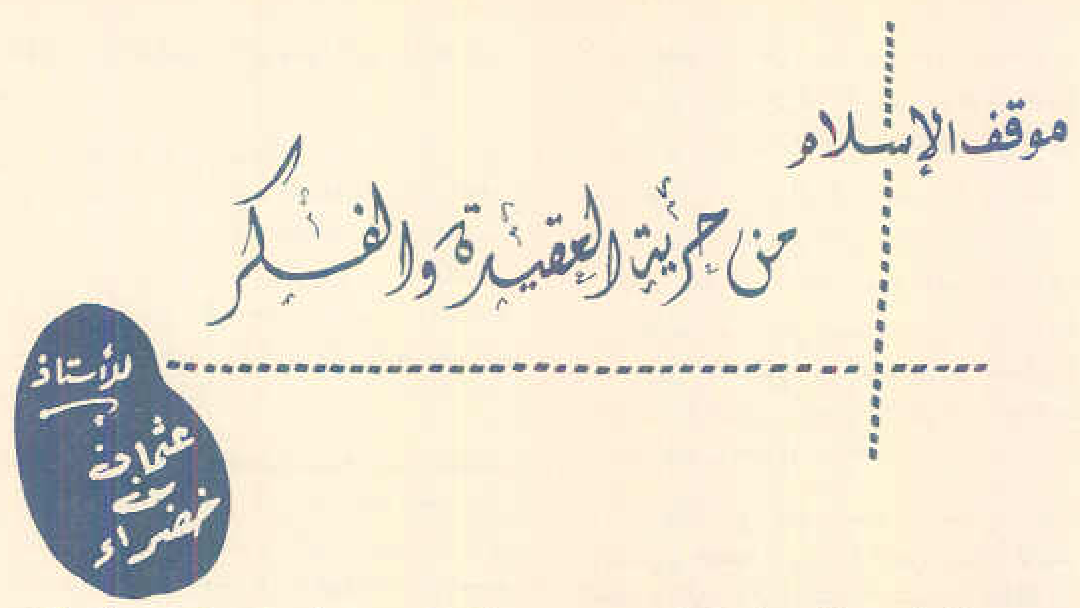
وتناقل الخبر رجال الديبلوماسية فيما بينهم تليفونيا ، ولا احد يدري بما كان فى عباراتهم من سخرية وتنكيت وابرقوا بالخبر الى المسؤولين فى بلدانهم ، بان تلك بادرة ايضا لها خطورتها وجمع الصحفيون اوراقهم ، ودسوا الاقلام فى جيوبهم ، واعاد المصورون آلاتهم الى علبها وصناديقها ، وولوا وجوههم جميعا نحو المطار او الميناء راجعين بأياد فارغة الى بلدانهم .

اما الحاكم الفرنسي الغارق فى خضم الازمة حتى اذنيه فقد ابى الا ان يستمر فى العمل لرفع كلمة الحكومة الفرنسية وممثليها ، فعاد واستدعى السيد المكلف بزخرفة الشموع وطلب منه ان يفصل المستحيل ، ويعد ما يمكن من الشموع لاقامة الاحتفال ولو رمزيا ، ولكن الزائر اصر على أن ذلك مستحيل، ولو تجند له عفاريت الجن والانس ، واصر الحاكم على ان ذلك ممكن ، اذ المال يخلق المستحيل ، خصوصا وان المدينة تتوفر على صناع ذوي خبرة وحذق ومهارة ... ومن يستطيع من الفنانين والصناع ان يتحدى غضبات المواطنين ويجابه النظرات الصارمة التي ترسلها عيون حمراء حانقة ؟ ...

وهكذا مر يوم (دورة الشموع) بلا شموع ، فالشموع حملها (زبال) الحي رمادا تافها فى عربته الحقيرة الى خارج المدينة ليرميها هناك ، من حيث تذروها الرياح وتطؤه الاقدام ان مرت من هناك اقدام ... وغدا الحاكم المنكوب يجرر كل صباح قدميه من شدة الصدمة وعنف الهزيمة ، متوقعا كلما دخل ان يجد على مكتبه مراسلة باعفائه من منصبه .

الرباط ـ محمد بن احمد اشماعو





اتجهت في هذا البحث الى دراسة مظهرين رئيسيين من مظاهر حرية العقيدة والفكر في الاسلام :
اولهما حرية المسلم في تفكيره الديني ، وفي طريقة فهمه للدين وشرائعه واسراره دون ان يحول بينه وبين تلك الحرية تسلط من فرد او جماعة او دولة، ودون ان يصيبه من وراء آرائه الدينية ضرر في نفسه او ماله او عمله . **والثاني** : حرية غير المسلم الذي يعيش في دار الاسلام ، في ان يحيا حياته الدينية الخاصة ويتعبد على طريقة دينه ، وينظم شؤون حياته وفقا لمقتضيات ذلك الدين ، دون ان يتعرض لمضايقة او اضطهاد او ان يضار في نفسه وماله او عمله ، من جراء مخالفته في الدين للمجتمع من حواليه او ان تتعرض اماكن عبادته للهدم او التعطيل او اي نوع آخر من انواع المصادرة .

ماذا كان موقف الدين الاسلامي من كل هذين النوعين من الحرية ؟ وما ورد في شأنهما من النصوص في الكتاب والسنة ؟ وماذا اثر عن الرسول من عمل تجاههما ؟ وماذا كان شأنهما في عصور التاريخ الاسلامي ؟ وهل حدث في اي مرحلة من مراحل ذلك التاريخ ان قصر الاسلام في امر هذين النوعين او وقف منهما او من احدهما موقف الاضطهاد والعداء ؟

كان الاسلام في جوهره ثورة على الشرك وعبادة الاصنام ودعوة الى فكرة الوحدانية او الايمان بالله وحده ، والى ان يحيا الفرد حياة كلها خير وصلاح واستقامة وتوفير للخير للفرد والجماعة ودفع للشر عنهما . .وقد كانت المرحلة « المكية » من حياة الاسلام مرحلة دعوة باللسان ومجاهدة في سبيل حرية العقيدة وصبر على مكاره الاذى والاضطهاد ، مما كان يصبه زعماء الارستقراطية المكية على رؤوس الرعيل الاول من المسلمين ..!

فلما كثر انصار الاسلام في المدينة هاجر الرسول واصحابه اليها . . وكان من اول الخطوات التي خطاها الرسول في تنظيم هذا المجتمع الجديد ان وضع وثيقة ينظم فيها العلاقات بين الطبقات الثلاث التي تؤلف هذا المجتمع وهي :

« المهاجرون » الوافدون من مكة المكرمة .
و « الانصار » من الاوس والخزرج .
و « اليهود » الذين كانوا يؤلفون جالية كبيرة في المدينة .

وفي هذه الوثيقة وادع «اليهود» وامنهم على دينهم واموالهم ، وشرط عليهم واشترط لهم . ولهذه الوثيقة اهميتها باعتبارها العمل السياسي الاول للجماعة الاسلامية الناشئة . وباعتبارها مظهرا من مظاهر الحرية الدينية التي اختطها الاسلام لنفسه في مجتمعه .. والتي التزمها في فتوحه ، واكدتها الكتب والعهود التي صدرت من خلفاء المسلمين وقوادهم وولاتهم .

ان الموقف الاساسي للاسلام من اهل الاديان الاخرى في محيطه مقرر واضح في آية صريحة من القرآن الكريم تقول : « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون »

وقد اتخذ الرسول هذه الآية شعارا لموقفه من اهل الكتاب ، فضمنها كتابه الى «النجاشي» عظيم

الحبشة ، والى « هرقل » عظيم الروم ، وغيرهما من رؤساء الامم المجاورة ...

هذه هي الدعوة التي امر رسول الاسلام ان يوجهها الى اهل الاديان الاخرى .. فان هم لم يستمعوا اليها فلهم شانهم وله شانه ، ولهم دينهم وله دينه .. على انه كانت هناك مودة ملموسة بين المسلمين وبين النصارى ، ظهرت آثارها في ايواء النجاشي لمهاجري المسلمين واكرامه اياهم .. وفي استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام في مسجده لوفد نصارى « نجران » والسماح لهم بان يؤدوا شعائر عبادتهم في جانب من المسجد ..

كما عبرت بعض آيات القرءان عن هذه المودة واسبابها فقالت : « ولتجدن اقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ، ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين ».

والذى يتتبع كتب الرسول الى رؤساء الامم من حوله يلمس فيها طابع الدعوة بالحسنى والنصح في رفق ..

فلما اتسعت رقعة الاسلام واخذت الجماعات والامم المجاورة تدخل تحت لوائه، اتخذ في معاملة الامم المفتوحة سياسة انسانية عالية قوامها التسامح واحترام الحريات :

1) من اسلم من الرعية ، فله ما للمسلمين الفاتحين وعليه ما عليهم .

2) ومن آثر ان يبقى على دينه ، وفروا له الحرية والامن في نفسه وماله واماكن عبادته ما دام يؤدي الضريبة التي فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذي تهيئه له ، والرعاية التي ترعى بها مصالحه .

ومن الامثلة الواضحة، هذا الكتاب الذي ارسله الخليفة عمر بن الخطاب لاهل « ايلياء » بعد فتح بيت المقدس في السنة الخامسة عشر للهجرة ، وفيه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اعطى به عبد الله عمر امير المومنين اهل ايلياء من الامان ، واعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمهم وبريئهم ، وسائر ملتهم ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم . وعلى اهل « ايلياء » ان يعطوا الجزية كما يعطيها اهل المدائن » .. الى ان يقول : « فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المومنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية »

وكذلك فعل المسلمون حين فتحوا مصر — فقد حسموا النزاع الذي كان قائما بين « مسيحيي مصر ومسيحيي بيزنطة » على بعض التصورات الدينية .. وهيأوا لكل فريق الحرية ان يدين بما يشاء — ووكلوا الى البطريرك القبطي سياسة الطائفة وتدبير امورها واصلاح ما هدم من كنائسها في ايام « المقوقس » .. ومن الكنائس القبطية المشهورة التي بنيت في العصر الاسلامي كنيسة « مارجرجس » بحلوان — وكنيسة ابي مينا —

ومما قرره الباحثون ان اكبر فرق بين الامبراطورية الاسلامية وبين اوربا التي كانت كلها على المسيحية — في العصور الوسطى — وجود عدد كبير من اهل الديانات الاخرى بين المسلمين واولئك هم « اهل الذمة » ، وان الحاجة الى المعيشة المشتركة ، وما ينبغي ان يكون فيها من وفاق ، اوجدت عند اهل الامر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في اوربا في العصور الوسطى — ومن مظهر هذا التسامح نشأ علم « مقارنة الاديان » اي دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم .

ولم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق ، دون اهل الذمة ، اي باب من ابواب الاعمال .. وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الارباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا واصحاب ضياع واطباء ، وكان اكثر الكتاب والاطباء نصارى ، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة — وكان رؤساء اليهود جهابذتهم — ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل في شعائر اهل الذمة الدينية .. بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم واعيادهم ويامر بصيانتهم .. اما في التقاضي فقد خلت الدولة الاسلامية بين اهل الملل الاخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم والتي كان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة . اما في شأن الجزية فيقول « آدم ميتز » في كتابه : « وكان اهل الذمة ، بحكم ما نالوه من تسامح المسلمين ودخولهم في ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية كل واحد منهم حسب قدرته . وكانت هذه

الجزية اشبه بضريبة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون واهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار » ... ولم يكن المسلمون مبدعين فى هذا ، فقد كان الروم يأخذون من اليهود والمجوس دينارا فى السنة ، وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم » .

فاذا انتقلنا من شرق البلاد الاسلامية الى غربها ، وجدنا منهج الحكم الاسلامي واحدا لا يتغير ، ووجدنا التسامح الديني اساسا من اسس ذلك الحكم .. وهذه حقيقة يقررها مؤلفون مسيحيون فيقول « ستانلي لين بول » مثلا فى كتابه (قصة العرب فى اسبانيا) « .. ثم اخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم افادوا من تغيير الحكم ، فقد كان للاسبانيين ان يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم ، وعين لهم حكام من انفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فى ما شجر بينهم من خلاف ، واصبح سكان المدن لا يكلفون الا الجزية والخراج ، ان كانت لهم ارض تزرع ، بعد أن كانوا فى عهد «القوط» يحملون وحدهم عبء الضرائب والاموال التى تنفق على الدولة – وقصرت الجزية على المخالفين فى الدين – اما ضريبة الارض فانها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعا .. اما التسامح الديني فلم يدع للاسبانيين سببا للشكوى ، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاؤون ، من غير ان يضطهدوهم او يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة ، كما يفعل القوط باليهود وكان من اثر هذه المعاملة وذلك التسامح ان رضي المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا بصراحة انهم يؤثرون حكم العرب على حكم القوط ... وقد جعل المستشرق الانجليزي « سير توماس ارنولد » فكرة تسامح الاسلام مع رعاياه غير المسلمين الفكرة الرئيسية فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » واورد فى شأنها كثيرا من النصوص والشواهد التاريخية ، وتتبع مظاهرها فى اقليم فارس وولايات بيزنطة ، واشار بصيغة التشكيك الى الروايات القليلة التى تناقضها ... ويعلق المستشرق « ارنولد » على امثال هذه الروايات وعلى الطريقة التى تحول بها السواد الاعظم من المسيحيين فى بلاد العرب الشمالية الى الاسلام فيقول :

ولولا ان المسلمين حاولوا ادخالهم بالقوة عندما انضووا بادىء ذي بدء تحت لواء الحكم الاسلامي ، لما كان من الممكن ان يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين » ويبرز « ارنولد » فى كتابه ظاهرة الخلافات المسيحية التى كانت متفشية قبل الاسلام بين النسطوريين واليعقوبيين والاضطهاد الذى كانت تصبه كل فرقة على الاخرى.. ويذهب الى أن هذه الخلافات كانت عاملا من العوامل التى مكنت الاسلام وسهلت تحول الكتابيين اليه .

فاذا ما خطونا خطوة اخرى مع الزمن الى العصور الحديثة ، ونظرنا الى امة اسلامية ، كالأمة المصرية مثلا ، ولكن قبل عشر سنوات ، وجدنا الاقليات من اهل الاديان الاخرى فيها اسعد الناس حالا يحيون حياتهم الدينية فى امن وحرية ، ويقيمون كنائسهم ومعابدهم الى جانب مساجد المسلمين ، ويتشاركون مع المسلمين فى اعيادهم كما يشاركهم المسلمون فى اعيادهم ويكافحون واياهم صفا واحدا فى سبيل البلد .

وقد حدثنا التاريخ عن شؤون كانت تحدث بين الحين والآخر فتعكر صفو هذه الحرية الدينية ، كان يشغب العامة فى ايام فتنة واضطراب فيقتلوا بعض اهل الكتاب او يهدموا بيعة او صومعة ، او ان يثور اناس من الشعب غضبا من ازدياد نفوذ وزير نصراني او يهودي ، او ان يعطل وال من الولاة مصالح اهل الكتاب .. هذه الحوادث وامثالها تقع احيانا فى اعقاب الحروب ، وتنتج احيانا اخرى عن فساد الاحوال الاجتماعية والسياسية .. وربما جاءت احيانا نتيجة لموجة من موجات التعصب الذى يولده الجهل وقلة المعرفة او جمودها ، وهي الوان من النقص ليست وقفا على اهل دين دون آخر .. ومن الانصاف الا تلصق هذه المظاهر من النقص بالاديان ما دامت نصوصها وتعاليمها تحض على النقيض من هذه المظاهر ، وما دام التاريخ قد سجل للاديان طابعها المستمر على الاديان من الحرية والتسامح .

لقد فتح الاسلام باب الحرية الفكرية فى فهم الدين والاجتهاد فيه على مصراعيه ، فعرف المجتمع الاسلامي منذ عهده الاول الخلاف فى فهم نصوص القرءان ونصوص الحديث واستنباط الاحكام فتعددت مدارس تفسير القرءان ، واختلفت مذاهب علماء الكلام وكثر الجدل بين الفرق ... وقد اخذ الخلاف احيانا على بعض الشؤون التى تتصل بالدين، مظاهر عنيفة كالتى كانت بين المسلمين فى موضوع الخلافة بعد مقتل « عثمان » مما ادى الى ظهور احزاب تتصارع ، ويتهم بعضها بعضا بالكفر والمروق

من الايمان ، ويستعين بعضها بالوان العلم ، وبما يحسنه من الثقافة الاجنبية على نصرة رايه والتمكين لمذهبه .. ويكثر الاخذ والرد حول المتشابه من آيات القرءان بعد ان كان المسلمون الاولون يقفون من تلك النصوص موقف التسليم دون كثير مناقشة او تأويل .. ثم يظهر الفلاسفة فى الميدان ويواجهون مسائل الدين فى طريقة تختلف عن طريقة المتكلمين ، وينشب بين هؤلاء واولئك جدل يبلغ ذروة تطوره على يد ابن رشد والغزالي .

وقد لعب المعتزلة فى تطور علم الجدل فى الاسلام دورا كبيرا والتحموا مع اهل السنة فى كثير من المعارك، كان اشدها مسالة كلام الله وخلق القرءان ، ووصلت هذه الازمة نهايتها فى اوائل القرن الثالث الهجري، وكان ممن اضطهدوا فيها الامام «احمد بن حنبل» الذى اصر على معارضة راي المعتزلة فى هذه المسالة رغم مناصرة السلطان لهم ، فضرب وحبس واصابه من ذلك اذى كثير .

هذا – اذن – لون من الوان التدخل فى الحرية الفكرية الدينية ، نشا من الخلاف على مسائل علمية تتصل بالدين ، ومال السلطان فيه مع احد الجانبين .

وربما اخذ التدخل لونا آخر كالذى اصاب « الحلاج » الصوفي سنة 922 م من القتل حين خيف على عقيدة العامة أن تزوغ بسبب عباراته الصوفية الرمزية التى كان يلهج بها .. وان رجح بعض الباحثين ان السياسة كان لها دخل فى ذلك القتل .. ومما يعد تدخلا فى الحرية الدينية ما يحدث من بعض العلماء او جمهور الناس من اتهام مفكر او باحث بالزندقة او الكفر لسوء فهمه فى بعض المسائل الدينية ، او لخروجه على المالوف المتوارث .. واكثر ما كان هذا يحدث فى عصور الجمود والتاخر ، حين فقد المجتمع الاسلامي الاصالة الفكرية ، وخيف على العقيدة حتى من بعض فروع العلم كالمنطق مثلا .. وقد استمرت هذه الظاهرة الى اوائل النهضة الاسلامية الحديثة فاتهم كثير من زعماء الاصلاح بزيغ العقيدة ، وحوربت بعض الاصلاحات الاجتماعية بدعوى مخالفتها للدين .

ومن المشاهد ان الرقي الاجتماعي والفكري يجلب معه توسعا فى فهم الحرية الدينية واقلالا فى اتهام الباحثين فى عقائدهم بسبب ما يصدرونه من فتاوى وآراء .

هذه اظهر الجوانب التى قد يبدو ان الحرية الدينية فيها عند المسلمين قد صادفت عنتا وتدخلا غير ان الباحث المنصف فى الحياة الفردية والاجتماعية عند المسلمين وفى تراثهم الفكري الذى خلفوه فى ميادين التفسير والفقه والاصول والكلام والفلسفة والتصوف ، لا يستطيع الا ان يحكم بأن الحرية الدينية جزء اساسي من نظام الاسلام .. فالفرد حر فى ان يحيا حياته الدينية على الطريقة التى يختارها لنفسه وفي أن يفهم الدين بما تؤهله له مواهبه وقدرته الفكرية .. وكل من المشرع والفقيه والفيلسوف والمتصوف حر فى ان يفسر ظواهر الدين ونصوصه من زوايا تخصصه .. وقد اتسع صدر الاسلام للمحافظة كما اتسع للتجديد ، وقبل اهل «السنة» كما قبل «المعتزلة» وافسح مكانا «لاهل النقل » كما افسح مكانا « لاهل العقل » واظل اهل « الشريعة » كما اظل اهل « الحقيقة » وشمل بعنايته الثقافة المحلية والثقافة الاجنبية .. وانتفع بثمر الفلسفة المجردة كما انتفع بثمار العلم التجريبي .. وليس فى الاسلام قضية بين الدين والعلم تستعصي على التفاهم والتقابل ، وقد عنى فى كتابه السماوي بالحض على الابصار فى النفس والنظر فى ملكوت السماوات والارض .. وقد وجد مفكروه فى معارف الامم مجالا خصبا لرياضة عقولهم، فثقفوا هذا التراث، وتمثلوه ثم نقلوه الى اوربا بعد ان تركوا عليه طابعهم الفكري والروحي .

هذا الموقف الاسلامي الانساني الذى وقفه الاسلام من حرية العقيدة والفكر ، انما هو ركن من اركان دستوره الذى قرر حقوق الانسان منذ القرن السابع الميلادي ، وجعلها اصلا من اصول عقيدة خالدة ورسالة شاملة .. فاذا ادركها المسلمون ادراكا واعيا ، استطاعوا ان يعيدوا الى انفسهم الثقة وان يقوموا بنصيب فعال فى توجيه البشرية الى الخير والسلام .

سلا : عثمان بن خضراء



الذين يذكرون الله قياما وقعودا ...

صلاة فى مسجد بهاء الدين (مدينة كاغان ، مقاطعة بخارى ، أوزبكستان)



للأستاذ عيسى فتوح

لابد أن تنظر الى السيرة من خلال الاطار التاريخي الذي لا يمكن معه دراسة السيرة الا على اسس واضحة سليمة بحيث تكون السيرة علما وفنا في الوقت نفسه ، وهذا اول ما يميز السيرة الفنية والادبية عن طبيعة العمل التاريخي العلمي .

ان اهم شيء في كتابة السيرة الفنية ــ سواء كانت كتابتك لسيرة شخص غيرك ام كتابتك لسيرتك الخاصة ــ هو التحسس العميق لمعنى التاريخ . فالامة التي تحرص على آثار رجالها وعظمائها ، وتسجل اقوالهم وافعالهم وتصرفاتهم ، حتى التافه منها ، امة شديدة الاحساس بالمعنى التاريخي الذي يمكنها من ان تتذوق السير والتراجم ، وان تخرجها اخراجا حيا مشوقا وجذابا .

والسيرة، باعتمادها على التاريخ واستفادتها من وقائعه واقواله ، لم تكن دخيلة عليه لانها في واقع امرها نشأت في احضانه . ولذا ففي كل من السيرة والتاريخ ضرب من الايمان بالانسان عندما تكون النظرة اليه من خلال الاطار الانساني الشامل ... ان السيرة التي تصور حياة الفرد ، سواء كان عبقريا فذا ام عاديا بسيطا كانت وما تزال أهم جانب من جوانب العمل التاريخي، الذي لا يكون اصداء لاحداث بقدر ما يكون اعماقا لروح انسانية متماثلة على مر الدهور .

اما التاريخ فهو علم المجتمعات الانسانية كما يقول « فوستل دوكولانج » يدرس اعضاءها التي تمثل حياتها، من ناحية حقوقهم وعاداتهم، وتقاليدهم، ونظرتهم الى الحياة .. ولما كانت النظرة الى كل كائن من هذه الكائنات نظرة الى شيء حي كان على التاريخ ان يتناول من المجتمعات حياتها وتصرفاتها ثم نظرتها الى الحياة .

نعم ان التاريخ سيرة والسيرة تاريخ ، ومن هنا كان التاريخ سيرة للانسانية التي تجمعت فاصبحت فردا واحدا والغيت بينها الفوارق الزمنية والفكرية، وعادت النظرة الى السليم كالنظرة الى المريض ، والنظرة الى الفيلسوف كالنظرة الى الامي ، والنظرة الى الشرقي كالنظرة الى الغربي، والنظرة الى الجميل كالنظرة الى القبيح ، بحيث لا يرى في الانسانية الا شكل واحد ، وعندئذ ترتد جميع الملابسات المادية، والاقتصادية والسياسية ، ويفهم التاريخ على انه سلسلة متلاحقة لا تفصم بينها الا يد مجرمة اثيمة !

ومن هنا ايضا اصبح التاريخ علم الذكريات، وهو بهذا المقياس يفوح بعبق من الخلود .. اننا مدينون للتاريخ في كل ما سجلناه من فضل الافذاذ وعبقريات العباقرة الذين اسهموا في بناء حضارتنا الانسانية . ان التاريخ سيرة للانسانية وترجمة لها ، لانه يعيد على مسامعنا ذكريات الماضين وسيرهم ، ويخلدهم ويحول دون موتهم على مسرح الارض .

وللتاريخ وجهان : وجه تافه ووجه عظيم !

اما الوجه التافه البسيط فبساطته ناشئة عن عناصر كثيرة متشابكة ، لكنها تعود غالبا الى اصل ومنشا واحد ، ان التاريخ ليس اكثر من نور واحد مسلط على سائر الاجيال ، قديمها وحديثها ، وقد عبر عن هذا احسن تعبير الخطيب شيشرون فقال : « ان التاريخ ليس اكثر من نور للاجيال » لكن هذا النور لايسطع تحته كل شيء ، فقد تكون في الماضي السحيق معلومات تافهة مشوهة ، او يكون تناقض في الحكم على بعض الاشخاص ، او اشياء اخرى لم تكن مراقبتها كافية لان الفرد مهما عظم في نفسه ، لا يتسع تفكيره ليحكم حكما صادقا على كل جزئية في هذا الكون العريض ، وهكذا فالنقص والتشويه امران واضحان في التاريخ ومنهما ينعكس الوجه التافه .

اما الوجه العظيم الاصيل : فهو اننا نستعين على الحاضر بمساوىء الماضي الذى يصور صورة ذهبية مشرقة واخرى اشد بهجة من صورة الواقع المرير ، غير ان الواقع مهما يكن جميلا فلا يراه الناس الا في منتهى القبح لان الكائن البشري مفطور على البحث عن عالم افضل ، والا كانت الحياة الانسانية محاكاة وتقليدا ساذجين .. ان الحياة الانسانية ليست تقليدا في كل شيء ، بل ان الاصالة لتمد كل جيل بنفحات تنسخه هو نفسه مهما حاول تكذيب هذا الواقع ونسبته الى الدمامة .

ان ماضي الامة ومستقبلها لا يصوران تصويرا دقيقا خلال التاريخ الذى يصل الاحياء بالاموات ، والحاضر بالماضي . وقد لاحظ «لابلان» ذلك فقال : « ان احياء الماضي بالتاريخ انتزاع للافكار والاعمال والبطولات البشرية من يد الموت ، ومتى احييت اسهمت في بعض النشاط الانساني ، وخلقت الحياة خلقا جديدا ، ولذلك لا يستقل التاريخ عن الدراسات الادبية التي تعتمد على الخيال الخلاق. والحق ان التاريخ يستطيع ان يبدع اكثر حين يستمد مادته من الواقع اما اذا اعتمد على الاكاذيب والخيالات الوهمية فانه لا ينتج غير القصة .

يجب ان يفسح للسيرة الفنية مكانها الشامل في عالم الادب والا تداعى قسم كبير من ادبنا الذى ينبثق من الوهم والكذب والخيال والاسطورة .

في التاريخ علم وفن ، وكذلك السيرة التي مضت فانما نشات في احضان التاريخ ، وهي علم وفن ايضا ، علم لانها عرض صادق لاحداث الحياة ، وفن لانها تهتم بالاساليب والوسائل الخاصة للتعبير عن احداثها. بل هي من اشد الوسائل لزوما على الاديب. وقد لاحظ هذا شيشرون عندما قال: لا شيء يظهر فيه الاقناع بقدر ما يظهر في التاريخ ، ويقصد انه عندما يريد اقناع مجتمع لا يصل الى هذا الاقناع بالمنطق والعلم . بل فيما يوجه اليه من الحقائق الانسانية التي هي عبارة عن ذكريات مشتركة عرفتها وتواضعت عليها ، فاذا بالخطيب يثيره ويكرر ذكر احداث التاريخ .

والناس ازاء هذا يعتبرون بالتاريخ ويقولون : نحن امام فلسفة التاريخ لاحداثه ، ويقول آخر : ليس امام علم وفلسفة بل امام انفاس تحترق وقلوب تعج بالعواطف ، وبشر في سائر الاجيال ، مهما اختلفت اجسادهم فروحهم واحدة وفكرهم يرتد الى منبع فرد اصيل .

في احضان التاريخ اذن نشات السيرة ، فسجل بها الكتاب كل الاعمال الخالدة الخارقة او الاعمال الشاذة المنحرفة التي ابت أن تتكرر بسبب شذوذها وانحرافها ، وعرفنا سير البابليين والاشوريين والمصريين ليس من نحت النحاتين بل عن طريق كتاب السيرة القدماء ايضا امثال فلوطارخس وغيره .

ان النظرة للتاريخ لم تكن واحدة فقد تبلورت وتطورت خلال العصور ، وعندما بدات النظرة للتاريخ تكتسب صورتها الحية بدا الناس يتساءلون : هل يمكن ان تعد السيرة جزءا من التاريخ ؟ الا ان العلماء مهما اختلفوا فالموضوع واحد ، ولو تاملنا لراينا « توينبي » يفرق بين التاريخ والسيرة ، فيخرج من دائرة التاريخ كل ما يتصل بالسيرة الذاتية كاعترافات القديس اوغسطين وجان جاك روسو والملكة فيكتوريا .

اللاذقية ـ عيسى فتوح

دراسة في الاستراتيجية والسياسة الدولية

الموقع الاستراتيجي للعالم الاسلامي يكسب الحلفاء الحرب العالمية الثانية

للاستاذ عبد القادر القادري

الموقع الاستراتيجي للعالم الاسلامي :

من اهم المواقع الاستراتيجية التى لا غنى لاوربا وامريكا عنه فى الحرب ، وفى السلم وهو موقع يحسد عليه وقد ظهر ذلك جليا فى عصر التوسع الاستعماري وابان الحرب العالمية الثانية وتعتبره كل قوى العالم من اكثر المواقع اهمية من الناحية الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية .

ففى عصر التوسع الاستعماري انطلقت جحافل الاوربيين بعد فتحها بعض البلدان الاسلامية تستخدم هذه البلدان فى غزواتها فى ءاسيا وافريقيا والاقيانوس واندفعت بريطانيا العظمى تحقق سيادتها البحارية بوضع يدها على اعناق البحار باستيلائها على جبل طارق عام 1704 وعلى قنال السويس عام 1882 وعلى سنغفورة Singapour عام 1836 وعلى باب المندب ومضيق هومز .

وقد حاولت روسيا القيصرية طوال قرون الاستيلاء على مضيق الدردنيل بتركيا فلم تفلح رغم الحروب التى دارت بين الروس والاتراك . وفى ذلك قال المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه «الشيوعية اليوم وغدا» : « وقد تقرر بالتجربة المتطاولة ان « الموقع الجغرافي » يتحكم فى سياسة الدولة فتمضي فى وجهة واحدة وان تغيرت فيها النظم والحكومات ويسمون هذا الراي فى علم السياسة الحديث « الجيوبوليتيك » Géopolitique او السياسة الجغرافية ، ويصدق هذا الراي على وجهة السياسة الروسية من عهد قياصرة رومانوف فى روسيا الى عهد قياصرة الشيوعيين . فكل ما طمع فيه آل رومانوف من الفتوح او مناطق النفوذ فهو مطمع للساسة الشيوعيين على اختلاف التعلات السياسية بين اولئك وهؤلاء . فقد كان آل رومانوف يقولون انهم يريدون فتح الاستانة لاستعادة كنيسة « اياصوفيا » واقصاء ءال عثمان عن عاصمة الكنيسة الشرقية القديمة . فانقضى ءال عثمان وءال رومانوف، وقام بالامر فى الاستانة وموسكو اناس ينظرون الى الدين بغير نظرة القياصرة الروسيين والخلفاء العثمانيين . ولكن سادة الكرملين يطلبون الاستانة ويطلبون البوسفور والدردنيل كما كان يطلبها قياصرة الحرب وقيصر السلام . وهذا يدل على ان سياسة الامس وسياسة اليوم فى الدولة الروسية على اتفاق فى الوجهة العامة » .

وقد اكتسبت روسيا الشيوعية فى حوض البحر الابيض المتوسط سمعة وهيبة كبيرتين بعد ان سمحت لها تركيا طبقا لمعاهدة مونترو Montreux بعبور الاسطول الروسي مضيق الدردنيل قبيل حرب يونيو 1967 مما ادى الى قلب ميزان القوى فى هذا البحر .

وقد حاول كذلك الانجليز والفرنسيس ابان الحرب العالمية الاولى الاستيلاء على مضيق الدردنيل



فلم يفلحوا رغم المعارك الدموية التى دارت بينهم وبين الاتراك من عام 1915 الى عام 1916 .

هتلر وارض الاسلام :

يقول الاستاذ علال الفاسي فى محاضرة له عن فلسطين القاها بفاس منذ اربع سنوات بعنوان : « قضية فلسطين يجب ان تصبح معركة على الصعيد الاسلامي » .

« القنبلة الذرية اكتشفت واشياء اخرى اكتشفت ايضا واكثر من كل ذلك سيكتشف ولكن هذا لم يؤثر ولن يؤثر على حقيقة واقعة وهي : ان الستراتيجية من جهة الطريق والممرات لا تتبدل والقيمة التى كانت لافريقيا والصحراء العربية ما تزال واعظم دليل الحرب العالمية الثانية التى تزعمها هتلر وتغلب فيها اول الامر واصبح المسيطر على اوربا شرقا وغربا وكاد ان يستولي على روسيا . ومع ذلك لم يبق استيلاء هتلر طويلا وانهزم فى المراحل الاخرى من الحرب . لماذا ؟ لان الارض الفاصلة التى هي **ارض الاسلام** لم تكن فى متناول هتلر ولكنها كانت فى حكم اعدائه ولذلك كان يطلب تأييد العرب والمسلمين وكان كل همه ان يصل عن طريق افريقيا حتى يتمكن من سد الاعانة على امريكا ومع ان هذه البلاد كانت تحت سيطرة الاستعمار فقد استطاعت ان تقلق امن الدول المستعمرة » .

اغاثة روسيا عن طريق ارض الاسلام :

فى 22 يونيه 1941 بدا هتلر يغزو الاتحاد السوفياتي بثلاثة ملايين جندي تحت قيادة خيرة جنرالاته : فون بيك – فون ليب – فون راندستد وبينهم جنرال من غير طبقة الارستقراطيين وهو غوردبان .

وفي 16 نونبر اقترب الجنرال فون ليب من لنينغراد واستطاع الجنرال فون راتستد ان يحاصر في كييف الجنرال بودياني والمفوض السياسي الملحق بجيشه نيكيتا خروتشوف اما في الوسط فان الجنرال فون بيك يتقدم نحو موسكو . ولما سد هتلر اوربا في وجه روسيا طلبت هذه من انجلترا فتح واجهة ثانية للتخفيف من ثقل الجيوش الالمانية الجاثمة على صدر روسيا الاوربية ولايصال العتاد الحربي اليها فكانت هذه الواجهة هي ارض الاسلام في بلاد ايران حيث غزت هذه البلاد في 25 غشت 1941 الجيوش الروسية والانجليزية وارغمتا شاه ايران رضا بهلوي ابا الشاه الحالي على التنازل عن العرش الايراني .

دور ارض الاسلام في انتصار الروس على الالمان:

لما بقي لروسيا من الاراضي غير المحتلة الا بلدان ءاسيا الوسطى وما وراء القوقاز الاسلامية الداخلة في الاتحاد السوفياتي حيث احتلت الجيوش الالمانية اكرانيا وروسيا البيضاء وروسيا الكبيرة لم يجد المارشال ستالين بدا من نقل صناعات روسيا الاوربية الى البلدان الاسلامية في ءاسيا الوسطى وما وراء القوقاز . فبفضل سواعد عمال هذه البلدان استطاعت روسيا انتاج ءالاف الطائرات والدبابات في المصانع التي نقلت من موسكو ولنينغراد الى هناك والتي استطاع بها الاتحاد السوفياتي احراز النصر على المانيا النازية . وكان لجنود مسلمي الاتحاد السوفياتي دور عظيم في فك حصار الالمان لموسكو وتتبع فلول الجيوش الالمانية المتقهقرة حتى ابواب برلين عاصمة هتلر .

ارض الاسلام تكسب الحلفاء الحرب العالمية الثانية :

فكما ساعدت البلدان الاسلامية الداخلة في الاتحاد السوفياتي روسيا على احراز النصر على المانيا النازية فقد ساعدت افريقيا الشمالية والمشرق العربي والهند وايران الحلفاء على احراز النصر على المانيا النازية وايطاليا الفاشيستية حيث استغل الحلفاء الموقع الستراتيجي لهذه البلدان الاسلامية كما استغلوا ثرواتها النباتية والحيوانية والمعدنية وجندوا الآلاف المؤلفة من المسلمين ورموا بهم في المعارك الطاحنة التي دارت في افريقيا الشمالية وايطاليا وفرنسا والمانيا وقد اظهر هؤلاء الجنود المسلمون شجاعة عظيمة ادهشت الامريكان والطليان والالمان .

الحلفاء يعقدون مؤتمراتهم الحربية في ارض الاسلام :

على اثر نزول جيوش الحلفاء في المغرب في 8 نونبر 1942 عقدوا مؤتمر **الدار البيضاء** الذي ضم روزفيلت وتشرشل والجنرال دوكول والجنرال جيرو ثم عقدوا عام 1943 مؤتمر **طهران** ضم روزفيلت وتشرشل والمارشال ستالين .

ثم عقدوا عام 1944 مؤتمر **القاهرة** ضم روزفيلت وتشرشل والمارشال تشانكايتشيك الصيني

ثم عقدوا في 11 فبراير 1945 مؤتمر **يالطا** بجزيرة القرم

وبعد فهذا هو الموقع الاستراتيجي للعالم الاسلامي الذي استغل الحلفاء من انجليز وفرنسيس وروس وامريكان ارضه وناسه وثرواته الحيوانية والنباتية والمعدنية فكسبوا به الحرب العالمية الثانية عن طريق قصيرة ولولاه لطال امد تلك الحرب ولربما **مالت كفة النصر الى جانب محور برلين — روما —** طوكيو باستثناء اليابان الآسيوية التي كفت عن مواصلة القتال بعد القاء الامريكان قنبلتهم الذرية عليها، وكان من المستبعد ان يلقي الامريكان قنبلتهم الذرية على المانيا وايطاليا الاوربيتين ، حفظا للجنس الاوربي الذي انهكته الحروب فيما بينه طمعا في المستعمرات .

ومن المستبعد ايضا ان تقوم في المستقبل القريب حرب بين امريكا الراسمالية وروسيا الشيوعية حول الشرق الاوسط او الشرق الاقصى او شرق اوربا لان الصين وهي من الجنس الاصفر بالباب ، هذا الجنس الذي حذر كل من نابليون وغليوم الثاني الجنس الاوربي منه .

الرباط — عبد القادر القادري

فهرس العدد السابع

صفحة

